

ڤيكتور أوستروفسكي
الوجه الآخر للخداع
عميل
مخادع
يفضح
البرنامج
السري
للموساد
بيسان

الوجه الآخر للخداع

ڤكتور اوستروڤسكي

الوجه الآخر للخداع

ترجمة : زينة كفروني - محمد النصر



بيسان

* الوجه الآخر للخداع
* تأليف: فيكتور أوستروفسكي.
* ترجمة: زينة كِفروني ومحمد النصر.
* الطبعة الأولى: تشرين الثاني ١٩٩٥.

* الناشر: بيسان للنشر والتوزيع.
ص.ب ١٣/٥٢٦١ بيروت ـ لبنان.

مقدمة الكتاب

وضعت هذا الكتاب لاكشف الحقيقة عن رحلتي. ولا يخامرني شك في أن هناك من يفضّل أن تكون روايته للأحداث سجلاً، ويفعل كل ما في وسعه لخدمة هذا الغرض.

لكني بسبب شدة تعقيد الموضوع، ارتأيت أن صيغة «الكتاب» هي أكثر صيغ التوثيق ملاءمة لنقل الوقائع. كما قررت تقديم المادة في نسق الترتيب الزمني على قدر الإمكان.

ومع إنه ليس من المألوف لعملاء المخابرات الاحتفاظ بسجلات وملاحظات مكتوبة، لكني كنت قد احتفظت ببعض ذلك من أجل تنفيذ مهمات عملانية كنت قد كلفت بها. ومع إن تلك الملاحظات المدونة لم يكن الغرض هو الاحتفاظ بها أصلاً، فقد أدت خدمة مهمة كمصدر إضافي نافع أثناء تأليف الكتاب. وعلاوة على هذه الملاحظات المخطوطة، اعتمدت كثيراً على ذاكرتي لإعادة رسم الأحداث الموصوفة في الكتاب، وبذلت كل جهد مستطاع كي أكون دقيقاً على قدر الإمكان. وإذا أخذنا في الحسبان أن قدرتي على التذكر كانت من بين الأسباب التي جعلت الموساد يسعىٰ لتجنيدي أصلاً، فإني على ثقة بأن الكتاب يتسم بالدقة إلا في أصغر التفاصيل.

جميع الأسماء في الكتاب حقيقية، باستثناء اسماء دينا وراشيل والبرت وديفيد وسارة ورامي وادوارد وفضلال فهي اسماء مستعارة. أما الاسماء الأخرىٰ كأسماء العملاء العاملين الفعالين، فسجلتها مكتفياً بالاسم الأول للشخص فقط للحيلولة دون كشف أمرهم. أضف إلى ذلك أني زودت الموساد بنسخة من الكتاب قبيل نشره لكي أعطيهم المجال ليأخذوا الاحتياطات التي يرونها ضرورية. ذلك ان غرض الكتاب ليس الانتقام.

وإن معظم الأحداث الواردة في الكتاب غطتها وسائط الاعلام بكثافة، وهناك مدوّنات عنها متوفرة في الأرشيف الرسمي الإسرائيلي. والحقت بآخر الكتاب قائمة جزئية بمثل هذه المقالات لتمكين المهتمين بمتابعة البحث في الموضوع الذي يعنيهم.

وأُشير ختاماً إلى ان هذا الكتاب سجل وقائعي للأحداث كما حدثت معي.

فيكتور أوستروفسكي

تمهيد

هاجر جدي وجدتي لأبي من روسيا إلى كندا في مطلع هذا القرن، واستقرا مع مهاجرين آخرين في مقاطعة سسكتشوان، في بلدة واكو الصغيرة حيث أنشأ جدي أهارون أوستروفسكي تجارة ناجحة انتهت إلى خسارة مع «الكساد الكبير». ثم نقل أُسرته إلى أدمونتون في مقاطعة البرتا.

وفي نفس الوقت الذي وصل فيه آل أوستروفسكي إلى كندا، كانت أسرة مارغولين ـ استروحاييم وطفلهما «رفا» تهرب من المذابح الروسية وتشق طريقها إلى فلسطين، واستقرت في القدس ورزقت بطفلين آخرين هما ميرا ومازا.

وإن «سيد أوستروفسكي» خامس أولاد أهارون، خدم دورة كاملة كطيار في سرب القاذفات الكندي فوق أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب انضم إلى الجيش الناشىء في إسرائيل بعد إنشائها.

وهناك التقى ميرا مارغولين التي كانت لتوها قد أنهت خدمتها في الجيش البريطاني إذ قاتلت الألمان في شمال أفريقيا.

وأقام العروسان في أدمونتون (كندا) حيث رأيت النور في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٩. أما أُمي التي لم تكن ربة منزل نموذجية في أي مقياس، فقد عملت معلمة في المدرسة اليهودية في أدمونتون، وتركت مهمة تربيتي لجدتي من أبي بيسي اوستروفسكي.

وكنت محظوظاً بالمصير الذي اختاره لي جدي وجدتي. ذلك أن أُمي كانت من ذلك الطراز الذي يسمىٰ بالبوهيمي والمنفلت. فهي المرأة الخارجة من الهاغناه السرية (القوات اليهودية المسلحة قبل إنشاء إسرائيل) ومن الجيش

البريطاني، فكانت تحلم بأن تصبح ممثلة. لكن الأدوار المسرحية كانت قليلة ومتباعدة مما أصابها بالإحباط الشديد. أما والدي من جهة أُخرىٰ فكان على يقين من أنه سوف يحقق في أحد الأيام هدف عمره: الحلم الأميركي الامان المالي وحياة مطمئنة هادئة. لكن الطريق أمامه كان طويلاً ووعراً. هذه الفجوة الواسعة وغير القابلة للردم بين شخصية كل من أُمي وأبي أوصلتهما أخيراً إلى الإنفصال. وكنت حينئذ في الخامسة من عمري.

وأعادتني أُمي إلى إسرائيل، حيث اضطلع والداها حاييم واستر مارغولين بمهمة تنشئتي. ولا زلت اذكر بشغف ذلك البيت الصغير في شارع هايود والت بجوه الحميم الدافىء، والمكتظ بالكتب والمناقشات المديدة حول تحقيق الحلم الصهيوني وكيفية ترجمة الحلم في الحياة اليومية.

وبما أنني أظهرت ميلاً للفنون، قدمني جداي إلى رسام يدعىٰ جلعادي كان يقطن في الحي نفسه. فأعطاني علبة ألوان زيتية وبعض وقته وبعض التعليمات الأساسية في الرسم والتلوين. وكانت دروس جلعادي قواعد عدت إلى تطبيقها دائماً بعد ذلك حتى عندما نضجت هواية طفولتي لتصبح هوى جامحاً في منتصف العمر.

كانت سنواتي الأولىٰ هادئة. فأمي كانت تعاود الظهور بين وقت وآخر وكأنها زوبعة عاصفة، لتختفي مجدداً في فضاء المجهول بالسرعة نفسها. وفي إحدىٰ المرات التي حطت فيها في «مطار» الأسرة، اتخذت قراراً بأن من الخير لي أن أكون في مدرسة داخلية. وذهبت كل توسلات جدي وجدتي أدراج الرياح، وكان عليَّ أن أقضي عاماً في مكان كريه يدعى «هاداسيم» وهي مدرسة داخلية في وسط إسرائيل تمولها وتشرف عليها «هداساويزو» وهي منظمة يهودية نسائية في كندا. وكانت قناعتي أنه لو عرفت تلك المنظمة بنوعية المدرسة وصرامتها وأجوائها الاسبارطية وولعها بتشغيل الصغار، لاتخذت قراراً بإقفالها.

لكنهم لم يكونوا مطلعين جيداً على وضع المدرسة. وفي نهاية العام الدراسي أخذت المبادرة، وعدت إلى بيت جدي وجدتي أهل أُمي، وبعد وقت قصير تحسنت معنوياتي عندما انضممت إلى «أفواج غادنا للشبيبة»، وحصلت على المرتبة الثانية في مسابقة للرماية، كعضو في نادي «أبو كبير» للرماية الذي

كان رئيسه رائداً عجوزاً في الجيش اسمه دان ديفيد.

وخلال دراستي في المرحلة الثانوية التقيت بـ «بيللا» وكان حباً من النظرة الأولى، وقضينا كل دقيقة أمكننا توفيرها مع بعضنا وكنا نستمتع بمطالعة الكتب وبالمشاوير سيراً على الأقدام والحديث في السياسة، وبالأخص بوجودنا معاً. وعندما بلغنا الثامنة عشرة تقريباً تم تجنيدنا في الجيش الإسرائيلي، وعملت «بيللا» في وزارة الدفاع، أما أنا فكان نصيبي في الشرطة العسكرية.

وبعد التدريب الأساسي، انهيت دورة لضباط الصف، ثم دورة للضباط، ثم تخرجت باعتباري أصغر ضابط في تاريخ الجيش الإسرائيلي حتى ذلك الحين. وعدت وتخرجت من دورة ضباط الشرطة العسكرية ومن دورة القانون الخاص لهذه القوة. واتبعت ذلك بتدريب على فنون القنص والتدمير.

ولما أنهيت دراستي العسكرية، تزوجنا أنا وبيللا، ولم نكن قد بلغنا العشرين. وقيل لنا إننا ما زلنا صغيرين على الزواج، لكنني لم اعتبر اتحادنا برباط الزوجية عبئاً على الاطلاق، إذ كان زواجنا بناءً نُشَيِّدُهُ معاً. وبعد عام واحد رزقنا بابنتنا شارون، وكانت الأشياء تبدو مشرقة.

وبعد قضائي مدة الخدمة العسكرية وهي ثلاثة أعوام، غادرت الجيش برتبة ملازم وذهبنا لزيارة أهلي في ادمونتون، في كندا، وكانت العاقبة قضاء خمسة أعوام هناك. وولدت ابنتنا ليوراه في ادمونتون عندما كان عمر شارون أربع سنوات.

وعدنا إلى إسرائيل في ١٩٧٧. وفي اليوم التالي لوصولنا سجلت نفسي في سلاح البحرية وأُعْطيتُ رتبة كابتن. وبقيت في البحرية طوال الأعوام الخمسة التالية حتى ترقيت إلى رتبة «ليوتنانت كوماندر» وكنت خلال معظم هذه الفترة قائداً للدائرة المختصة بتنسيق واختبار أنظمة الأسلحة الجديدة قبل وضعها في ترسانة السلاح البحري. وخلال الفترة نفسها تخرجت من كلية الأركان والقيادة، التي أصبحت فيها محاضراً زائراً طوال ما تبقى من زمن خدمتي.

وكانت لنا ـ بيللا وأنا ـ أوقات رائعة في هذه المرحلة، وكانت تحيط بنا دائرة واسعة من الأصدقاء الذين كنا ننعم بصحبتهم في مشاوير عطلات نهاية

الأسبوع، والرحلات العائلية، والحفلات. ثم تلقيت أول اتصال من جماعة الأجهزة الأمنية. وكان تخميني ان الاتصال من الموساد أو من هذا القبيل. وخضعت لسلسلة طويلة من الاختبارات المضنية قبل اعطاء معلومات أخرىٰ عن نوع العمل المقبل. وفي نهاية المطاف علمت أنهم يقومون بإعدادي لوظيفة «مقاتل». بما كان يعني أنني سوف ابتعد عن زوجتي بيللا والطفلتين فترات طويلة. ورفضت، وبعد محاولات عديدة لإقناعي، كاد بعضها يلامس المضايقة، تقبلوا في النهاية رفضي.

وفي العام ١٩٨٢ تركت البحرية وأنشأت مجلة للفيديو كانت الأولىٰ من نوعها في إسرائيل. ومثل كثير من المشاريع «الأولى من نوعها» فشلت المجلة (وكان تورط إسرائيل حينئذ في الورطة اللبنانية عاملاً غير مشجع). وبعدئذ أنشأت تجارة صغيرة في الزجاج الملون (فشلت هي الأُخرىٰ بسرعة بسبب قلة الطلب). وكنت أتلقىٰ كذلك دروساً في برمجة الكومبيوتر لإيماني بأنها موجة المستقبل.

وفي تلك اللحظة عاود الموساد الاتصال. لكنهم أوضحوا هذه المرة أنه ليس في نيتهم جعلي أنفصل عن أُسرتي فترات طويلة. وأجريت لي سلسلة جديدة من الاختبارات دامت نحو عام كامل.

وبينما كنت أُتابع تجارتي في هرتسليا تقرب مني رجلان كنت قد تعرفت عليهما أثناء عملي السابق في مشروع مجلة الفيديو. وكانا المنتجين للعلب البلاستيكية التي تغلف بها أشرطة الفيديو عند بيعها، وكنت قد قدمت لهما بعض الأعمال في مجال التصوير. وكما تبين فإن أحدهما وهو اتسيك زاروغ كان وثيق العلاقات مع «العالم السفلي» الإسرائيلي، وكان قد تقرب مني بالنيابة عن بعض أصدقائه، طالباً مني المشاركة في عملية لتزييف عدد كبير من بطاقات الاعتماد ـ فيزا ـ ماستركارد، وما شاكل. وسلمني العديد من بطاقات الاعتماد المسروقة لكي أصنع مثلها.

واستدعيت صديقاً وهو محام في تل أبيب كان جندياً تحت أمرتي في الشرطة العسكرية، وطلبت منه الاتصال بالشرطة من أجلي. ولم أكن أُريد إنهاء هذه «العملية» بدون تأمين حماية قانونية ملائمة. ورتب المحامي لي اجتماعاً مع

ضابط شرطة اسمه ايتان غولان رئيس دائرة مكافحة الغش والاحتيال في تل أبيب. وأعطيته كَل المعلومات. وسألني ما إذا كنت مستعداً للعمل سراً مع الشرطة كمتطوع، ووافقت على أساس كتمان اسمي.

وبعد عدة أشهر ألقي القبض علِى كامل الشبكة وأودع أفرادها في السجون. وذكرت الصحف يومئذ أن الشرطة تلقت مساعدة من مصمم تصوير، لكنها لم تذكر اسمي. وبذلت الدائرة الأمنية في الموساد جهدها لإحباط مساعي الشرطة لجلبي إلى المحكمة للإدلاء بشهادتي. وأصبحت الآن في رعاية الموساد، عضواً في فريق النخبة، وحامياً للدولة. ولم تعد حياتي إلى سابق عهدها أبداً.

الفصل الأول

الموساد خطط للإيقاع بمنظمة «الخلايا الشيوعية المقاتلة» بهدف الانتقام

الخميس، ١٧ تموز ١٩٨٦ :

كانت الزنزانة الصغيرة حارة وعفنة. وفي زاوية معتمة قرب نافذة ذات قضبان حديدية، قعقعت مروحة عتيقة داكنة اللون لم تكد تحرك الهواء القذر. لقد أوقعوا بي.

قبل ثلاثة أيام كنت قد وصلت إلى القاهرة على متن رحلة لخطوط «اير لنغوس» من نيويورك. وبسرعة اقتادني في المطار رجلان ضخمان يرتديان ثياباً رمادية ذات أكمام قصيرة. وتحدث أحدهما الانكليزية فشرح لي أنه وزميله يأخذاني إلى مكان آمن. وكانا يمسكان بذراعي بشدة، وأخذاني إلى سيارة بيضاء صغيرة متوقفة خارج الأبواب الرئيسية.

«أهلاً في مصر» هذا ما قاله الرجل الذي يتحدث الانكليزية الذي كان يشاركني المقعد الخلفي في السيارة بينما كانت تقلع وتنطلق. وكان ذلك كل ما قاله حتى خروجنا من مجمع المطار. ثم سلمني عصبة للعينين طلب إلي وضعها على وجهي.

أُولئك الذين يقضون وقتاً في أعمال التجسس، يتوقعون دائماً مثل هذه الأشياء. وخلال نصف الساعة التالي كنت أجلس في الظلام. وافترضت أننا في طريقنا للقاء المخابرات المصرية، ومسؤولي الأمن، لأن الغرض الوحيد من رحلتي كان «بيع» جهازي السابق، الموساد، منظمة المخابرات الإسرائيلية الشهيرة.

ولم يكن أمراً يحدث كل يوم ظهور حالة ضابط في الموساد على أبواب

المخابرات المصرية، يبدي استعداداً للتعامل. وكنت قد توقعت أن يفرشوا لي السجاد الأحمر التقليدي، ولو نكاية. لكن الذي حدث غير ذلك. وحيث أن العصبة لم تغلق أذني، فقد كان في وسعي سماع ضجة مدينة شرق أوسطية كبيرة بكل وضوح. أصوات ضوضاء السيارات وزعيق الباعة كانت مألوفة لدي. وبعد قليل اختلطت الأصوات بروائح المواقد التي يحترق فيها فحم الحطب وروث الجمال، واستعدت في ذاكرتي أجواء يافا أو القدس الشرقية.

وبعد هنيهة هدأت الأصوات ولم يتبق غير الإحساس بالهواء اللافح المتدافع عبر نافذة السيارة المفتوحة وعند نقطة معينة اعتقدت بأنني سمعت أصوات دوران ماكينة ديزل وصرير جنازير الدبابات.

فقد قضيت وقتاً كافياً في الجيش لكي أعرف أننا دخلنا قاعدة عسكرية.

وعندما رفعوا العصبة أخيراً عن عيني، رأيت أننا أوقفنا السيارة في الباحة الداخلية لمجمع ذي طراز بريطاني.

وكانت الباحة الكبيرة المربعة محاطة ببناء متداع من خمسة طوابق.

واقتادوني عبر درج مظلم إلى الطابق الثالث. ورحب بنا حارسان بالزي العسكري يحملان رشاشين، واقتاداني عبر بهو معتم طويل إلى باب معدني أخضر. وتوقعت أخذي إلى مكتب ما، وبدلاً من ذلك وجدت نفسي في زنزانة صغيرة.

وأقفل رتاج الباب المعدني الثقيل ورائي، وسمعت صوت دوران المفتاح في القفل، ودعسات مرافقيَّ وهما يبتعدان.

وافترضت في البداية أن هذه غرفة حجز موقتة. لكن ثقتي تقوضت عندما نظرت حولي. وكان في هواء الغرفة نتن صادر عن بول قديم وبراز. أما النافذة التي كانت تطل على الفناء الداخلي للمبنىٰ، فكانت مؤمنة بقضبان معدنية ثقيلة. كما أن السرير الحديدي الكبير الذي شغل معظم مساحة المكان أوحىٰ بإقامة طويلة. وتسرب إلى قلبي الذعر، ففي تلك اللحظة أدركت أنني أسير، وأنه لا يوجد في العالم الخارجي من يعرف مكاني.

وسرت عبر فتحة غير مستوية موجودة في الجدار السميك نحو ما بدا

وكأنه قبو. ووجدت هناك حجيرة صغيرة للدش (حمام).

لكنها كانت موصدة بستارة بلاستيكية ملونة. وفي مواجهتها كانت الأرضية منحدرة وفي وسطها ثقب. . أي مرحاض بدائي.

وتراجعت حالما أدركت أن الثقب الذي كان مصدر الروائح النتنة، كان يعجُّ بالصراصير.

وبعد دقيقة سمعت المفتاح يدار بالقفل. وخطر لي أنهم قادمون لإخراجي والإعتذار مني. وقررت قبول اعتذارهم.

ودخل رجل عجوز يرتدي جلابية بيضاء، يحمل طبقاً من الفواكه، وإبريق ليموناضة، وكوباً واحداً، وابتسم ووضع الطبق على منضدة إلى جانب السرير، بينما كان حارس بالزي العسكري واقفاً على الباب. ثم دخل العجوز الحمام البدائي حيث علّق منشفة كان يحملها على ذراعه. وحاولت أن أكلمه، لكنه اكتفىٰ بالابتسام وهز رأسه.

وبعد ساعات عاد العجوز يحمل مزيداً من الطعام وإبريقاً جديداً من الليموناضة، ومع هبوط الظلام بدأت أتقبل فكرة بقائي في هذا المكان فترة من الزمن. واقلقتني الظواهر والمؤشرات المحيطة بي. فلم يكن هناك أي سبب منطقي لهذه الطريقة في معاملتي، إلا إذا كان المصريون قد عرفوا أمراً لم يكن مفروضاً أن يعرفوه وأنهم يلعبون معي الآن لعبة ما، فما الذي يعتزمونه؟ لم يكن هناك معنىً لكل هذا. وكان في وسعي أن أرىٰ من النافذة حارساً مسلحاً بالزي الرسمي يجلس على كرسي خشبي عند البوابة الكبيرة. وكان بين وقت وآخر يفتح باباً صغيراً في البوابة ويتحدث مع أحد الناس. وكانت البوابة الكبيرة تفتح بضوضاء هائلة عند التاسعة من صباح كل يوم فتدخل سيارة بيضاء يشابه شكلها السيارة التي جلبتني من المطار. وفي كل صباح كنت أرتدي ثيابي وانتظر أحداً يأتي ليتحدث معي. لكن لم يأت أحد. وكنت أُتابع مرور الساعات ببطء على عقارب ساعتي، حتى تحل السادسة مساء في النهاية. فأنظر إلى النافذة فأرىٰ السيارة البيضاء مغادرة. وكنت أصرخ وأدق بقوة على القضبان الحديدية مستخدماً بقرعها الصينية المعدنية التي يحملون إليّ عليها الطعام، دون جدوىٰ ودون أن يهتم أحد على الإطلاق.

ولم تكن حرارة الطقس تخف حتى بعد هبوط الليل. وضعت المروحة الصغيرة على المنضدة ووجهتها نحوي مباشرة. ثم استلقيت على ظهري بثيابي الداخلية. مبللاً وجهي وصدري بمنشفة كنت أبللها بالماء. وكان رأسي يرتاح على مخدة قاسية عندما أحاول النوم.

بعد اليوم الأول لم تعد الروائح الكريهة تزعجني. ولا عادت تزعجني أسراب الصراصير، طالما كانت تظل في ذلك الثقب بعيداً عن طعامي. وفي الليل كانت أفكار كثيرة تطن في رأسي وتبقيني مستيقظاً.

وكان سؤال واحد يلح عليّ ولا يكفُّ عن تعذيبي: كيف انتهىٰ بي الأمر إلى زنزانة صغيرة حقيرة في مكان ما خارج القاهرة؟ ولم أتمكن من تناسي الفكرة المرعبة التي كانت تجتاحني قائلة إن مصيري هو قضاء بقية عمري في هذا المكان، وإن زوجتي وولدي الذين عادوا إلى كندا، لن يعرفوا بفراري ولا بأني وقعت في المصيدة.

ولم يكن في وسعي التكهن بأين ولا بمتىٰ ستنتهي هذه الحكاية، لكن كان في مقدوري أن أحدِّد بمنتهى الدقة الوقت الذي بدأت فيه الحكاية.

فقبل ستة أشهر، وتحديداً يوم الاثنين الموافق ٣ شباط ١٩٨٦ كنت في فندق (صن هل) في لارنكا، قبرص. وكنت هناك لأقابل إرهابياً بلجيكياً، وكان في جيبي جواز سفر بريطاني مزور باسم «جيسون بيرتون».

وكان البلجيكي عضواً في منظمة يسارية إرهابية معروفة باسم «الخلايا الشيوعية المقاتلة» (ccc) .

وطبقاً لجواز سفري كنت قد دخلت مطار لارنكا في اليوم السابق، وكانت معي تذكرة خطوط «أوليمبك» الجوية وبطاقة أُخرىٰ تخولني الحق في الإقامة وتناول الطعام في فندق، لكي أثبت وأبرهن عن وجودي. وكان البلجيكي يتوقع أن يتسلم مني مفتاحاً لسيارة متوقفة في بلجيكا ومحملة بكمية كبيرة من المتفجرات البلاستيكية التي يتعذر اكتشافها وعدة آلاف من صواعق التفجير المتطورة للغاية. وفي المقابل كنت سأتسلّم دليلاً يثبت أن نحو مليوني دولار تم تحويلها إلى حساب مصرفي في بنك سويسري.

كانت عملية حساسة ذات عواقب خطيرة، وكنت عندئذ ضابطاً «كاملاً» في الموساد.

وكانت تلك العملية بالذات هي النقطة التي بدأت فيها الأُمور تتشوّش وتسوء، والحقيقة هي أنني وصلت إلى لارنكا بحراً على متن قارب وليس في طائرة. وكانت المرحلة الأولىٰ من الرحلة من مرفأ اشدود في إسرائيل إلى نقطة في البحر تبعد خمسين ميلاً عن قبرص، وقطعت هذه الرحلة على متن زورق دورية إسرائيلي يسمىٰ دبور. ثم انتقلت من دبور إلى يخت كان مسجلاً في اليونان وكان ينزل في مرفأ لارنكا بشكل منتظم. وكان اليخت منزلاً عائماً آمناً لعملاء الموساد.

وكنت مجرد مخلب قط في هذه اللعبة التي خطط لها فرع الموساد في بلجيكا ففي اللحظة التي يذهب فيها أعضاء (ccc) إلى السيارة الموصوفة آنفاً في بروكسيل تقع شبكة المنظمة بكاملها في أيدي الشرطة البلجيكية. وهناك جماعة أخرى كانت ستتعرض للإعتقال في الوقت نفسه في هولندا. وكانت قوى الأمن البلجيكية والهولندية تتعقب بالفعل أفراد المجموعتين الإرهابيتين، وذلك بفضل سلسلة متتابعة من المعلومات كان الموساد يزود بها جهازي الأمن في البلدين. وكان هناك أكثر من سبب لتوقع العواقب. فمنظمة (ccc) كانت متورطة في عمليات بيع وشراء أسلحة مع منظمة التحرير الفلسطينية وسواها من المنظمات الفلسطينية.

وكان إحباط هذه الصفقات هدفاً مهماً للموساد.

وكان هناك سبب آخر أكثر شؤماً للعملية، وعلمت بشأنه في وقت متأخر للغاية. ذلك أن «إتسيك افرات» رئيس الفرع الإسرائيلي هو الذي تولىٰ ذلك الجانب. وكان في العملية ضابط مخضرم يدعىٰ «باردا» كان في ١٩٨٤ قد اكتشف وتتبع واتصل بعصبة من رجال القانون المرتدين كانت (العصبة) قد تشكلت أصلاً من خلال حلف شمال الأطلسي (الناتو) كعصبة معادية للشيوعية يتم تشغيلها في حالة وقوع غزو شيوعي. هذه العملية التي أطلق عليها اسم «عملية غلادياتور» لم تنفذ أبداً، لكن الناتو أهمل حل الخلايا الخاصة التي كان قد كونها، فتدخل جهاز الموساد للإنتفاع بإحداها.

هذه الخلية النائمة تم إيقاظها وتشغيلها بموافقة المخابرات البلجيكية وقسم مستشاري مكافحة الإرهاب في الموساد.

وأوضح باردا للبلجيكيين أنه لأجل خلق اهتمام عام بتقوية الأجهزة الأمنية السرية، لا بد من اتخاذ تدابير متطرفة، أي تنفيذ اعتداءات إرهابية تلقى مسؤوليتها على الشيوعيين.

وقال لهم: «يجب ترك التردد لأنصار حماية البيئة والديموقراطية ذوي القلوب الرقيقة»!

وبالإضافة إلى خلية الناتو المشكلة من رجال قانون من أقصى اليمين، كان في وسع المخابرات البلجيكية أن «تغرف» ما شاءت من العناصر من بئر عميقة ملأى بغلاة اليمينيين المتعصبين، وبينهم الحزب الفاشي Westland) (WNP) New post)، أو هذا ما قيل في تقارير مصادر من الموساد. وتحت إشراف المخابرات البلجيكية نفذت هذه الشبكة اليمينية الجديدة، سلسلة من عمليات السطو والسرقة، بعنف شديد، وعرفت الشبكة أثناء تنفيذ جرائمها باسم «قتلة برابانت». وفي أيلول وتشرين الثاني ١٩٨٥ هاجم أعضاء الشبكة عدة محلات سوبرماركت، وتولت اغتيال وزير بلجيكي. كما قام أفرادها بعدة عمليات لاختطاف شاحنات. نسبت (العمليات) يومئذ لزعران «قضوا أثناء مطاردتهم» ولم يكن المال هدفاً حقيقياً للشبكة، بل نشر الرعب وزعزعة الاستقرار وإثارة الاضطراب في المجتمع البلجيكي، الذي كان يميل نحو اليسار. وكان على ثلاثة من أعضاء الشبكة مغادرة بلجيكا في ١٩٨٥، فهربوا إلى إسرائيل. ونالوا فيها هويات جديدة من الموساد، تطبيقاً للإتفاق الأصلي الذي عقده الموساد مع الجناح اليميني المتطرف في بلجيكا.

وإن طلب البلجيكيين أن يجد الموساد طريقة لإيصال الأسلحة إلى ذلك الجناح اليميني البلجيكي المتطرف، مع إبقاء السلطات البلجيكية خارج الصورة، هو الذي أدى إلى وجودي في قبرص شباط ١٩٨٦ لتنفيذ المهمة.

وأعطى «باردا» «الإرهابيين اليمينيين موقع مخابىء الأسلحة الخاصة بـ (ccc) التي كان الموساد قد باعها لهم، وأبلغهم بأن في وسعهم مساعدة أنفسهم والحصول على تلك الأسلحة بينما تتعرض (ccc) للضربة المقبلة.

وقبل يوم واحد من اليوم الذي كنت سأسلم فيه مفتاح السيارة إلى رجل منظمة (ccc) اليسارية، وبعد عشر دقائق من الجهد المتعب للإنتقال من زورق متأرجح إلى آخر في بحر هائج، التقيت بزئيف ألون، وكان مسؤولاً عن عمليات تقنية خاصة، وفي طريقه لمغادرة الجزيرة، وكان وجوده في الزورق غير عادي بالمرة، فقد كنت في دائرة التجنيد والتعبئة في الموساد ولم أكن في العمليات الخاصة. لكنه ـ من ناحية أُخرىٰ ـ كان يقدم خدمات من شعبة (برودوت) إلى «المقاتلين». هو تعبير يطلق على إسرائيليين مجندين لتنفيذ عمليات خطرة وراء خطوط العدو، ويتلقون تدريباً خاصاً بمعزل عن تدريب الموساد ولا يحصلون على أي معلومات عن الموساد، فإذا وقعوا في الأسر لا تكون لديهم أية معلومات يمكن كشفها) نعم. . . كما قلنا إلى «المقاتلين» التابعين لدائرة «ميتسادا» السرية للغاية (ميتسادا اسم رمزي لفرع الموساد الذي يجند أولئك المقاتلين وفرق القتل المعروفة باسم كيدون). وعملهم في العادة تجنيد «مقاتلين» في بلدان عربية لتنفيذ عمليات «كيدون» الخاصة.

وابلغني زئيف بمهمة فرعية جديدة لي. فكنت الآن قد أصبحت «محطة ايصال» كما اسماني لعملية اقتضت الظروف ترتيبها في آخر دقيقة.

وقال: «قبرص ليست مكاناً مضيافاً لنا، وكلما احتفظنا هنا بعدد أقل من الأشخاص، كلما كان ذلك أفضل». وكان الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي قد دعا إلى مؤتمر ثلاثة أيام لما اسماها «القيادة المتحالفة للقوات الثورية للأمة العربية». بكلمات أخرى كان ذلك اجتماعاً لجميع العناصر الارهابية. وكان الموساد يراقب الوضع ولعابه يسيل على هذا التجمع متمنياً وضع يده عليه.

وأرسل الموساد «مقاتلاً» إلى ليبيا لهذا الغرض متخذاً صفة مراسل صحافي لمجلة «افريقيا ـ آسيا» الصادرة بالفرنسية. وما أن وصل حتى علم أنه بعد المؤتمر سوف يطير العديد من قادة المنظمات «الارهابية» الفسلطينية إلى سوريا على متن طائرة خليجية خاصة. واقنع الموساد رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز بالموافقة على اختطاف الطائرة.

وبسبب الطبيعة الحساسة للغاية للعملية أراد رئيس الموساد الحصول على تأكيد ملموس بأن الأشخاص المقصودين سوف يكونون على متن الطائرة.

وكان على «المقاتل» ان يراقب بعينه صعود الأشخاص المعنيين فعلياً إلى الطائرة. وكان عليه بعدئذ أن يبعث برسالة عبر جهاز خاص متطور للمواصلات. وكان على سفينة نقل بحري تجاري متجهة إلى مضيق جبل طارق أن تتلقىٰ تلك الرسالة ثمَّ تعيد بثها إلى إسرائيل.

أما الحاجة إلي كمحطة إيصال وإسناد فكانت ناشئة عن مشكلات سابقة في الاتصالات بنفس ذلك النوع من الأجهزة. إذْ كان جهازاً يعتمد على الطقس الجيد، ولم يكن متوقعاً في هذه الحالة أن يكون الطقس جيداً. وكانت ـ حسب الخطة الموضوعة ـ عملية بسيطة للغاية. فالمقاتل، بعد أن يقوم بتأكيد صعود القادة «الإرهابيين» إلى طائرة «غلف ستريم». سوف يشغل جهاز الإشارة ويتصل بي في الفندق. فإذا كان كل شيء على ما يرام تكون رسالته «دخل الصيصان القن». فاستخدم أنا جهازاً لبث الإشارة بحيث يلتقطها زورق للدوريات البحرية الإسرائيلية القريبة من الشواطىء القبرصية، مؤكداً قبول الرسالة.

وبعد أن أبلغني زئيف بذلك، تمنىٰ لي حظاً سعيداً وانتقل إلى الزورق «دبور» عائداً إلى إسرائيل. وساورني شك في أن هناك سواي مكلفاً بالإسناد. وسارت الأمور معي بشكل طيب في الاجتماع مع البلجيكي وتسليم المفتاح، وتلك كانت مهمتي الرئيسية. وبعد تسعة أيام، في الثاني عشر من شباط ١٩٨٦ قبضت الشرطة البلجيكية على الرجل ورفاقه من أعضاء منظمة (ccc). وكان في حوزة هؤلاء الإرهابيين مئتا رطل انكليزي من المتفجرات وآلاف الصواعق. وفي الوقت نفسه دخل حلفاء الموساد من المجرمين اليمينيين العديد من المستودعات في منطقة انتويرب.

وحصل الفاشيون على حمولة شاحنتين من الأسلحة الخفيفة وعدة أطنان من الذخائر.

وشعرت بالورطة أثناء تنفيذ العملية الثانوية، فعندما كنت في الفندق في لارنكا، تقربت من، أو فلنقل باللغة المهنية «أنشأت علاقة مع» رجل أعمال فلسطيني من عمان، عاصمة الأردن، كان بين سياح قليلين في الفندق. وكان مأذوناً إقامة مثل هذه الصلات، فإذا نجحت كان به، وإلا فالسكوت وعدم الحديث عن التجربة.

واتضح لي أن رجل الأعمال الفسلطيني كان قادماً من ليبيا وكانت له اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية. وعلمت منه أن خدعة ما ترتب ضدنا في طرابلس الغرب، وقال ما معناه: «سوف يأكل الإسرائيليون خرا. . غداً» وعلمت أن الموساد كان يتوقع لعبة ما، لكن لم يعط أحد الفلسطينيين ذلك الوزن.

وحيث إني كنت مقتنعاً بصدق الرجل، حاولت الاتصال بكل من أعرفه في جهاز الموساد لكي أوقف العملية المقبلة. وبذلت جهداً هائلاً مع «العتاق والحمقىٰ» الذين يكلفهم الموساد بقيادة الوضع في حالة وقوع عملية. وكان مثيراً للسخرية أن هؤلاء «العتاق» المعنيين في مراكزهم لتعزيز الأمن كانوا الآن هم العقبة أمام الاستفادة من التحذير. وكان مركز القيادة في القاعدة الجوية العسكرية «محانيه ديفيد». ولم أستطع منع نفسي من التفكير في أن هناك من يريد وقوع الأذىٰ.

وفي نهاية المطاف تلقيت المكالمة من «المقاتل» وحولت رسالته. وحيث أنني كنت مجرد «محطة إيصال» توجب علي أيصال الرسالة كما هي ودون أن أُضيف إليها أو أحذف منها أي شيء. مع أنني كنت على ثقة شبه تامة بأن معلومات الرسالة غير صحيحة. ولم أعرف أبداً إذا كانت الرسالة نقلت إلى السفينة التجارية.

لكن هذا محتمل، وظل استلامها أمراً مخفياً حتى انتهاء العملية، بحيث إنه إذا ساء سير الأُمور، فستلقى المسؤولية على كبش المحرقة الذي هو أنا نفسي. لكن المؤكد أن الطائرة أجبرت على الهبوط، لكن لم يكن فيها «الكنز» المرتجىٰ.

غادرت قبرص على متن اليخت، وأخيراً إلى الزورق «دبور». وكان هناك أحد ما غير راغب في عودتي إلى إسرائيل الآن، بدليل أن الزورق تلقىٰ أمراً بالبقاء في البحر بضعة أيام. وأبلغ آمر البحرية قبطان الزورق بأنه يعاني من «متاعب في المحرك». وأدركت مما يحدث أن الغرض من التأخير هو إتاحة المجال لأحد للإيقاع بي في الموساد في إسرائيل وتحميلي مسؤولية فشل العملية.

ولم أفهم كيف يمكن أن يحدث هذا ما لم يكن «المقاتل» قد غيّر قصته. وعندئذ سأتعرض للوم باعتباري لم أفهم الرسالة. ولكي يحدث ذلك، كنت متأكداً من أنهم سوف يمحون كل السجل الخاص باتصالاتي. وهذا ما حدث بالفعل. فعندما نزلنا ـ أخيراً ـ في اشدود، كان هناك «أورين ريف» مسؤول الموساد، للترحيب بي. وكان عمله ترتيب وضعي العملي في الموساد، وكان عليّ أن أتحمل مسؤولية الإخفاق بحجة أنني أقدم بذلك خدمة للجهاز. ولم يكن أمامي خيار سوى القبول.

الفصل الثانـي

الموساد درب عملاءه على سرقة تصاميم طائرة «مازالا» من شركة «ريكون»

في منتصف شباط، كانت النكسة القبرصية قد نسيت وأصبحت من الماضي. لكنني مع ذلك وضعت تحت مراقبة مستديمة. وأصبحت الأُمور عسيرة للغاية بالنسبة لي، وشبح الفشل مخيم فوق رأسي.

كنت لا أزال «مجنّداً تحت الاختبار»، حسب عادة الموساد الذي يظل يعتبر العنصر الجديد مجنداً تحت الاختبار طيلة السنوات الأربع الأولىٰ من عمله فيها. لكنني بالإضافة إلى ذلك وضعوني تحت رقابة خاصة. ولم يكن سائر المجندين الجدد راغبين في العمل معي بسبب المراقبة الإضافية التي سيتعرض لها من يقترب مني. وقال لي أريك وهو أحد زملائي: «لا يمكن أن تكون كاملاً دائماً، إذ لا بد لك من هفوة، فينقض الجميع عليك. فلماذا لا تتخلىٰ وتترك العمل؟» وكنت أعلم أنه محق، لكني لم أكن مستعداً بَعد للانسحاب.

فالخدمة في الموساد كانت بالنسبة لي أعظم إنجازاتي. وكانت النكتة الرائجة تقول إنه إذا كانت للإنسان عودة ثانية إلى الأرض بعد موته، فمن المرجح أن يصبح عضواً في الموساد.

ووجدت الوضع ثقيلاً مزعجاً. فالحرص على فحص كل خطوة للتأكد من سلامتها التامة، أرهقني. لكني كنت عازماً على حرمانهم من أية فرصة لاصطياد أي خطأ لي. وكنت أعرف أن كثيرين منهم يسعدهم التخلص مني بسبب ميولي السياسية. فقد كنت من أهل الوسط، لكنني بمقاييس الموساد كنت يسارياً، بل يسارياً متطرفاً.

هذا الضغط المتواصل أخذ مداه واتعبني حتى في حياتي المنزلية.

فالإحباط الذي شعرت به أخرجته من داخلي على أسرتي. وكانت القاعدة أن جميع ضباط القضايا في الموساد ينبغي أن يكونوا متزوجين قبل السماح لهم بالخدمة في الخارج. لكن قلة بينهم كانت تتمتع بزواج سعيد. ويعيش معظمهم في حياة زوجية فاشلة، ومن الاعتيادي ألا يكون هذا زواجهم الأول. وبدأت أعود إلى المنزل متأخراً عن العادة، وأقضي وقت فراغي الضئيل مع الزملاء في أماكن لقائنا المعهودة وكانت الأجواء مفعمة بالقيل والقال، فأول من يغادر هو أول من يفتحون ملفه بحَديث النميمة والتعليقات السقيمة. وكانت أفضل حماية لنفسك هي أن تبقىٰ في الجلسة حتى النهاية وألا تغادر قبل الآخرين. وكنت أعلم أن بيللا (زوجتي) والولدين أصبحوا لا ينالون مني إلا الحصة القليلة. لكني فلسفت الأُمور بأن هذا وضع موقت لا بد منه، وأنني في لحظة تسوية أوضاعي وتثبيت موقعي في الجهاز، سأقلب كل حياتي وتصرفاتي.

فالعمل في الموساد يوفر للمرء كل ليلة عذراً للعودة متأخراً. وعوض الالتفات إلى صديقي الحقيقي الوحيد، زوجتي، أبثها همومي، فقد ابتعدت عنها. وهي لم تكن تحب أحداً من أفراد الجهاز وكانت تعي عيوبهم.

وبما أنني كنت عاجزاً عن تغيير الواقع، فقد حاولت تغيير المفهوم. وقلت لنفسي إن وجهة نظرها المخطئة. ففي نهاية المطاف أنا عضو في الموساد، جهاز النخبة والصفوة المصطفاة. لكني في البيت لم أكن موساد، في حين كان ذلك كل ما ابتغيه.

وبعد وقت في فترة التجريب المستمرة، وجدت نفسي في غمرة عملية صغرىٰ في المكان الوحيد الذي لم يكن «مسموحاً» للموساد العمل فيه: «إسرائيل»، ومع انه لا توجد قوانين محددة ترسم حدود عمل الموساد، فإن التعليمات ضد عمليات داخل إسرائيل مفروضة باهتمام من جانب «شبك» (جهاز الأمن الداخلي في إسرائيل). وبناء عليه فإن القاعدة المتعلقة بهذه العمليات «المحظورة» هي: في حالة إخفاق واضح، فليبد الأمر كمجرد مناورة أو تمرين.

هذه العملية بالذات كانت ستفيد شركة إسرائيلية تدعىٰ EL - OP كانت تقوم بتطوير جهاز خاص لبث واستقبال صور رقمية DPI. كما كانت تصور

جهازاً مماثلاً من أجل مازلات (مازلات كلمة عبرية مركبة من أحرف لكلمات تعني طائرة بدون طيار يتم تسييرها عن بعد (بالريموت كونترول).

وكان مشروع مازلات مشتركاً بين الصناعات الجوية الإسرائيلية التابعة للصناعة العسكرية الإسرائيلية IMI، وبين شركة أميركية هي AAI كان مقرها في بلتيمور. ودلت عملية تطوير DPI أنها باهظة الكلفة كما كانت تجابه عراقيل تقنية. وعلاوة على ذلك فقد كانت الصناعات الجوية الإسرائيلية IAI على قائمة الموساد الخاصة بالهيئات التي يدعمها، وذلك بسبب إمكاناتها المالية والدفاعية الضخمة. وهكذا دبّر الموساد خطة «لإنقاذ العربة من الوحل».

وبناء عليه طلب إلى الصناعات العسكرية الإسرائيلية التوصل إلى إتفاقية تطوير مع شركة «ريكون أوبتيكال اندستريز» الأميركية التي كانت تمتلك التكنولوجيا التي احتاجتها EL - OP واختارت الصناعات العسكرية الإسرائيلية سلاح الجو الإسرائيلي ليكون مخلب القط، لأن هذا السلاح كان داخلاً في تلك الأثناء في مشروع تموله المساعدات العسكرية الأميركية المقدمة لإسرائيل. واقتضت الخطة بالنسبة للموساد دس مهندسين إسرائيليين في ريكون، متظاهرين بأنهم مراقبون من سلاح الجو الإسرائيلي، وتحت هذا القناع القيام بسرقة التكنولوجيا الجديدة التي يمكن بعدئذ نقلها إلى إسرائيل وتشغيلها فيها.

فإذا تمت السرقة على النحو المطلوب فإن التوفير في كمية الأبحاث والتطوير والنفقات اللازمة، سوف يكون هائلاً.

قبل هذه المناورة التي اشتركت فيها في قاعدة عسكرية في رمات غان المدينة المجاورة لتل أبيب، دخلت عدة فرق من الموساد القاعدة ووضعت ملفات الذاتية الشخصية للعاملين في شركة EL - OP في سجلات موظفي سلاح الجو. وكان ذلك لتمهيد الطريق أمام مهندسي EL - OP لإدخالهم إلى ريكون. وكنا نحن هناك لتنفيذ عملية مماثلة من أجل شركة أُخرىٰ تدعى «تاديران».

وظهر أريك وأمير عند بوابة القاعدة بالزي العسكري المطلوب ومعهما الوثائق الشخصية المناسبة، وفي وقت تغيير الحرس، وقد تم احتجاز الحارسين الحقيقيين من جانب أعضاء آخرين في فريقنا تنكروا بثياب الشرطة العسكرية، وتلقىٰ السارجنت ميجور المسؤول عن الحراسات إتصالاً هاتفياً من القوىٰ

العاملة تبلغه بتعيين الرجلين الجديدين أريك وأمير. وكنت أنا من قام بذلك الاتصال الهاتفي من كشك للهاتف، واستجاب السارجنت ميجور للأمر بكل اهتمام، ولم يوص إلا بالحرص على دفء الرجلين عند البوابة.

وكنا متجهين نحو مقر المكاتب الرئيسية في القاعدة عندما قال يوسي لي: «أُريد منك مقابلة شخص ما». «الآن؟» وكنت ويوسي بالزي العسكري ويضع كل منا الشارات اللازمة لرتبة كوربورال. فهز رأسه وابتسم ولم يتصور وجود مشكلة.

وبينما كنا نسير ببطء فوق تلة تقودنا نحو مبنى الإدارة، همست ليوسي قائلاً: «نحن في خضم تمرين، ولدينا عمل ننجزه، فما رأيك من أن نفعل هذا في وقت آخر؟ فنحن نستطيع العودة في أي وقت نشاء، وكل ما علينا فعله هو إظهار البطاقة الشخصية».

وكان رد يوسي وهو يبتسم: «نعم. اعرف ذلك، لكننا هنا الآن، وقد خططت للعملية بحيث يكون لدينا متسع من الوقت». وسكت بينما كان ضابطان يقتربان، وقمنا بتحيتهما بارتخاء ومرّا، ولم يردّا التحية.

وحين أصبح الضابطان على بعد خطوات في طريق نزولهما عن التلة، تابع يوسي قائلاً: «إذا سارت الأُمور حسب الخطة الموضوعة، فهناك عشر دقائق قبل أن نتمكن من المغادرة».

ـ «وما الذي يمكن أن نفعله في عشر دقائق؟».

ـ «أريدك أن تقابل شخصاً».

ـ «وماذا إذا كنت لا أريد ذلك؟».

ـ «لن أجبرك على فعل أي شيء. لكنني مع ذلك أخبرك بأنني سئمت من وجهك الكئيب المتطاول ومن انحطاط حالتك المعنوية وتصرفاتك الميتة. وكل ما أُريده هو أن أضخ بعض الحياة والدماء في شرايينك».

ـ «أقدر ذلك، لكن لا.. وشكراً».

ـ «أنا أتحدث عن امرأة.. وهي ذاتها تتحرق شوقاً للقاء».

وفكرت كم هو طيب يوسي العجوز هذا. وقلت له: «لن أقتحم قاعدة عسكرية عند منتصف الليل من أجل هذا الغرض!».

ـ «هذه المرأة مختلفة. ثق بي». قال يوسي وهو يثير استغرابي. فإذا كانت «مختلفة» إلى هذا الحد فلماذا لم يحتفظ بها لنفسه؟

توقف يوسي. فقد وصلنا المبنىٰ المقصود المكون من ثلاثة طوابق. والمحتفظ ببعض سماته البريطانية، وهو مبنىٰ مربع، بني أصفر، وله ثلاثة صفوف من النوافذ الصغيرة، وكانت أشجار الأوكالبتس التي تمتلىء بها الساحة، تهتز وتخشخش مع نسمات الريح. أما الأضواء الكاشفة الغامرة على امتداد الطريق وعلى رؤوس قضبان السياج، فقد عكست ظلال الأشجار التي امتدت متطاولة على كلس الجدران، راسمة خيالات صور متمايلة تماثل في اهتزازها حالتي الذهنية. وأصبح يوسي جدّياً. فهذا وقت العمل، وسألني: «هل الأوراق معك؟» ودسست يدي في قميصي وتحسست مغلفاً بلاستيكياً، وقلت «نعم»، فقال «هيا إلى العمل». فتوجهنا مباشرة إلى «بئر الدرج».

وكان علينا الحذر ونحن نرتقي الدرج، فعند المنعطفات كان يمكن أن نصبح مكشوفين أمام الآخرين. ولم تكن البناية نفسها منطقة أمنية حساسة. ولكن إذا ضبطتنا دورية ما على الدرج أو في الداخل فستكون مشكلة.

وكان هناك ثلاثة حراس يجولون حول المبنىٰ.

وما أن أصبحنا في الداخل حتى تحركنا بسرعة. وكانت الغرفة مكتظة بخزائن الملفات ذات الأربعة أدراج. وفي آخرها خزانة كبيرة رمادية توجه إليها يوسي وسحب جاروراً. وقال: «اذهب هناك وافتح الخزانة، وسوف أقرأ عليك أرقام التركيبة».

توجهت نحو الخزانة وانحنيت وجعلت الرقم صفراً، وسألته: «كيف فعلت ذلك؟» فقال: «هذا هو الفارق بين ضابط القضايا وبين اللص».

فقد أقمت علاقة مع الفتاة العاملة هنا وقضيت بعض الوقت معها». وسألته: «حقاً؟» فقال «طبعاً ولا تضحك إذا قلت لك أنني بذلك قدمت تضحيَة كبيرة!» فسألته: «تضحية؟» فردّ قائلاً «يجب أن تراها لكي تصدق. ثق إنها

تضحية عظيمة!» وقلت: «لم يكن ضرورياً أن تأخذها إلى الفراش». فقال: «لم يكن فراشاً، ثم إن كل امرأة بالنسبة لي هي امرأة». فسألته: «إذاً لماذا تجأر بالشكوى الآن؟» هز رأسه ثم التفت إلى قعر الجارور الذي كان يفتحه وقال: «سبعة عشر إلى اليمين، فأربعة إلى اليسار». وتابع حتى انفتح القفل. وأدرت الدولاب الكرومي وفتحت الباب وكانت هناك كومة من الملفات في الداخل.

وأجرينا التبديل اللازم في أقل من خمس دقائق، وتأهبنا للمغادرة. فجأة علت أصوات ضجة عند الباب الخارجي.

وتجمد كلانا. ولم نعرف إذا كان رجال الدورية قاموا بجولة داخل المكاتب أم أنهم يقومون بالتحقق من إقفال الباب الخارجي.

وسألت يوسي: «هل أقفلت الباب الخارجي؟» فردّ: «نعم لقد شددته».

وتحركنا بهدوء نحو النافذة وألقينا نظرة على الخارج، كانت مسافة الهبوط إلى الأسفل من النافذة مرتفعة. وبعد لحظات من فحص الباب، انطلق رجال الدورية بعيداً. وكن نساء في الواقع لا رجالاً. وتنفسنا الصعداء ونحن نراهن يغادرن المبنى. وسار كل شيء على ما يرام. وكان كل ما اشتهي فعله الآن هو الخروج. وأشعلت سيكارة، وانطلقنا نحو البوابة.

ونظر يوسي إلى ساعته وقال: «لا يزال لدينا عشرون دقيقة. . . وهي أكثر بكثير مما خططت أصلاً» فقلت «ماذا تقول؟ لقد انتيهنا فماذا ننتظر؟» فقال: «أبلغني دوف بألا نغادر قبل الساعة العاشرة». وسألته: «أتريد القول أنهم يتابعوننا الآن؟» وأصابتني الفكرة بالإحباط. فمن عادة الموساد خلق عقبات إضافية أمام الذين ينفذون مهمة بسيطة، لكي تختبرهم وتمتحن كفاءتهم. فقد كان الموساد يحب أن يمتحننا، وأن يرى إذا كنا نعرف أننا ملاحقون.

وكانت تصرفات مماثلة تجري في أوروبا أثناء قيام ضباط الموساد بعمليات روتينية.

وقال يوسي: ليس لنا على أي حال مغادرة القاعدة قبل العاشرة، وعندئذ نغادر واحداً بعد الآخر. وبعد خروجنا نلتقي في مكان. وإلا فعليك أن تفعل المطلوب وسأكون آخر من يغادر كآمر جيد.

«فهل لك أن تلحق بي؟ فعندي شخص أريد أن أجمعك به». فقلت:

«انس الموضوع يا يوسي فأنا لست في المزاج الملائم».

فقال: «إذن إفعل هذا من أجل خاطري، فحاييم وأنا عاجزان عن التعامل معها وحدنا، ونحن بحاجة لمساعدة. وقد لاحقناها طيلة الشهر الماضي. وكان حاييم يعرفها من قبل، في حيفا».

«لم لا تستدعي جيري؟» سألته مبتسماً.

فقال: «لدينا امرأة، وما نحتاجه هو رجل إضافي. هيا». وبدا وكأنه مصمم على إخراجي من حالة الهبوط الذهني التي أمرّ فيها. وكانت هذه أفضل طريقة فكر بها يوسي وحاييم. وهل كنت أعلم أنه لا يجدر بي السير وراءه؟ نعم. وهل تبعته على أي حال؟ نعم. وهذا الأمر يخجلني.

وتوجهنا إلى بناية مركبة صناعياً ذات لون رمادي عند منتصف الطريق بين المبنىٰ الرئيسي والبوابة.

وتساقط المطر. ووقفت على حافة الرصيف وراء يوسي الذي كاد أن يقرع الباب.

وهمس: «تعال. وتذكر أن وقتنا قصير، ونحن من «شبك».. ومن الخير ألاّ تقول شيئاً ونحن غير متزوجين. ولا تستخدم اسمك الصحيح بل يكفي اسم العائلة. وقرع الباب.

وردّ صوت أنثوي ناعم: «من الطارق؟» «يوسي!» «ادخل!».

وفتح يوسي الباب ببطء وغمزني بعينه ودخل. «كيف حالك يا دينا؟» وتوجه نحو شقراء جميلة تجلس وراء مكتب معدني. وكانت ترتدي سترة عسكرية خضراء أكبر من مقاسها، مع شرائط السارجنت معلقة على كميها، ونصفها الأسفل في جينز ضيق يلف ساقيها الطويلتين اللتين كانت تمدهما خارج طاولة المكتب لتصلا قريباً من مدفأة كهربائية.

وانحنىٰ يوسي وقبلها على خدّها، ثم وقف خلفها ووضع يديه على كتفيها وقال: «هذا يا حلوتي الجميلة صديقي دان».

ابتسمت لها وبادلتني الابتسامة. وشعرت بأني أخرق وفي غير مكاني،

وكنت مع ذلك مستثاراً بالعينين الزرقاوين العميقتين، وكان جو الغرفة دافئاً مما أشعرني بدفء غامر.

وسألت الشقراء يوسي: «ماذا تفعل هنا؟» وقال «مهمة تفتيش!! فنحن هنا لنتفحص إذا كان المكان آمناً». وسألته: «وهل هو آمن؟» وقال: «لا تقلقي. أنت آمنة طالما نحن هنا!».

حملقت بي وهي تبتسم، وانحنىٰ يوسي وقبلها على شفتيها. وطالت القبلة وطالت.. وهممت بالخروج، فرأيتها ترفع يديها ببطء وتمسك برأسه.

وكان آخر ما رأيته يده وهي تندس في صدرها.

انتظرت خارجاً بضع ثوان ثم سمعته يقول لي: «اسمع يا زهرتي، أحدنا سوف يأتي إلى مكانك في نحو الساعة الثانية عشرة». فقلت «أوكي. وإذا لم أكن هنا فأنت تعرف مكان المفتاح. أليس كذلك؟»

وخرج يوسي مبتسماً بينما كان يغلق الباب وراءه، وقال: «حسناً يا عزيزتي، إذا سار كل شيء على ما يرام فستكون دينا بالانتظار عند منتصف الليل!!»

الفصل الثالث

تفاصيل دقيقة أثناء التمرينات الدونكيشوتية على العملية

الأربعاء ١٢ شباط ١٩٨٦ الساعة ٠٠ : ٢٢

بعد مغادرة المجمع خطوت بضع خطوات لأرى ما إذا كنت ملاحقاً. فهذه أصبحت الآن طبيعة ثانية في شخصيتي. وبعد التحقق من ذلك طلبت دوف. ودق جرس الهاتف مرتين.

«نعم»؟ ردّ دوف بصوته المبحوح.

ـ «كيد يكلمك».

ـ «ما الأمر؟».

ـ «أُريد أن أخبرك فقط أنني سليم»!

ـ «متأكد؟».

ـ «بدون أدنى شك».

ـ «وأين أنت الآن»؟

ـ «عند تقاطع إليت. هل سيكون هناك شيء آخر؟ أُريد الخروج من هذه البزة الرسمية».

ـ «وعلى أي جانب من التقاطع أنت موجود»؟

ـ «بجانب بورصة الماس».

ـ «أوكي. دقيقة واحدة فقط». وكان هناك توقف لمدة دقيقتين على الهاتف. وعندما عاد صوته اكتفى بالقول: «أتمنى لك ليلة طيبة، وسوف أراك في الصباح». وكان صوته ساخراً بعض الشيء.

وتلك هي طريقة دوف. وقد التقط هذا الأسلوب من موسى، رئيسه و «زادها قليلاً».

ولم أكن حتى قد وضعت سماعة الهاتف من يدي عندما سمعت صرير سيارة الشرطة وهي تتوقف قرب كشك الهاتف. ورأيت شرطياً بزيه الرسمي يخرج منها ويتوجه نحوي. فوضعت السماعة واستدرت لمواجهته. وكنت أعرف الروتين: فقد كان هذا تمريناً اعتيادياً هدفه تعويدنا على المضايقات التي يمكن أن نتعرض لها في الخارج.

ورسمت على وجهي ابتسامة رضا عن النفس، ولم تكن هذه فكرة موفقة، لكني لم أتمكن من منع نفسي من ذلك. وكنت أعرف ما سيأتي، ومع ذلك لم أكترث. فقد كنت واثقاً من أنني سأعالج المسألة.

«هاي، أنت»! صرخ الشرطي وهو يقترب. ورأيت الموقف هزلياً. وكان في وسعي أن أتذكر متىٰ سببت لي لقاءات كهذه الاثارة والرعب.

ورددت عليه: «ماذا؟ هل تتحدث معي»؟ فقال: ما هو الغريب أيها الجندي الصغير»؟

ـ «هل توجّه كلامك إليّ»؟

ـ «وهل تظن هذا أمراً مضحكاً؟ سوف أريك كم هو مضحك»!

وفتح باب الكشك على آخره وادخل وجهه الكلبي حتى كاد يلامسني. وكنت قد فهمت أثناء تدريبي أنني يجب ـ في مثل هذه المواقف ـ أن أكون متعاوناً تماماً وودياً تماماً، «طيب خاطر الرجل وهدّئه وحاول تقليص المشكلة بأسرع ما يمكن».

لكنني ـ ربما بسبب كل ما عانيته خلال الأسابيع الماضية، وربما بسبب ما تكشفت عنه تلك الليلة ـ لم أكن في مزاج مطاوع أو كريم، وعدت فسألته مجدداً: «هل تتحدث إليّ»؟ واتسعت الابتسامة على وجهي.

فقبض الشرطي ياقة قميصي وخبطني بمؤخرة الكشك. وأصيب ظهري بالرف الحديدي الموجود تحت جهاز الهاتف مما سبب آلاماً انتقلت إلى رجلي وسألته: «هل معك أوراق»؟ وأدار وجهه غضباً بسبب ابتسامتي. ثم فتل رأسه نحو شريكه الذي كان يغادر السيارة ببطء. وقال: «لقد اكتشفنا قبضاياً هنا، فهل

نأخذه إلى البلد (قلب المدينة) أم نذيقه بعض اللّكمات أولاً»؟ وكان الشرطي الآخر عملاق الحجم، وقال: «حسناً أيها الجندي التافه. . أرى أنك تريد بعض الألعاب»!

وقلت دون ابتسام هذه المرة: «هل تتحدث إليّ»؟ وجاءت كف الشرطي الضخم من الوراء ونزلت بكل قوتها على أعلىٰ جبيني. وأرتد رأسي بقوة إلى الوراء خابطاً بلوح الزجاج، وسمعت الزجاج يتشقق ويتشظى. وأحسست بأن كل ما في داخل رأسي يهتز ويطلق الذبذبات. وبدأت أفقد وعيي.

وفجأة هرع الشرطيان نحوي وجذباني من كشك الهاتف. وأدىٰ اتصالي بالهواء في الخارج إلى دوران رأسي.

وقال الشرطي العملاق: «ستأتي معنا أيها الجندي الصغير» ودفعاني إلى المقعد الخلفي في سيارة الدورية من طراز فورد اسكورت.

وسألني الغوريللا: «من أين أنت»؟ وكان يدفع رأسي بين ركبتي ويقيد يدي وراء ظهري ويشد الوثاق جيداً.

«هل تتحدث معي؟»

وجاءت نخزة حادة سريعة في ضلوعي فأطلقت صرخة ألم قصيرة. وعندما حاولت رفع رأسي دفع برأسي ثانية بين الركبتين وهو يدق شفتي بركبتي. وذقت طعم دمي. وأبقيت رأسي في مكانه، فمهما حدث لم يكن في وسعي أن أجعلهم يخلفون علامات أو آثاراً للضرب على وجهي. فوجهي كان أهم شيء في هذه الحكاية الغريبة. فلم يكن في إمكاني اداء عملي بوجه متورم ومصاب بكدمات سوداء وزرقاء. وكنت أعلم أن لديهم تعليمات بعدم إيذائي وبعدم ترك رضوض بارزة أو جروح ظاهرة، لكن رجال الشرطة كثيراً ما كانوا يتجاوزون حدودهم كلياً.

وشعرت برغبة في أن أقول لهم: «أنا أعرف الروتين. . فلننه المسألة»! لكن كل ما أمكنني قوله هو تكرار جملة «هل تتحدثان معي»؟ ذلك أن دماغي كان تائهاً تماماً. وفي هذه الأثناء كان الشرطي صاحب الوجه الكلبي يصفعني على مؤخرة رأسي وينخز أضلاعي. وبين وقت وآخر كان وجع حاد يخرجني من

أفكاري ويجبرني على مواجهة ما يحدث. وكنت أعرف أن في مقدوري وقف كل هذه القصة بلعب اللعبة حسب الأُصول، لكن شيئاً في داخلي لم يسمح بذلك.

ثم فكرت بـ «دينا». وما أسهل مرافقتها إلى الفراش ونسيان كل شيء، وشعرت باستثارة حبي وأنا في هذه الورطة الموجعة والمذلة. وحاولت تنحية الفكرة الخيالية جانباً، مقنعاً نفسي بأن اللقاء مع دينا لا يمكن أن يتم فعلاً. لكني كنت أعلم أنه يمكن أن يقع، وأصبحت هذه فكرة جديرة بالتركيز في وضعي ذاك.

مرت ساعة كاملة تقريباً مشحونة بالعذاب الصافي قبل أن ترجع سيارة الشرطة إلى النقطة التي أخذتني منها عند كشك الهاتف نفسه.

وسألني الغوريللا: «ماذا كنت تفعل هنا أيها العاهر»؟ فقلت جملتي إياها: «هل تتحدث معي»؟ ورأيت أنهما أصبحا قلقين من حقيقة الوضع ومن الطرف المخطىء: أنا أم هما؟ ومن تجاوز حدوده؟ وردّ هذه المرة قائلاً: «نعم نحن نحكي معك يا خرا». وكنت في أمسّ الحاجة لسماع هذا الجواب، فقلت وأنا ابتسم ابتسامة ضعيفة: «ولم لم تقل هذا من البداية»؟ فردّ الابتسامة، وترك شعر رأسي الذي كان يشدّه. أما الآخر ففك الرباط من يدي وفتح باب السيارة. ونزلت فساعدني بلطف، وسألني قبل أن يغلق باب السيارة: «هل أنت بخير؟ هل من مشاعر حاقدة؟ فرددت: «لا مشاعر حاقدة». وعدت إلى كشك الهاتف أمام لوح الزجاج المحطم. وبدا لي وكأن زماناً طويلاً مرّ منذ كنت هنا إلى حد اني نسيت كيف بدأت الحكاية أصلاً. وطلبت الرقم وقلت لدوف: «أنا كيد».

ـ «ماذا حدث»؟

ـ «يا ابن العاهرة.. لقد نزلت للتو من لعبة القطار»!.

ـ «وما الذي أخرك كل هذا الوقت»؟

ـ«لا أعرف. اعتقد أنه كانت هناك مشكلة اتصالات مع عامل البدالة في المتنزه»!

ـ «ماذا تعني»؟

ـ «أعني أنني مرهق يا ثقب الحمار».

ـ «هل أنت على ما يرام»؟
ـ «بأفضل ما تتوقع. . وسوف أعيش».
ـ «حسناً. . سجل كل شيء في تقريرك، وسوف أراك في الصباح» ووضع السماعة.

وتلفنت ثانية، لكن هذه المرة إلى القاعة الرئيسية في الأكاديمية (هي مكان تدريب الموساد وتقع خارج تل أبيب على طريق حيفا). وكان مفترضاً أن يوجد هناك يوسي أو حاييم. وكنا ثلاثتنا قد تعاهدنا على أن ينتظر أحدنا الآخر حتى نطمئن على بعضنا بعضاً. وكانت الساعة ٢٣:٠٠ وردّ يوسي بعد الدقة الخامسة. وكان يتنفس بصعوبة وكأنه كان يركض.

ـ «نعم»؟
ـ «يوسي»؟
ـ «مرحباً فيكتور. . أين أنت بحق الجحيم»؟
ـ «لم تتنفس وكأنك عائد من ماراتون»؟
ـ كنا نلعب كرة الطاولة. فماذا عندك»؟
ـ «ليس كثيراً. أنا بحاجة إلى مكان ارتاح فيه واسترخي».
وتضاحك ثم قال: «أظن أن مصنع حلويات سوف يكون في خدمتك»!
ـ «مصنع حلويات»؟ وكنت لا أزال مهتز المخ من أثر الضرب واللطم والنخز والضغط المتواصل.
ـ «مصنع الحلويات هو دينا. . دينا. أين أنت»؟
ـ «أنا عند تقاطع إيليت في رمات غان».
ـ «سوف نلاقيك بعد عشر دقائق عند مجمع مخازن لندن».
ـ وقلت: «إلى اللقاء» وأقفلت الخط ولوحت لسيارة أجرة. وبعد دقائق كنت واقفاً عند الزاوية المتفق عليها. وجاءت سيارة الجيب. وكان حاييم جالساً في الخلف. وأخرج جمجمته الصلعاء قائلاً: «اصعد. . فليس معنا الليل كله ولدينا لك عمل»!
ـ «عمل؟».
ـ «هنا مكتب محام سوف ندخله لتصوير بعض ملفاته».
ـ «ومتى طلعت هذه الشغلة»؟

ـ «أمسَ».

ـ وكيف لم أسمع بها أبداً»؟

ـ «أنت لست مع فرقتنا. وهي مهمة تمَّ تكليفنا بها».

وشعرت وكأن سكيناً طويلاً انغرز في ظهري. ويوسي وحاييم وأنا كنا فريقاً واحداً منذ اليوم الأول تقريباً.

ولم يكن هناك ما يدعو لتمزيق صفوفنا، ذلك أن كل واحد منَّا كان يكمل الآخرين. وكل ما خطر على فكري أن هناك من يسعىٰ لعزلي أنا بالتحديد. ولم أكن شخصاً مهووساً ولا مهلوساً. فلو كانت هذه خطوة مشروعة لأطلعوني عليها ولفسّروها لي. فيما أن الإجراء أتخذ وراء ظهري، فلا بد أنه نذير بالشؤم. إنما لم يكن في وسعي فعل شيء الآن، وكان تقبل الوضع الخطوة الوحيدة المتعقلة.

وانفتح فمي وصدر منه السؤال التالي: «كنت اعتقد بأننا أخبرناها بأننا سوف نكون عندها في الثانية عشرة.

ـ أليس كذلك»؟ وأدركت عندئذ كم كنت متشوقاً للقاء دينا، فكان أمراً غريباً. وربما كانت صورة ابتسامتها وليس جسدها، هي التي غرزت دينا في ذهني.

والتفت يوسي بوجهه نحوي ونحو حاييم وقال: «ما فكرت فيه هو أن نأخذ فيكتور إلى بيتها، ثم نذهب نحن إلى مكتب المحامي، ثم نعود ونأخذك من بيتها».

وهززت رأسي قائلاً: «هذا يناسبني».

فأضاف يوسي: «سوف نرافقك إلى بيت دينا الآن لتناول فنجان من القهوة فقط ثم نسرع إلى مهمتنا».

ورويت ليوسي وحاييم ما حدث لي مع الشرطة. وسأل يوسي: «كم كانوا قساة معك»؟

ـ بما فيه الكفاية، وأنا من تسبب بالوضع».

ـ «كنت اعتقد بأن في وسعك أنْ تتحدث حديثاً حلواً مع أحد». قال حاييم

وهو يحملق بي في الظلام ونحن داخل سيارة الجيب.

ـ «لا أدري. لا أدري حقاً. كل ما أستطيع قوله انني لم أشعر بالرغبة في التحدث مع هؤلاء الشرطة»؟

وكان الجيب منطلقاً في طريقه، عابراً عدة مناطق وأزقة، بينما كنا في طريقنا إلى شارع ديزنغوف (في تل أبيب). وعند زاوية ديزنغوف وشارع غوردون، انتقل يوسي بشكل حاد نحو اليمين بحيث كاد الجيب ينقلب بنا، وتوقف الجيب فوق حافة الرصيف.

وعلقت قائلاً: «تبريك (صفّ) ممتاز للسيارة»! وضحكنا، ذلك أن هذه كانت من مزايا عملنا: تجاهل أنظمة السير. فلوحة أرقام الجيب كانت مزورة، ومع أنها تظهر على شاشة الكمبيوتر لدى الشرطة، إنما لبضعة أيام لا غير، ثم نعود لتغييرها. كما كانت معنا بطاقات هوية أمنية رفيعة المستوى وخاصة كفيلة بأن تجعلنا نفعل بالشرطي أي شيء وفي أي اتجاه.

وكنا نسميها «بطاقة الرب» وكنا نتحرق شوقاً لكي نكون في وضع يوفر فرصة لاستخدامها.

وقال يوسي وهو يقفز من السيارة: «ها نحن وصلنا». وتبعته، وكان حاييم غير بعيد وراءنا.

وكانت إحدى البنايات السكنية التقليدية.

«ها هي» قال يوسي وهو يقف عند الباب.

واستدار نحوي قائلاً وأصبع يده يستعد للضغط على جرس المنزل: «يجب أن تتذكر أننا من شبك، ونحن جميعاً عازبون ونعيش في قاعدة. . و» واستدار نحو حاييم وسأله: «وأين نعيش»؟ فجاء جواب حاييم: «في نتانيا».

وسألت: «لماذا نتانيا؟ ولماذا شبك»؟

ـ «لأن نتانيا بعيدة كفاية لكنها ليست بعيدة جداً، أما شبك فلأننا لا نستطيع أن نقول لها أننا الموساد. هل نستطيع؟ ولا نريد أن نكون من الشرطة، فاخترنا شبك لأنه أقرب جهاز مماثل».

وكنت هادئاً لأنني كنت مضروباً. وكان يمكن أن أقع نائماً في أية لحظة.

أما الإثم الذي أشعر به في عقلي بسبب هذا النوع من الأعمال (دينا) فقد أصيب بالكلل. ويبدو أن لا وعيي دبر قصاصي قبل ارتكاب المعصية.

وكان صوت الجرس خشناً طناناً مزعجاً. تبعه صوت رقيق خافت لا يكاد يسمع: «دقيقة»!

واعتم ثقب النظر في الباب لحظة واحدة، ثم انفتح الباب على مصراعيه. «أهلاً بالشباب.. ظننت أنكم غير قادمين فأوشكت على الذهاب إلى الفراش». وتراجعت مفسحة لنا طريق الدخول.

وقال يوسي بابتسامة ماكرة «لن نمنعك من الذهاب للفراش. وبعد قليل قد ننضم إليك»!

وأغلقت الباب وراءنا. وتوجه حاييم فوراً إلى الكنبة الكبيرة في غرفة الجلوس وهبط في منتصفها. أما يوسي فقصد الحمام وكانت الإضاءة خافتة للغاية، أما هواء الشقة فكان مشبعاً ببخار ماء إذ يبدو أنها استحمت قبل قليل وكان هناك شذا عطر خفيف. لكن الرائحة كانت مثيرة للحواس. وكان في وسعي تأكيد مدى نعومة بشرة هذه المرأة. وكان البيت بسيطاً دافئاً ومغرياً. وشعرت بقلبي تتزايد دقاته مع مرور اللحظات. وشعرت بتوتر الإثارة يضغط على جوزة حلقي. وكانت دينا فاتنة الجمال بعباءتها الطويلة، وكانت تتحرك بطريقة ناعمة منسابة عفوية. وباستثناء شعرها، فقد كان كل ما فيها طويلاً. وتركزت نظرات عينيها الناعستين الزرقاوين على وجهي بعد جلوسي على طرف الكنبة متوتراً.

وتحركت بتؤدة نحو الحمام، ثم أضاءت النور في غرفة ثانية لم أكن قد تنبهت لوجودها. وكانت عبارة عن مطبخ صغير. ثم سألت: «هل تشربون شيئاً»؟

وكان جواب حاييم: «قهوة» وجاء صوت يوسي من وراء باب الحمام: «إنس القهوة، فلدينا أعمال نقوم بها، وسنعود لأخذ دان لاحقاً». وكان من عادتنا أن نجد سبباً ما لاستخدام اسم مستعار مهما كان نوع العمل والنشاط. وأصبحت هذه طبيعة ثانية فينا، وكنا دائماً نستخدم اسماء مستعارة. ولذلك اسماني دان.

وخرج يوسي من الحمام، واجتذب الفتاة وقبلها. ولم تقاوم. فتركها ثم قال لحاييم: «هيا بنا فلدينا ما نفعله. . وكذلك دان»! ثم قال لي: فليبق الفراش دافئاً حتى رجوعنا»!!

والحق إن أسلوب يوسي أغاظني. فقد بدا الأمر وكأنني مستاء، في حين كان يجب أن تستاء الفتاة. . لكنها لم تكن مستاءة. فخضوعها من ناحية، وسوء تصرفه من ناحية ثانية، تسببا بإثارة غضبي.

وأحكمت إقفال الباب بعد مغادرتهما ووقفت قبالتي متكئة على الباب الذي أغلقته للتو. وشعرت بالضيق والإرتباك.

وسألتني: «هل يهمك أن تشرب شيئاً»؟ وكانت تبتسم لي للمرة الأولى.

ـ «سأشرب فنجان قهوة. . من فضلك».

ـ خذ راحتك على كيفك. . وسأعود بعد هنيهة».

وانسابت عبر الغرفة ناشرة في هوائها أريج جسدها الفوّاح. وكانت رائحة عارية ملحاحة. وشعرت بضغط الإثارة في أضلاع ظهري. وسمعت طرطقة الصحون في المطبخ. أشعلت سيكارة. والتقطت ما بدا وكأنه مفكرة صغيرة كانت على المنضدة. فتحت الدفتر فرأيته ممتلئاً بكتابة يدوية دقيقة الخط وكثيفة. وكان ردّ فعلي إعادته إلى مكانه. لكنتي ألقيت نظرة ثانية، فلم أر أية علامات على الغلاف.

فلو كان من كتب هذه الأشياء غير راغب في إطلاع الآخرين عليها، لما تركها في هذا المكان. وكان تخميني الأول أنها يوميات دينا، ولم أكن متشوقاً لقراءتها، لكن لم يكن لديّ ما أفعله ولم أكن راغباً في الجلوس كتمثال إلى أن تحين لحظة الفراش فنذهب إلى الجماع كغريبين مرتبكين يفعلان ما كان كلانا يعلم أننا عازمان على فعله أصلاً. ومن الجلي أنه لم يخطر على فكرها أن يوسي وحاييم جلباني لكي أتبادل معها أطراف الحديث. وكان يوسي قد أبلغني بأنه سألها إذا كانت راغبة في قدومي بعد أن لمحتني في القاعدة. وكان جوابها له إيجابياً. وهكذا فقد يكون في داخل هذا الدفتر ما يسعفني في تحطيم الجليد بيننا وتطرية الجو.

وأدركت أنني عدت للإحساس بالإثم مرة أُخرىٰ. فما الذي يفعله هنا رجل متزوج في السابعة والثلاثين وله ابنتان ويجلس على كنبة امرأة في الثالثة والعشرين بعد منتصف الليل في تل أبيب؟ لا بد أنني داعر وفاسق!

وبدأت بالقراءة. ولم يكن هناك معنى في البداية.

مجرد عبارات قصيرة مقفاة دون أن يظهر لي معناها. وعادت بفنجانين من القهوة يتصاعد منهما البخار الساخن، وجلست إلى جانبي على الكنبة. وانزلقت العباءة الثقيلة عن ركبتها التي لامست ركبتي صدفة تقريباً. واسترخت وتناولت فنجانها وشرعت بارتشافه.

ورفعت الدفتر سائلاً: «هل هذا لك»؟ وأومأت برأسها متوقعة أن أقول المزيد.

ـ «كتابتك أنت»؟

واقتربت مني، واتسعت ابتسامتها: «وهل تحب ما قرأت»؟

ـ «أظن إنه عظيم»!

ـ واقتربت أكثر، وانحنت إلى الوراء ضاحكة بلطف شديد:

«ماذا تعني»؟

ـ «ما قلته بالضبط». ثم قلت لنفسي إن رجلاً ذا قرنين مثلي لا يحق له الآن التحدث في الشعر.

فأضفت «أشعر بالحر حقاً»!

فقالت لي: «لم لا تأخذ حماماً سريعاً وتبدل ثيابك الآن؟ أظن أن هذا سوف يفيدك».

فسألتها ضاحكاً: «هل تعنين أن رائحتي نتنة»؟

ـ «كلا. لا. كلا على الاطلاق..».

ـ «أتمنىٰ ذلك من قلبي». ونهضت وبدأت استعد للحمام. «ليس لدي ثياب أبدل بها».

ـ «استخدم العباءة المعلقة على الباب، ثم تستطيع أن تأخذ شيئاً من ثياب زوجي»!

وتجمدت تماماً «ثياب من»؟

ـ «أوه. . لاتقلق. إنه لم يعد يعيش هنا».

وأطلقت آهة انفراج، وتنفست الصعداء.

وكان هناك شيء شهواني في الحمام. وكان هناك شيء شهواني في كل شيء في الشقة: بساطة الأشياء. الحلول المرتجلة التي يبتدعها الشباب لخدمة احتياجاتهم العملية. الأثاث. الأدوات الكهربائية التي شهدت ماضياً أفضل من حاضرها، واحتفظت مع ذلك بحسن أدائها بصورة مريحة. وعند خروجي من الحمام كانت الغرفة مظلمة باستثناء ضوء أحمر كان يتوهج في المدفأة الكهربائية.

وجاءني صوتها من زاوية الغرفة: «اذهب إلى الفراش وسألحق بك بعد لحظة».

وكان نبضي يتسارع وأنا أستلقي على الفراش عاقداً يدي تحت رأسي، وأنا لا أزال رطباً بالروب الذي وجدته في الحمام. وكان التطلع إلى الحدث المقبل هو ما يبقيني مستيقظاً، ونلت مكافأة رائعة. فقد جاءت إلى المكان المعتم الذي يلتمع فيه الضوء الأحمر، وهي لا ترتدي أي شيء على الاطلاق. وجاءت إلى الفراش مباشرة، وجلست إلى جانبي وأنحنت بجسدها الناعم الرشيق على رجلي المطوية وشرعت بالتربيت على صدري وأصبحت على وشك الإنفجار. فمرفقها لامسني، وبدأت تستشعر كم كنت أشتهيها، فابتسمت، في الفراش وداعبت نهدها بيد مكورة، بينما كانت يدي الأخرى تمر على سائر أنحاء جسدها الذي كان يرتعش استجابة لملامساتي. فدفعتني إلى الوراء وشرعت بملامسة كل جزء في جسمي. ثم ارتفعت بتؤدة فوقي والتحت بي. ان ذكرى ما شهدته تلك الليلة مهتزة نوعاً ما، لكني أذكر جيداً أنه لدى عودة يوسي وحاييم لأخذي، أبلغتهما بأنني سأمضي بقية تلك الليلة في بيت دينا، وسأراهم أصبحية اليوم التالي. فقد تمكنت من النجاة من حقائق الواقع القاسي، وأردت لنجاتي أن تطول، ولو على امتداد ساعات تلك الليلة فقط.

الفصل الرابع

تجنيد المخبر في البحرية الأميركية جوناثان بولارد والاشتراك مع الدانمارك في التجسس على فضيحة قضائية بارزة

الخميس، ١٣ شباط ١٩٨٦، الساعة ٤٥ : ٧.

وصلت إلى الأكاديمية وعدوت نحو المبنى ومعطفي فوق رأسي لأتقي المطر.

وكانت نظرة دوف ـ مسؤول تدريبنا ـ حانقة غاضبة. ولم يكن ذلك هو التعبير المألوف على وجهه المستدير، وطلب مني التوقف قبل وصولي ببضعة أقدام.

ـ «أين كنت بحق الجحيم؟»

ـ «وهل كان بيننا موعد؟» سألت.

ـ فرد قائلاً: «لست بحاجة إلى موعد لكي أنـ. . . . وإني أتحدث عن الليلة الماضية».

توقفت أنظر إلى السقف ثم سألته: «هل اشتقت إليّ؟ لقد أثرت عواطفي.»

ثم قال: «لم تكن في بيتك عندما اتصلت بك.»

فسألته: «وهل اتصلت بي في البيت؟» وشعرت بمزيج من الخوف والإثم. ثم سألته: «وماذا قلت لبيللا؟»

ـ «لا شيء. أردت التحدث إليك فقط.»

ـ «وماذا سأخبرها الآن؟»

ـ «لو كنت في منزلك لما توجب عليك أن تخبرها شيئاً.»

لقد خرق دوف بهذا التصرف الغبي الدستور غير المكتوب للتعامل الرفاقي

في الموساد: فقد اتصل بمنزل ضابط دون أن يكون هناك داع ملح للاتصال، بل ويبدو أنه لم يحاول تغطية موقفي حيال زوجتي حين أدرك منها أنني لست في المنزل. واشتعلت غضباً، وانفجرت قائلاً: «فلتذهب إلى الجحيم يا.. من جعلك والياً على البشر؟ ثق بأنه سوف يأتي يوم لكل كلب، وسوف يأتي وقت أعرف كيف أتعامل فيه معك!»

وسكبت لنفسي فنجان قهوة، ثم قلت: «حسناً، لقد وجدتني الآن، فما الذي تريده مني؟» وأصبح الموقف أكثر تعقيداً مما تخيلت.

وقال دوف وهو يحاول ألا يرفع صوته: «ما هي اللعبة التي كنت تلعبها مع الشرطة الليلة الماضية في اعتقادك؟».

ـ «لا شيء، أخذوني في سيارتهم ثم أعادوني، لماذا؟».

ـ «هل هذه هي الطريقة التي تتعامل بها مع شرطة عدائية بعد سنين من التدريب؟ هل هذا هو كل ما اكتسبته من التدريب.. عبارة «هل تتحدث معي؟»

ـ «هل تتحدث معي؟»

فرد دوف فوراً: «لا تلعب اللعبة معي فقد تجاوزت الحدود، وأنت تعرف ذلك جيداً.. لا تستفزني».

وضعت يدي على كتفه واجتذبته نحو زاوية الغرفة. واقتربت منه منحنياً وقلت له بصوت خفيض: اصغ إلي. لقد استعارك الموساد من الأمن الداخلي بسبب خبرتك في الأمن العملاني، صحيح؟»

ـ فهز رأسه موافقاً.

ـ «أنا ضابط موساد. وبعد أسابيع قليلة أتولى منصبي، وحتى لو لم يحدث هذا فما زلت كولونيلا (وهي الرتبة التي حصلتها في الموساد). إن رتبتي أعلى من رتبتك بكثير.»

فحاول الانسحاب لكنني تابعت: «في وسعك أن تبلغني ما شئت فهذا عملك. ومع ذلك، وإذا لم تكن تريد في أن أدق عنقك، وثق فإن هذا ما سوف أفعله، فسوف تعاملني باحترام. هل أوضحت لك ما أقول جيداً؟»

وتراجع قائلاً: «ارفع يديك عني!»

فقلت له: «سوف تحصل على تقريري قريباً جداً، وإذا لم تحب ما قرأت، تستطيع أن تفعل ما طاب لك، أما الآن، وبعد إذنك، فسأشرب قهوتي.» ثم توجهت إلى قلب القاعة.

كانت هناك أطراف أشياء تتطلب وصلها.

ومن أجل هذا الغرض جئت إلى الأكاديمية أصلاً. وكان الأمر يتعلق بمؤتمر عقد قبل شهر في فندق «كونتري كلوب» غير بعيد عن الأكاديمية على الطريق إلى حيفا. وكان ذلك المؤتمر قد استضاف ممثلي «كنيسة التوحيد في كوريا الجنوبية» بقيادة نيافة «صون ميونغ مون» وهي الجماعة المعروفة باسم «المونيين» وحلفائها. أما الاجتماعات فانعقدت مع نواب يمينيين في الكنيست الاسرائيلي ومع بعض الشخصيات العسكرية الاسرائيلية. كما شارك من جانبنا ممثلو المجتمع المخابراتي، بالاضافة إلى شخصيات مثل يهودا بلوم سفير اسرائيل السابق في الأمم المتحدة.

وكان في المؤتمر أيضاً كولونيل سابق في وكالة المخابرات المركزية الكورية وعدة جنرالات أميركيين متقاعدين.

وكان هناك رجل واحد لم أتحمل وجوده، وهو فرنسي يدعى بيار سيلاك كان عضواً في حزب فاشي فرنسي من أقصى اليمين المتطرف. وكان ذلك الرجل يطلب مني بلا انقطاع أن أجلب له أشياء. فكان اعتقاده أن كلمة «ضابط الارتباط» تعني «الخادم المكلف بجلب الأشياء».

وترك مذكرة لدى الموساد يطلب فيها برنامجاً كمبيوترياً يساعده في الاتصال وفي تخزين البيانات. وكان سيلاك حريصاً على إخفاء البيانات منعاً لاطلاع المخابرات الفرنسية عليها، وكان مفترضاً أن أتولى أنا جلب البرنامج الذي تم تعديله من أجله بواسطة شركة سيتكس الالكترونية الاسرائيلية، وارساله عن طريق الحقيبة الدبلوماسية إلى فرع الموساد في باريس الذي يقوم بايصاله إلى سيلاك.

ولم أستطع أن أفهم لماذا يتوجب علينا أن نتعامل مع هذه النوعية من الأشخاص أصلاً. لكن «ديفيد بيران» الذي كان المشرف على تنظيم المؤتمر قال

إن الفوائد أعظم بكثير من الروائح السيئة لهذه الشخصيات.

ولم يكن دوري أن أناقش بل أن أطيع وأنفذ. وهذا ما فعلته.

الجمعة: ١٤ شباط، مقر الموساد في بوليفار هنغ شاوول ـ تل أبيب.

«مرحباً فيكتور!» ذلك ما قاله يهودا غيل وهو كاتسا مخضرم (كاتسا هو واحد من نحو ٣٥ ضابط قضايا في الموساد)، وهو أسطورة حية في الجهاز، بينما كنت على وشك المرور أمام مكتب الأمن عند مدخل البناية. فالتفت نحوه فلوّح لي مشيراً إلى بهو يؤدي إلى قسم التصوير. هذا الرجل كانت له علاقة بكل عملية تتطلب تخطيطاً دقيقاً متقناً وكان مع ذلك من أشد الناس تواضعاً في كل الجهاز.

ابتسمت وسرت نحوه، وضع يده على كتفي وقال: «تعال معي، فأنا أريد تصوير وجهي القبيح من أجل جواز سفر أميركي جديد. أريد أن أتحدث معك.»

دخلنا غرفة التصوير الفارغة. وقال: «سوف يأتي المصور في غضون دقائق قليلة.»

ـ «وماذا بشأن جواز السفر الأميركي؟» ذلك أن الحصول عليه كان أمراً نادراً. فالموساد كان يحاول دائماً أن يتجنّب ـ ما أمكنه ذلك ـ استخدام جوازات سفر أميركية.

فقال: «سوف أعمل في الولايات المتحدة لصالح قسم آل (وحدة سرية تتألف من كاتساوات متمرسين يعملون بخفاء شديد في الولايات المتحدة) فلدينا عملية تنظيف كبرى هناك.»

فقلت: «لم أسمع أبداً عن قذارات هناك . فلم التنظيف؟!»

ـ «قضية بولارد!»

فقلت: «كنت أظن أنها مسؤولية لاكان (قسم العلاقات العلمية. وهو وحدة خاصة تابعة لمكتب رئيس الوزراء مختصة بجمع المعلومات في الولايات المتحدة وهي ليست جزءاً من الموساد). أليس كذلك؟»

فقال غيل: «إنهم من تسبب بهذه الورطة».

لكن علينا القيام بالتنظيف. وعليّ الاتصال بمستر اكس المشهور والاطمئنان إلى أنه لن يعتقله الأميركيون».

وكنت أعرف شيئاً عن القضية. فلاكام كانت قد جندت رجلاً يدعى جوناثان بولارد وهو أميركي يهودي يعمل في مخابرات البحرية الأميركية، وشغلته جاسوساً لها. وألقي القبض عليه في ١٩٨٦ من جانب FBI (مكتب التحقيقات الاتحادي) بعد أن رفضت السفارة الاسرائيلية في واشنط منحه حق اللجوء السياسي. وكان ذلك الرفض النتيجة المباشرة لتدخل الموساد، مع أن القضية كانت تعالج خارج الموساد. وأشيع أن هناك شخصاً كان همزة الوصل بين بولارد والموساد، عرف بلقب «مستر إكس». ولم نعرف القصة كاملة. أما ما كان يسْتجد من معلومات وتطورات فكان دفين الأوراق.

قلت: «إذن. . هناك مستر إكس فعلاً؟»

فقال غيل: «بالاسم فقط، ذلك أن مستر إكس ليس شخصاً واحداً. ذلك أن ايتان (رفائيل ايتان) ضابط سابق في الموساد، كان رئيس لاكام) أخذ منا قوائم سايانات (هم يهود يقدمون مساعداتهم للموساد، بدون أجر ويخضع عملهم لقيود عديدة منها عدم تكليفهم بمهمات في البلاد العربية مثلاً) عندما ترك عمله في الموساد، وذهب ليتولى رئاسة لاكام. واستخدم ايتان أولئك الأشخاص (الواردة أسماؤهم في القوائم) كمصادر للمعلومات. فكانت مهمتهم إبلاغ ايتان بأمكنة وجود المعطيات والبيانات، وكانت مهمة بولارد جلب نسخة مصورة عنها.» فسألته: «وهل وافقوا؟» وكنت أعرف أنه سؤال أخرق.

ـ «وافقوا؟ إن مهمة السايان هي تقديم الخدمة وليس طرح الأسئلة. وإذا لم نتحرك بسرعة الآن فسينتهي الأمر بوقوع آخرين في المعتقل الأميركي إلى جانب زنزانة بولارد. لذا فواجبي الذهاب لمنع حدوث ذلك. كم هو عدد اليهود الذين تعرفهم في أميركا من الذين يقبلون أن يوصموا بالخيانة وأن يسجنوا من أجل خاطر اسرائيل ومجدها؟».

وأومأت برأسي موافقاً: وسألته: «وما الذي أستطيع فعله لك؟»

ـ «لاشيء كل ما أريده هو التحدث معك عنك».

ـ «عني؟ ماذا هنالك؟»

فقال: «سمعت أشياء عنك، وأعتقد بأنك يجب أن تعرف.»

ـ «أية أشياء؟»

ـ «عندك أولاً مايك هاراري الذي استغفلك، والذي لا يزال يلاحقك وينشر قصصاً عنك. (هاراري ضابط موساد سابق متورط في أنشطة مشبوهة على امتداد العالم، واشتهر بعلاقة شراكة بينه وبين مانويل نورييغا حاكم بنما السابق المسجون في الولايات المتحدة الآن). ثم هناك جميع أولئك الذين تكثر من الحكي في السياسة أمامهم.»

ونظر يهودا غيل إليّ كما ينظر أستاذ إلى تلميذ رذيل صغير. وقال: «لك الحق في أن تكون لك آراؤك السياسية، ولكن بما أنك من الجانب الخطأ في ألوان الطيف السياسي، فواجبك هو الاحتفاظ بآرائك لنفسك.»

وكنت أؤمن بحق الشعب الفلسطيني في أن تكون له دولة خاصة في الضفة الغربية وقطاع غزة. وكنت أعتقد بأننا نفقد صورتنا الإنسانية بسببَ ما نسميه «الاحتلال الطيب للمناطق».

ولم أكن أؤمن بهذه الأمور فحسب، لكني كنت أعلن آرائي هذه في كل محفل ومناسبة. ولذلك وصموني بلقب «يساري». ففي اسرائيل عموماً، وفي الموساد خصوصاً، يتم الفرَز بين الجناح اليمَيني والجناح اليساري حسب الموقف من المناطق المحتلة. فاليمين يريد الاحتفاظ بها، بل وإذا أمكن ضمها إلى اسرائيل، بعد ترحيل معظم أهاليها الفلسطينيين. لكن اليسار يعتبر الفلسطينيين كياناً وطنياً له مزاياه وحقوقه، بما فيها حق تقرير المصير. أما القضايا الأخرى كالسياسات الاقتصادية والاجتماعية فلا تتطابق بالضرورة مع هذا الفرز. وبناء عليه فإن يسارياً متطرفاً في قضية المناطق المحتلة قد يكون يمينياً محافظاً في الشؤون الأخرى.

وكنت أعرف أنه لأمر خرافي أن يكون في مقدور جهاز الموساد بكل سطوته، المحافظة على وجوده، دون أن يصبح فاشياً، لكني كنت في حاجة لاستمرار الخرافة.

فقلت له: «إذن ما الذي تريده مني؟ أن أخرس وأطبق فمي؟ أليست اسرائيل ديموقراطية؟»

- «إنها كذلك، لكنك لست في اسرائيل بل في الموساد. وحتى يتاح لنا الوقت لتنظيف البيت، فسوف تتردى الأمور قبل أن تتحسن. نصيحتي لك هي أن تطأطىء رأسك حتى مرور العاصفة.»

- «وإذا لم أطأطىء رأسي؟»

- «سوف تخرج بأسرع مما تتصور، أو أسوأ من ذلك!»

- «وما معنى ذلك؟»

- «ما هو معناه في اعتقادك؟ نحن نتعامل مع الموت والخداع كل يوم. فكر بالمسألة.» وابتسم حزيناً، وأردت أن أسأله ألف سؤال، لكن المصور وصل في تلك اللحظة، فقال: «شكراً لأنك جئت لتوديعي» واستدار لمواجهة الصور. وكانت نهاية حديثنا.

الأحد، ١٦ شباط، الساعة . . ٨:

تم تعييني في المكتب الدنمركي في كنتري (قسم في فرع ارتباط) في مقر الموساد. وتوجهت إلى العمل في الصباح. وبعد تناول القهوة كالعادة، والثرثرة المعتادة في الدهاليز، تسلمت تكليفي بمهمة ذلك النهار. وكان أول عمل كلفوني به في عملي الجديد كومة من طلبات التأشيرة الدنمركية كانت قد أرسلت إلينا عن طريق الحقيبة الدبلوماسية. وكانت نسخاً مصورة عن الأصلية، وكانت جزءاً من خدمة - كما كنا نسميها - نقدمها للدنمركيين.

وكان جميع طالبي التأشيرات لدخول الدنمرك من أصول عربية. وكان الاجراء المعهود هو مقارنة أسمائهم مع البيانات الموجودة عندنا. وكان نظام جديد للعمل قد تم «تركيبه» قبل بضعة أشهر بحيث أصبح اجراء التحقق من الأسماء ومضاهاتها بما عندنا، اجراء سريعاً لا يتطلب غيرالقليل من الوقت والجهد. وكانت لدى الكمبيوتر أسماء أكثر من مليون ونصف المليون شخص مخزونة في ذاكرته. وكانت بضع ثوان كافية لمقارنة الاسم بالبرنامج الكمبيوتري الجديد الذي قيل يومئذ أننا سرقناه من دولة حليفة!

وبعد عدة أيام، طلب إلي «بيني. أس» (وهو الرجل الثاني في قيادة كنتري) الاتصال بـ«هومبر» وهو الاسم الرمزي لرجلنا في (اسكندنافيا)، وابلاغه

بوجوب أن يطلب من السلطات الدنمركية ترتيب عملية تنصت جديدة على شخصية قضائية بارزة في الدنمرك يدعى «غاملتوفت هانسن».

وكان هانسن هذا نصيراً متحمساً للفلسطينيين وأستاذاً في إحدى الجامعات. وكانت الشرطة الدنمركية قد قامت بتركيب جهاز تنصت في مكتبه من أجلنا قبل بضعة أعوام. وقال «بيني»: «أدرس الملف، ثم أعط التوصية التي تراها للعمل، فنحن نعتقد بأن هانسن يشتبه في أن مكتبه يحتوي على جهاز تنصت، وذلك من الطريقة التي يدير فيها أحاديثه، فإذا ركبنا جهاز تنصت في منزله، نحن متأكدون من الحصول على نتائج أفضل».

الاثنين، ١٧ شباط

استنتجت مما وجدته في ملف المخابرات الدنمركية السري أن لدينا «صديقاً جيداً» في الدنمارك، أكثر وداً وتعاوناً من جهاز «شبك» الاسرائيلي!

فكان لدى الدنمركيين جهاز صغير للمخابرات راغب في أن يلعب دوراً في التحالفات الكبيرة، لكنه لم يكن يملك الدراية الكافية في العمل، ولا الامكانيات المالية المساندة.

ومن ناحية ثانية كان في وسع المخابرات السرية الدنمركية جمع معلومات داخل الدنمرك نفسها وتنفيذ أعمال دون الوقوع في المصيدة بأكثر مما كنا نحلم. وفي المقابل، كان المردود الذي نقدمه لهم هو أن نجعلهم يشعرون بأهميتهم.

وفي اليوم نفسه جاء جواب «هومبر» من أجل تركيب جهاز تنصت آخر في منزل الأستاذ الجامعي الدنمركي، فقد بدأوا العمل لتركيب الجهاز فعلاً. وكانوا قد وضعوا الجهاز الأول في مكتب الأستاذ في أواخر ١٩٨٤. وقام بذلك العمل عميل لنا مزروع داخل المخابرات الدنمركية كان اسمه «شميدت» وكان اسمه الحركي «لون زيتي». وكلف شميدت فرقة من الشرطة بتركيب جهاز التنصت، ولفق قصة زعم فيها أن شخصاً ما طلب تركيب الجهاز وذلك للتخلص من بعض المضايقات التليفونية التي تزعجه! لكنه أعطى الشرطة عنوان مكتب الأستاذ هانسن، فقامت بتركيب الجهاز في هاتف الأستاذ دون أن تدري! ولم يكن يعرف بالأمر سوى «لون زيتي» و«هومبر» فقط. وكانت الأشرطة تنقل مباشرة ودون أن

يلمسها أحد إلى «هومبر» كل أسبوعين، بصورة منتظمة كعمل الساعة الجيدة. وكان الجميع سعداء! وكان الطلب الثاني لي من «هومبر» أن يحاول الحصول على معلومات أكثر عن نشاط المنشق الكوري في الدنمرك. وكان هذا طلباً من ضابط اتصال وفاء لوعد قطعه لجماعة «مونيز». وكان طلب مماثل قد وجه في ١٩٨٢ لكن الدنمركيين رفضوا تزويدنا بشيء بهذا الخصوص عندئذ. أما هذه المرة فكان ردهم الاستعداد للتجاوب. كما رغبوا في معرفة درجة حساسية المعلومات. وكانوا يقومون بجمع المعلومات من أجل وكالة المخابرات المركزية الأميركية CIA ولم يكونوا راغبين في أن يصطادهم أحد في غمرة التنفيذ.

وأعدت فحص الأمور مع «امنون بيليغ» ضابط الاتصال مع CIA الذي كان جوابه أن CIA سوف تطلق علينا النار جميعاً إذا عرفوا بأننا نقدم هكذا معلومات للمونيز. وطلب مني بيليغ تأجيل نقل المعلومات. وما أن حل المساء حتى كانت القضية تتحول أزمة. فرئيس ضباط الاتصال أصرّ على تسليم المعلومات للمونيز. وقال إن شبتاي رئيس «ميلوخا» هو الذي وعده بالمعلومات. لكن شبتاي كان خارج اسرائيل وفي مكان يتعذر الاتصال به. فقد كان في روما ضيفاً على رئيس المخابرات الايطالية. وكانت زيارة عمل. وكان شبتاي قد أخذ معه مناحيم دورف رئيس «سايفانيم» (قسم للأبحاث في الموساد مكرس كلياً لمنظمة التحرير الفلسطينية ونشاطها). فقد كانت لديهم معلومات تربط صبري البنا (أبو نضال) بالهجوم على مطار روما الذي وقع يوم ٢٧ كانون الأول ١٩٨٥.

وكانت معلومات وثيقة يعتمد عليها، وإن كانت فيها ثغرات ملئت بالشطارة، تربط أبو نضال أيضاً بأعمال ارهابية أخرى ارتكبت في ايطاليا. ومن روما كان شبتاي سيطير إلى فرنسا للاجتماع مع قادة المخابرات الفرنسية بشأن أنشطة جماعة «أبو نضال» هناك.

وجاء القرار أخيراً لمصلحة المونيز، فرئيس «كنتري» قرر المضي قدماً وابلاغ «هومبر» بتحريك «شميدت» وتكليفه بوجوب الحصول على المعلومات عن طريق السرقة إذا اقتضى الأمر!

الأربعاء، ١٩ شباط

وصلت المعلومات المطلوبة من المونيز قبل الظهر، وسلّمت مباشرة إلى «تراكسين» (القسم المخصص بتحليل المعلومات في «ماشوف» وهي دائرة الاتصالات). وتم التحليل للتأكد من خلوّها من أية اشارة تدل على المصدر. ثم مررت المعلومات إلى قسم الارتباط الذي بعث بها إلى اليابان، حيث قام ضابط ارتباط الموساد هناك بتحويلها إلى الشرق الأقصى، وتم تسليمها إلى «كنيسة دكتورمون».

وفي اليوم نفسه بعث «هومبر» بفاكس عبر خط آمن في السفارة الاسرائيلية في الدنمارك.

فأبلغني بأن الوحدة الخاصة لمكافحة الارهاب التابعة لـ PURLES - A (الاسم الذي يعطيه الموساد لجهاز المخابرات السرية المدنية الدنمركية) دخلت منزل الأستاذ وركبت «غلاس» (وهو جهاز تنصت يركب في الهاتف يسمع ويسجل الأحاديث الدائرة في الغرفة بالاضافة إلى المكالمات الهاتفية). وقال في الفاكس أن العمل تم تنفيذه على الرغم من احتجاج ضابط دنمركي يدعى «دلسبغارد» الذي لم يفعل شيئاً آخر سوى تسجيل اعتراضه!

الجمعة، ٢١ شباط

أعيدت إلى مكتبي طلبات التأشيرة الدنمركية التي كان من المتوقع أن تخلق اشكالات. وكان بينها العديد من الأسماء التي كانت مخزونة في كمبيوترنا، بما يعني أن أمر أصحابها يهمنا. وكان الإجراء المعهود يقتضي التدقيق مرة أخرى بعد الفصح الأول، لأن الأسماء العربية «تخربط» بصورة مربكة. وكان ضرورياً مقارنة البيانات والتفاصيل الأخرى كمكان وزمان الولادة قبل التأكد.

وبهذا تخلصنا من نحو ثمانين بالمئة مما يسمى «الملفات الساخنة» بين طالبي التأشيرة.

فما أن يعتبر اسم من الأسماء «ساخناً» ويتم التحقق منه، حتى يضاف إلى جدول اسمي يحتفظ به الموساد، مع كل البيانات والتفاصيل المتوفرة. وكان

الجدول يمرر إلى مركز العمليات بعد يومين. وكان أولئك في المركز يقومون بتحليل الأسماء الجديدة لمعرفة ما إذا كان هناك موجب لاجراء فوري أو سريع. فإذا كان القرار العمل الفوري فإن الموساد لا يعطي الدنمركيين رداً بشأن الشخص المعني. فيفترض الدنمركيون في هذه الحالة أن كل شيء على ما يرام ويوافقون على إعطائه تأشيرة دخول، وما أن يصبح الشخص على الأراضي الدنمركية وتحت رقابة جماعتنا، حتى يتم إبلاغ الدنمركيين بأن هذا الشخص «خطر». فيوقفون فوراً اجراءات اللجوء الخاصة بالشخص ويستدعونه للتحقيق. ويحاول ضابط موساد عندئذ تجنيد الشخص نفسه وهو محتجز. فإذا نجحت عملية التجنيد، يخلى سبيله ويصبح عميلاً للموساد عاملاً في داخل المجتمع الفلسطيني في أوروبا أو في أي مكان آخر. أما إذا لم يتم تجنيده فستوجه إليه تهديدات ويفرج عنه. وفي العادة يهرب الشخص إلى دولة اسكندنافية أخرى حيث تتمتع الموساد بنفس الوضع وتنفيذ اجراءات مماثلة، وتبدأ العملية نفسها مرة أخرى منذ خطوتها الأولى.

وقال رئيسي متفاخراً: «تمكنا عن طريق هذه العملية من تجنيد نحو ثمانين فلسطينياً خلال العام الماضي.» ثم أضاف: «إنها أكثر سهولة من أن تكون قانونية».

لكنها لم تكن كذلك. وعندما سألت ما إذا كانت هذه العملية يمكن أن ترتد علينا بمتاعب، أي أن تكون لها نتيجة عكسية، حصلت على الجواب المعهود الذي اعتدت سماعه: «هذه طريقتك منذ دخلت الموساد.. أن تسأل وماذا بعد؟».

خلال الأيام القليلة التالية أصبحت الأمور ضبابية نوعاً ما. وكنت أعمل على مدار الساعة متهيئاً لرحلتي إلى سريلانكا. فقد كلفت بمرافقة شحنة من الألغام إلى «نمور التاميل» وقبض ثمنها. وكنت أتدرب على كيفية «تغطية» نفسي في الرحلة، وأخضع للمسألة من جانب رئيسي حول كل جوانب المهمة وقصة التغطية.

وبدا وكأن كل من في المبنى كان هائجاً كالمسعور.

فكل شخص مع كلبه كان يبحث عن معلومات من شأنها وقف جهود الملك الأردني حسين من أجل مبادرة سلمية. فالمبادرة باغتت الموساد على حين غرة. وفهمنا من مصادر في الولايات المتحدة أن كل حكاية المبادرة

السلمية «زعبرة» وتمثيلية فارغة. وقبل شهر واحد قالوا إن هذه المبادرة السلمية ولدت ميتة. لكن فجأة وبطريقة ما انبعثت تلك المبادرة من قبرها ودبت فيها الحياة مرة أخرى. ومع أن ياسر عرفات لن يعترف باسرائيل، فقد وافق على الاجتماع مع الملك حسين.

وكان الحديث الرائج أن المبادرة لعبة يلعبها ملك الأردن، وأن كل ما يبتغيه كان موافقة الأميركيين على أسلحة طلبها بملياري دولار. وأكدنا لرئيس الوزراء (الاسرائيلي) أن هذا لن يحدث. فكل اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة كان مستنفراً ومعبأً لمنع الصفقة. وكان الرجل المسؤول عن عملية الحشد وتنظيم الحملة تسفي غاباي رئيس المكتب الخارجي في قسم المخابرات في الموساد. وأعطيت له قوائم بأسماء السايانات والمنظمات المساندة للصهيونية التي يمكنه تعبئة جهودها. ولم تكن تلك مهمة يسيرة. فقد كان في وسع الأردنيين شراء الأسلحة من أي مكان آخر غير الولايات المتحدة ولم يكونوا يتسوّلون منحة أو هبة، بل أرادوا إنفاق أموال في الولايات المتحدة، وكانوا يتطلعون إلى صفقة تدفع نقداً. وكنا نعلم أنهم إذا أفلحوا فسينفتح أمامهم سوق أميركا المتشوق لبيعهم أي شيء. ولذلك كله لم تكن الصفقة تحتمل من جانبنا أية مجازفة. وتم تقسيم المجتمع اليهودي الأميركي إلى ثلاث فرق عمل يقوم كل منها بدوره في إحدى ثلاث مراحل. أولاً كان هناك السايانات (وللتذكير نقول إنهم يهود يتطوعون لتنفيذ مهمات معينة بدون أجر). (ملاحظة من مؤلف الكتاب: لو انقلب الوضع وحدث العكس: أي أن تقنع الولايات المتحدة الأميركيين العاملين في اسرائيل بالعمل سراً بالنيابة عن الحكومة الأميركية، لعاملتهم السلطات الاسرائيلية كجواسيس) وثانياً هناك اللوبي الكبير المؤيد لاسرائيل الذي سيقوم بتعبئة طاقات المجتمع اليهودي الأميركي وإجباره على العمل في أي اتجاه يرتأيه الموساد. وثالثاً هناك «بناي بريت». فأعضاء هذه المنظمة اليهودية الأميركية يمكن الإعتماد عليهم لتكوين صداقات بين غير اليهود واستخدام لطخة اللاسامية لتشويه سمعة أي شخص لا ينصاع للقضية الاسرائيلية.

فباستخدام تكتيك «واحد ـ اثنان ـ ثلاثة» الموصوف هنا، لم يكن وارداً أن تفشل حملتنا أبداً.

الفصل الخامس

الموساد يتخلى عن اوستروفسكي وينهي العقد معه

الخميس، ٢٧ آذار ١٩٨٦

انقضى شهران منذ خيبة قبرص المخزية، ولا يزال الجهاز يكابد العذاب في كيفية التعامل معي، فمن ناحية استثمرت قيادة الموساد الكثير في ايصالي إلى هذه النقطة. ومن جانبي فقد كانت استجابتي جيدة.. أنني كنت نتاجاً طيباً للجهاز وتدريباته وأنماط عمله، ومع ذلك فقد توصل عدة مسؤولين كبار في الجهاز إلى اعتباري بؤرة ازعاج وشقاق. وهناك شخص بالكاد كنت أعرفه، اسمه افرايم، جعل همه الشخصي طردي من العائلة الأولى في الدولة حسب تعبيره (وكان يقصد الموساد طبعاً). فبطريقة ما جعلوا هذا الشخص قيّماً على عملي ومقيّماً لأدائي، ولم يكن مسروراً بعدة أشياء وجدها في ملفي، وقال إنني «ملتهب وملهب» وأن تفجراتي السياسية محطمة تماماً للمعنويات. وكان يوافق على أنني أهل لأن أكون «ضابط قضايا»، لكن ميلي إلى اليسار يجعلني خطراً مهدِّداً للجهاز.

تعتبر الموساد منظمة صغيرة الحجم فيها ثلاثون إلى أربعين «ضابط قضايا» يعتبر كل منهم شخصاً مهماً لأسرة الجهاز. وكل ما يصيب أحدهم يؤثر على الآخرين. وكان وضعي معروفاً وموضوعاً للبحث والنقاش في كل تجمع لا أشارك فيه تقريباً. وكنت أسمع بذلك كله من أصدقاء، لكنني لم يكن معي «حصان» (هكذا كانت التسمية الدارجة لمسؤول كبير يتبنى ضابط القضايا ويعتبره واحداً من شلّته ويسعى لنجاحه وتقدمه) يتكلم من أجلي.

أما الآن فقد أصبحت على يقين من أنهم سوف «يلبطونني» خارجاً.

ووقفت خارج الأبواب الخشبية الكبيرة للأكاديمية، عند حافة الباحة المخصصة لاصطفاف سيارات العاملين في الجهاز. وتأملت الشمس الشتوية وهي تغطس بتؤدة في مياه الأبيض المتوسط. وتساقط رذاذ خفيف بنعومة بينما كان النور يحتجب على عجل.

وجاءني في صوت من داخل القاعة الرئيسية: «فيكتور». التفت فإذا هو «دينور» الذي كنت أعتبره صديقاً. وكنت واثقاً من أنه لا يزال على صداقته.

ـ «ماذا؟»

ـ «يريدون التحدث إليك» وأشار إلى ناحية المكاتب.

ـ «هل الرئيس هناك؟» هكذا سألته حيث أنني ضابط قضايا في الموساد، وفي طريقي للخروج من المبنى، فقد كان من حقي أن أتعامل مع أكبر رأس في الجهاز تعامل الند مع الند. فإذا أنكروا عليّ هذا الحق. فإن لدي امتيازاً آخر أستطيع اللجوء إلى استخدامه، وهو أن أطلب جلسة استماع مع رئيس الحكومة.

وكان ردّ دينور: «كلا. الرئيس غير موجود، لكن ديفيد أربيل موجود.»

وقلت له: «من حقي أن أتكلم مع روم» (وكان روم الاسم الحركي لرئيس الموساد).

فقال: «لم لا تصغي إلى ما سيقوله اربل وجدعون نفتالي؟»

فزعقت: «نفتالي؟ وماذا يريد نفتالي بحق الجحيم؟»

وكان نفتالي هذا رئيس القسم النفسي ـ العصبي، وهو شخص لم أكن أحترمه. فأثناء الدراسة في الكلية العسكرية كان هناك ضابط طالب دارس لعلم النفس، كانت هوايته السخرية من نفتالي وحبك الألاعيب عليه.

فقال دينور أخيراً: «انظر يا فيكتور. لا تطرح عليّ كل هذه الأسئلة، بل أدخل واسألهم ما شئت».

أومأت برأسي وبدأت سيري نحو القاعة متوقفاً أمام طاولة القهوة لآخذ فنجاناً وأتناول بعض المحارم الورقية كي أجفف شعري من مياه الرذاذ. وكان دينور يسير إلى جانبي. وشعرت وكأنني رجل في طريقه إلى المقصلة.

وأطل جدعون برأسه من المكتب وقال: «فيكتور، نحن في انتظارك. فهل تدخل هنا من فضلك؟»

وقال دينور: «إذهب.. إذهب يا رجل؟» وكان يدفعني نحو المكتب.

أومأت برأسي ودخلت الغرفة وسألت: «هل طلبتموني؟»

وقال أربيل بصوته الثقيل الذي يشي بشعوره بأهميته: «نعم، نريد أن نتحدث معك بخصوص إنهاء عقدك مع الموساد.»

فسألت: «متى يمكنني التحدث مع الرئيس؟»

وقال بغير اكتراث وكأنه يتحدث مع سكرتيرته طالباً تدبير مكالمة هاتفية: «لن تتحدث مع الرئيس. وسيكون هذا آخر حديث معك!»

وشعرت بكتلة من الغضب تتفجر في داخلي. وكان واضحاً تماماً أنهم يريدون إنهاء المسألة بأسرع ما يمكن. لم أعد واحداً منهم، ولم يعودوا «يهضمون» وجودي حولهم في أي مكان. لقد غدروا بي وأنكروا علي الحق في أن تكون لي آراء أؤمن بها. وتبين أن ما في قبضتي هشيم.. مجرد هشيم!

ـ «ماذا تقول؟ أنت لست الرئيس.. وهذا المهرج لا ينبغي أن يكون هناك على أي حال!»

فقال أربيل: «انتبه لكلامك يا فيكتور!»

لكنني تابعت قائلاً: «ولن تصبح رئيساً أبداً!»

ـ «كفى. كفى.» وكانت عينا أربيل تقدحان شرراً. ولاحظت بوضوح أنه كان يشعر بأن زمام المحادثة قد أفلت من يده. فقال: «أردت التحدث معك قبل مغادرتك. وإذا لم تكن تريد أن تعطي جواباً فلا مانع بالنسبة لي. والواقع أنني سأكون في غاية الامتنان لرفضك الرد. والآن اسمع ما أقول ولا تنسى أبداً هذا الكلام».

ورفعت ظهري إلى الوراء على الكرسي. واقتنعت بأن أسلوبه هجومي وعدائي، لكن السلطة كانت في يده.

ثم أردف اربيل قائلاً: «في اللحظة التي تصبح فيها خارجاً ـ أي ترك العمل

في الموساد ـ فينبغي لك أن تنسى كل شيء عرفته وفعلته وسمعته في هذا الجهاز كلياً.»

فقلت: «تصورت أنني سأحظى بفرصة لأبلغ الرئيس بما أعتبره أموراً خاطئة. وأنا أعلم أن ما سأقوله لن يكون ذا أثر عظيم، لكن فليتظاهر الرئيس على الأقل بأنه يصغي إليّ عندما أكلمه.»

وهزّ نفتالي رأسه بدون أن يفتح فمه بكلمة واحدة.

وتابع أربيل قائلاً: «حسناً فكما ترى فهذا لن يحدث. فلماذا لا تبصق ما لديك هنا وقل ما تشاء وسوف أنقل للرئيس كلامك.»

فسألت: «ولماذا لا أتحدث مع رئيس الوزراء إذا كان رئيس الموساد يرفض التحدث معي؟»

وقال بنبرة تدل على ضيق الصدر ونفاذ الصبر «سوف تتحدث معي.. وانتهى الموضوع.»

فقلت: «في عقد العمل معي هناك نص يقول إنه في حال صرفي من العمل بغير إرادتي فسيكون لي اجتماع مع رئيس الموساد و/أو رئيس الحكومة. ويقول العقد أن الاجتماع به قبل الصرف النهائي من الخدمة.» ثم تحركت واقتربت منه متحدياً ـ بلا وعي ـ سلطته غير المحدودة.

وابتسم في خيلاء في وجهي وقال بزهو: «لن أكترث أبداً بما ورد في عقدك. فإلى من ستشكو أمرك؟»

ثم خفض صوته وتابع قائلاً: «ألا ترى بعينيك؟» فنحن الذين قطعنا ذلك الوعد ونحن الذين ننكث به. وفي وسعنا أن نفعل بك ما نشاء. وأستطيع وضعك في السجن في هذه اللحظة وأن أرمي المفتاح بعيداً. وأنت تعرف أن هذا حدث مع آخرين. أنت لست أكثر من بعوضة على رأسي. وأصبحت مصدر إزعاج وأنا مستعد لسحقك وتدميرك. فالأفضل لك أن تصغي لما أقول يا فيكتور: تحرك وابتعد طالما أنك تجد وقتاً لتفعل ذلك!!»

فقلت: «هل معنى هذا الكلام الرفض؟» وكنت أعرف أن هذا السؤال استفزازي.

فقال: «هل أنت أصم لا تسمع؟ قلت لك إنك لن تتحدث مع أحد. وأصبحت خارج الحلقة، خارج اللعبة، وإذا لم تكن حذراً فستصبح خارج هذا العالم!»

قلت بإلحاح: «ماذا تقول؟ أنك سوف تقتلني إذا لم ألعب اللعبة على طريقتك؟ قد أكون سقطت في واجب ما، وإذا كنت راغباً في تصديق الأقاويل، فإنني خربت عملية ما.

لكنك تعرف كما أعرف أنني واحد من أفضل الأشخاص الميدانيين لديك. وأنا لا أزال وطنياً شئت أو لم تشأ. ويبدو أنك بدأت تصبح غير ذلك. قد تكون مسؤولاً عن الأمن في البلد، لكن لم ينصبك أحد ملكاً حتى الآن.» ونهضت واتجهت نحو الباب.

ونهض أزبيل على قدميه وقال صارخاً بحدّة: «لا تتحرك بدون أمري!».

فقلت وأنا غير ملتفت ناحيتهم: «اذهبوا إلى الجحيم!»

عندما وصلت إلى الباب كان نفتالي إلى جانبي متهدّج الأنفاس. فالمشوار القصير يتعب الضعفاء. فتوقفت واستدرت نحوه سائلاً: «ماذا تريد؟»

ـ «هناك شيء يجب أن أقوله لك: هل نتحدث بدون مجاملات مهنية؟»

«هيا، أسمعك، لكن بسرعة لأن لدي حياة أريد أن أبدأها.»

ـ «عندما قابلتك في مراحل التدريب والاختبار النهائية، كنت أريدك خارج اللعبة. وكنت أعلم أنك ستكون متعباً، لكنني غلبت على أمري، فقد توسموا فيك كفاءة عملانية عظيمة حسب تعبيرهم.»

ـ «حسناً، أنا خارج، وهذا سوف يسعدك.»

فاحمر وجهه وقال: «سوف أتحمل مسؤولية ما أقول وهو أنك حوّلت الكثير من القادة أعداء لك بسببك أنت.»

ـ «فماذا تريد مني إذن؟»

ـ أصبح لديّ ملف كامل عن وضعك النفسي. والواقع أنني كنت أراقبك منذ سنين. وأعرف أنك تعلمت الكثير في الدورات وفي الوقت القصير الذي قضيته في العمل الميداني. أنت الآن خبير في فنون القتل والسرقة والتزوير والتعبئة واقتحام الأماكن.

وبما أنك قد تعلمت فعلاً ذلك كله فإنك تؤخذ الآن إلى العالم الخارجي بدون أية فائدة حقيقية لكل هذا الذي تعلمته.»

ـ «وهل يخيفك هذا؟ هل يقلقك احتمال أن أهاجمك في أحد الأيام مثلاً أو ما شاكل ذلك؟»

ـ «لا تكن سخيفاً. كل ما أريده هو أن أوضح لك أنك أمام مشكلة أساسية، وينبغي لك أن تعالجها وإلا قتلتك.»

وتوقف برهة، ثم تابع: «إن لديك ما يسمى بالمصطلح الحديث نقص الخوف.. أي انعدام الخوف.»

ـ «ماذا؟»

ولم تختلج عضلة واحدة في وجهه فتابع قائلاً: «أنا لا أمزح. فقد كان ذلك من الأسباب الرئيسية التي جعلتهم يختارونك أصلاً. فمعظم العاملين في الجهاز يعانون المشكلة ذاتها. لكن لديهم الجهاز الذي يتولى رعايتهم. ولم يعد لديك الجهاز منذ الآن فصاعداً.

فقبل أن تتعلم كل ما تعلمته في الموساد، لم يكن ذاك شيئاً ذا أهمية.» وابتلع ريقه ثم قال: «وقعت وستقع في مشكلات لأنك لا تخشى العواقب. فليتك تدرك حقيقة أن الخوف هو عبارة عن آلية حمائية لنا، وأن الافتقار إلى الخوف هو عبارة عن نقص حقيقي. وما يجب أن تذكره هو أن تقوم بتحليل كل شيء توشك أن تفعله، ذلك أنك تفتقر إلى الخوف الطبيعي الذي يعتمد عليه الناس للوقاية والحماية.»

فسألته: «إذن هل معنى كلامك هو أن أجد وظيفة أعمل فيها أعمالاً لا تستدعي ما تعلمته هنا؟»

ـ «نعم من الأفضل لك أن تفعل هذا.» وأحنى رأسه وشخص ببصره نحو قدميه.

ـ قل لرئيسك أن الأمور لم تنفع معي. وقد تكون محقاً فلا شيء يخيفني!»

فقال: «هذه الخصلة سوف تقضي عليك يوماً من الأيام إذا لم تحترس يا فيكتور.»

«طاب نهاركم.» قلت هذه العِبارة الختامية، واتجهت نحو سيارتي. وكنت أشتعل غضباً. وما أن أصبحت داخل هذا الصندوق الأزرق ـ سيارتي حتى لمعت الفكرة في رأسي: عندما اقطع بسيارتي الثلاثمائة قدم واخرج من البوابة، فسينتهي كل شيء. وكل من عرفته في الموساد سوف يصبح غريباً عني. ومنذ هذه اللحظة سوف تتلاشى وتنتهي جميع المصادر التي كنت أحصِّل منها المعلومات وما يترتب عليها من قوة ونفوذ.

ولم أستوعب الوضع. فالحياة بعد الموساد... بدت في تلك اللحظة مستحيلة كجمع الأضداد. وشعرت وكأنني شخص مسحوب من إحدى لوحات سلفادور دالي السوريالية ودفع بي للنزول إلى عالم الواقع.. وهو عالم يتخذ الناس فيه نفس الأحجام التي ولدوا ليكونوا عليها، ولا يقدرون أن يصنعوا إلا ما يسمح لهم بصنعه.. عالم تحترم فيه الأنظمة وتلتزم القواعد ولا تخرق.

وشعرت بأنني منبوذ، وشعرت كذلك برغبة في ضرب أحد. أدرت السيارة واتجهت نحو البوابة. وعاد إلى ذاكرتي أنني دخلت هذه البوابة المرة الأولى رجلاً سعيداً بهيجاً بشوشاً حشرياً وقلقاً كطفل انفتح أمامه كهف علاء الدين بما فيه من كنوز. والآن ها أنذا أنطلق في الاتجاه المعاكس رجلاً يحس بالغدر والخيانة والمرارة.

وتوقفت عند البوابة منتظراً انفتاحها، وكنت شاخصاً قدامي عندما سمعت نقرة على نافذة السيارة. وكان حارس المنطقة. أنزلت الزجاج وسألته دون أن أتطلع في وجهه: «ماذا؟»

فقال: «أمروني بأن آخذ منك بطاقة الدخول.. من فضلك.»

ورغبت في أن أتفوه بعبارة قذرة، لكن تعبيراته كانت اعتذارية، ولم يكن يدري ما يقول أو يفعل. فسحبت البطاقة البيضاء من جيبي ووضعتها في يده. وقلت: «والآن هل لكم أن تفتحوا هذه البوابة اللعينة وتتركوني أخرج من ثقب البراز هذا؟»

وتحركت البوابة بسرعة، لكنني لم أنتظر انفتاحها كاملاً وعاجلت الخروج منها وأنا أضغط على دواسة البنزين بشدة. وجنت إطارات السيارة وأنا أقتحم

ظلام الليل، كنت أعلم أنني متجه إلى بيتي. لكنني لم أكن بعد مستعداً للذهاب إلى هناك. فما حدث لن يصبح حقيقياً إلا لحظة أبلغ به زوجتي بيللا.

ولم يتوقف تساقط المطر. وقدت السيارة متباطئاً في شوارع تل أبيب. وبدا كل شيء كالحاً كامد اللون كئيباً.

وقبل الآن كان التحدي في كل مكان، أما الآن فخواء ولا شيء.

وليس هناك من يتعقبني، ولم يعد هناك رئيس أعود إليه ولا مكان أداوم فيه. وعدت آدمياً من تراب وفناء بعد طردي من الجنة. وحان وقت العودة إلى المنزل ومحاولة لململة أشلاء حياتي من جديد.

الفصل السادس

علاقة الجناح اليميني في الموساد ببشير الجميل

كان الليل قد انتصف عندما عرّجت على موقف سيارتي تحت البناية التي فيها شقتي في هرتسليا. وفيما كنت أقفل السيارة سمعت نداء من داخل غرفة المخزن: «فيكتور».

تراجعت.

ـ «لا تخف، أنا هنا لأخذك إلى اجتماع.»

حاولت رؤية من كان يتحدث معي، لكن كل ما تمكنت من تبيّنه كان شبحاً أسود يتكىء على الجدار داخل غرفة المخزن. ولم أتمكن من إضاءة النور في الموقف، فسألته: «من أنت؟»

ـ «مجرد رسول. ولا أستطيع الرد على أي سؤال. لكن ليس هناك ما يقلقك.» وتوقف لحظات مصغياً إلى جهاز استقبال كان يضعه في أُذُنِهِ. ثم تابع:

«كما قلت لك ليس هناك ما يثير قلقك. ولم يكن هناك من يتعقبك في طريقك إلى هنا. كما لم تكن هناك أية مراقبة لهذه البناية باستثنائي أنا طبعاً».

وفتح باب الحاجز عند مدخل الموقف واقترب مني قائلاً: «هل نذهب؟»

ـ «هل هذا مقلب من المقالب الهزلية؟»

ـ «صدقني... هذه ليست مزحة، انظر، لو كنا نريد ايذاءك لكان في مقدورنا أن نفعل ذلك حتى قبل اجتماعك مع أربيل. أوكي؟»

لا أحد في الكرة الأرضية من خارج الموساد كان يمكن أن يقول ما قاله

الرجل. وشعرت بالادرينالين يتدفق ويندفع في بدني. وفي أعماقي كنت أتمنى أن يكون الموساد قد تراجع وبعث يطلبني.

ثم قال: «هناك سيارة لانسيا سوداء متوقفة عبر الشارع. اذهب واجلس في المقعد الخلفي وسوف يقلونك إلى الاجتماع.»

ـ «ولم لا أذهب بسيارتي؟»

ـ «لا تقلق سوف يعيدونك».

ـ «أوكي. لكن عليّ أولاً أن أبلغ زوجتي بذهابي، فستقلق إذا رأت سيارتي ولم تجدني».

ـ «لا مانع شريطة ألا يستغرق الأمر وقتاً طويلاً».

والواقع أني كنت مستعداً لأن أنفجر بغضب جنوني في ذلك الوقت، فقلت: «أنظر، سوف يستغرق حديثي مع زوجتي الوقت الذي أريده. أما أنت فتستطيع العودة إلى تلك الغرفة الصغيرة هناك وتبيض بيضتك!»

فقال: «آسف. أذهب وسوف ننتظرك، لكن أسرع من فضلك. أوكي؟».

أصبحت نبرة صوته أفضل من ذي قبل. فقد خطر في بالي قبل لحظة واحدة أن وجه هذا الرجل هو الوجه الذي كنت أبحث عنه لأضربه ذلك اليوم.

ضغطت على الانترفون. فجاء صوت زوجتي بيللا: «نعم؟»

ـ «هذا أنا.»

ـ «مش طالع؟»

ـ «سوف آتيك بعد برهة. هناك أشخاص من المكتب كانوا ينتظرونني هنا. ونحن ذاهبون مشواراً قصيراً. وأنا بخير.»

ـ «لكنك لا تبدو بخير. هل أنت واثق من وجوب ذهابك؟»

ـ «ليس هناك داع للقلق.»

ـ «لم لا يصعدون إلى الشقة؟ سوف أصنع قهوة.»

ـ «ليس هذا مناسباً الآن. إنهم في الإنتظار. عليّ الذهاب. وسأعود قريباً، لا تقلقي كل شيء بخير.»

ولم ترد. لقد خضعت واستسلمت كما كنت أتوقع. وما كان في وسع أية امرأة الصمود معي مثل بيللا. كنت أحبها. لكني كنت أجد مشقة في اظهار حبي

لها. فإن أحدثها عن الحب.. مهمة يسيرة. أما أن أظهر حبي بدون كلام.. فقد كان مهمة عسيرة للغاية.

ووقفت هناك محدّقاً في الشبح الأسود الصامت.

وتمنيت لو أعدو على الدرج صعوداً إلى بيللا لأعانقها وأضمها بين ذراعي وأبيّن لها كم أحبها. وبدلاً من ذلك انفتلت واتجهت نحو السيارة المنتظرة.

وبينما كنت أجلس في المقعد الأمامي في سيارة الرجل، لم أشعر بشيء ما يسمى «الخدر الوظائفي». لديك وجع بسيط في أسفل صدرك يبدو مجرد إزعاج عابر. تلك هي مشاعرك الشخصية.

وهم مضغوطون في حيّز صغير.. في موقع فاجعتك، هذا فيما وعيك في حالة تلقٍّ، وفي حالة تورم وانتفاخ، وجاهزاً لتلقي معلومات.. وهي معلومات سوف تحكم حياتك ومسراها وتقرر مسبقاً طريقة استجابتك.

وكمن يصحو من حلم، تنبهت لحظة، ثم عدت إلى حالة التخدير والتهويم. وتابعت أفكاري النظر في المسألة قائلة: إن هناك خيارين فقط. فإما أنهم يريدون عودتي، وإما أنهم يريدون «الحديث» معي.

وأقصد بـ«الحديث» أن «يضبطوني» وأن «يقوّموني» حتى لا أعود أشكل مصدر إيذاء أو ازعاج محتمل للموساد.

وبعد قيادة عشر دقائق، توقفت السيارة وراء مستودع مهجور في المنطقة الصناعية في هرتسليا.

وكانت هناك سيارة متوقفة إلى جانب المبنى. وميّزت رجلين يجلسان فيها عندما سقط عليهما ضوء سيارتنا لحظة واحدة. وقال السائق دون أن يدير رأسه.

«إنهم هناك في انتظارك.»

غادرت السيارة وتوجهت نحو السيارة الأخرى.

وكان أحد الرجلين قد أصبح واقفاً إلى جانبها وهو يدير لي ظهره. وعندما اقتربت نحو خمسة أقدام منه استدار نحوي. ثم فتح باب السيارة قليلاً بما يكفي لإضاءة النور في داخلها. وما رأيته لم يكن مستغرباً فقد كان «أفرايم» الضابط

نفسه الذي كان يسعى باستمرار لطردي من الموساد. وكان يجلس إلى جانبه ضابط ببزته العسكرية عرفته تواً. كان بريغادير جنرال من سلاح المدرعات، وكنت أحترم الرجل منذ عهد طويل، وأتيحت لي عدة فرص للعمل معه أثناء تدريبات مشتركة تشمل سلاحي البحرية والمدرعات.

جلست على المقعد الخلفي فأغلق السائق باب السيارة خلفي واتجه نحو السيارة الأخرى.

أما إفرايم فقدّم نفسه وكأننا لم نلتق من قبل، ومدّ يده قائلاً: «يسعدني الالتقاء بك مجدداً.»

اعتراني البكم كأخرس مشدوه، في موقف لم أمر بمثله كثيراً في حياتي.

وقال إفرايم: «حسناً، ألن تصافحني؟»

ـ «كلا. لن أضع يدي في يدك. أنت كذاب وقلت عني أموراً غير صحيحة... وصدقوك!»

وكان الجنرال صامتاً. يعيد اشعال غليونه بين وقت وآخر. ناشراً من تبغه في جو السيارة رائحة كرزيّة حلوة. وكان إفرايم ضخم البنية هائل الكتلة طويلاً، ذا جبهة ضيقة مخدرة، وشعر أشقر خفيف، ونظارة ذات إطار ذهبي كانت تتدلى على أنفه دائماً فتظل سبابته منشغلة بدفعها إلى الأعلى لإعادتها إلى مكانها على عينيه.

وكان صوته ناعماً. وكان على العموم يعطي انطباعاً أولياً إيجابياً عند معظم الناس.

وقال: «أوكي سأطرق الموضوع مباشرة، ثم يمكنك أن تطرح كل ما عندك من أسئلة. فهل أنت قادر على التفكير؟»

ـ «هل هي لعبة جديدة أم ماذا؟ وهل أستطيع التوقف عن التفكير؟»

ـ لا، ولكن بعد ما عانيته هذا اليوم قد لا تكون قادراً على التفكير بوضوح. لا تهتم بذلك!» ثم قدم لي سيكارة ووضع أخرى بين شفتيه. ورفع الجنرال ولاعته وعلى وجهه ابتسامة ودية.

وتابع إفرايم حديثه:

«أنت لم تتسبب بطردك من الموساد. لقد أوقعوا بك. فلا تخدع نفسك. وعلى أي حال فإن مصيرك كان الطرد عاجلاً أم آجلاً. ولعل من الخير لك أنه جاء عاجلاً» وتوقف وهو يجيل نظراته في وجهي من وراء نظارته المذهبة.

ثم أضاف: «قبل المضي قدماً في هذ الحديث، أريدك أن تعلم أنه لا يوجد شيء تستطيع فعله أو أنا أستطيع فعله بشأن الموضوع. فسواء ساعدتنا أم لم تساعدنا فلن تعود إلى عملك.»

ـ «انتظر. على مهلك. أنت أسرع من اللازم. من الذي أوقع بي في شَرَكٍ؟ ولماذا؟ وماذا تعني بحق الجحيم؟ لا يمكنني العودة؟ وإذا كنت على علم بِشَرَكٍ أوقع بي فكان في وسعك أن تفعل شيئاً لاحباط الفخ. هل تعلم معنى أن أكون ضابط قضايا في الموساد بالنسبة إليّ؟ ومن أنت؟ هل أنت إله؟»

ـ «فيكتور! أوقف هذا الكلام الفارغ! ما تريده حقاً هو الحياة التي تأتي مع العمل. أنت تريد أن تكون في وظيفة وأن تتمتع بالمجد مثلنا كلنا.. ولا عيب في ذلك..»

ـ «لكنكم في العمل والمجد. وأنا أصبحت خارجاً.»

ـ «لست خارج الموساد بسبب ذلك.» ثم تبادل الرجلان النظرات. ومضى إفرايم قائلاً: «هناك أولئك الأشخاص الذي يعتقدون بأن الموساد موجود من أجلهم وكي يستخدموه. ويجب أن نوقفهم عند حدهم قبل فوات الأوان.»

ـ «فوات الأوان؟ على ماذا؟»

ـ «سوف يقودوننا إلى حرب، تماماً مثلما فعلوا في لبنان.»

ولم يكن سراً أن العلاقة التي بناها قادة الجناح اليميني الاسرائيلي داخل الموساد مع بشير الجميل القائد الجذاب واللعوب للميليشيات المسيحية، الذي انتخب رئيساً للبنان، تطورت إلى علاقة غرامية كاملة. ففي بحر الكراهية الذي كان يحيط باسرائيل، افترض الموساد أنه وجد حليفاً في مليشيات الاجرام في لبنان. وكانت المفارقة اللافتة أن الكراهية التي يستشعرها الآخرون تجاهنا كان الموساد يغذيها بغية الخفاظ على الوضع القائم، بما يضطر اسرائيل للاحتفاظ بآلة عسكرية قوية بدلاً من الركون لوداعة السلام وفوائده.

وعند هذه اللحظة رفعت كلتا يدي وكأنني أحاول اتقاء كرة مصوّبة نحو صدري وقلتِ: «دقيقة واحدة من فضلك. ما علاقة هذا كله بي؟ فأنا خارج اللعبة، وبتعبيرٍ أربيل أنا «خارج الحلقة».

فقال: «لا تصدق كل ما تسمع أو ترى بهذا الصدد. هناك الكثير مما لا تعرف. ينبغي أن تثق بي.»

ـ «أثق بك؟ ما الذي أعرفه عنك؟ وإن ما أعرفه عنك لا أحبه. لقد كذبت بشأني، وربما كنت أنت سبب طردي من..»

وفجأة لمعت الفكرة في رأسي. هو فعلاً الذي أوصلني إلى الطرد. لقد كان يريدني لنفسه. كان يريديني لكي أعمل معه عملاً ما خارج جهاز الموساد. وكنت قد سمعت قصصاً كهذه وقعت في منظمات أخرى. عندما تكون هناك مشكلة في الجهاز، تطرد رجلاً، ثم تستخدمه لفعل أشياء لك. وهو شخص عالي الكفاءة والتدريب، ويتقن العمل، وهو دائماً متمترس في خندقه مستنفراً.

ثم قال: «أعرف كيف تشعر، إنما يجب أن تثق بي، ولهذا أحضرت معي الجنرال، وأنت تعرفه، أليس كذلك؟»

ونظرت إلى الوجه الصخري المحدّق بي في المقعد الأمامي. وكانت عينا الجنرال تخترقانني، فأومأت برأسي.

ثم قال: «حسناً، أصغ جيداً فليس لدينا وقت طويل.»

ـ «لماذا؟ لم العجلة؟»

ـ «أصدقاؤك ليسوا متأكدين تماماً منك، بعضهم يعتقد بأنك قد تعود، وبعضهم يظن أنك مزعج للغاية بسبب كل ما تعرفه.»

ـ «ماذا تقول؟»

ـ يريدونك بعيداً عن طريقهم. أي أنهم يريدون موتك. ولن تكون الأول في هذا السبيل.»

ـ «إذن ماذا؟ هل يطلقون عليّ النار؟ أم يدوسونني؟»

ـ «كلا، سوف يستدعونك كإحتياط ويعينونك ضابط ارتباط مع جيش لبنان الجنوبي. وكم يمكن أن يطول عمرك في جنوب لبنان حسب تقديرك؟»

ـ «إنهم يعرفونني هناك كضابط موساد.» وظهرت ابتسامة مريرة على وجهي، ثم تابعت: «قد لا أعيش هناك غير بضع ساعات، وإنها بالتأكيد طريقة نظيفة للقضاء علي. لكن في الخطة ثغرة واحدة».

ـ «حقاً؟ ما هي؟».

قلت: «نعم، فطبقاً للأنظمة، لا يمكن استدعائي كإحتياط قبل أن أرتاح وأهدأ لمدة عام. ثم لا يمكنهم تعييني بعدئذ إلا في ما يعتبر بيئة آمنة».

ـ «لديك أصدقاء في البحرية، أليس كذلك؟»

ـ «نعم»

ـ «لم لا تتصل بأحدهم لترى ما إذا كانوا قد شرعوا فعلاً باستدعائك أم لا. ويجب أن تعرف أن أوراقك في طريقها للتنفيذ الاجرائي بالفعل. وإذا لم تغادر البلاد في غضون يوم واحد أو يومين. . . فأنت ميت بالتأكيد».

وهكذا أصبحت الأمور تغوص عميقاً. والواقعَ أن كل هذا الحديث حتى الآن بدا وكأنه يدور حول شخص آخر، كأنه حديث عن شخص افتراضي. لكن الأمر ليس كذلك. فالكلام كان علي ويدور حول حياتي ومصيري وتصلبت عضلات عنقي. وسرح نظري خارجاً إلى عتمة الليل. وبدا وكأنني أرى جثتي ممدة في حفرة على جانب الطريق المؤدي إلى «مرج العيون».

وبهدوء سألت: «ماذا أستطيع أن أفعل؟»

فإذا كانت أوراق استدعائي قيد الانجاز كما تقول، فلن يفلتني الجيش. وبدون تلك الورقة اللعينة ومصادقة الكومبيوتر، لا أستطيع مغادرة البلاد. وأكون شاكراً إذا أخذتموني إلى البيت الآن كي أقضي الوقت القليل الذي لا يزال لديّ مع أسرتي».

ـ «هل تفكر حقاً بأننا جلبناك بالسيارة في قلب الليل بعد أن انتظرناك جالسين فيها، لمجرد إبلاغك بما سيحدث، ودون أن يكون لدينا أي حل؟»

ـ ابتسمت وقلت: «كلي آذان صاغية».

ـ «عندما تعود إلى منزلك ينبغي أن تخبر زوجتك بأنك طردت من الموساد. ثم تبلغها بأنك التقيت تواً مع بعض الأصدقاء الذين نصحوك بمغادرة البلاد على السرعة».

- «ماذا أفعل بموضوع المال؟».
- «يمكنك أن تبيع سيارتك».
- «ثمنها لا يحل أية مشكلة».
- «ولكن يكفيك لكي تخرج من البلاد، فأنت تحتاج إلى خمسة آلاف دولار».
- «لكن السيارة لا تباع بأكثر من ألفين».

- «ضع عليها لوحة وأنا متأكد أنها تباع بستة. ثم اشتر بطاقة إلى لندن على متن «تاور اير». ثق بي. وسوف تصل إلى مطار غاتويك وتقيم في فندق «سكاي وي» وسأتصل بك هناك».
- «ولم تفعل هذا؟ ما شأنك أنت بهذا كله؟ وماذا تريد مني؟».
- «لديك العرض الذي قدمته لك، وأوصيك بقبوله. وسوف أخبرك بقية الحكاية عندما نلتقي في لندن. هذا إذا سافرت».

ثم غادر السيارة وتوجه نحو مقعد السائق. وبصوت أجش قال الجنرال: «إفعل ما يقوله لك يا فكتور. إعطه ثقتك، وسيكون كل شيء على ما يرام».
- «وماذا بشأن الاعفاء من الجيش؟».

وبدون أن يدير رأسه، سلمني إفرايم مغلفاً صغيراً وقال: «الأوراق هنا جاهزة ومستوفاة ومسجلة على الكومبيوتر. وسوف تنتهي صلاحيتها خلال ٧٢ ساعة. وإذا لم تذهب إلى لندن قبل ذلك، فسوف تنتهي صلاحيتك أنت!!.

الفصل السابع

بعد اكتشاف خطة لقتله اوستروفسكي يهرب الى واشنطن عبر لندن

سرت صامتاً عائداً إلى سيارة لانسيا السوداء التي كانت في انتظاري. ودخلتها وتجاهلت الرجلين الموجودين في الأمام وأشعلت سيكارة.

وكنت أحس بنقرات تدق صدغي. لقد أعطيت معلومات كثيرة، لكن الوقت قصير لتحليل الأمور. وكان شيء واحد في منتهى الوضوح: إذا قررت السير قدماً مع إفرايم وجماعته ـ وكان جلياً أن كثيرين مشاركون في هذه المسألة، وأن الجماعة لا يمكن أن تقتصر على إفرايم والجنرال ـ فسيكون قراراً مصيرياً لا بدّ أن أمضي فيه حتى النهاية، مهما كان نوع العمل ونوع الجماعة ونوع المصير. كان هذا هو القرار النهائي: إذا كنت من أهل اليمين فسوف تعيش، وإلاّ فالموت لك!

وإذا كان ما قاله إفرايم صحيحاً، وكان شكي في صحته قليلاً، إذن فقد كانت هناك إمكانية لعدم نجاتي، حتى مع مساعدته. وكان إفرايم يقود «شلة» قوية فيّ الموساد، لكن سلطته كانت محدودة كما يظهر. وإلاّ لما كانت هناك حاجة أو داع لفراري. وبالطبع كان هناك إحتمال آخر لا يمكن استبعاده، وهو أن تكون رحلة لندن مجرد مكيدة مدبرة لكي أهرب وأعطي الموساد سبباً لملاحقتي. وبدت الإحتمالات لا حصر لها.

وتوقفت السيارة قبل موقع بيتي بقليل، وقال السائق: «المحطة الأخيرة». فلم يكن يريد أن يراه أحد قرب منزلي، إذا كان منزلي تحت المراقبة.

غادرت السيارة إلى عتمة الليل البارد، ووضعت يديّ في جيبي، وسرت متمهلاً نحو البيت.

فماذا سأقول لزوجتي بيللا الآن؟ حبيبتي. لقد طردوني، ويريدون قتلي، لذلك سأهرب إلى إنكلترا ؟!

ما الذي كنت سأقوله لإنسانة كنت أحبها، وفي الوقت نفسه أبقيها في معزل عن كل هذه الأمور؟ وكانت ذريعتي دائماً رغبتي في حمايتها وعدم إقلاقها. هراء. فعرفت أن من الخير ألا أخبرها بأي شيء في الوقت الحاضر.

ووجدت نفسي واقفاً في مدخل البناية أبحث عن قصة أخرى أؤلفها لها كي لا أبوح لها بالحقيقة. وبدأت أعتقد بأنه لم تبق أية حقيقة في كياني أصلاً. فلعل من الأفضل الصعود وعدم قول أي شيء بتاتاً، وعدم فعل أي شيء، وانتظار استدعاء الجيش الذي سوف يحل كل شيء. وعندئذ سوف أستجيب لنداء الوطن، وأرتدي بزتي العسكرية، وأتوجه إلى حيث يريدون.

وما أن يطلّ «الويك أند» حتى يكون كل شيء قد اتضح وانتهى.

جنازة عسكرية مع كل التكريم. بل وربما يحضر رئيس الوزراء نفسه مراسم جنازتي، فأنا كولونيل.

فلماذا الإضطرار للصراع من أجل محاولة البقاء على قيد الحياة؟ وما هو الهدف؟ فلعل هذا أفضل ما حدث لي في عمري كله. وسأفعل ما هو صحيح ودائم.

لكنني لم أكن من ذلك الصنف من البشر الذي يمكنه الإستسلام والتمدّد والتصرف كشخص ميت. فإذا كانت هناك فرصة للنجاة فسأسعى إليها، مهما كانت فرصة ضعيفة. وهذا هو حالي وأنا واقف على مدخل البناية، وسيكارتي توشك على بلوغ نهايتها، ولم أتوصل مع ذلك إلى أية فكرة أقولها لزوجتي.

وكنت أرجو ألا تيأس بيللا مني. فقذفت عقب السيكارة وصعدت وقرعت الباب، وبعد أن نظرت من خلال ثقب الباب، فتحت بيللا وتركت الباب منفرجاً ورجعت إلى غرفة الجلوس. وكانت بروب أبيض رقيق، أما شعرها الأسود فكان متلألئاً لامعاً. أما رائحتها الندية الطازجة فقد جعلتني أشعر وكأنني أحد مسوخ المستنقعات.

ولم تكن هناك أية إبتسامة على وجهها الجميل، بل بدا وكأن وجهها لم يعرف التبسم منذ عهد طويل.

جلست بيللا على الكنبة، ورفعت رجليها، وعقدت ذراعيها على صدرها. فكنت مرتبكاً، لكنني كنت مطمئناً إلى أن هذا هو مكاني... بيتي... الموضع الذي إليه أنتمي. وكل ما كان عزيزاً غالياً على قلبي تضمه هذه الشقة الحميمة.

تذكرت المرة الأولى التي وقع عليها بصري. كنت في السادسة عشرة، وكانت تسير متجهة نحوي على الرصيف مع صديق طيب لي. وكانت ترتدي كنزة ذات لون أزرق غامق وخطوط بيضاء تمتد طولياً على صدرها، وشريطاً أبيض في شعرها الفاحم المتموج.

وقبل أن تنطق بكلمة واحدة، وقعت في حبها. أما عذاب الضمير الذي يعضّني بنابه، بسبب كل ما سببته لها من عذاب، فيجتاحني بلا رحمة. وكنت أعلم أنها قادرة على قراءة ما في نفسي.

وسألتني: «إذن ماذا كانت كل هذه الحكاية؟».

وكان صوتها يشي بنكهة تهكمية، وكأنها كانت تسألني أو تقول لي: إبحث عن قصة أخرى.

وجلست قبالتها وقلت: «لقد طردوني... ولم أعد في الموساد».

حملقت بي وهي لا تعرف كيف تبتعلها، وأنزلت رجليها، وانحنت إلى الأمام: «إذا كانوا قد طردوك، فلم جاءوا إلى البناية ليتحدثوا معك؟».

- «جاء شخص ليقول لي أن من الخير لي أن أخرج من إسرائيل».

نهضت واقفة، بيد تمررها بين خصلات شعرها وكأنها تبحث عن حل لورطة سقطت عليها بغتة: «ماذا تقول؟ تغادر؟ تغادر أين؟ لماذا؟ متى؟».

وقفت وتوجهت إليها وأخذتها في حضني.

وشعرت بإشعاع يأتيني من جسدها شفى الوجع الذي كان يقرصني في أسفل صدري. كانت تخرجني من حالة السبات السوداوية التي غرقت فيها طويلاً.

وقلت: «اطمئني. سيكون كل شيء على ما يرام».

دفعتني عنها: «أين ستذهب؟ وماذا عنا؟ قلت لك من قبل أن هذا سيحدث. إنهم أولئك الذين تسميهم أصدقاءك... يوسي وحاييم والآخرين. ماذا سيفعلون بك إذا بقيت ولم ترحل؟».

- «لا أعرف. وأنت تعرفين ما يستطيعون أن يفعلوا».

وكانت بيللا مطلعة تماماً على إتجاهي السياسي وآرائي. والحقيقة أن آراءها الخاصة كانت منارة هادية لي كلما كنت - تحت الضغوط المخيطة - أميل قليلاً نحو اليمين.

لكنني لم أكن راغباً في أن أوضح لها كم كان تفكيرها صحيحاً كلما تعلق الأمر بـ «أصدقائي» في الموساد، ولهذا تكتمت على سائر التفاصيل ولم أحدثها عن النزال السياسي في الموساد.

ألقت بنفسها على الكنبة وسألت: «أين ستذهب؟».

- «فكرت بالطيران إلى إنكلتره، ومن هناك إلى الولايات المتحدة، وسأمكث مع والدي برهة من الزمن، ثم نرى ما يحصل».

- «ولم إنكلتره؟».

- «إنه أرخص طيران. ومن هناك آخذ رحلة رخيصة إلى الولايات المتحدة».

- «ومتى سترحل؟».

جلست إلى جانبها واجتذبتها: «بعد غد».

ألقت رأسها على صدري باكية. وحاولت رفع وجهها كي أقبلها فلم تقبل.

قلت لها: «أحبك يا بيللا». وكنت أحس بالإختناق. عانقتها وطوقتها بذراعي وشددت على جسمها بكل قوتي، وتمنيت لو تطول اللحظة الحاضرة إلى الأبد. فكنت أعلم أن الواقع سوف يفرق شملنا، ودون أن أعرف إلى متى. بل ولم أكن على يقين بأنني سأراها ثانية. ولم أرغب في التفكير في المفاجآت التي يخبئها إفرايم لي.

جلسنا على الكنبة وقتاً طويلاً متعانقين. لقد تزوجنا ونحن في التاسعة

عشرة، لكننا بدأنا بالخروجَ معاً منذ كنا في السادسة عشرة. ولطالما رأيت أننا جزءان لشخص واحد. وكنت أعلم أنها تحبني بأكثر مما أستحق. أما أنا فكنت أحبها أكثر من أي شيء آخر.

كانت إبنتانا الجميلتان نائمتين كما أرجو.

أما الشقة فمستأجرة. وباستثناء السيارة وبعض الأثاث، لم يكن لدينا الكثير. كان راتب الموساد جيدا، لكنه لم يكن كافياً لكثير من الترف. فالترف مخصص للضباط في ميدان عملهم... وليس لعائلاتهم.

الجمعة ٢٨ آذار ١٩٨٦:

نهضت باكراً وأخذت حماماً قبل نهوض الإبنتين. رغبت في إيقاظهما بقبلة لكي تبدأا نهارهما بصورة طيبة. أما حالتي الذهنية فكانت وضعية إنسان على وشك الموت، وتقبّل هذه الحقيقة.

أردت أن ألهب رأسي الفتاتين بذكرى أب محب. لكني رغبت في أن أفعل ذلك بسرعة، وبضمة واحدة في حضني، لأني كنت عاجزاً عن استعادة كل الماضي وكل ما حرمتهما منه من وقت كان يجب أن أقضيه معهما. وأقسمت أنني في حال خروجي من المأزق، كيفما كان، لن أبتعد عنهما أبداً. فالإثم الذي كنت أشعر به لأنني حرمتهما من الكثير من وقتي، كان دائماً ثقيلاً على صدري. وعلى الرغم من كل ذلك فقد كنا دائماً متقاربين للغاية. وكان أمراً عظيم الشأن في قلبي، أن أظهر لهما مقدار حبي وعنايتي.

بعد أقل من ساعة من قيامي بوضع شارة «للبيع» على السيارة، دق جرس الهاتف.

- «اتصل بك من أجل السيارة» قال صوت فتيّ على الهاتف.

- «ماذا تريد أن تعرف؟».

- «الثمن المطلوب».

- «ستة آلاف دولار أميركي» هذا ما قلته للشاب وأنا أغالب رغبتي في الضحك.

- «هل يمكنني القدوم لتجربتها؟».

ـ «طبعاً. متى تأتي؟».

ـ «بعد ثلث ساعة».

ـ «عظيم. سوف أنتظرك قرب السيارة».

ـ «إسمي بواز، فما إسمك؟».

ـ «إسمي فيكتور».

ولم يكن لدي شك في أنه واحد من جماعة إفرايم، وسيأتي لأخذ السيارة وإعطائي المال كي أتمكن من الرحيل. وكان لا بدّ من كل هذه التمثيلية لأن تليفونات ضباط الموساد في منازلهم كثيراً ما كانت تخضع للمراقبة من جانب القسم الأمني في الموساد. وعرفت أنهم إذا كانوا قد استمعوا للمكالمة التي دارت بيني وبين الفتى على الهاتف، فلا بدّ أنهم يضحكون الآن على السعر المطلوب. لكن لعلهم يعتقدون أيضاً بأنني أصبحت معتوهاً!

وعند ظهر ذلك النهار كنت قد اشتريت تذكرة السفر وعدت إلى المنزل حيث وضعت في مكان سري كنت قد أعددته داخل حقيبتي، نسخة مختصرة من يومياتي، ومجموعة شبه كاملة من الصور الفوتوغرافية لجميع الضباط الميدانيين في الموساد. وكان المخبأ متقناً لأنني لم أكن قادراً على تحمّل عواقب انكشاف هذه الأشياء. وكنت قد احتفظت بالصور بعد أن استخدمتها لإعداد صورة هزلية لتخرجنا من دورة الموساد الخاصة بضباط القضايا. هذه «الأشياء» سوف تصبح ضمانة التأمين لي، إذا تبين أن إفرايم في نهاية المطاف، هو غير ما بدا لي، أو إذا حاولت أية جهة منع أسرتي من الإلتحاق بي. فكنت سأكشف في يوم واحد جميع ضباط الموساد، وأجبرها على أن تتوقف عن العمل وقتاً طويلاً.

وكانت في حقيبتي نفسها مواد أشد خطورة، كان من شأنها أن تنفجر في وجه الموساد بصورة لم يعرفها الجهاز من قبل أبداً.

وكان ميعاد الإقلاع ظهر الأحد. وقررت وبيللا عدم إبلاغ الطفلتين حتى صباح الأحد. واتفقنا على أن تمنعهما من الخروج من المنزل حتى تتأكد من إقلاع طائرتي، كي لا ينتشر عن طريقهما خبر سفري، لأن عدة رفاق سابقين يقيمون في المنطقة نفسها.

الأحد، ٣٠ آذار:

ترجلت من سيارة الأجرة في المطار، ولحست شفتي فتذوقت عطر بيللا الذي علق بي وأنا أتبادل معها قبلات الوداع. أما الصغيرتان فكانتا حزينتين لرؤيتي أرحل وأبتعد مرة أخرى. لكنهما لم تلحظا الفارق بين هذا الإبتعاد وبين المرات السابقة. وهذا ما منحني بعض السلوى والعزاء.

وكان معي حقيبتان، وحقيبة يد، واتجهت نحو مكتب «تاور إير» عند الطرف الشرقي من طرف خط بن غوريون. وكان موعد الإقلاع الساعة ١٤:٠٠ في حين كان الوقت لا يزال ١١:٣٠. فقد كان الإجراء الإعتيادي في المطار الإسرائيلي الطلب إلى الركاب المجيء إلى المطار قبل موعد الإقلاع بساعتين أو ثلاثة. وكان معظم الركاب قد جلبوا متاعهم وحقائبهم في الليلة السابقة إلى المكتب الخاص المجاور للمحطة الشمالية لقطار تل أبيب. ولم يكن متصوراً أن آخذ حقائبي بكل ما فيها من صور وأوراق، لقضاء ليلة في ذلك المكان. كما لم تكن رغبتي أن أعطي أحداً الفرصة لكي يزرع أو يدس شيئاً في أمتعتي.

ولم يكن الطاقم الأرضي لخطوط «تاور اير» قد وصل، إنما لم يكن هناك أكثر من خمسة ركاب ينتظرون فحص أمتعتهم والحصول على بطاقات ركوب الطائرة. ووقف الحاضرون في طابورين صغيرين كنت الأول في أحدهما. وجلست على الطاولة المعدنية التي تستخدمها جماعة الأمن للتدقيق على الحقائب. وكنت في العادة ارتاح لهذا المطار.

وكنت أعرف معظم مسؤولي المراقبة الأمنية، وكان معظمهم يعرفني إذ كنت قد أدخلت إلى البلاد وأخرجت منها أعداداً كبيرة من الناس، سوف يقسم معظمهم أنهم لم يزوروا اسرائيل اطلاقاً. وباستثناء احتفاظ الموساد ببعض صورهم في ملفاتها، فإنه لا يوجد من يستطيع اثبات كذبهم!! لكن الإحساس الذي كان يغمرني ذلك النهار كان مستهجناً. فها أنذا في مكان كنت أقصده حتى أيام قليلة خلت. حيث لي الأمر والنهي، ولي الكلمة المسموعة، وحيث أنطلق مهرولاً من زاوية إلى أخرى. ومن مكتب إلى آخر، كالديك المتغطرس الذي تنفذ رغباته بمجرد إشارة من إصبع يده.

لكن ذلك أصبح من الماضي. أما اليوم فمختلف. فأنا هارب. ومع أنه لم يكن هناك أحد منظور يتعقبني، فقد كنت أعلم أنه سباق مع الزمن. وتبين في الختام أنني كنت محظوظاً للغاية. ففي بداية الشهر كان عليّ الحصول على جواز سفر حقيقي من أجل عمل ما. وكنت قد تسلمته قبل أسابيع فقط. وحيث أنني مواطن ثنائي الجنسية، فقد طلبت كذلك جواز سفر كندياً جديداً تسلمته قبل أسبوع واحد فقط. فلعل حسن الطالع هذا يسهل مغادرتي بالسرعة التي أتوخاها.

وخالجني توجّس وتحسّب، فرفعت بصري إلى الطابور الآخر حيث كان رجل أشقر جسيم وملتح يقف في مقدمته، ينقر بعصبية على حقيبته.

وتهلل وجه ضابط المراقبة الأمنية عندما رآني واتجه نحوي. وقال ببشاشة: «مرحبا، كيف حالك؟» وأظنه لم يعرف بعد، هكذا فكرت وأنا أفكر أيضاً بأن إبلاغ أمن المطار مهمة تكون على رأس الأولويات عادة. فقلت له: «أهلاً، كيف حالك أنت؟»

- «طيب. طيب. رحلة عمل أم للمتعة؟»
- «شيء من ذاك وشيء من هذه لم تسأل؟»
- «لأني أريد منك خدمة!»
- «وكيف أخدمك؟»

وكنت أحاول جهدي الإحتفاظ ببسمة على وجهي. كما كنت ممتناً لهذه الدردشة القصيرة التي أزالت شيئاً من الخوف والشك. وانحنى الرجل وقال بصوت خفيض: «نقوم بترويض اثنين جديدين من جماعة الأمن، شاب وامرأة» ثم غمزني بعينه وتابع: «هذه المرأة أُنثى مختلفة حقاً، سوف ترى!» ثم انحنى أكثر وقال: «في الحقيقة أنا أعرف أنها ودية وطرية إذا فهمت قصدي!»

فقلت له: «إذن المطلوب مني تدبيرها واغواؤها أم شيء آخر؟» وشعرت بكراهية شديدة للرجل، وتمنيت أن يتركني بأسرع ما يمكن وأن يبتلعه الجحيم. لكني من ناحية ثانية تذكرت حقيقة أن معي حشوة سمينة مليئة بوثائق في غاية السرية للموساد تتعلق بالعديد من أجهزة المخابرات الأجنبية، ورزمة من صور ضباط الموساد، بالإضافة إلى قائمة مفصلة بأسماء يهود متعاونين مع الموساد

يبلغ عددهم أكثر من ألفين في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. فما كان في حقيبتي كان كفيلاً بأن يجلب لي حبساً مؤبداً في زنزانة قذرة أقضي فيها ما بقي من عمري. وكان الرجل يتكىء على الحقيبة ذاتها!!

وضحك لأنه وجد ما قلته أمر مسل، غير متنبه للاعتراض في نبرتي. ثم قال: «لا. لا. فذلك في مقدوري، وسأفعله قريباً. لكن المطلوب منك هو أن تتبادل جوازي السفر مع ذلك الأشقر على رأس الطابور الثاني، أعطه جواز سفرك، وخذ جواز سفره، وسنرى إذا كان الثنائي الجديد يلاحظ شيئاً عند فحص جوازات السفر».

ـ «هل تحدثت مع الرجل الآخر؟»

ـ «ماذا؟ وهل يرفض؟»

نظرت إلى الرجل الأشقر وقلت: «لا لن يرفض. وسوف أفعلها بالتأكيد». وعندما أوشك على مفاتحة الأشقر بالأمر، أمسكته بكتفه، فابتسم قائلاً: «ماذا؟» فقلت له: «أريد منك في المقابل أن تمررني على جميع المحطات وكأنني هنا في مهمة». أي أن يرفع بطاقته كالعادة ويخلي الطريق أمامي إلى آخر المطاف.

ـ «بالتأكيد. لا مشكلة». هكذا قال.

ابتسمت وأنا أشعر بالدم ينضب في وجهي، وقبع على صدري إحساس جليدي راجف. نوبات المشاعر المتأرجحة والمترنحة هذه كانت بين الأشياء التي تلقينا عنها تدريباً في الموساد، لأن الضابط لديه دائماً مشاعره الشخصية التي قد تعوق إداءه في الميدان. فعلمونا كيفية اختلاق مشاعر جديدة تعوض المشاعر المفقودة.

سلمني ضابط الأمن جواز سفر الأشقر. وأعطيته جواز سفري ليسلمه أياه، وبعد لحظة وصل الطاقم الجديد. وألقيت نظرة سريعة على جواز السفر الذي تسلمته فكان أميركياً وصورة الشخص ملونة. أما شعرات الذقن الموجودة على وجه الرجل الأشقر الآن، فغير موجودة في الصورة. وهذا الفارق يمكن أن يلفت نظر الطاقم الجديد. وقرأت الاسم وحاولت حفظه. وهذا في الحقيقة عمل هواة، لأن اسمي الحقيقي كان على حقيبتي، ثم أن التذكرة تحمل اسمي الحقيقي. فلا بد أن يكون الجدد بلهاء كي لا يلاحظوا كل هذه المفارقات، هذا

إذا لم يكن هناك شيء آخر وراء كل اللعبة!!

وقالت المرأة: «سيدي، جواز سفرك، من فضلك!» وكان تصرفها ودياً ومحترفاً بالنسبة لشخص يتولى هذا العمل للمرة الأولى. وتبينت معنى كلام الضابط الأمني، فقد كانت في غاية الجمال حقاً. خطوت إلى الأمام، تاركاً أمتعتي إلى الوراء. وذراعي ممتدة. وجواز السفر في يدي. وابتسمت لها، لكن تعبيرها لم يتبدل وهي تتسلم جواز السفر.

ولمحت بطرف عيني إفرايم، متكئاً على مكتب على بعد أربعين قدماً من موقعي. وكان يراقبني. ولم أميز أي تعبير على وجهه. فهل كانت كل هذه «الملحمة» مجرد تمثيلية لتحقيق غرض معين؟ وهل كانت كل الحكاية عن لبنان مجرد لعبة لدفعي للفرار ثم وضع أيديهم علي متلبساً.. وفي المطار؟ وبدا أمامي للحظة هذا السيناريو في محاكمتي حين أقف لأقول للقاضي إن ضابط أمن المطار طلب تنفيذ هذه الخدعة لتدريب واختبار الطاقم الأمني الجديد.. ثم أتلفت حولي فلا يكون هناك وجود لهذا الضابط المزعوم ليصادق على صحة إدعائي!

تناولت المرأة جواز السفر، بينما كنت أرى الأشقر يسلم جواز سفري لزميلها الجديد مثلها أي ضابط الأمن الآخر.

ـ «وسألتني: «أسمَك؟»

ـ «روبرت فريدمان!»

أغلقت جواز السفر ووضعته على الطاولة المعدنية أمامها، ثم قالت: «ضع كل أمتعتك على الكاونتر من فضلك».

ـ «طبعاً. لا مشكلة».

واستدرت لأجلب الحقيبتين عندما سمعت صوت ضابط الأمن الجديد الآخر يرفع صوته على الأشقر قائلاً: «لا تتحرك! أرفع يديك فوق رأسك!» وسحب مسدسه، وفي لحظات هرع العديد من رجال الشرطة إلى المكان.

وتساءل أول الواصلين من الشرطة: «ما الأمر؟ ماذا هناك؟» فكان جوابه: «هذا الرجل يسافر بجواز سفر مزور!» وأشار إلى الرجل الأشقر الذي كان يتطلع

كالمجنون باحثاً عن ضابط الأمن الذي دبر اللعبة. وتساقطت حبات العرق من وجهه فيما عيناه مشدوهتان أمام الأسلحة الكثيرة المصوبة نحوه. وصرخ الرجل الأشقر: «هذا خطأ جسيم، لا تطلقوا النار من فضلكم. ما هذه إلا لعبة، وأسألوا هذا» وأشار بيده إلي. وفي هذه اللحظة عاد ضابط الأمن إلى المكان، وقال: «الهدوء. اهدأوا جميعاً. ديفيد أبعد سلاحك». واستدار إلى الشرطة قائلاً: «كل شيء تحت السيطرة. كان هذا مجرد تمرين». ثم خاطب الأشقر الذي أحمل جواز سفره: «أنت يا سيدي أنزل يديك. انتهى كل شيء. عمل ناجح يا ديفيد» والتفت إلى الفتاة قائلاً: «وأنت يا ساره، هل لك أن تلقي نظرة أخرى على جواز السفر أمامك؟»

وانفتحت عيناها ذهولاً عند إدراكها أنها ارتكبت خطأ. فالتقطت جواز السفر ونظرت إلى الصورة ثم نظرت إلي. عرفت عندئذ أنه مهما حدث في العالم على امتداد القرن المقبل، فلن يكون في وسعي أن أجعل تلك الفتاة تنظر إلي بلطف. وكانت صامتة تماماً.

وأعاد الضابط جواز سفري وسلم الأشقر جواز سفره، ثم قال لساره: «يجب أن تراجعيني بعد العمل في مكتبي في البناية الأخرى. وأنت تعرفين مكانها».

فأومأت برأسها، وكانت هناك دمعة تتكور في طرف عينيها، لكنها كانت تصدها كي تمنعها من التدحرج على خدها. وعندما تركتها مع ضابط الأمن وتوجهنا نحو كاونتر التذاكر، رأيت الفتاة تمسح دمعها بكم قميصها.

والتزم ضابط الأمن الوعد الذي قطعه لي، وبعد اجراءات التذكرة وبطاقة الطائرة، رافقني عبر جميع المحطات، حيث كان جوازي يختم، وأمتعتي تنجو من التفتيش، وأنجو أنا من التفتيش الجسدي الذي يخضع له الجميع. وتناولت معه فنجان قهوة في الطابق الثاني لقاعة المغادرين. وبعد أن اشتريت علبة سكائر جديدة، ومجلة «تايم» الأميركية، نهض وتركني قائلاً: «أتمنى لك رحلة طيبة، وشكراً لمساعدتك».

وفي هذه الأثناء كان بعض المسافرين الآخرين قد وصلوا إلى قاعة المغادرة، وكانوا جلوساً يستعدون للإقلاع بعد ساعتين تقريباً.

وبدأ الشعور بالانفراج يتسلل إلى قلبي. لكن «الحكاية» لن تنتهي حتى أصبح على متن الطائرة بالفعل، وفوق الأبيض المتوسط. وكان إفرايم جالساً في طرف قاعة المغادرين، يطالع جريدة. وبدا لي وكأنه «دجاجة والدة» تراقب صيصانها لتتأكد من سلامتهم. والواقع أن وجوده منحني احساساً بالأمان.

تلفنت لزوجتي من الهاتف العمومي المعلق على الجدار الخارجي لقاعة الديوتي فري (السلع الخالصة من الضريبة)، وتبينت من نبرات صوتها أنها كانت تغالب دموعها، وكانت ملامح كلماتها موجعة للقلب نازفة. وكان لدينا الكثير مما يستحق القول والافصاح، لكن في غير هذا المكان والزمان. وبخاصة هناك احتمال أن يكون الخط مراقباً. ولم أشر أنا كما لم تشر هي أثناء المكالمة إلى مكان وجودي، وبدا وكأنني في طريقي إلى إيلات. وتمنيت لو يحملني الخط الهاتفي إلى حضنها لأضمها بين ذراعي بكل قوة.

ـ «سوف أتصل بك عند الوصول. أوكي؟»

ـ «اتصل فوراً. سأنتظر مكالمتك».

ـ «أحبك».

ـ «وأنا أحبك. انتبه لنفسك، وانتبه لما ترتدي من ثياب كي لا يكون مظهرك مستغرباً».

ـ «سأفعل ذلك. لا تقلقي. سأتصل».

ـ «وداعاً».

وانتظرت حتى تقفل هي الخط وتضع السماعة، إذ لم يكن في وسعي أن أعلق السماعة أولاً. وتساءلت لماذا تحبني هذه المرأة الغالية كل هذا الحب الذي يتجاوز خيالي؟ فإذا راجعت شريط حياتنا، فلا بد أن أقر بأنني لم أفعل الشيء الكثير من أجلها. فلم أشتر تذاكر من أجل استعراض فني أحبت مشاهدته. ولم آخذها في رحلة مفاجئة. ولم أرتب لها حفلة خاصة في عيد ميلادها. بل إنني لم أكن موجوداً إلى جانبها عندما احتاجتني، وعندما أجريت لها عملية في المستشفى. فقد كانت لدي دائماً أمور أخرى أفعلها بدت في حينها أكثر أهمية بكثير. وكان بينها أمن اسرائيل. هراء. هراء. خرافة لم أكتف بترويجها، بل صدقتها أيضاً.

دخل ضابطا شرطة الكافيتريا حيث كنت جالساً. وارتفع الضغط في شراييني. فهل لاحظني أحد وأوعز إليهما بالمجيء؟ هل هما هنا لتوقيفي؟ إنني أكاد أشم رائحة السوائل المطهرة من الجراثيم التي يستخدمونها في السجون الاسرائيلية، لأنني قضيت وقتاً ما في السجون كجزء من تدريبي. وكانت هناك أيضاً تلك الحادثة في الجيش عندما ضبطوني بدون قبعتي، فكان قصاصي عشرة أيام حبساً. وبدا وكأنني أسمع قرقعة الأبواب الحديدية وهي تنفتح وتنغلق. وطلب الضابطان الشرطيان قهوة. وكان إفرايم يتابع حركتهما بقلق كذلك. كان واضحاً بتوتره العصبي أنه يتمنى خروجي من البلاد في أسرع ما يمكن.

لم ألتقط النداء الأول للتوجه إلى الطائرة، لكن ما إن سمعت النداء الثاني حتى كنت واقفاً في الطابور، متحركاً باتجاه البوابة. وفي غضون عشرين دقيقة كنا على متن الطائرة التي بدأت تحركها على المدرج. أغمضت عيني كي لا أرى أرض المطار، تجنباً للقلق الذي سوف يعتريني كلما عبرت سيارة، مخافة أن تكون هناك لإيقاف الطائرة واختطافي.

وكان الشخص الجالس إلى جانبي مستغرقاً في المشهد الذي يتابعه من النافذة. أما الشخص إلى يميني فكان يقرأ مقالة في صحيفة حول رفض السويسريين اقتراح حكومتهم الانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة.

لم يكن هناك من أو ما يزعجني. وليت الأمور تبقى على هذا المنوال. وأنا على العموم شخص ثرثار، لكنني في الطائرات والقطارات والحافلات أؤثر الخلود إلى نفسي. وعندما رأيت السماء من النافذة تبدو وكأنها الفردوس. قلت في نفسي لقد أصبحت حراً طليقاً بعيداً عن متناول الموساد.

الفصل الثامن

تفاصيل التحضير لعملية «أرز لبنان» في العام ١٩٨٢
«نيفوت» رجل التعاون مع بشير وزّط اسرائيل في الحرب

الاثنين، ٣١ آذار ١٩٨٦. غاتويك، انكلترة

انقضت أربع وعشرون ساعة ولا كلمة واحدة من إفرايم. أما القيد الذي فرضه علي بعدم الاتصال بأسرتي قبل أن يتحدث هو معي، فقد حول حياتي جحيماً. إذ لم أتحدث مع بيللا منذ المكالمة في مطار بن غوريون. والآن لا بد أنها في غاية القلق علي. أما إفرايم فكان قلقه من أن يكون هاتف المنزل مراقباً (وهذا شبه مؤكد). وإن الموساد سيعرف بالتالي أنني أقمت فترة في انكلترة في طريقي إلى الولايات المتحدة. فإذا حدث أمر سيء أو ارتكبت غلطة فقد يصبح مجيء إفرايم إلى أنكلترة متعذراً.

أدرت التلفاز بحثاً عن تسلية لوقتي، فلم أجد قدرة على التركيز والمتابعة. وعند العاشرة والنصف قررت الذهاب إلى لندن بحثاً عن صفاء البال ولو قليلاً. فكنت بحاجة إلى الاسترخاء والتسكع في الشوارع وملء معدتي بالطعام. وإذا جاء إفرايم فسينتظر عودتي.

وركبت القطار إلى المدينة. وبعد ثلاثين دقيقة وصلت إلى محطة فيكتوريا. ومن هناك أقلني مترو الانفاق إلى بيكاديللي بعد تحويلة في غرين بارك. وهمت في الشوارع على وجهي بلا هدف ولا غاية حتى وجدت نفسي عائداً إلى محطة النفق. وكنت قد تناولت شطيرتين من الهامبرغر في ويمبي - وهو الاسم البريطاني المرادف لاسم مكدونالد الأميركي - وغدت إلى الفندق.

ولاحظت في المصعد الرائحة الحلوة للتبغ الكرزي. وكانت تقوى كلما اقتربت من غرفتي التي أدركتها في نهاية بهو طويل شاحب الخضرة. ولم يضاه

رائحة التبغ النافذة غير رائحة الجدران المصبوغة حديثاً والتي كانت تزكم الأنوف.

وقفت عند باب الغرفة وأصغيت: إفرايم والجنرال في الداخل.

دخلت الغرفة على عجل فوقفا يحملقان بي بدهشة وذهول. فسألت: «لم تنظران إلي بكل هذا الاستغراب؟ من كنتما تتوقعان؟»

وجاء صوت إفرايم حاداً خشناً: «كنت قد طلبت منك البقاء في الفندق».

ـ «أنا لا أعمل عندك يا صديقي، وأنا هنا تفضلا».

ـ «لا تنس أنني أنقذت حياتك. هل يجب أن أذكرك بلبنان؟».

صحيح أنه أخرجني من اسرائيل قبل ارسالي إلى جنوب لبنان وإلى الموت المحقق. ولا ريب في أنه سوف يذكرني بهذه الحقيقة مرات ومرات في المستقبل.

ألقيت معطفي على السرير وجلست على حافته. وقلت: «لقد أخرجتني من وضع أنت أدخلتني فيه، وربما لكي توصلني إلى وضع آخر». وابتسمت ثم تابعت: «أما في الوقت الحاضر فأنا هنا كي أصغي لما تقول، وبعدئذ سوف أفكر وأقرر مع من أعمل. فاقترح عليك أن تنطق».

ـ «أنظر يا فيكتور..» ولم يتابع لأن الجنرال وضع يده على كتف إفرايم وقال: «الحق معه فلم الألعاب؟ نحن نعرف ما نريد ولماذا نريد ما نريد. لديك عمل له، فأوضح له الأمور وقدم له العمل».

وخلت أن تقاليد الجيش الاسرائيلي تنطق من فم البريغادير جنرال: فالجندي الواعي جندي جيد.

وحدق بي إفرايم بصمت، ثم انحنى إلي الوراء وألقى نظرة على الجنرال، الذي كان يعيد إشعال غليونه. وقال: «فلنبدأ من البداية إذن..»

فقال الجنرال: «لحظة واحدة» وأخرج «تيرموس» كبيراً من كيس جلدي بنيّ اللون كان عند قدميه. ثم قال: «أحضر كؤوساً من الحمام، فأنا بحاجة للقهوة».

فقلت: «وسأشرب قهوة أنا كذلك». وقمت سريعاً وجلبت الكؤوس التي

ملئت سريعاً كي أتابع بعدها: «كلي آذان صاغية».

وقال إفرايم: «بدأت الحكاية في العام ١٩٨٢، وكنت أنت في البحرية في ذلك الحين. ومن المحتمل أنك تعرف أننا كنا جميعاً نهيىء ونحضر من أجل الحرب في لبنان. وكان اسم العملية «أرز لبنان» حتى ذلك الحين. وكانت لنا في الموساد علاقة وثيقة مع بشير الجميل الكتائبي المسيحي. وكان رجلنا للتعاون مع بشير الجميل، «نيفوت». وكان نيفوت في غمرة توريط اسرائيل في حرب وصفها كما وصفها سائر قادة اليمين الاسرائيلي بأنها أفضل حرب سوف نخوضها».

وتابع: «لقد رأى قادة اليمين الاسرائيلي اسرائيل باعتبارها شرطي الشرق الأوسط. وعشق رئيس الوزراء مناحيم بيغن فكرة الظهور بصورة «مخلص المسيحيين من وحشية المسلمين»، وهي الفكرة التي كانت تنسجم تماماً وفكره اليميني الكولونيالي. أما أرييل شارون الذي كان حينئذ وزيراً للدفاع فقد كان راغباً في تلك الحرب بكل جوارحه».

وتوقف إفرايم هنيهة ليرتشف القهوة الساخنة ثم أشعل سيكارة جعل ينفث دخانها وهو يقول: «أما حوفي الذي كان رئيساً للموساد، فكان ضد هذه الذرائع قائلاً إن الكتائب المسيحية في لبنان ليست حليفاً يعتمد عليه. وكانت استخباراتنا العسكرية متفقة معه على هذا الرأي. لكن حوفي الذي كان قد أمضى ثماني سنوات في رئاسة الموساد، كان في طريقه للخروج».

وتابع إفرايم: «وكان أمل الكثيرين في الموساد أن يأتوا هذه المرة برئيس من داخل الجهاز خلفاً لحوفي. وكما تعلم جيداً، فقد كان أشخاص من خارج الموساد يؤتى بهم بالباراشوت طيلة الوقت لقيادة الجهاز».

فأومأت برأسي موافقاً. وكنت أعلم أن هذه كانت الطريقة الوحيدة لكي تكون للعالم الخارجي (خارج الموساد) نوع من السيطرة على الجهاز. فقد كان الاتيان برئيس جديد للموساد من الخارج ـ أي من الجيش فعلياً ـ أسلوباً لتنظيف البيت.

ثم قال إفرايم: «وكان رجاء الكثيرين المجيء بضابط سابق في الموساد

لتولي الرئاسة، شخص مثل ديفيد كيمحي الذي كان مديراً عاماً لوزارة الخارجية، وكان من قبل رئيس دائرة في الموساد قبل أن يترك منصبه في الجهاز إثر نزاع مع حوفي. وكان هناك رفائيل ايتان الذي كان مناحيم بيغن (رئيس الوزراء) يكن له الاعجاب، لكنه كان يعتبره قريباً أكثر من اللازم من أرييل شارون. فبيغن كان شديد القلق من أن تتعاظم قوة شارون كثيراً إذا جاء صديقه ايتان رئيساً للموساد. فقرر بيغن الالتزام بالتقليد المعمول به وتعيين شخص «خارجي» رئيساً للموساد».

وتوقف إفرايم عن الكلام. وعندما عاد لمواصلة كلامه مرة أخرى، أستجد شيء مختلف في صوته، إذ ظهرت نبرة من الغضب والقلق، فقال: «في ذلك الوضع، وبينما كانت الحرب على وشك أن تشتعل، وكان حوفي قد وضع إحدى قدميه خارج الموساد تأهباً لوضع القدم الثانية وترك العمل، سعى الجناح اليميني ونجح في زرع الكثير من أتباعه في مواقع قيادية في الجهاز وفي إدارة الدولة».

ومضى قائلاً: «الواقع أننا جميعاً في الموساد كنا قد بدأنا نتعب ونضجر من القضاء على خططنا المستقبلية وتخريبها وتبديلها في كل مرة كان يأتي رئيس جديد للجهاز. ولم يكن اليمينيون مستعدين للتخلي عن المكتسبات آلتي حققوها وتشبثوا بها بأسنانهم. كان انقلاب دولة دون أن تكون هناك دولة للإنقلاب في حينه».

وتابع إفرايم وهو ينفث دخان سيكارته قائلاً: «الجنرال يكوتئيل آدم، أو «كوتي» كما كان يلقبه أصدقاؤه، تمَّ تعيينه رئيساً للموساد، وكان مقرراً تسلم منصبه في أواخر حزيران ١٩٨٢. وكانت الحرب في لبنان قد أندلعت في السادس من حزيران نفسه، وفي اليوم الثاني للحرب وقع خلاف بين كوتي وشارون بخصوص الهجوم على مواقع الصواريخ السورية المضادة للطائرات في سهل البقاع اللبناني. فقد أعتقد كوتي ـ وأعلن موقفه بوضوح ـ أن هذا قد يؤدي إلى حرب شاملة مع السوريين. كان كوتي يقوض الجهود الكبيرة التي بذلها الموساد، بالتعاون مع الجميل، منذ عهد طويل، من أجل صعوده (إلى الرئاسة اللبنانية). وأدركت عناصر معينة ما سيأتي إذا ما أصبح هذا الرجل (بشير

الجميل) رئيساً جديداً. وقرر بعضهم وجوب منع هذا الأمر».

وهنا قال الجنرال: «كان كوتي أفضل صديق لي». لكن إفرايم تابع قائلاً: «كانت له صداقات في الموساد. وهم الأشخاص الذين كانوا يجهزون أوراق عمل تحلل الموقف، كي يتمكن - كوتي - من اتخاذ إجراءات حاسمة عند تسلمه المنصب، حتى لا يضيّع وقتا يقضي فيه على حياة جنود شبان كانوا يستخدمون في ذلك الحين طعمة للمدافع من أجل حلم الجناح اليميني بإقامة دولة في لبنان يديرها الموساد. فباستخدام فلسفة «توازن الضعف»، آمن اليمينيون الاسرائيليون بأن في وسعهم أن يكونوا السلطة الحقيقية وراء نظام دمية على رأسه الجميل، غافلين عما يعرفه كل طفل لبناني، وهو أن أية جهة يمكنها ابتلاع لبنان، لكن لا أحد يستطيع هضمه!».

وأضاف إفرايم: «كان جلياً أن سلطة الجناح اليميني الاسرائيلي تعرضت للتهديد، ففي اللحظة التي يتسلم فيها كوتي رئاسة الموساد، لا بد أن يعطي تقييماً نزيهاً للوضع إلى الحكومة، وإلى شارون الذي لم يكن يريد أن يكون أول وزير دفاع اسرائيلي يخسر حرباً».

وتوقف إفرايم لإرتشاف القهوة، وبعد هنيهة عاد صوته: «وجاءت الفرصة في العاشر من حزيران. فالجيش دخل أطراف بيروت، وكان هناك وقف فعلي لإطلاق النار. وكان قد صدر قرار تعيين كوتي لرئاسة الموساد. لكنه لم يكن قد تسلم منصبه بعد، فطلب القيام بزيارة وداعية لجنوده في لبنان. وكانت مهمة الموساد ترتيب الزيارة».

فسألت أنا: «ولماذا الموساد؟ لماذا ليست مسؤولية الجيش؟».

فرد إفرايم: «لأن كوتي كان قد أصبح فعلياً من مسؤوليات الموساد الأمنية وليس في يد الجيش».

وعند هذه النقطة تدخل الجنرال قائلاً: «لو كان (كوتي) مسؤوليتنا (الجيش) لكان لا يزال على قيد الحياة اليوم».

وعاد إفرايم إلى الكلام بصوت خفيض: «رتبوا اجراء الزيارة في اليوم التالي. وعندما وصل كوتي إلى الموقع، قتل في كمين. أما المهاجم. وكان فتى

في الرابعة عشرة من عمره فقد قتل فوراً بأيدي الحراس».

نهضت صارخاً: «أنت مجنون! هذا جنون!» ولم أكن قادراً على تصديق ما يلمح إليه ضمناً. كان الأمر غريباً رهيباً.

نظر إفرايم في عيني وتابع بصوت خافت أجش: «لقد وجدوا صورة فوتوغرافية، صورة كوتي مع الولد. فمن كان يعلم بوجود كوتي هناك سوى الأشخاص الذين رتبوا مشواره القصير المفاجىء؟ الموساد. أو فلنقل عناصر من داخل جهاز الموساد هي التي قتلت كوتي. ولا توجد في رأسي ذرة واحدة من الشك في هذا».

فسألت: «فهل تنتظر أربع سنوات حتى تخبرني هذه القصة؟»

ـ «لا. أنت آخر خطوة نأخذها حالياً. يجب أن تدرك أن العمل ضد الموساد من الداخل ليس أسهل الأشياء في العالم»..

فعدت وسألت: «ألم يتساءل أحد كيف لتلك الصورة أن توجد في جيب القاتل؟»

ـ «تلك المعلومة بالذات حظروا وصولها إلى لجنة التحقيق. وهي الدليل الدافع على أن قتل كوتي لم يكن صدفة بل عمل مدبر وجريمة محسوبة».

تراجعت وأسندت ظهري إلى السرير، بينما العرق البارد يتصبب على جبيني. فما كنت أسمعه كان غير قابل للتصديق. أعضاء في الموساد يتآمرون لقتل الرئيس الجديد المعين للموساد؟! كان الأمر عصياً على القبول.

الموساد خطط لعملية اغتيال رئيسه المعين «كوتي»
خلال زيارته جنوب لبنان

ـ «أنت مجنون!».

فتدخل الجنرال قائلاً: «إنه ليس مجنوناً. أنا أعرف، لأنه ليس الوحيد الذي أخبرني بالقصة. لقد اكتشفت المزيد عندما استجوبت مقاتلاً أسيراً من حزب الله في جنوب لبنان في أوائل ١٩٨٥. فقد كان يتحدث عن.. كيف عندما كان في حركة أمل الشيعية، كان مفترضاً أن يرافق فتى في مهمة لقتل جنرال إسرائيلي. وصدقني أن ذلك المقاتل لم يكن يكذب».

ـ «وكيف تعرف ذلك؟»

ـ «لأنه كان يعلم أنه سيموت. وكانت المسألة أن يتطلب موته طوال الليل أو بضع دقائق. ثم أن ذلك المقاتل كان يعتقد بأنني أعرف الحكاية على أي حال».

بينما كنت لا أريد تصديق ما كنت أسمع، فقد كان عسيراً رفض الحقائق والوقائع. نعم، كان يسيراً على جماعة «إرهابية» أن تحصل على صورة لجنرال اسرائيلي، وتعطيها لأحد «قتلتها»، تمهيداً لترتيب ضربة. لكن من غير المتصور الحصول على صورة وترتيب خطة في مهلة بهذا القصر. كل ذلك والموساد في نوم القيلولة. وحدقت في الجنرال لحظات ثم التفت إلى إفرايم: «ولماذا لم تذهب إلى رئيس الحكومة؟».

ـ «لأقول له ماذا؟ سيدي، إن عناصر من الجناح اليميني في الموساد قتلت للتو الرئيس المعين للموساد! فماذا في ظنك كان سيرد؟ شكراً لإبلاغي؟ سوف أستدعي الزعران وأعدمهم؟ كانت هناك حرب دائرة. لا تنسى ذلك. وفي غضون يوم أو يومين كنت سأتعرض لحادث يقضي علي».

ـ «وكيف لي أن أعرف أنك لا توقع بي في شرك، وأنك أنت من يريد تنظيم انقلاب دولة؟».

ـ «يجب أن تثق بي. نحن لا نستطيع أن نفعل هذا بدون شخص في خارج الموساد».

ـ «كلي آذان صاغية.»

ـ «أظن أن الوقت أصبح ملائماً لكي نأكل» هذا ما قاله إفرايم.

ولم أكن جائعاً بل كنت أريده أن يتابع، لكني قررت أن أمضي باللعبة على طريقته هذه المرة.

قلت: «هناك مطعم في الفندق. وآمل أن يكون عشاؤهم أفضل من إفطارهم».

ضحك الرجلان، وقال إفرايم: «لا. لا أعتقد أن مغادرة الغرفة فكرة حسنة. فهناك دائماً احتمال أن يرانا أحد. ونحن لا نستطيع تحمل ذلك. رامي

سوف يخرج ويجلب لنا شيئاً من الطعام»، والتفت إلى الجنرال قائلاً: «إذا لم يكن لديك مانع».

وقال رامي ببطء: «أنا في طريقي». وكان الغليون في جانب فمه، وتحدث من الجانب الآخر. وضع معطفه فلاحظت ـ غصباً عني ـ أنه أقل مهابة بالثياب المدنية.

وبعد مغادرة الجنرال استدرت نحو إفرايم: «لقد خربت حياتي!».

ـ «لم أفعل شيئاً من ذلك. كل مافعلته كان اختيارك من بين جماعة مصطفاة من الناس، في ذات اللحظة التي كنت أنت على وشك تدمير حياتك. ورأيتك ملائماً للعمل».

ـ «لكنك لم تسألني البتة. كيف لك أن تعرف أنني لا أحبذ أن أكون مع الجانب الآخر، أقاتل أشخاصاً مثلك يفترض أنهم يريدون التنازل عن سيطرة الموساد إلى هواة هبطوا فجأة عوض إبقاء الزمام في أيدي محترفين ارتفعوا درجة درجة؟» توقفت وحدقت في وجه إفرايم العظمي وبشرته الشاحبة.

فقال: «تذكر أن عندي ملفك النفسي. وربما كنت أعرفك بأفضل مما تعرف نفسك يا فيكتور».

ـ «إن الملف النفسي الخاص بي في الموساد لا يساوي قيمة الورق الذي كتب عليه».

فقال: «إذا تبين أنك خطأ سيكولوجي، فسأنتقل إلى المرحلة الثانية».

ـ «وما هي؟»

ـ «لا أستطيع إبلاغك الآن. لكن دعني أروي لك قصة قصيرة قبل عودة صديقنا الجنرال».

ـ «لماذا؟ هل تخبىء عنه أسراراً أيضاً؟»

وكانت لهجتي في طرح هذا السؤال في غاية السخرية.

ـ «نعم في الواقع. وربما أطلعه على أسرار أقل مما أطلعك أنت. فهو ليس من داخل الجهاز، لذا فهناك أمور كثيرة لا يستطيع فهمها. أنا لا أريد تدمير الموساد، أما هو فسيكون سعيداً بتدمير الموساد. أنا أريد الإصلاح».

ـ «لماذا؟»

ـ «لأنني أعتقد بأن اسرائيل في حاجة إلى موساد، إلى موساد قوي له أسنان قادرة على تمزيق العدو. لكن الموساد في حاجة قبل كل شيء إلى مصفاة حتى تبقى تحت السيطرة».

ـ «كنت على وشك أن تروي لي قصة».

ـ «نعم. في العام ١٩٨٢ وقبل الحرب في لبنان كان لدينا رجل يسعى لبدء نوع من الحوار. كان أحد أفراد جماعتي في ذلك الحين. لم أكن قائد المجموعة، لكننا نلنا مباركة حوفي (رئيس الموساد) وبعض الأشخاص في وزارة الخارجية الذين كانوا ينتظرون اختراقاً ما. وجعلنا الفلسطينيين خائفين للغاية مما يمكن أن نفعله بهم في لبنان إلى حد أنهم كانوا راغبين في بدء الحوار».

ـ «إذن كنتم تسعون لإنشاء صلة».

ـ «نعم. ليس مع المسيحيين، بل مع الفلسطينيين. ودفعنا بأحد أفضل رجالنا إلى الأمام.

كان اسمه ياكوف بارسيمانتوف. وكان مقره في باريس كضابط ارتباط.

وقاطعته قائلاً: «لم يتمكن من الاتصال بالفلسطينيين، ولم يكسب ثقة أي فلسطيني. فإذا كان ضابط ارتباط كان يجب أن يعرفوا أنه كان من الموساد».

ـ «لم يكن يعمل معهم مباشرة. كان لدينا وسيط أميركي تطوع للمهمة. وقدّم له بارسيمانتوف المهمة كنوع من التحدي، وذلك أثناء حفلة كوكتيل في الخارجية الفرنسية.»

ـ «ووافق؟»

ـ «هجم على الفرصة. مع أنني يجب أن أخبرك أنه هو نفسه (الوسيط الأميركي) لم يكن في أفضل وضع لمحادثة الفلسطينيين. فكان ذلك ضد تعليمات الخارجية الأميركية. لكنه مضى بالمهمة على أي حال.»

ـ «لماذا لم تستخدموا صلة أخرى كالرومانيين مثلاً؟ فقد كانوا يعملون مع الجانبين وأنتم كانت لكم معاملات معهم.»

ـ «كان الرومانيون يقيمون اتصالاتهم مع الشلة فوق. وكانت الشلة لا تريد سوى دعم الكتائب وبشير الجميل.

ـ «ومن كان ذلك الأميركي؟»

ـ «كان اسمه تشارلز روبرت راي. وكان مساعداً للملحق العسكري، ورجلاً في غاية الالتزام والنزاهة.

وكان يؤمن بأن السلام في الشرق الأوسط في صالح الولايات المتحدة. وما حدث أن أحداً في الخارجية الأميركية قام بتسريب النبأ، فأطلقت النار على كليهما بارسيمانتوف والأميركي قبل أن يتمكنا من اجراء أول اتصال مع الفلسطينيين. ولهذا نعرف بالتأكيد أن الفلسبطينيين لم يكونوا وراء إطلاق النار. قتلوا راي في كانون الثاني.

وعندما كان ياكوف على وشك القيام باتصال جديد قتلوه كذلك. كان ياكوف رجلاً طيباً، لكنه مع ذلك وفي الثالث من نيسان وخارج شقته، رموه بالنار وكأنه كلب، من؟ من قبل جماعته بالذات.»

ـ «لكن كيدون لا يقتل اسرائيلياً.»

ـ «لم يكونوا يعرفون الهدف، وقيل لاحقاً أنها كانت غلطة. بعد أن قتلوا ياكوف خبأوا السلاح التشيكي الذي استخدم في قتله، في شقة ثوري لبناني ليبدو كأنه القاتل. ومضوا بعيداً إلى درجة تبني عملية القتل، ولكن باسم «الفصيل اللبناني الثوري المسلح». وأبلغوا المخابرات الفرنسية بأن هذا «الفصيل» كان جناحاً من «الحزب السوري (القومي الاجتماعي) الموالي لسوريا.»

وتوقف إفرايم برهة ونظر من النافذة ثم سألني: «هل تعرف أنهم تطاولوا بوقاحتهم إلى درجة أنهم حاولوا واستخدموا عمليات القتل كاستفزاز كانوا يريدونه ذريعة لشن الحرب في لبنان؟»

ما فاجأني حقيقة أكثر من أي شيء آخر أن ما سمعته لتوي لم يفاجئني البتة. لقد صدقته، لكني كدت أسأل: «وماذا-إذن؟» لكني قلت فعلاً: «أوكي. أخبرتني قصة قصيرة. فكيف تفسر القصة ما تريد مني أن أفعله من أجلك؟»

ـ «ما أردت قوله لك هو أنني لا أستطيع استخدام شخص من داخل الجهاز لأنني لا أملك دليلاً قاطعاً على أن ذلك الشخص يمكن الوثوق به. لقد كان الجنرال صديقاً لي منذ سنوات، وكان هو صديقاً مقرباً من كوتي. وهكذا فهو

نظيف بقدر ما يعنيني. أما أنت فلم تتلوث، ولم تأت إلى الجهاز على ظهر «حصان» ـ أي واسطة قوية من قيادي في الموساد ـ بل عبر اجراءات التجنيد والتعبئة العادية.

لقد جئت بدافع الوطنية وليس لمطامح شخصية.»

ـ «الحقيقة أنني أردت تلك أيضاً. كنت أريد العمل والحياة واللهو معاً».

ـ «إذا كنت تريد الحياة فابق معنا، وستحصل على أكثر مما تحتمل».

ـ «وماذا الآن؟ هل ستعرض عليّ وظيفة؟»

ـ «هذا هو بالضبط ما أنوي فعله. غطاؤك سوف يكون أنت نفسك. وكل ما ستفعله ستفعله وحدك. ليست معك شبكة ولا رباط. سوف أكلفك بمهمة وأساعدك بقدر ما أستطيع، لكنك ستكون هناك في العالم.. وحدك.»

ـ «أفعل ماذا؟»

ـ «سوف توقف عمل الموساد الحالي.»

الفصل التاسع

بداية إنقلاب في الموساد

سمعنا قرعاً على الباب. تجمّد إفرايم في مكانه لا يريم. أما أنا فسرت نحو الباب ونظرت من خلال ثقبه فرأيت الجنرال. فتحت فدخل متعجلاً وكأن حريقاً شب في بهو الفندق.

وقضينا الساعة التالية في تناول الطعام. كلمات قليلة قيلت، أما الجو فكان مثل البيرة: فاتراً. وكنت أحاول أن أجد لنفسي مكاناً في نظام الأشياء وأمور هذه الدنيا، لكني لم أر هدفاً ولا نتيجة متوخاة. صحيح أنه قال: إنه يريد إصلاح الموساد، لكن ما معنى هذا الكلام حقيقة؟

كان ظني مما استنتجته تخميناً أنه في الخارج من أجل تدمير الموساد، وهنا علاقتي بالمخطط.

لكن الذي كنت غير أكيد منه هو ما إذا كان الموساد الذي يريد إفرايم أن يبنيه من الرماد، سيكون أفضل حقاً من السابق. فهل فكرته عن موساد أنظف وأفضل تطابقت مع فكرتي؟ وإذا لم تكن كذلك فلم أسير معه؟ لقد خرجت وحدي فلم لا أبقى وحدي؟

قررت الإصغاء إلى كل ما يمكن أن يقوله إفرايم ثم أن أفعل ما يحلو لي. فقد كنت مواطناً كندياً أحمل جواز سفر كندياً صالحاً، ولهذا فهو لا يستطيع أن يخيفني.

وفي الوقت نفسه كان هناك صوت في داخلي يقول لي: لقد تذوقت طعم الحياة واستمتعت به، فمن العسير أن تدير ظهرك للحياة. فكنت كالجنود الذين تنتهي حربهم سريعاً جداً، قبل أن تتاح لهم الفرصة لإخراج مناخ الحرب من

داخلهم، فيطوفون العالم سعياً لإبقاء جذوة تلك الحرب متقدة ويعيشون على حد السيف، وكلما كان الحد أكثر مضاء، كان ذلك ألذ وأشهى. فهل أصبحت واحداً من هؤلاء العق نصل السكين؟

وسأل الجنرال: «وماذا بعد؟» وقف إفرايم وقال: «سوف نغادر بعد قليل، أما فيكتور فسيغادر غداً»

ـ «أغادر؟»

ـ «نعم، سوف تسافر إلى نيويورك، ثم تذهب لزيارة والدك في نبراسكا.»

ـ «ولم نيويورك؟»

ـ «لأننا بهذه الطريقة سنعرف إذا كان أحد ما يلاحقك أم لا.»

وسأل الجنرال بنبرة مذعورة: «أنت لست متأكداً؟ ماذا تعني؟» فهذا أمر لم يحسب له الجنرال حساباً. وفجأة أصبحت مقاتلة الموساد تحمل معنى كاملاً جديداً.

فرد افرايم: «نحن لا نتأكد أبداً، لكن هناك طريقة لاكتشاف الأمر».

وسأل الجنرال: «كيف؟» وكان شعوري أنني لن أُحِبَّ الجواب.

ـ «سوف يذهب فيكتور لزيارة مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك. فإذا تعطلت جميع الأضواء والأجراس في المقر فسنعرف أن هناك من يلاحقه.

ـ وبكل جدِّية قال الجنرال: «كنت أعتقد بأن في وسعكم التحقق من هذه الأشياء بأنفسكم».

ـ «ليس لدينا أحد يعمل معنا هناك. وحتى لو كان لنا فسيتطلب الأمر وقتاً لتمرير الرسالة، وفي هذه الأثناء تكون قد خرجت من هناك».

فقلت محاولاً تعزيز موقفي: «وماذا إذا هرع أحد بالمعلومات وقدمها تطوعاً للسفارة؟ فسأصبح في خبر كان قبل مغادرة المدينة».

فقال افرايم: «لن تخبرهم بهويتك. كان المطلوب أن تدخل هناك وتقول للفلسطينيين إنك إسرائيلي متعاطف معهم. شيء في هذه الحدود».

وقال الجنرال وهو يشفط غليونه بمشقة: «وكيف سيفيد ذلك ما نريد أن

نفعله»؟ وكان الجنرال لا يرفع عينيه عن الباب. وكان واضحاً لي أن هذه ليست لعبته. فقد اعتاد على رؤية عدوه وإجراء حسابات القوة. إنه رجل شجاع بلا ريب، لكنه يخاف من الظلام!

وأخيراً جاء صوت افرايم: «سوف يطلب من فيكتور القيام بأعمال خطرة في المستقبل القريب.

وسوف ينفذ هذه الأعمال في أماكن أقل حباً بكثير من نيويورك. فقبل أن أرسله إلى هذه الأماكن أريد التأكد.

فإذا كانت هناك مشكلة في غطائه، أو إذا كان هناك شخص يشتبه بأنه يفعل أموراً سيئة. فهذا هو الوقت المناسب لاكتشاف ذلك، حين يكون في الولايات المتحدة، حيث يصعب على الموساد العمل. وإذا كانوا يراقبوننا الآن، فسيحبون أن يعرفوا ما سنفعل في الخطوة التالية. وهكذا نقدم لهم ذلك على طبق، فإذا كانوا في إثرنا، حالما يدخل مكتب منظمة التحرير الفلسطينية، فسيلقون القبض علي فوراً وكذلك أنت يا جنرال».

وتساقطت قطرات العرق من جبين الجنرال. لكن إفرايم تابع: «إذا حدث ذلك، فلن نتصل بفيكتور طبعاً، وستكون تلك علامته على وجوب الاختفاء. الاختفاء تماماً. أما إذا لم يحدث شيء، نعرف عندئذ أن كل شيء على ما يرام.»

فعاد الجنرال إلى التساؤل: «وكيف يختفي؟»

ـ «لا ينبغي أن تكون هناك مشكلة في ذلك بالنسبة إليه. فقد تلقى أرقى تدريب في العالم على مثل هذه الأمور. أو على الأقل هذا ما نرجو أن يكون صحيحا.»

وتنحنح الجنرال وسأل: «وماذا يفعلون بنا؟»

وأظهر إفرايم ضيقه وقال: «ناقشنا هذا الموضوع من قبل، وكان اعتقادي أنك فهمت.»

وقال بتردد: «فهمت.. إلاّ هذه النقطة!».

ـ «ماذا؟ هل تريد التراجع؟ إذا كان الأمر كذلك تكلم الآن قبل أن نخطو

خطوة واحدة، فبعد اليوم لن يكون هناك تراجع، ونحن نقترب بسرعة من نقطة اللاعودة. وما أن يغادر فيكتور إلى نيويورك، يصبح التزامنا قائماً.»

وبصوت مرتفع قلت: «هذا لطيف منك، فأنت تخرجه قبل أن أبلغك بموافقتي على الدخول!»

ـ «أنت لا تفهم. كنت أتحدث عنه هو. فإذا كان يريد الخروج فليخرج، لكننا ملتزمان. والحقيقة أنه إذا غادر الآن ونحن تحت المراقبة. فسيبعدونه كما سيبعدونني ويحاولون معك. وعلى أي حال يستطيع الخروج الآن إذا تبين أننا غير مراقبين.

نهض الجنرال وهو يهز برأسه. وشعرت بأنه أصبح هائماً مثلي. وكان قلقاً من أنه لن يكون هناك وقت للتراجع، بعد لحظات. ثم قال: «لا أريد التراجع، لكن الأمر أصبح يبدو لي حقيقياً جداً. وأنا لم ألعب هذه اللعبة من قبل. ولم تكن لدي فكرة عما أنا مقبل عليه.

ومما يجعلني أقشعر ليس ما نعتزم فعله، بل الكيفية.

وما أريد معرفته هو التالي: إذا أمسكوا بنا فماذا سيفعلون بنا؟»

فقال إفرايم: «يمكنك الإطمئنان إذا كان يقلقك احتمال محاكمتك، لأنك لن تحاكم. فهم لا يتحملون هكذا محاكمة. وسوف يسوون الأمور معنا وراء أبواب موصدة. وربما حادث عرضي. وربما سمحوا لنا بطلب لجوء سياسي. كل شيء محتمل إلا المحاكمة.»

قال الجنرال باسماً: «ليس مستقبلاً واعداً!»

ـ «حسناً، هذا إذا أمسكوا بنا قبل أن ننتهي من فعل ما نعتزمه. وأعتقد بأننا لن نفشل، لأن فشلنا سوف يدفع ثمنه البلد غالياً ناهيك عن أنفسنا.»

وطوال الدقائق التالية خيّم في الغرفة صمت مطبق وكأن على رؤوسنا الطير.

ثم نهضت واستدرت قائلاً لإفرايم: هناك شيء أريده منك قبل أن أغوض في هذا.»

فكان جوابه: «لقد غصت فيه فعلاً.»

ـ «قد أكون كذلك. لكنني أؤكد لك أنني لن أفعل لك شيئاً واحداً منذ الآن حتى تفعل شيئاً واحداً من أجلي.»

- «وما هو هذا الشيء؟»

قلت: «عليك أن تجري اتصالاً هاتفياً الآن فوراً بيني وبين شخص أعرفه شخصياً من جماعتك الخاصة في الموساد.» وكنت أشير بيدي إلى جهاز الهاتف وأنا أبلغه بالطلب.

فانتفض إفرايم قائلاً: «ماذا؟»

- «سمعتني. شخص أعرفه. أريد التأكد من أنك لا تنصب لي شركاً!»

- «وماذا عن الجنرال؟ كنت أظنك تثق به.»

- «مع كل احترامي له فنحن كلانا نعلم أنه كان في وسعك أن تخدع هذا الرجل بعشرة طرق منذ يوم الأحد. لكنني أريد شخصاً من الموساد، شخصاً يعرف كل الحيل.»

- «ليس في وسعي أن أكشف لك شخصاً هكذا ببساطة.»

- «إذن فأنا منسحب.»

- وتوقف إفرايم: «تعلم أنه في مقدوري تركك تنسحب، مع كل ماتعرفه.»

- إذن اقتلني، أما إذا أردت أن أعمل معك، أطلب شخصاً فوراً بهذا الهاتف.»

وحملق بي إفرايم صامتاً بضع لحظات. ثم توجه نحو الهاتف وطلب خطاً من البدالة وطلب رقماً. وانتظر والسماعة على أذنه. وفي النهاية قال: «روفين؟»

ثم تمهل قائلاً: «لحظة» واستدار نحوي سائلاً: «هل تعرف روفين هاداري؟»

- «نعم»

وأوضح بجلاء للرجل على الهاتف أنني أريد تأكيداً لوجود آخرين في الموساد يعملون مع إفرايم.

أما «روفين» هذا فرجل أعرفه وأحبه. وقد أكد ذلك.

وأضررت على أن آخذ رقم هاتف روفين كي أتصل به في حال وقوع أمر سيء كي لا أكون متكلاً على إفرايم وحده.

ووافقا. وشعرت بالراحة. إذن هذه ليست مكيدة ولا فخاً، بل هي جهد

شرعي لانهاء الموساد الحالي وإقامة موساد أفضل كما رجونا جميعاً.

فتحت النافذة طلباً لهواء نقي كنت في أمس الحاجة إليه. فبعد دخان السكائر والغليون، وبعد السمك والبطاطا، غدت رائحة الغرفة لا تطاق.

ثم سألت إفرايم: «شيء آخر: كم عدد المتورطين في هذا الأمر؟»

ـ عشرة أشخاص تقريباً. لكن نحن الثلاثة فقط نعلم بما يدور حقاً، أو فلنقل أربعة.

لا أحد خارج هذه الغرفة سوى «روفين» ثم قال: «سوف تصل إلى نيويورك في الثاني من نيسان. منذئذ تصبح وحدك. ولن أوصيك بفندق معين. وإنني في الواقع لا أريد أن أعرف.»

أومأت برأسي وسرح نظري خارج النافذة، مع مشهد الباطون المسلح والمشروع السكني الرمادي اللون الذي لم يجد الفندق منظراً أجمل منه يعرضه لزبائنه!

ثم قال إفرايم: «هل أنت مصغ إليّ؟ خذ. هذا هو الرقم الذي أريدك أن تتصل به بعد الاجتماع في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية.» وسلمني بطاقة عمل. ثم قال: «هناك رقم مماثل في نيويورك يخص أحد المخابز. أطلب الرقم نفسه في تل أبيب. وسأرد عليك أنا.»

ـ وإذا لم تكن موجوداً؟»

ـ «أطلبني ثلاث مرات. مرة كل أربع ساعات.

ولا تطلبني دائماً من الهاتف نفسه أبداً، بعد المرة الأولى أبدأ اجراءات الاختفاء. وعند آخر اتصال يجب أن تكون قد اختفيت.»

ـ «وماذا أفعل إذا اصطادوك؟»

ـ «حاول أن تبقى على قيد الحياة وبعيداً عن أيديهم. وأؤكد لك أن حالك سيكون أفضل من حالنا.»

ـ «هذا عزاء بارد. فماذا عن أسرتي؟

ـ «إذا أمسكو بنا، فلن تكون لك أسرة. أو فلنقل أن أسرتك لن تحصل عليك. فستكون بالنسبة إليها كشخص ميت.»

- «وهل من اللازم أن تكون الأمور بهذه الشدة؟»
- «كلا. سوف أكون هناك للرد على هاتفك. ولن أفقدك.»

بعد دقائق غادرا الغرفة. خرجا بلا هيصة. مجرد مصافحات بسيطة أرسلتني بعدها في رحلة تمنيت في عدة مناسبات لاحقة لو أني لم أقم بها.

الفصل العاشر

الوصول إلى نيويورك
والاتصال بمكتب منظمة التحرير الفلسطينية

الأربعاء، ٢ نيسان ١٩٨٦، نيويورك

وصلت إلى نيويورك أشبه بالحطام. كنت مرهقاً مهدوداً بعد عدد لا يحصى من قناني «الروم» الصغيرة وأكواب البيبسي التي استهلكتها في الطائرة.

وكان رأسي يلف ويدور واجد صعوبة في إبقاء عيني مفتوحتين. وأنا أركل حقيبتي أمامي كلما تقدم الطابور عند مكتب دائرة الجمارك والهجرة. وفي النهاية وجدت نفسي أمام ضابط الدائرة الذي بدت عليه رغبة شديدة في إعادتي من حيث أتيت. وطلب جواز سفري فوضعت جوازي الكندي أمامه. وشعرت بالأمان وأنا أنظر إلى غلاف الجواز الأزرق وشارة العرف الذهبي عليه.

- «عمل أم. . . ؟»
- «مجرد إجازة، وسأزور والدي.»
- «في كندا؟»
- «لا، يقيم في نبراسكا فهو أميركي.»
- «وكم ستبقى؟»
- «لا أعرف حتى الآن. لماذا؟ هل هناك مشكلة؟»

وأعاد الضابط جواز السفر بعد أن وضع عليه ختماً أحمر: «تمتع بوقتك يا سيدي.» وأشار إلي كي أذهب.

لم تكن هناك مشكلة في الجمارك. وقد بدا، مع أنني ثمل تماماً، أنني تدبرت أمري باعطاء انطباع حسن. ثم أنه لم يكن لدي ما أخفيه، هذا باستثناء الوثائق الكثيرة التي أخبئها في حقيبتي!

وبعد مشوار بسيارة أجرة، وصلت إلى فندق صغير غير بعيد عن المطار. وهبطت على السرير بكامل ثيابي، باستثناء فردة حذاء واحدة تمكنت من خلعها قبل الغرق في النوم.

الخميس، ٣ نيسان

أشعة الشمس الأولى التي تسللت من فوق الستارة، أيقظتني وأعادت إلي وعيي. وأدركت أنه انقضى نحو أسبوع منذ المكالمة الأخيرة مع بيللا زوجتي. وحين استرجعت في ذاكرتي الطريقة التي فارقتها بها، والحالة التي تركتها عليها، شعرت بأنني شخص بغيض. غادرت الفراش متمهلاً محاولاً عدم تحريك رأسي بسرعة، لأن الألم فوق عيني كان يقتلني. إنه انتقام الكحول.

حدقت في نفسي في المرآة المقشورة وأدركت أنني في حال طيبة من حسن مظهري.

إنها السابعة صباحاً. ولا أعرف كم هو الوقت في اسرائيل على وجه الدقة لعجزي عن التركيز.

وكان إفرايم قد أبلغني بأن في وسعي الاتصال بأسرتي بعد السادسة من صباح الثالث من نيسان. وكنت في أمس الحاجة إلى هذا الاتصال.

أشعلت سيكارة وجلست على حافة السرير، واضعاً رأسي بين يدي. وضعت السيكارة في المنفضة الزجاجية فلاحظت أن كثيرين من نزلاء هذا المكان قبلي قد تاهوا عن المنفضة مخلفين بقايا خروق في سطح الطاولة الخشبية. بل إن بعضهم لم يمنع نفسه من وضع السكاير على السجادة الخضراء البالية الرقيقة. قلت في نفسي: كيف بحق الجحيم وصلت إلى هذا المكان؟

وأذكر أنني قلت للسائق: «ليس غالي الأجرة». لكن المكان الذي اختاره بدا لي اختياراً موفقاً، لأنه لا يمكن أن يبحث عني أحد هنا، اللهم إلا إذا كانوا ورائي خطوة خطوة.

وأجريت المكالمة. وإذا كانوا يتسمعون علينا؟، ورغم ذلك أردتهم أن يسمعوا هذه المكالمة حسب توصية إفرايم: «يجب أن يتأكدوا تماماً أنك في نيويورك كي نتمكن من تبين حقيقة الوضع.» وكانت عبارة ذات معنى منطقي

عندما قالها، أما في هذه اللحظة فإني أتبين المنطق فيها.

وجاء صوت بيللا طازجاً كنسيم منعش بدد السحب المتلبدة في رأسي. وتمنيت مواصلة الإصغاء لصوتها بلا توقف أو انقطاع، فقد كان مهدئاً ملطفاً معزياً. وما همني مضمون ما كانت تقول، بقدر حرصي على سماع الصوت ذاته ليس إلا.

والتمعت صورتها أمام ناظري بعينيها الناعستين. وشعرها المتماوج الفاحم، وجسدهاالممتلىء أنوثة. والبريق الأخاذ في عينيها بلونهما البني الغامق. وكان جلياً أنها متعبة، قلقة، متألمة لأنني لم أتصل قبلئذ.

وسألت: «وماذا سوف تفعل؟»

ـ «سوف أبقى في نيويورك يوماً أو يومين، ثم أتوجه لزيارة أبي.»

ـ «وماذا ستفعل عندك؟»

ـ «لا أعرف حتى الآن. قد أحصل على وظيفة ما أو شيء مماثل. لا تقلقي، وسيكون كل شيء على ما يرام.»

ـ «جاءوا أمس يحملون استدعاء لك لخدمة الاحتياط في الجيش».

ـ «من جاء؟»

ـ «ضابط من البحرية. وسلموني الاستدعاء باليد».

ـ «حقاً؟ لم أسمع من قبل أن هذا يحدث بهذه الطريقة أبداً.»

ـ «أخبرتهم بأنك في الخارج. ولم يصدقوني أولاً».

ـ «ماذا قالوا؟»

ـ «سألوا عن كيفية مغادرتك دون حصولك على تصريح إعفاء منهم.»

ـ «لكني حصلت على تصريح إعفاء منهم. أولئك البيروقراطيون اللعينون لا يعرفون أيديهم من أرجلهم.»

ـ «هل اتصلت بأبيك»؟

ـ «لا. سوف اتصل به فور انتهاء هذه المكالمة».

ـ «أرجو أن يكون في المنزل. قد يكون خارج المدينة أو في مشوار. ماذا ستفعل عندئذ».

وشعرت بأنها راغبة في مواصلة الحديث مثلما كنت راغباً. فقلت لها

مطمئناً: «لا تقلقي. سيكون كل شيء على ما يرام». وكنت أكذب. فالإشياء لم تكن واضحة أبداً وأنا أنظر إليها من هذا المكان. فرغبت فجأة في إنهاء المكالمة، مخافة أن أتفوه بشيء قد يضايقها. فوعدتها بأن أكلمها في اليوم التالي.

وأخذت حماماً ساخناً طويلاً، وأبلغت إدارة الفندق بعزمي على البقاء في الغرفة بضعة أيام، وطلبت تدبير سيارة أجرة.

وفي أقل من نصف ساعة كنت أمام مقر هيئة الأمم المتحدة. ومن هناك توجهت سيراً على القدمين إلى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية. وعرفت أن في وسعي العودة عن طريق مترو الانفاق، ثم سيارة أجرة للمرحلة الأخيرة. أما مشوار ذهابي إلى مكتب المنظمة فقد قصدت أن يكون سريعاً نسبياً للتأكد من عدم إضاعة أثر أي شخص قد يكون يتعقبني.

فإن كانوا يلاحقونني، وقد استخدمت أنا قطار الانفاق، ثم سيارة أجرة، فسيكون هناك احتمال لأن يفقدوا أثري. فأعتقد عندئذ بأنني غير ملاحق لمجرد إنهم لم يبلّغوا عن مشاهدتي وأنا أدخل مكتب منظمة التحرير الفلسطينية. ذلك الإحساس الزائف بالأمان قد يتسبب لي بكارثة أسوأ مستقبلاً.

بزغت الشمس وارتفعت قليلاً، وبدا أنه سيكون نهاراً لطيفاً حسب مقاييس نيويورك.

لكن الهواء لم يخل من لسعة برد خفيفة كانت منعشة.

كنت أعرف المتوقع مني، ولم أكن مستعداً للتسكع. فهذا أمر كان يجب أن أفعله، وأن انتهي منه. دلفت إلى مقهى صغير عبر الشارع الذي يوجد فيه مكتب منظمة التحرير الفلسطينية. كان يجب أن آخذ وقتي كاملاً. وكما من قبل. فإذا كان الفريق الذي يلاحقني متأخراً قليلاً، فقد أردت إعطاءهم وقتاً لكي يصلوا ويتمركزوا في موقع ما لكي أجعلهم يرون جيداً دخولي المكتب الفلسطيني.

وبعد فنجان قهوة آخر وكرواسان ممتازة، عبرت الشارع متمهلاً، وكنت قد تعاملت مع فلسطينيين من قبل، ولكن من مركز قوة دائماً حيث الجيش

الإسرائيلي كله أو الموساد كله بكامل أسلحتهم وعتادهم ورائي. أما اليوم فمختلف.

وكان محتملاً أن يكون الموساد لا يزال ورائي. إنما لأسباب مختلفة كلياً هذه المرة. ثم إن أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية الذين سأقابلهم، لم يكونوا خاضعين لسلطتي وإرادتي بأيّ شكل من الأشكال. ولم يكن معي من أسلحة غير الثقة بالنفس والرجاء أن تسير الأمور بسلاسة.

كانت قاعة الاستقبال في المكتب الفلسطيني مكتظة بالنشرات والملصقات، أما ألوان المكان، التي تجاور فيها الأزرق السماوي مع الرمادي، فقد أضفت عليه هالة متحذلقة. وكانت الغرفة المواجهة خالية بضع دقائق، حتى دخلها رجل طويل أنيق المظهر، وكانت نظارتاه الذهبيان على أنفه عندما نظر إلي في القاعة. وكان معتدل القامة على شيء من الامتلاء. أما ثيابه فكانت في غاية الأناقة، وتصاعد منه شذا سائل غالي الثمن طيّب به وجهه بعد الحلاقة.

وبدوت في مظهر شاذ وأنا قادم بسروال جينز وسترة جلدية سوداء.

وبادرني إلى القول: «هل أستطيع خدمتك يا سيدي»؟ بصوت عميق ودود وبلغة انكليزية صافية خالية من اللهجات المحلية الأصلية.

ـ «أريد التحدث مع شخص مسؤول من فضلك».

ـ «أنا المسؤول. اسمي ياسين. ماذا استطيع أن أفعل من أجلك»؟

ـ «حسناً. هل نستطيع التحدث بحرية هنا»؟

ـ «ذلك يتوقف على ما تريد أن تقول. وأنا واثق أن كثيرين يستمعون إلى ما يقال في هذه الغرفة وهم غير موجودين فيها». وكان يبتسم.

سحبت جواز سفري الإسرائيلي وناولته إياه. وقلت: «أتساءل إذا كان ممكناً أن تشرب معي فنجان قهوة. وهناك مقهى لطيف صغير مقابل مكتبكم».

وبدا عليه شيء من المفاجأة وهو يقلب أوراق جواز السفر. ثم أعاده إليّ باسماً. وقال: «في الواقع كنت على أهبة الخروج. وهناك مكان أفضل في أسفل الشارع، فهل تقبل دعوتي»؟

ـ «بكل سرور». وكنت مبتسماً وأنا في غاية الإبتهاج. فقد أقمت اتصالاً

بالفلسطينيين وإذا كان الموساد يراقبني فسيرونني مع رجل لا بد أنهم يعرفونه جيداً. وسنعرف خلال وقت قصير كل ما يجري.

قال الرجل الكبير: «دعني أجلب معطفي» ثم اختفى، فنظرت من النافذة إلى الخارج. ومع أن الشوارع لم تكن مزدحمة للغاية، إلا أنه كان من المستحيل مع ذلك تحديد أية مراقبة. لم يكن لدي شك في أن الأميركيين يراقبون هذا المكتب، بمخابراتهم وربما أيضاً بشرطتهم المحلية. وهي مراقبة لمعرفة ما يجري في المكتب من ناحية، ولمحاولة إيقاف أية هجمة عليه من ناحية ثانية.

الشيء الوحيد الذي كان يقلقني كان احتمال أن يلتقط لي أحد صورة فوتوغرافية مع رجل المكتب الفلسطيني وإرسالها إلى الموساد. عندئذ ستكون متاعبي هائلة.

كانت هذه نقطة اللاعودة بالنسبة إليّ، ويسعدني أني تجاوزتها. فالمستقبل أمامي وكذلك الحياة.

لم نتكلم في طريقنا إلى المطعم الصغير القريب من المكتب. وكانت الإضاءة سيئة. وطلبت قهوة، وفعل مثلي. وكان انطباعي أنه راغب في إنهاء اللقاء بأسرع ما يمكن. فقال:

- «ماذا تريد أن تقول»؟
- «كما تعلم، أنا إسرائيلي».
- فأومأ برأسه موافقاً، وقال: «ماذا تريد»؟
- «أن أحذركم فقط».

تقوس حاجباه قليلاً، وأصبحت نظرة عينيه قاسية جدية. ثم تابعت قائلاً: «المسألة ليست شخصية وليست عاجلة. هذا كل شيء».

- «بشأن ماذا؟»

وكانت تعليمات افرايم صريحة بعدم دخولي في التفاصيل، بل الاكتفاء بالمعلومات العامة، والاشارة إلى حادث أو اثنين كي يصدقوا ولا يتصورونني أحد المخبولين. فقلت: من المهم أن تخبر قيادتك أن كل ما يقولونه في أي جهاز هاتف، يتسمعون عليه.

وعلى سبيل المثال، عندما كانت جماعتكم تتحدث مع فيليتسيا لانغر (محامية إسرائيلية معروفة بالدفاع عن حقوق الإنسان الفلسطيني) قبل الحرب في لبنان، وحتى وقوع الاجتياح الفعلي على لبنان، كانوا يسجلون كل شيء. وكذلك المحادثات التي دارت بين عرفات وملك السعودية أثناء حصار بيروت، وكذلك النداءات التي كان يوجهها عرفات من طرابلس ـ لبنان.

واليوم يسجلون كل اتصالات جماعتكم في تونس إلى كل مكان».

ـ «نحن نعرف كل ذلك. هل تظن أننا أغبياء؟ ومن أنت على أي حال»؟

ـ «كل ما استطيع قوله هو أنه ليس كل شخص ضدكم عدواً لكم. هناك أولئك الذين يعتقدون بأنه على الرغم من وجودنا على جانبي خط النار، فإننا يجب أن نعيش معاً أو نتجاور على الأقل.. في سلام».

ـ «انظر. اعداؤنا كثيرون. وأن كل السلطات هنا في الولايات المتحدة تبحث عن ذريعة لطردنا وتشويه قضيتنا. يجب أن أنهي هذه المحادثة معك لهذا السبب».

ثم قال: «أنتم قوم غريبون. تعرفون عنا أكثر من أنفسنا:

تعرفون تاريخنا وتقاليدنا وعاداتنا اليومية وموقع كل شجرة في الغابة الفلسطينية، لكنكم لا ترون الغابة نفسها. لا تستطيعون فهمنا كشعب على الاطلاق».

خيّم الصمت بينما كان الرجل محدقاً في عيني وكأنه كان يحاول حل لغز ما. ثم تابع قائلاً: «كل ما يسعني قوله لك هو أن هناك كثيرون في معسكرنا يشعرون بالشيء نفسه. نريد أن نعيش في سلام وأن نكون شعباً حراً. هناك من يعتقد بأن هذا لن يتحقق إلا على جثتكم.

لكن معظمنا لا يرى ذلك، لكننا لن نسمح لكم بذبحنا.

نحن نطلب الاحترام ومكاناً نسميه وطننا. واسمح لي أن أوجه إليكم تحذيراً، وهو ليس شخصياً لكنه عاجل. سيأتي وقت، وهو وغير بعيد، عندما يملي علينا الشارع سياستنا ويحل محلنا المتطرفون.

ولن تجدوا من يكلمكم غير حائط المبكى. فأبلغ أياً يكن الذي أرسلك

بوجوب التقاط اللحظة وعدم إضاعة الفرصة».

نهض الرجل ومد يده عبر الطاولة الصغيرة، وبوجه متجمد. وقفت وصافحت يده، ولاحظت الابتسامة الصغيرة على وجهه وأنا ابتسم. هز رأسه وقال:

«أخبرهم بأنهم إذا كانوا يرغبون في معرفتنا حقيقة، فيكفيهم أن ينظروا في المرآة». استدار وخرج.

الفصل الحادي عشر

«عصبة الدفاع اليهودية»
تراقب مكتب منظمة التحرير الفلسطينية

بعد خروج ياسين من المطعم، اذكر أنه تملكني إحساس غريب إذ قابلت عضواً في منظمة التحرير الفلسطينية وجهاً لوجه، وعلى قدم المساواة ولإدراكي بأنه شخص لطيف.

وظلت عيناي مسمرتين عليه وهو يشق طريقه في الخارج، عبر نافذة المطعم، ورأيته أخيراً ينعطف وراء المبنى.

وكان لا بد من «قتل» ساعتين من الزمن قبل قيامي بالخطوة المقررة في البرنامج=الاتصال الهاتفي. فكانت حسابات افرايم أن ساعتين من الوقت كافيتان تماماً= فإذا لم تقرع الأجراس في مقر الموساد فهذا يعني أننا في أمان. وكانت هذه نقطة حاسمة وخطرة في العملية. وإذا حدث خطأ ما فلا بد من نسف البرنامج كله، وسيكون مصير افرايم على الأرجح أن يتعفن في إحدى الزنزانات، في حين يوضع اسمي في رأس قائمة المستهدفين للتصفية من جانب الموساد.

وكان الوقت يرفض التحرك. وفي الأحوال العادية، عندما يكون ضابط قضايا في الموساد عاملاً في الميدان، فإما أن يكون في طريقه إلى موعد آخر، في ضيق من الوقت لا يكاد يكفي للوصول، أو أن يكون لديه مكان آمن يعود إليه حيث يدوّن تقاريره، أو أن يسجل وقائع ما حدث في اللقاء لكي يطلع عليه رؤساؤه، على ما حدث في اللقاء. وفيما عدا الوقت القصير الذي يقضيه في طريق الذهاب إلى الاجتماع والإياب منه، فنادراً ما يكون وحده.

أنا لست شخصاً معتاداً على التسكع أمام واجهات المحال التجارية. وهذه

«شغلة» كانت دائماً عبئاً ثقيلاً على صدري. فأثناء الانتظار نفد صبري فخرجت على مهل، باحثاً عن شيء يلهي ذهني، بينما كان الوقت ينقضي بسرعة السلحفاة. وفكرت بإجراء مكالمة لوالدي في نبراسكا، فالتوقيت كان مناسباً حيث توجد ساعة واحدة فرقاً بين نبراسكا ونيويورك. لكني عدت عن الفكرة. ذلك أنه إذا حدث مكروه ما، فلا مبرر لتوريطه في كل هذا. الأفضل أن اتصل به بعد تأكدي من أنني غير ملاحق. ومنحت ثقتي لإفرايم والبرنامج الذي رسمه.

كانت أفكاري تنهشني بحدة. ولفت انتباهي عبر الشارع رجل بمعطف أسود طويل. كان واقفاً قرب بائع ومنهمكاً بوضع الخردل في شطيرة سجق.

كنت قد رأيته من قبل داخلاً المطعم الذي جلست فيه مع رجل منظمة التحرير الفلسطينية، واتخذ لنفسه مكاناً في مؤخرة المطعم.

ومن الجلي أنه كان يحاول أن يتفادى النظر إلي مباشرة، بما يشي بأنه لا يزال هاوياً. تحركت نحو الجدار مبتعداً قليلاً عن زحمة المشاة، وراقبته.

وكان تقديري أنه يجب أن يبدأ بالتهام الشطيرة فوراً، اللهم إلا إذا كان يملؤها بالخردل لمجرد الرغبة في كسب الوقت في وقفته تلك. وتذكرت أنه لم يكن وحده في المطعم، كان مع رجل آخر. وبدأت بمسح الشارع بعيني على مهل، بحثاً عن شريكه، الرجل ذو المعطف الطويل وشطيرة السجق ذو ملامح شرق أوسطية. هذه الحقيقة تجعله واحداً من عدد لا يحصىٰ من الأشخاص بدءاً من شرطي نيويوركي إيطالي الأصل وانتهاء بكونه ضابط مخابرات سوريّاً. هذا ناهيك عن كونه رجل موساد.

تابعت التلفت ببطء. ومسح الشارع، والتحرك قليلاً بين وقت وآخر. لاحظت رجلاً يقف عند مدخل مكتبة، يحمل كيساً صغيراً في يده، وكان يركز بصره عليّ في صورتي المنعكسة على زجاج الواجهة.

وكان أقصر مني وصدمني وهزّني وجود هذا الرجل إذ لم أتوقع وجوده بهذا القرب مني. كان هو «الشريك» الذي رأيته في المطعم. وللغرابة فإن نقص كفاءته المهنية في وقفته تلك، ضايقني إذ لم يكن يلعب اللعبة «على أصولها» وكان تقديري إنهما هاويان أو عضوان في منظمة أدنى من الموساد.

دلفت إلى المكتبة ماراً بقرب الرجل. كان علي اكتشاف الجهة التي يخدمها هذان الرجلان.

تصفحت كتاباً قلبت أوراقه لحظات. وأنا أفكر بكل الخيارات. كان عليّ تناسي معظم ما تدرّبت عليه سابقاً للتصرف في مثل هذه المواقف، كطلب مساندة أو القيام ببعض الألعاب والمناورات.

كنت وحدي. ولا حماية من السلطات المحلية أو من أية جهة ترغب في إطلاق النار عليّ.

ومن داخل المكتبة رأيت الرجل يقذف السجق في سلة مهملات ويندفع لعبور الشارع. وتحرك الرجل الواقف على باب المكتبة نحو التقاطع، منتظراً وصول زميله. تحادثا بضع لحظات، ثم رأيت الرجل ذا المعطف الطويل يشير إلى المكتبة.

أما الرجل ذو الكيس الصغير فأشار إلى أسفل الشارع وهز كتفيه. فأومأ ذو المعطف برأسه وتحرك نحو المكتبة. فيما ذهب الآخر في الاتجاه الذي أشار إليه.

شعرت برغبة في الخروج والتحدث إلى ذي المعطف، وتلقينه دراساً صغيراً، وإرساله إلى جماعته كي يحاول مرة أُخرىٰ. لكن هذا ليس الوقت ولا المكان لفعل ذلك. وكل ما أعرفه أنهما يخططان للقضاء علي لأي سبب من الأسباب. ولا يتطلب الأمر عبقرياً لتنفيذ عملية قتل. كان علي التركيز لأخذ قراري. ولم يكن معي النهار بطوله كي أفعل شيئاً.

وكل ما كنت أرجوه هو ألا يكون الرجلان مجرد لعبة لاستدراجي والتغرير بي لإيقاعي في فخ ما.

عرفت على وجه اليقين أنهما كانا يتعقبانني منذ دخولي المطعم على الأقل، بل والمرجح منذ مغادرتي مكتب منظمة التحرير الفلسطينية. وفجأة أصبح الوقت يعدو مسرعاً جداً. بقيت لي ساعة واحدة لإجراء المكالمة، وإلى أن يحين موعدها، لا بد أن تكون لدي بعض الأجوبة.

ولمعت الخطة في رأسي مثل البرق.

خرجت من المكتبة واتجهت جنوباً نحو عشر دقائق، متوقفاً بين حين وآخر للنظر في واجهة محل ما، لمجرد التأكد من عدم إضاعة الصديقين الجديدين. وكنت لهذا الغرض أسير متمهلاً. واستدرت فجأة حول الشارع ٤٧ ودخلت أول متجر أمامي. وكان مخزناً كبيراً للأدوات الالكترونية. أصبحت الأن غير مرئي، فإذا كان هناك آخرون غير الرجلين، فإن سيري الثابت في اتجاه منفرد لا بد أن يصيبهم بالنعاس، اقصد على الصعيد المهني، ولا بد أن يقطرهم جميعاً ورائي. كانت هناك فرصة ضئيلة لأن يسبقني أحدهم، لكنها كانت إمكانية ضعيفة.

والواقع أنني لم أعتقد بوجود أكثر من هذين الرجلين. وصرت جاهزاً للمرحلة التالية.

انتظرت مرور رجل الكيس أمام المخزن، وتوقفت بعد أن أدركت أنه أضاعني. كان ينظر في شتى الاتجاهات حتى وصل ذو المعطف. نظرا في محل الإلكترونيات، ولم يرياني. وكما توقعت، فإنه أرسل زميله للبحث عني في أسفل الشارع، فيما توجه هو في الاتجاه المعاكس. لقد تمكنت من التفريق بينهما.

تركت المخزن، وكان دو المعطف مديراً ظهره لي، أما ذو الكيس فدخل محلاً في الاتجاه الآخر. سرت بخفة متجاوزاً رجل المعطف عند معبر المشاة، متجهاً غرباً في الشارع ٤٠ فإذا لم يكن راغباً في إضاعتي فسيلحق بي وحيداً. وهذا هو ما فعله حقاً.

لم أذهب للصيد سوى مرة واحدة في حياني، وكان مشواراً مع والدي أثناء زيارة قصيرة للولايات المتحدة. وكان والدي هو الذي أمسك بالسمكة.

لكني استمتعت الآن لأن السمكة أخذت الطعم، وبدأت بلف الصنارة على مهل، سرت وإياه في صف واحد خمس دقائق أُخرىٰ. وكانت غايتي إبعاده عن زميله أكثر، حتى وصلنا إلى آخر خط الحافلات لجهة المرفأ تقريباً، وهي ليست أفضل الأحياء في العالم، بكل ما فيها من مخازن كتب للراشدين والصالات المكتظة بالمتفرجين على «صناديق العجب» أو صناديق «الفرجة».

وكان الموقع ملائماً تماماً لاغراضي، لكني قمت بلعبة الاختفاء مرة ثانية.

وتوقفت فجأة عند زاوية التقاطع بين الجادة السابعة والشارع ٤١، وذلك عند معبر المشاة.

فقد أردت التأكد من أن رجل المعطف لا يزال ورائي.

وكنت محظوظاً لأنني خطوت جانباً، وإلا لاصطدمت «سمكتي» بوجهي. فيبدو أنه كان يمشي خلفي شبه نائم، وهذا خطأ مهني، كان هاوياً، لكنه كان مصمماً.

بالنسبة إلى أجهزة المخابرات الشرق أوسطية، حتى أشدها تخلفاً، فقد اكتسبوا تقنيات المراقبة الأساسية، إذ تعلموها من الفرنسيين أو من السوفيات، أو من الاميركيين. أو حتى منا بالنسبة للذين قمنا نحن بتدريبهم في أوقات معينة.

أما هذا الرجل فلا بد أنه «خصوصي» لا ينتمي إلى أي من أجهزة المخابرات المنظمة. إذ لا بد أنه تلقىٰ دروسه من أفلام التلفزيون والسينما وقصص الجرايد والكتب.

ولم تسعدني فكرة التعامل مع هواة، لأن من العسير التنبؤ بما سيفعلون.

وظهر الرجل الصغير الأخضر في قلب الإشارة الضوئية، مؤذناً للمشاة بعبور الشارع، فسرت لعبوره والرجل خلفي مباشرة. وبعد الإشارة انعطفت سريعاً إلى اليسار، ثم إلى اليمين.

وقفت عند مدخل مخزن لأشرطة الفيديو والكتب المخصصة للراشدين. وانتظرت ظهور الرجل عند الزاوية، ولما تأكدت من أنه رآني، دخلت المحل.

وعلمت أنه سيقف خارجاً بضع دقائق قبل دخوله، لأن لديه الآن وقتاً للتفكير. وكان يعلم أنه وحيد. فأصبحت لعبة «واحد ـ ضد ـ واحد».

رأيت في المخزن أشكالاً من المواد الجنسية المتنوعة ولفت نظري زوج من الأغلال (الكلبشات) الفضية اللون. فاشتريته مع بعض التذكارات السينمائية.

وكنت أحدث نفسي قائلاً «اسكافي حافي»!

وسرت إلى مؤخرة المكان حيث ارتفعت إشارة «أفلام» بضوء النيون الأحمر، واستدرت نزولاً إلى قاعة طويلة معتمة اصطفت على جانبيها أكشاك صغيرة، كان كل منها يحمل رقماً، وصورة «مبروزة» قرب الباب تمثل لقطة من فيلم إباحي يعرض في الداخل.

تحركت بطريقة أوحت لمطاردي بأنني أعرف طريقي، ولذلك فإن من المحتمل أن استخدم باباً خلفياً للإفلات، أو لمقابلة أحد في الداخل. وتوجب عليه الدخول خلفي.

دخلت الكشك عند آخر القاعة واقفلت الباب ورائي. أدخلت الشريط السينمائي الصغير في الشق المخصص له وضغطت على زر التشغيل.

وكان الكشك صغيراً بحجم حمام وفيه كرسي صغير بثلاثة أرجل. أما الجدران فسوداء على أحدها مقابل الباب شاشة تليفزيون تكاد تكون على سوية مع الجدار.

ولم تكن هناك أية أزرار تسمح بالسيطرة على الجهاز، بل كان الصوت خارج السيطرة. وابتدأ العرض وإبهامي على الزر. وظهر على الشاشة ثلاثة أشخاص يستعدون لحفلة جنسية.

وتصاعدت أصوات التأوهات أطلقتها المرأتان العاشقتان للرجل الموهوب. وقفت على الكرسي ونظرت من ثقب مسمار فالت فرأيت رجل المعطف متلفتاً حوله.

وبعد سيره إلى آخر القاعة وتأكده من عدم وجود باب خلفي، حاول فتح باب الكشك المقابل لي. فوجده مشغولاً. فحاول فتح بابي، ثم أتجه نحو الكشك الآخر إلى الأمام.

دخل الكشك، ورأيته يترك الباب مواربأ، ووقف يحملق في داخل الكشك المعتم. ويجب أن اعترف إنه كان تصرفاً حسناً بالنسبة لهاو.

انتظرت بضع دقائق حتى يرتاح ويطمئن. ثم فتحت بابي وخرجت وأغلقت الباب ورائي، ممسكاً بأغراضي في قبضتي. كنت وحيداً في القاعة، ويجب

التحرك بسرعة قبل أن يدخلها أحد أو يخرج من أحد الاكشاك أحد. تنفست عميقاً، وأمسكت بأكرة بابه وفتحته على مصراعيه ورأيته يفقد سيطرته وتوازنه مأخوذاً بالمفاجأة.

ولم تكن هناك طريقة لطيفة للتعامل. ولم يكن معي سلاح أخيفه به. دخلت الكشك فوقه إذ كان على الأرض، وأغلقت الباب من الداخل، وقرعت رأسه بقبضتي الممتلئة بالكلبشة، قبل أن ينطق حرفاً واحداً، وأذهلته المباغتة. أمسكت برأسه وهو جاث على ركبتيه، وفتلت عنقه حتى أصبح وجهه إلى الوراء، وصعقت وجهه بالشاشة، ووضعت ركبتي على كتفه، أصبحت في كامل السيطرة.

شغلت شريطاً وبدأ عرض الفيلم فوراً دون أن أتمكن من متابعته طبعاً، لأن وجه صاحبنا كان مضغوطاً على معظم الشاشة. كان الرجل بلا حراك. غير راغب في أن يقوم بأية حركة. وانحنيت على أذنه ليسمعني أكثر مما يسمع صوت تأوهات المرأة ذات الثديين الضخمين على الشاشة.

ـ «اسمك»؟

ـ ظل ساكتاً مغمضاً عينيه، متوقعاً ضربة.

ـ «يمكنك إغلاق عينيك يا ثقب الحمار، لكن أذنيك مفتوحتان للمرة الأخيرة: ما اسمك»؟

ـ «مارفن»، وكان صوته مرتجفاً.

ـ «لحساب من تعمل يا مارفن»؟

ـ «لا أحد. لا أعمل لأحد».

ـ «لم تلحقني يا مارفن»؟ قلتها بصوت ثابت خفيض وودي.

ـ حاول تحريك رأسه للنظر في وجهي، فشددت على ذراعه صعوداً بقوة، فتأوه موجوعاً.

قال: «هل كنت مع رجل منظمة التحرير الفلسطينية»؟

ـ «لمن تعمل يا مارفن»؟

ـ «قلت لك. لا أحد، أنا مفتش خاص أعمل في إحدى القضايا».

ـ «قضية ماذا»؟

ـ «لا أستطيع إخبارك. تلك معلومات مدفوع ثمنها، أترك يدي. لي حقوق كما تعلم».

ـ أدركت أن الرجل يعتقد بأنه وقع بين يدي شرطي، سحبت الكلبشات ووضعتها في يده. وسحبت قلماً من جيبي.

ـ «هل تحب الحصول على الأوتوغراف الخاص بي»؟

ـ «وماذا أفعل به»؟ قالها وحاول النهوض، فضغطت عليه بركبتي إلى الأسفل، وأصبح في مقدوري أن أرى على الشاشة رجلاً زنجياً يجامع امرأة تتلوى وتطلق التأوهات. وحاول أحدهم فتح الباب. ضغطت على يده بقوة أشد.

ـ «أنت تكسر يدي يا رجل. من فضلك أترك يدي».

ـ «هذا قلم يا مارفن». ووضعت رأس قلم «البيك» على خده. «سوف أضع القلم الآن في أذنك، ثم سوف أضغطه ببطء حتى يخترق دماغك. فكر بالأمر يا مارفن».

ـ «ماذا تقول؟» ودب الهلع في صوته عندما أحس بطرف القلم في أذنه. وكنت أعلم أنه أدرك عندئذ أنه يتعامل مع معتوه يجد لذة في تعذيبه فقال متعتعاً: «ما. . ما. . ماذا تريد مني»؟

ـ «لقد تبعتني يا مارفن، وأنا لا أحب ذلك حقاً. وأريد أن أعرف لماذا ومن أرسلك». وضغطت على القلم قليلاً وأنا أضغط أيضاً على ذراعه. وبدأت حرارة الجو في الكشك ترتفع، وزادت في إثارة أعصابي.

كنت أريد جواباً، مع أنني أصبحت على شيء من الالمام بما يجري.

وبينما كانت المرأة على الشاشة قد بلغت الذروة وارتخت مفاصلها، كان رفيقها الأسود لا يزال يواصل عمله بنشاط. وجاء صوت مارفن واهناً: «لقد قلت لك. أنا تحري».

ـ «وأريد أن أعرف لحساب من تعمل». ودفعت القلم قليلاً في أذنه.

ـ «أتركني. لا يمكنك أن تفعل هذا».

ودفعت القلم مجدداً، ودفع رأسه بشدة نحو الشاشة محاولاً التفلت مني. وانتهى الشريط السينمائي فضغطت في الشق شريطاً آخر، إذ يجب أن يبقى العرض مستمراً.

ـ «سوف أكون واضحاً معك، يا مارفن، إذا لم تبدأ بالكلام، فسوف استخرج هذا القلم من أذنك الأُخرىٰ. وسأحصل على الأجوبة من زميلك. وربما كان أصدقائي قد حصلوا على الأجوبة منه في هذه اللحظة».

ورأيته يفكر، واتسعت حدقتاه، وكان مذعوراً وزالت من رأسه الآن أية فكرة عن احتمال أن يأتي زميله لإنقاذه. وأدرك أنني أكثر إطلاعاً منه. وكان يحاول أن يفعل شيئاً للتعجيل بالأُمور.

تركت القلم معلقاً في أذنه، رفعت يدي. وقرعته على رأسه، وأصيب بصدمة، لأن هذا كان غير متوقع بالمرة. وعندما فكر بأن يتكلم ضربته على رأسه مرة أُخرىٰ.

ـ «أنا من عصبة الدفاع اليهودية GDL، هل تسمع بها؟ نحن نراقب مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية ورأيناك تخرج منها، واعتقدنا بأنك تعلم لحسابهم. فأردنا أن نعرف. . .».

ـ «تعرفون ماذا»؟

ـ «من أنت أردنا أن نعرف من أنت. فكيف كنا سنعرف إنك شرطي»؟!

ـ «من أرسلك»؟

ـ «الحاخام، فهو الذي يصدر إلينا الأوامر، ولا أحد يهتم بما يصيبنا، علينا أن نهتم بأنفسنا».

ـ «على اليهود أن يهتموا بأنفسهم وإلاّ أبادهم الغوييم».

ـ «هل أنت يهودي»؟ (الغوييم تعني الأغيار أو كل الناس غير اليهود).

ـ «كلاَّ، لست يهودياً». هكذا كان جوابي.

ـ «حسناً. أنت لا تعرف أن لدىٰ الفلسطينيين مخططاً لإبادة اليهود كافة، وأن الحكومة الأميركية طرف في المؤامرة».

ـ «ما هذا الهراء الذي تتفوه به؟ يجب أن أدقَّ على رأسك بشكل أعنف».

ـ «لن نسمح بحدوث ذلك. انتظر وسوف ترىٰ بعينيك! سوف نقتلهم جميعاً. سوف نقتلهم».

وكان الرجل قد بدأ ينهار. فخففت بعض الضغط عن رأسه. ونهضت

رافعاً ركبتي عن كتفه ورفعته بيده المفتولة وراء ظهره، والقلم لا يزال في أذنه، ولم يكن في الغرفة ما أربطه إليه، ولا كان في مقدوري إفقاده الوعي دون المخاطرة بقتله. لم يعد مصدر تهديد لي، فلم أقتله؟ أبقيت القلم في أذنه وفككت حزامه.

ـ «ماذا تفعل»؟

ـ «أجردك من ثيابك يا صغيري»!

ـ «ولماذا» وكان الخوف جلياً في صوته. «ماذا ستفعل بي»؟

ـ «لا شيء. إذا أحسنت التصرف. والآن اخلع سروالك».

ـ وخلعه. وبعد خمس دقائق من المعاركة والمجادلة والضغط على ذراعه الملتف وراء ظهره، أصبح عارياً تماماً. ووضعت ثيابه داخل معطفه الكبير وحملت «البقجة» تحت إبطي. وكان جاثياً على ركبتيه، مواجهاً الشاشة. ويداه مكلبشتان وراء ظهره.

وقلت له بعد أن وضعت عدة أشرطة في الشق: «سوف أتركك الآن. ولديك نحو عشر دقائق من الترفيه والاستمتاع بالعرض. ثم تصبح وحدك».

ـ «لا تستطيع أن تتركني هكذا، أرجوك ألا تأخذ كل ثيابي». وكان يتوسل ويرجو. وكان المكان مرتفع الحرارة. لكنه كان يرتجف. وخشيت أن يتغوط على الأرض وعلى حذائي. وكانت تكفيني رائحته الكريهة حتى بدون تغوط. وقلت له: «إما هذه الطريقة أو أن أقتلك. فأنت تفهم أنني لا استطيع الخروج وتركك تخرج معي. فأيهما تختار»؟

ولم يجب، إذ كان يبكي وينشج بصمت. خرجت من الكشك وطرقت الباب ورائي. وسمعته يسقط على الأرض يئن ويتأوه. أم تراه كان أنين وتأوه المرأة ذات الثديين الضخمين؟ لم أكن متأكداً. وشعرت بالاشفاق على الرجل لأن هذا الحي بالذات ليس أفضل مكان في العالم ليسير فيه المرء عارياً! لكنني شعرت بأنه كان يستحق ما نال مني. وكنت أكره جماعة «عصبة الدفاع اليهودية» JDL «اليهودية ـ النازية» كما كان يسميها كثيرون. مررت بالموظف الجالس وراء المكتب كلمته دون النظر إلى ناحيته: «هناك رجل في الكشك الرقم أربعة يزعج الناس في الخلف، وهو عار يلزمه عقاب».

ولم ينهض كي لا يترك صندوق النقود، لكنه بدأ مكالمة هاتفية فورية، فيما انسحبت أنا ودخلت في ازدحام الشارع الذي يرافق فترة الغداء. ووضعت «بقجة» الثياب بين يدي متسوّل في أحد الأزقة. وسرت بينما كان يفتحها ويبحث فيها حتى وصل إلى المحفظة فألقى من يده بكل شيء بسرعة داخل عربة التسوّق وذهب يعدو في الزقاق.

قفزت إلى حافلة وعدت إلى مركز كرايزلر في الوقت المناسب لإجراء المكالمة. وكان الوقت بعد الظهر في إسرائيل. وكان افرايم على الطرف الثاني من الخط في سرعة فورية تقريباً. وجاء صوته معزياً يحمل الفرج. صوت عادي. وكان مجرد وجوده هناك ليرد على المكالمة، خير دليل على أن كل شيء على ما يرام. ولم أدرك إلا عندئذ كم كنت قلقاً ومعصباً حيال العواقب المترتبة على أعمالنا، إذا ما وضعوا أيديهم علينا في مرحلة مبكرة من اللعبة.

وسألني بتدقيق: «أظن إنك فعلت ما كان متوجباً فعله»؟

ـ «نعم. فعلت، ذهبت إلى المكتب وقابلت الرجل العامل هناك. وخرجنا لشرب القهوة وسلمته الرسالة».

ـ «ماذا قال»؟

ومع أن خط افرايم مؤمن وغير مراقب، ومع أنني كنت أتكلم من هاتف عمومي اخترته عشوائياً، فقد كنا نتكلم بتحفظ. فأجبته: «لم يفاجأ بما قلته له. كان يعرف كل ذلك وكذلك رئيسه كما يظهر».

ـ «هل قال شيئاً آخر»؟

ـ «قال إننا يجب أن نعرف أن في شركته أُناساً يريدون نفس ما نريده، لكن الوقت اللازم للبزنس ضيق. وكان يشير إلى أن للسوق رأياً في الموضوع، وإنه (السوق) قد يستولي على الأمور بطريقة معادية مما يضطرنا للتعامل مع شخص قد لا نحبه».

ـ «فهمت. توقعت ذلك. هو يعرف على الأقل أنه يوجد في شركتنا أُناس راغبون بالبيزنس معهم أيضاً. هل واجهتك أية متاعب»؟

ـ «كان لدي زائر وتبين في النهاية أنه عضو من هذه الجماعة الراديكالية هنا».

- «من جماعتنا»؟
- «تستطيع قول ذلك. كانوا جماعة مئير». (أشارة إلى الحاخام مئير كهانا».
- «هل تضحك عليّ»؟
- «كلا. تخلصت منه. الأُمور طيبة. هل رأىٰ أحد من جماعتنا شيئاً».
- «الظاهر لا. تبين أن المكان غير مراقب بالمرة».
- أظن أنه لذلك يقوم معتوهو عصبة الدفاع اليهودية JDL بالمراقبة».
- «أوكي حتى الآن بالنسبة للخطوة الأولىٰ. الآن يجب أن تغيب عن الأنظار. اختف. هل تفهم»؟
- «نعم».
- «هل ستزور أباك الآن»؟
- «نعم. سوف أتلفن له لاحقاً اليوم وأطير إلى هناك غداً. متىٰ أراك أو أسمعك»؟
- «اصبر. لن يطول الأمر. سوف اتصل بك هناك. وتذكّر ما قلته لك. إبق هناك حتى أطلب منك الرحيل. واضح»؟
- «نعم، إنما أعطني ولو وقتاً تقريبياً».
- «لا أستطيع».
- «بعد أيام؟ أسابيع؟ ماذا»؟
- «لن تكون أكثر من أسبوعين كحد أقصىٰ».
- «وقت طويل سيكون كالجحيم».
- «لدينا جحيم أعمال كبيرة. سأتصل بك هناك».
- «وماذا لو اتصلت أنا لفحص سير الأُمور»؟
- «اتصل واترك رسالة إذا لم أكن موجوداً، الرسالة التي اتفقنا عليها».
- «سوف أفعل ذلك». وانتهت المكالمة. وعدت إلى وحدتي في نيويورك. وكان الوقت ليلاً في إسرائيل. وعدت إلى الفندق. وعدت إلى شعوري بالنشاط.

الفصل الثاني عشر

فضيحة إيران ـ كونترا

اتصلت بأبي من الفندق. كان سعيداً لسماع صوتي وأخباري. وفوجىء بكوني في نيويورك عرض أن يدفع ثمن تذكرة الطائرة كي أتمكن من زيارته (من عادة والدي أن يعرض دفع ثمن كل شيء، وكثيراً ما يفعل ذلك حقاً). لكني أجبته بأن في وسعي تحمل النفقة وإني اعتزم الوصول إلى أوماها في اليوم التالي.

لم أكن شديد الحماسة لهذه الزيارة. فلم أكن أعرف على أي بَرٍّ سوف ترسو سفينتي، ولا وجهة حياتي، ولم أكن قادراً على إخبار والدي كم طول المدة التي سأقضيها عنده، مما وضعني في موقف غريب. قلت له إنني ارتاح حالياً بين مهنة وأُخرىٰ، في انتظار مكالمة من صديق هو أيضاً رئيسي. وبما أنني ضابط سابق في السلاح الجوّي الكندي ومن ثم في السلاح الجوي الإسرائيلي، فقد كان يعلم وجوب عدم طرح الكثير من الأسئلة.

وحالما يتصل صديقي أعرف إلى أين سأذهب. هذا ما شرحته له. وقلت له ولزوجته جيجي إن صديقي سوف يصل إلى واشنطن قريباً، وإنه إذا كانت هناك أية مشكلة في الإقامة عندهم، ففي استطاعتي انتظار وصول صديقي. ووجدت نفسي مضطراً لتقديم اعتذارات لا نهاية لها، مع إنه لم يكن لها داعٍ.

والحقيقة انني لم اقض وقتاً طويلاً مع أبي من قبل. فقد انفصل والدي ووالدتي منذ كنت في الخامسة من عمري. وأخذتني أمي معها إلى إسرائيل. وهي لم تفعل ذلك حباً بتربيتي بنفسها، بل لمجرد منع والدي من ذلك. والحقيقة هي أن جدي وجدتي لأمي هما اللذان توليا مهمة تنشئتي، وهي مهمة زاد في مشّقتها عليهما سلوك أمي بالذات. ففي بيت جدي وجدتي كانت تتصرف

وكأنها مجرد أخت لا أماً لي. وكانت تنافسني باستمرار على حب أمها وأبيها. ومع أنني كنت مجرد طفل صغير، لكنها كانت تشعرني وكأنها هي الشقيقة الصغرى!

وكان جدي وجدتي هما اللذان زرعا في قلبي حب إسرائيل والحركة الصهيونية. كما لقناني كمية كبيرة من الديانة اليهودية، وهو فضل أدين به لهما حتى اليوم. هذا مع العلم أنهما لم يكونا من اليهود الأرثوذكس حسب المفهوم السائد.

وكانوا يدركون أنه إذا تم اتصال مباشر بيني وبين والدي، فسيطلب أخذي إلى الولايات المتحدة. مخافة حدوث ذلك منعوا أي اتصال بيننا نهائياً. وبقيت الاتصالات كافة مقطوعة معه حتى بلغت السابعة عشرة، وعثرت على رسالة من والدي موجهة إليّ، ومخبّأة في أحد الأدراج، وفيها «شيك» كان يبعث به شهرياً من أجل نفقتي. فحتى تلك اللحظة كانوا قد اقنعوني بأن والدي لا يريد أن يسمع باسمي. ومن العسير اليوم أن أحاول وصف الألم الذي كنت أعانيه طوال السنوات السابقة وأنا أفتكر بأن والدي لا يرغب بي، كما أعجز اليوم عن تبيان كمية الغضب التي ملأت صدري عندما اكتشفت عدم صحة هذه الإدعاءات التي أضاعت مني الكثير أعواماً وأعواماً.

فبعد سنوات وسنوات عرفت أن والدي كان يبعث إلي بمثل هذه الرسالة شهرياً، ومعها «الشيك» وحيث إنه كان يعرف أنهم يقبضون قيمة الشيك، فقد كان يرى ان معنى عدم الرد على رسائله انني لا أُريد أية علاقة معه. ولم يكن يخطر على باله أنني لا أعلم عن رسائله وشيكاته شيئاً.

وبعد عثوري على تلك الرسالة مباشرة، تلفنت له، ثم زرته قبل التحاقي بالجيش مباشرة. والتقينا منذ ذلك الحين عدة مرات لفترات وجيزة. لكننا لم نتمكن أبداً من ردم الهوة التي حفرها الزمان بيننا.

ولم يختلف الوضع أثناء هذه الزيارة. وكنت المس ما يشعر به من إحباط لعجزه عن التواصل معي. والشيء نفسه من ناحيتي. فقد كنا كقطعتي مغناطيس متعاكستين تجاهدان للالتحام. ولم استطع أن أجعله يجلس، وان يصغي للحقيقة مني.

أما الحياة الرخية الهانئة التي كان يعيشها أبي، في أحد الأحياء المترفة في أوماها، ومع كل البهارج المكمِّلة لقصة نجاح، وقصة تحقيق الحلم الأميركي، كل ذلك لم يكن من شأنه إلا تعميق شعوري بالاحباط، وأنا منقطع عن بيللا والطفلتين، ومعلق على خيط رفيع يتدلىٰ فوق حفرة لا قعر لها.

الثلاثاء، ٨ نيسان ١٩٨٦، اوماها:

أجريت اتصالات مع افرايم من الهاتف العمومي في المتجر الكبير. أنا في المدينة منذ أسبوع ولم أسمع منه شيئاً حتى الآن. فقال: «أنا سعيد لاتصالك، وأُريدك أن تفعل شيئاً».

- «إذن لِمَ لَمْ تتصل بي»؟
- «كنت على وشك الاتصال. أُريد أن تتصل برجل في نيويورك».
- «هل أعرفه»؟
- «لا أظن ذلك. اسمه افراهام برعام. وهو بريغادير جنرال في الاحتياط».
- «صديق آخر لك»؟

- «لا. أبدا. ان SOB تحاول بيع أسلحة للإيرانيين. وعرض علينا أسماء الذين يتصل بهم. وينتظر معرفة ما إذا كنا نصادق عليهم. والواقع أنه أحضر أحدهم إلى إسرائيل في زيارة قبل مدة».
- «فماذا تريد مني»؟

- «ان تتصل به في نيويورك وتبلغه بموافقتنا على جميع الاسماء. وقد يقوم بتسجيل المكالمة فكن مختصراً في كلامك معه».
- «ماذا تعني بالموافقة على كل شيء؟ إذا كان الأمر كذلك فلم لا تتصلون به أنتم»؟

ولم يبد لي ما طلبه مني سليماً. فقد بدا وكأنني أعمل عمل الموساد في حين أنني في الخارج ليس لذلك الغرض. بل للقبض على أوغاد الموساد.

وتملكني شعور قوي بأن افرايم يستغلني لمآرب أُخرىٰ.

لكن افرايم كان صلتي بـ«الحياة». كما إنه يعطي معنى لكل السنوات التي

قضيتها في الموساد. كما كان صديقاً دائماً، ولم أتعلّم أن أحبه، لقد كنت أعلم دائماً أنني استغله بقدر ما يستغلني.

وقال افرايم: «لا أستطيع الاتصال به، فهو يعرفني. وهي مكيدة مدبرة للرجل. القيادة هنا هي التي رتبت الوضع. وكنت الشخص الذي أقام الاتصال من أجله. وما عرفته اليوم هو أن «الصلة» استماله مكتب التحقيقات الاتحادي FBI (الاميركي) وأصبح جاسوساً علينا. وكان يعمل لحساب CIA قبلئذ».

ـ «إذن لماذا لا تحذر رجلك افراهام هذا»؟

ـ «سوف أفعل ذلك. لكن هذا لا يخدم هدفنا».

ـ «كيف»؟

ـ «أُريد أن يتم القبض عليه، وستكون هذه ضربة للموساد. وإذا حاولوا مساعدته فسيبدون قذرين في نظر الاميركيين. وإذا تركوه وحيداً، فإني واثق من أنه سوف يورطهم».

ـ «فهمت، إذن هذا ما أتوقعه منك أنا نفسي عندما يأتي الوقت المناسب»؟

ـ «لا تكن سخيفاً، هذه قضية مختلفة. فالرجل مشترك في اللعبة من أجل المال. وهو يستحق مصيره».

قلت: «أوكي». وكان صمت قصير. ثم تلوىٰ صوت افرايم كالحية قائلاً: «اتصل به وقل له إنك صديق، وليستمر في الصفقة حسب الخطة».

وأعطاني رقم هاتف الرجل وكل المعلومات اللازمة، ثم قال: «وسأتصل بك قريباً».

وضعت السماعة، ووقفت أفكر عدة ثوان في ما سأفعل. ثم التقطت السماعة واتصلت.

دق جرس الهاتف عدة مرات قبل أن يرد. ثم جاء صوت امرأة: «نعم؟».

ـ «هل أستطيع التحدث مع افراهام»؟

ـ «من يريده؟».

ـ «صديق».

ـ «ألك اسم»؟

ـ «كلا. مجرد صديق يحمل جواباً».

ولم تقل شيئاً. بعد لحظات جاء صوته.

ـ «مرحباً..».

ـ «افراهام؟».

ـ «نعم من المتكلم»؟

ـ «صديق مع رسالة».

ـ «من هذا»؟

وبدأت اتحدث العبرية قائلاً: معي رسالة لك من أصدقائك يقولون ان الاتصالات التي قدمتها لهم من أجل الموافقة. صادقوا عليها جميعاً، ويطلبون منك المضي قدماً».

ـ «متأكد»؟

ـ «أنا مجرد رسول. إنها ليست شركة أبي. فإما ان تقبل وإما أن ترفض».

ـ «شكراً».

انتهت المكالمة. وكنت أنضح عرقاً. كنت أعلم أنه سائر إلى شرك منصوب. وتمنيت لو إني أستطيع تحذيره من الفخ المعد للإيقاع به. لكني لم أفعل شيئاً.

عدت إلى منزل والدي وتوجهت إلى غرفتي وكانت في الحقيقة غرفة أخي غير الشقيق مايك، لكنه لم يكن مقيماً في المنزل في تلك الفترة. وكان يوم عطلة الخادمة. وكان والدي وزوجته جيجي خارج المنزل.

وجلست محملقاً في الصور الصامتة على شاشة التلفزيون.

في الثالث والعشرين من نيسان ١٩٨٦ اعتقل مكتب التحقيقات الاتحادي FBI اثني عشر رجلاً لمحاولتهم بيع أسلحة إلى إيران. وضاعت القصة في زحمة الأخبار التي أعقبت القصف الاميركي على ليبيا، والحادث النووي في تشيرنوبيل في الشهر نفسه.

وسمعت أن الجنرال برعام أكد براءته. وقدم الوثائق التي كان مفترضاً أنها تخوله عقد الصفقة باسم الصناعات العسكرية الإسرائيلية وبالنيابة عنها.

وكان الرد الرسمي الإسرائيلي أن الرجل كاذب، وأن الوثائق التي يتذرع بها كانت تعطى بلا تمييز إلى أي شخص يريد المتاجرة بالأسلحة.

كما قالوا إن مثل هذه الوثائق لا تمنحه الحق في استكمال الإجراءات المتعلقة بصفقة أسلحة وإنهائها، وإن الوثائق التي يحملها تعطيه صفة مندوب مبيعات لا غير!

وباختصار تم تدمير الرجل. إنما لم تحدث أية هزة أو عملية تطهير في الموساد، ولم تظهر للنفق نهاية.

لكنني اشتبه فعلاً بأن هذا كان جزءاً من مخطط أوسع كان افرايم وشلته جزءاً منه. وعرفت ان قناة افرايم إلى السلطة كانت في شخص «عميرام نير» مستشار رئيس الوزراء لشؤون الإرهاب. وبينما كانت هذه الفضيحة القذرة تحدث مع افراهام، كان «نير» مسافراً إلى طهران يحمل توراة عليها توقيع الرئيس الاميركي (في حينه) رونالد ريغان، بدون علم الموساد الإسرائيلي أو وكالة المخابرات المركزية (الاميركية) CIA ، في ما أصبح يعرف لاحقاً باسم فضيحة إيران ـ كونترا. فاستخدام الجنرال كمخدر لتهدئة خواطر المخابرات الأميركية، كان ذروة الشطارة. لأن تلك الخطوة حرفت الأنظار عن عميرام نير وتعاملاته السرية. ومنذ أن أصبح هذا بعيداً عن أعين CIA، لم تعد هناك طريقة أمام الموساد لتكتشف القضية. فحيث إن CIA كانت صلة الموساد الوحيدة في هذه القضية المعيبة، كان إبقاء CIA في ظلام الجهل يعني أيضاً خروج الموساد من الحلقة.

أصبحت مكالماتي الهاتفية مع بيللا تزداد إحباطاً، لذا كانت تريد أن تعرف متى ستبدأ الأمور بالتحرك.

ولم أتمكن من إقناعها بالاكتفاء بما كان يجري حقاً، لذا كان عليّ أن اخترع لها قصة ما للتغطية. وظللت أقول لها إنني أبحث عن عمل، وانني على وشك التقدم إلى وظيفة لدى أحد أصدقاء أبي. وكان ذلك الصديق صاحب شركة للتسفريات في اوماها.

والواقع انني تحدثت إلى الرجل، وكانت خطتي عرض رحلات مؤمنة على الركاب، حيث كانت القرصنة الجوية تؤثر على صناعة السياحة. واقترحت تأليف عدة فرق تتجول بين العديد من المناطق الرئيسية المقصودة للسياحة، ومرافقة

وتأمين طرق جوية محددة. على سبيل المثال: تكون هناك رحلة جوية لتشارتر يومياً أو كل يومين تغادر نيويورك إلى لندن أو باريس. ورحلة أخرىٰ للعودة. ولن نقيم خطاً جوياً كهذا، بل نقدم الأمان ونضمن الإجراءات الأمنية.

وأقوم أنا بتدريب الفرق، وننظم برنامجاً معيناً. ولم يكن لديَّ شك في أنه خلال تلك الأوقات المشحونة بالخوف والشك، فستكون الرحلات «المأمونة» التي اقترحتها ممتلئة بالركاب الزبائن، ولو حمّلناهم زيادة بسيطة في التكلفة. وكنا حينئذ سنتوجه إلى الخطوط الجوية الكبرىٰ ونعرض عليها خدمات أمنية مماثلة على أساس كل رحلة بمفردها.

بدا وقع الفكرة عظيماً، لكن شعوري أن صديق والدي كان كل همه استرضاء والدي أكثر من أي شيء آخر. وشعرت بأنه لن يتساقط أي مطر من كل تلك البروق. لكن القصة نفعتني مع بيللا، كذريعة للتغطية ليس إلا.

وكان هناك أمر لم أفكر فيه، مع إنه كان يستحق الاهتمام، فقد توقعت دائماً أن بيللا لن تبوح بأية معلومات بشأننا، وذلك لمجرد كونها شخصاً خصوصياً جداً، كان إيمانها بأنه كلما عرف الآخرون عنك أقل، كلما تحسن حالك. وكانت تعتبر أسرتنا الصغيرة مركز الكون كله.

وكان يستحيل استخراج أية معلومات منها ما لم تكن هي راغبة في افشائها. والحقيقة أن هذه الميزة فيها ثمينة ونادرة. وكان يجب أن أتذكر أنها هي أيضاً كانت تمر في نفق مظلم ومرعب، ربما كان أشد عتمة ورعباً من نفقي. فأنا كانت لدي على الأقل ميزة كوني عارفاً بما يجري وبأسبابه. أو هكذا تصورت. أما هي فكانت معزولة و«منفصلة» عني وإن كانت تقرأ أفكاري ككتاب مفتوح.

كانت تعرف أن هناك شيئاً ليس بالضبط كما أقول لها، وأن لدي الكثير مما لا أبوح لها به.

اتصلت بي يوماً في اوماها. وردت جيجي زوجة أبي على الهاتف. فأجرتا محادثة مطولة بينهما وحيث ان بيللا كانت تظن أن كل من في أوماها يعرف أنني خرجت من «الشيء الذي أعمله مهما كان نوعه» وأنني أبحث عن عمل، فقد صرحت بذلك كله، طالبة من جيجي أن تشرح لها سير الأمور معي. ولم أكن

قد أوصيت بيللا أبداً بعدم التحدث في هذا الشأن، كما لم أبلغها بأن «الجماهير الكندية» كلها تعرف انني أبحث عن عمل. وكانت النتيجة أن كلاً من المرأتين فاجأت الأُخرىٰ بما تعرف وبما لا تعرف.

اتصلت بإفرايم من المجمع التجاري لأبلغه بضيقي ونفاد صبري فلم أجده، لكن رسالة لي كانت في انتظاري تطلب مني ملاقاته في واشنطن في غضون يومين. وإنه سينتظرني في فندق بعيد هو «الهوليداي ان» في سيلفر سبرينغ، ماريلاند.

وعندما عدت إلىٰ المنزل تلقيت اتصالاً من بيللا وكانت حانقة غاضبة من ناحية، وقلقة مهمومة من ناحية أُخرىٰ. وأخبرتني عن محادثتها مع جيجي وحذرتني قائلة إن سري قد انكشف. وطلبت تفسيراً، وشرعت بالبكاء.. على الهاتف.

وبذا تهاوى الأمل الواهي الذي كنت قد بنيته لها، فيما يخص مستقبلنا. وحاولت الشرح والتبرير.

وكنت في الوقت عينه أفكر فيما يجب أن أفعل. وكنت أعلم أنني إذا واجهت جيجي، فلن تظل تلك المضيفة الودودة الكريمة التي استقبلتني بالخير حتى الآن.

ومن المرجح ان ينتشيط والدي غضباً لأني كذبت عليه. فكان قد افترض دون أن أصحح تقديره الخاطىء، انني لا زلت أعمل لحساب جهة ما في إسرائيل، وأنني انتظر مكالمة من زميل قادم إلى الولايات المتحدة.

هذا الوضع لم يكن محتملاً، ولم يكن هذا هو الموقف الذي أحببت أن أجد نفسي فيه. ولم تكن هناك جدوىٰ للشرح والتفسير. وكان العزاء الوحيد تلك الرسالة من افرايم التي تركها لي. فالأشياء بدأت بالتحرك فعلاً.

وتماسكت أمام غضب بيللا ودموعها وقلت لها: «لا استطيع أن أخبرك شيئاً الآن. أُريدك أن تثقي بكلمتي. وامنحيني ثقتك للمرة الأخيرة».

ـ «ولكن كيف اثق بك؟ ماذا تريدني أن أفعل؟ ليتني أتمكن من النوم حتى ينتهي كل هذا مهما كان الوضع».

- «أرجوك. ثقي بي. وسيكون كل شيء على ما يرام. سوف اترك هذا المكان غداً، وسوف اتصل بك من المكان الذي أتوجه إليه. أوكي»؟.

- «أعرف ان هذه هي النهاية. ولن أراك حتى آخر العمر. هل لن أراك أبداً»؟

- «لا تتكلمي بهذه الطريقة. ماذا تقولين»؟

وكنت أقول في أعماقي إنها قد تكون أصابت كبد الحقيقة.

فقد كان هناك احتمال قوي ألاَّ يكون هناك مخرج مما يريد افرايم إدخالي فيه. وكنت أعرف من عدة رجال عارضوا الموساد فقضوا بقية أعمارهم في زنازين السجون المجهولة القائمة في أماكن شديدة السرية، وتلفها إجراءات أمنية عسيرة. أصبحوا مجرد جثث حية لا أسماء لها. هناك آخرون أعظم حظاً قضوا بالرصاص أو بتفجير قنبلة مخبأة. وانهمرت الدموع على صفحة خدي وأنا أحاول تهدئتها، قائلاً: «هذا غير صحيح. سوف نرى بعضنا أقرب مما تتخيلين». فجاء صوتها يشي بشيء من الانفراج: «وماذا ستفعل بشأن ما يعرفونه عنك الآن»؟

- «ليس الكثير. عليّ مواجهة الموسيقى وتدبير مخرج لهذا الطريق المسدود».

وجاء أبي عندما وضعت السماعة . تبادلنا كلمات قليلة وقرأت في وجهه تساؤلاً عما يمكنه أن يفعل. وكان واضحاً لكلينا أن مغادرتي سريعاً هي أفضل شيء أفعله. وأوصلني إلى المطار حالما جهزت حقيبتي. ووضع ألف دولار في يدي قائلاً بصوت مخنوق إنه والدي ويحبني مهما حدث. وقلت له إنني أحبه أيضاً، وفارقته جالساً في سيارته وأنا أدخل المطار.

كنت آمل أن يلحقني محاولاً أن يستخرج مني حقيقة الجحيم الذي أعانيه، وأن يقول أن في وسعه المساعدة أو إخراجي من المأزق. لكنه لم يفعل ذلك.

فقد كنت لغزاً غامضاً في نظره، وذكرى علاقة خربت منذ أعوام طويلة.

الفصل الثالث عشر

المهمة الأولى: الإتصال بـ (.K. G. B) في واشنطن

الأحد، ٢٠ نيسان ١٩٨٦، واشنطن دي. سي.

كان الجو ماطراً في واشنطن عند الهبوط. كنت غريباً وحيداً في مكان غير معتاد، يتغذى بصمته.

ركبت سيّارة أجرة من المطار إلى فندق «هوليداي إن» في سيلفر سبرينغ، وحيث انني كنت مسجلاً في الفندق باسمي الحقيقي خلال عملية معينة، فقد شعرت بالعراء، فأنا هناك الآن لفعل أشياء غريبة. وكان من المريح لو استخدمت اسماً مستعاراً انكره إذا ساءت الأُمور.

وكانت قصة التغطية التي استخدمتها في الفندق انني أبحث عن موقع ابني فيه مطعماً. كنت أمثل مُجموعة من المستثمرين يريدون إنشاء سلسلة من المطاعم الخاصة بالذواقة، وإدارتها وإنجاحها، ثم بيعها بأرباح مجزية. وانني قد أبقى في الفندق بضعة أيام أو أسابيع. لكني ـ وحتى أقرر ما أفعل سوف أبقى في غرفتي، أغادرها عند الوجبات إلى قاعة الطعام في الطابق الرئيسي.

اتصلت بزوجتي بيللا وأعطيتها رقم الفندق فإذا كان هناك من يتنصت، فلن يشتبه في شيء.

فلم يكن أمراً مستهجناً لشخص بخلفيتي ومعرفتي أن يوجد في واشنطن بحثاً عن عمل في المجال الأمني.

فليسوا كثيرين الذين يستطيعون مثلي توفير مستوىً رفيع من الحماية لشخصيات رفيعة.

وشعرت بالراحة لأني عدت لوحدتي، تماماً مثلما شعرت بالأمان في منزل والدي. وأصبح في وسعي التخلي عن تمثيل المظاهر، فأدخن وأشرب «على كيفي»، وشربت حتى سقطت في النوم.

الاثنين، ٢١ نيسان، الساعة ٩:٠٠.

دق جرس الهاتف وجاء صوت افرايم: «أرىٰ أنك وصلت مبكراً».
ـ «نعم. متى وصلت أنت»؟
ـ «جئت تواً من المطار. هل كانت معك رفقة»؟
ـ «لا. أنا بخير. وكيف حالك»؟
ـ «بخير كذلك. لم لا نتناول الفطور؟ فأنا جائع للغاية».
ـ «بالتأكيد. امهلني عشر دقائق، وألاقيك في قاعة الطعام».

غادرت سريري قفزاً. ففي النهاية تحركت الأمور. وكلما اسرعت بفعل ما يجب فعله، كلما عدت إلى حياتي، أيا كان ما بقي منها. ولم أتوقع الخروج من اللعبة الآن. لكنني كنت راغباً في قاعدة آمنة انطلق منها لتنفيذ عمليات، وأسرتي إلى جانبي.

توجّهت إلى طاولة افرايم التي كانت في ركن مجاور للباب المؤدي إلى البار.

حياني بابتسامة كبيرة. وكان يشرب القهوة. وما أن جلست حتى أحضر النادل الفطور فقال افرايم: «سمحت لنفسي بأن أطلب لكم الفطور كي لا ننتظر، فلدينا ما نفعله».
ـ «لا مشكلة إذ إنك طلبت ما أريد بالضبط وبشأن العمل، ماذا سنفعل»؟
ـ «بعد الفطور نذهب إلى غرفتي ونتحدث».

انتهينا من تناول الطعام، وأخذنا معنا كوبين ضخمين من القهوة كي لا نضطر لطلبها من الغرفة.

وكانت غرفته في الطابق السادس. وفي الزاوية رأيت حقيبة صغيرة. فسألته: «أين أمتعتك»؟ لأني كنت أعرف غناية افرايم الشديدة بالثياب.

أشار إلى الحقيبة الصغيرة وقال: «لن أبقىٰ طويلاً. أنا هنا لإعطائك

التعليمات، وبعد توجهك لأداء المهمة سأغادر حالاً».

ـ «لا أملك إسناداً».

ـ «لديك أنا. . والتدريب الذي حصلت عليه. فماذا يلزمك بعد»؟

ـ «لكنك ستعود إلى إسرائيل».

ـ «سنصل إلى ذلك. حالما تفهم أن مهمتك الأولىٰ هي أن. . ».

ـ «ماذا؟ ماذا؟ هذه مهمتي الأولى؟ هل قلت الأولى»؟

ـ «نعم. وماذا كنت تظن أنها ستكون: «بانغ» وانتهى الأمر»؟

ـ «لا تلق محاضرة. أُريد معرفة جدول زمني».

كنت أعلم أنه في وسعي الانسحاب في أي وقت، لكن افرايم كان يراهن على أنني لن أفعل ذلك، وعلى أنني ـ بدوافعي لإنهاء الأُمور ـ لا أستطيع ذلك.

فقال: «ما الفرق؟ لديك عمل تقوم به، وسينتهي كل شيء عندما تنجزه. ويكون ذلك عندما يأتي وقته. فأنت لم يعدك أحد بحديقة ورود عندما انضممت».

ـ «أعرف ذلك. وأنا لا أطلب حديقة ورود. فعندما التحقت بالموساد فرضوا على بيللا فحصاً أمنياً منهكاً، وأقروا ومنحوها إقراراً عالياً بسلامتها في مستوىٰ إقراري. كانوا يقولون لنا دائماً إن الزوجة جزء من الفريق وانه لا توجد عليها أسرار. أما الآن فتقول إنني لا أستطيع حتى إخبارها بأنني ما زلت أعمل مع الموساد». وتوقفت هنيهة وسألته: «هل ما زلت أعمل مع الموساد»؟

ـ «كلا. أنت لا تعمل مع الموساد. أنت تعمل لحسابي. أما بشأن بيللا فأنت محق تماماً. لكن القواعد تغيرت. وهذه لعبة جديدة». وبعد أن عدل جلسته قال: «هل تعرف بيللا عن دينا أو راشيل أو جميع النساء الأُخريات؟ هل تعرف زوجتي كل ما أعرفه؟ لا. لا يعرفن. هل يعرفن المخاطر التي نلاقيها في الميدان؟ هل تعود إلى زوجتك من مهمة فتقول لها: أتعرفين أنني كدت أقتل الليلة الماضية في النمسا؟ تقول لها إنه من المحتمل قتلك في المهمة المقبلة في اسبانيا؟ كلا. أنت لا تفعل ذلك. وعندما يستدعونك للقيام بدورية في الجيش هل تتصل بزوجتك لتبلغها بأن المهمة خطيرة وقد لا تعود منها حياً؟ نحن نأخذ كل يوم قرارات تؤثر في حياة زوجاتنا ودون استشارتهن.

ونقول لأنفسنا: إذا حدث لنا شيء فسوف يفهمن إنه كان علينا فعل ذلك. هكذا تجري الأُمور. فهل لنا وضع كل هذا جانباً والحديث في العمل»؟

ـ «أحتاج جدولاً زمنياً» قلتها بإصرار.

ـ «بعد ثلاثة أسابيع تصبح طليقاً». قالها مرغماً وبتضايق ظاهر.

ـ «أين»؟

ـ «وما الفرق؟ ستكون مع زوجتك وطفلتيك. أعدك بذلك».

شعرت بموجة من التفاؤل تغمرني. وفي هذه اللحظة أدركت كم كانت آلامي عميقة ومنهكة.

ـ «وماذا سأفعل هذه المرة»؟

ـ «سوف تتطوع للعمل لحساب دولة أجنبية».

ـ «أعمل»؟

ـ «عمل مخابرات. سوف تتطوع باعتبارك ضابط موساد سابقاً. سوف تقدم نفسك للعمل لديهم. أخبرهم عن طريقتنا في العمل: التركيبة وشؤون الموظفين وخلافه».

ـ «هل تعني أن أخون وأبيع الموساد»؟

ـ «نعم! هذا ما ستفعله بالضبط»!

ـ «ولحساب من»؟

ـ «لحساب المخابرات السوفياتية (K.G.B.)، ونهض مواجهاً النافذة العريضة. وكان الزجاج مبتلاً، فالمطر لم يتوقف طوال الساعات الأربع والعشرين الماضية.

صعقت وكأن جبلاً سقط على رأسي وتساءلت: «هل تعني ذلك حقاً؟».

ـ ظل أفرايم جنب النافذة وقال دون ابتسام: «قلت لك: (K.G.B.). السوفييت. أليس مفهوماً»؟

ـ «لا أفهم. ولمَ أفعل ذلك؟ ولمَ يشترونني»؟

ـ «إذا لعبتها حسب الأُصول فسوف يأخذونك. فكر في الأمر. كيف يمكن أن يخذلوك وأنت خارج من الموساد تواً وما زلت طازجاً؟ أنت كنز ثمين. وإنهم مع كل ما لديهم من حلفاء عرب، سوف يلتهمونك كوجبة لذيذة».

ـ «وماذا إذا أرادوا ذهابي إلى موسكو؟»

ـ «إذن تذهب. تذكّر فقط أنك تفعل ذلك من أجل المال. فلتبق هذه الحقيقة في بالك دائماً وإلا استشبهوا بك. وسوف تستخدم إسمك الحقيقي وقصتك الحقيقية لتعزّز وضعك».

ـ «وما إذا عصروني من أجل المعلومات ثم رموني وتخلوا عني؟ فماذا نكسب؟ فكّر بالأمر. ولم يعد في مقدوري الوصول إلى المعلومات. فما نفعي لهم؟».

ـ «حسناً. قل لهم إنك ما زلت مع الموساد».

ـ «ماذا تقول؟ وهل تريدني أيضاً أن أخبرهم بشأنك؟».

ـ «لا. طبعاً لا. أخبرهم قصتك، ولكن بدلاً من القول إنهم في الموساد «علّبوك»، تقول إنهم أوقفوك عن العمل مؤقتاً فيعرفون أنه لا يزال أمامك طريق للعودة إلى العمل. ثم يحاولون تجنيدك».

ـ «اسمعني يا إفرايم». وكنت مستعداً للقيام بالعمل لو كان يؤدي إلى شلّ الموساد باعتباره منظمة تشكل خطراً على دولة إسرائيل وكيانها الديمقراطي. لكنني من ناحية ثانية لم أكن مستعداً للسير بصورة عمياء. فإذا كان مصيري القتل أو السجن المؤبد فليكن ذلك من أجل شيء كنت موافقاً عليه. فقلت:

ـ «أريد أن أعرف ماذا أفعل». يجب أن تثق بي يا إفرايم، فحياتي بين يديك. وأنت تقول إن حياتك في يدي. فأطلعني على السر».

فكّر طويلاً، وتوجهت إلى الحمام. وعدت وبدأنا تدخين سكاير جديدة. وقال في النهاية:

ـ «أوكي. سوف نلعبها على طريقتك».

ـ «شكراً»..

ـ «أقول لك بأمانة: هذا العمل ليس بالصعوبة التي تتصورها. العقبة الوحيدة هي محطة المراقبة التابعة لمكتب التحقيقات الإتحادي FBI المطلة على السفارة السوفيتية، سوف يصوّرونك ويبعثون بالصورة إلى مراجعهم. وسوف يقارنون صورتك بملفاتهم. وإذا لم يجدوا شبيهاً فسوف يحولونها إلكترونياً إلى

الملفات. وتلك ليست مصيبة. فلو كانت سفارة عربية، فقد يرسلون الصور إلينا. أقصد إن جواسيسنا عندهم يبعثون إلينا بالصور. ليس بطريقة رسمية طبعاً».

ـ «إذن فلن تكون هناك حاجة للتنكّر أو التخفّي؟».

ـ «كلا. أدخل فقط ببساطة. لا تنس أن السوفييت يراقبون أيضاً، فإذا صرت هناك لا تقض وقتاً طويلاً في دراسة المكان. أدخل فوراً».

ـ «حسناً. قد أفعل ذلك».

ـ «جيد. أما بخصوص سؤالك السابق فأقول لك: إنني أعرف من صديق في FBI إنهم وجدوا معلومات كانوا قد أعطوها لنا، بين أيدي السوفييت. وكان صديقي واثقاً من أن الأميركيين لم يعطوا تلك المعلومات لسوانا».

ـ «إذن هناك جاسوس للسوفييت في الموساد؟».

ـ «هكذا يبدو. وإذا تمكنا من اكتشافه، فإن الفضيحة سوف تجبر قيادة الموساد على الاستقالة».

ـ «ولكن كيف يخدم عملي مع السوفييت هذا الغرض؟ فالنتيجة هي أننا سوف نزوّدهم بمزيد من المعلومات. وأنت لا يجب أن تتوقع أن يخبروني بأن لهم جاسوساً عندنا، ويبلغوني بهويته».

ـ «إذا ذهبت إليهم بقصة جيدة، وأتقنت دورك، فسيرغبون في التثبّت مما إذا كنت خارج الموساد أم موقوفاً عن العمل». ولاحظت أنه مستثار، وأن لون وجهه صار أحمر. وتابع: «إذا اعتقدوا بأنك لا زلت في الموساد فأنت كنز ثمين بالنسبة إليهم».

ـ «لكنك قلت إن لهم جاسوساً في الموساد».

ـ «أين الغلط إذا أصبح لهم جاسوسان؟ نحن لا نعرف عدد جواسيسهم. نفترض أنه واحد. وفي تقديري أنه ضابط قضايا. وظني أنه في منصب إداري».

ـ «فكيف يقومون بالتّثبّت؟».

ـ «سوف يسألون جاسوسهم».

ـ إذن.. أنا الطّعم؟».

فأومأ برأسه موافقاً. وقال: «هل يزعجك ذلك؟ اعتقادي أنكِ تريد معرفة ذلك».

ـ «سوف أفعل المطلوب. هل هناك شيء آخر؟ وأريد إبلاغك بأمر: إذا لم تكن تقول لي الحقيقة يا إفرايم، وتلعب لعبة ما بي، فكّر جيداً لأني سوف أقتلك!».

ظهرت ابتسامة خفيفة على وجهه. وقال: «لن أفعل ما يؤذيك. أعرف أن ما أطلبه صعب، وأتخيّل مشقة وضعك ومعاناتك. لكن هذه ليست لعبة بل حقيقة، ونحن نخسر الأرض في الموساد مع انقضاء كل دقيقة. وإذا خسرنا ضاع كل شيء. وإذا ربحنا فقد لا نتمتع بثمار الإنتصار كما تعلم».

وبدأ الضباب ينقشع في رأسي. عرفت اللعبة. وأنا قادر على لعبها. فتنفيذ التعليمات الواضحة أيسر من العمل في أمور مبهمة.

الفصل الرابع عشر

انجاز مهمة الاتصال بـ (K.G.B.) بنجاح

كانت خطة اللعبة سهلة. أذهب إلى السفارة السوفييتة وأقيم إتصالاً مع مسؤول المخابرات K.G.B. المقيم. وكنا نعرف بصورة عامة ما يحدث عندما يأتيَ شخص إلى سفارة متطوعاً بخدماته. والواقعَ أن هذا يحدث يومياً في كل سفارة إسرائيلية في العالم. وكان علينا أن نفترض أن الأمر يختلف كثيراً مع السوفييت.

وقلت: «سوف أنجح بالمهمة. فماذا يمكن أن يحدث؟ إن أسوأ سيناريو هو أن يبقوني هناك وأن يحاولوا «شحني» إلى روسيا في صندوق».

وضحك كلانا، لأن هذا كان الأسلوب الذي يستخدمه الموساد لتهريب أشخاص إلى إسرائيل. ثم سألت إفرايم: «متى تريد مني الذهاب؟»».

ـ «يجب أن أعود إلى إسرائيل قبل تحركك. لديّ شخص في الأرشيف سوف يبلغني قبل أن يرد على أي طلب من الملفات، ومع ذلك فالأفضل أن أكون هناك».

ـ «لماذا؟ إذا كنت مغطى أفليس من الأفضل بقاؤك هنا في حال وقوع شيء بطريقة خاطئة؟»».

فقال إفرايم: «وماذا إذا جاء الإستعلام وطلب المعلومات إلى الأرشيف من جهة غير متوقعة؟ ماذا لو كان جاسوس السوفييت عندنا ضابط قضايا؟ ثم إن سبب زيارتي هنا قد انتهى. فأنا هنا لضمان حصولنا على العرض لـ «مازلات» مع البحرية الأميركية. أريد التأكد من حصول الرجل المناسب على المال وإن الآخر مذعور وليفعل ما يريد». وكانت هذه إشارة إلى عملية يديرها الموساد من

إسرائيل، مستخدماً ضابطاً نصّاباً في سلاح الجو الإسرائيلي كان على إتصال بشخص ما في مكتب وزير البحرية الأميركي.

أشعل إفرايم سيكارة أخرى، وأصبح جوّ الغرفة ملبّداً بالدخان.

أومأت برأسي موافقاً. وكنت أعرف بشأن صفقة «مازلات»، وكنت أعلم أننا نتلقى مساعدة ما من الداخل. وكنت في الحقيقة أفضّل بقاء إفرايم وعدم عودته إلى إسرائيل الآن. لكنني أستطيع تدبّر أمري بدونه. فسألته: «ومتى تسافر؟»

- «سوف أغادر فوراً بعد أن أدعوك إلى الطعام».

- «وأين نذهب؟».

رفع إفرايم السماعة وسألني: «ماذا تحب؟».

وكنا نتناول طعامنا حين نظر إلى ساعته وقال: «يجب أن أسرع، فلديّ موعد على العشاء مع شاب في غاية الجشع».

قلت له: «سوف أقوم بحركتي بعد غد. وهذا يعطيك وقتاً كافياً لترتيب كل شيء ولتكون متأهباً».

- «صح. وإنتبه لنفسك، فهذا ليس تمريناً في التدريبات في الأكاديمية كما تعلم». وأحسست باهتمام صادق في نبرة صوته.

- «لا تقلق. إنما تأكد من ترتيب الأمور من ناحيتك. وهناك أمر آخر: ماذا أفعل من أجل المال؟ إني على وشك الإفلاس».

- «سوف نفكر بالمسألة» وسلمني مغلفاً: «هذا بعض المال لتدبير أمورك الآن. سنفكر بالأمر لاحقاً».

أومأت برأسي موافقاً، ونهضت أفكر إذا كنت قد نسيت شيئاً. ولم يكن هناك شيء. فتحت الباب وخرجت. وعدت إلى وحدتي مرة أخرى.

ولم يكن لدي ما أفعله في واشنطن. ولم أكن أعرف أحداً. وكانت العملية التي سأنفذها من أسوأ الأنواع التي يمكن تصورها. وكان غطائي اسمي الحقيقي. ولم يكن لدي حساب كبير للنفقات. وكان مغلف أفرايم يحتوي على

خمسمائة دولار فقط بالكاد يمكن أن تغطي حساب الفندق. وهبطت معنوياتي من جديد.

وبدأت أحاول التصرف وكأنني مقاتل في أراضي العدو، منقطع كلياً عن وطنه وأسرته.

لكنني كنت في وضع أسوأ، لأن مهمة المقاتل وراء الخطوط المعادية واضحة ومحددة ويعرف لمن يعمل وضد من يقاتل.

كما أنه لا يعاني مشكلات مالية، وهناك من يرعى عائلته. أما في هذه الحالة فالذين يفترض بهم رعاية الأسرة هناك في إسرائيل، سوف يبذلون جهدهم لاقتياد زوجته إلى الفراش إذا رأوا ان شكلها أفضل قليلاً من شكل الغوريللا.

وكي أقتل الوقت رحت أسير في الشوارع، وأتجول في بعض الأحياء حيث كنت أجد نفسي دائماً أصل إلى ساحة مربعة كبيرة مزدحمة باليوبيين التائهين وبالمشردين بلا مأوى الذين كانوا جلوساً على مقاعد خشبية طويلة.

وكان اليوبيون من الشبان الموسرين موجودين هناك لتنفس الهواء النقي وهم ينهشون سندويشاتهم، فيما المشردون ينظرون إليهم بنهم راجين ألاّ يقضوا على شطائرهم قضاء مبرماً، آملين أن يتمكنوا من جمعها بعد قليل ليقيموا مأدبة من بقايا اللفائف في مكب القمامة.

وشعرت بحافز قوي للمرور بجانب السفارة السوفيتية، لمجرد معرفة موقعها وكيفية الدخول إليها. لكني فكرت بأنني بذلك أُخاطر بكشف نفسي لأي مراقب للمكان.

وكان من الأفضل أن آتي إلى السفارة سيراً على الأقدام في آخر دقيقة، وأن أدخل بكل بساطة.

ركبت قطار الانفاق إلى سيلفر سبرينغ، عائداً إلى الفندق. وتبين لي أنني كنت في غاية القلق، فلم أتمكن من الجلوس في الغرفة ومشاهدة التلفزيون.

الأربعاء، ٢٣ نيسان ١٩٨٦:

نهضت باكراً، وتطلب الأمر بعض الوقت لاستعادة يقظتي التامة وأنا

استكمل ارتداء ثيابي وأدخن سيكارتي الثالثة.

وكانت السماء ملبدة بالغيوم والرذاذ لا يكف عن التساقط، وهو طقس كنت أحبّه كثيراً. وكنت قد ارتديت سروالاً عادياً وقميصاً بسيطاً وكنزة صفراء فوقها سترة ذات «قبوعة» (غطاء) للرأس.

وقررت تغطية رأسي بالقبوعة عندما أدخل السفارة، بحيث تعجز المراقبة عن تحديد هويتي أو تصوير وجهي.

عند الحادية عشرة كنت أمام السفارة. وبدأ الجو يصحو قليلاً، لكن ارتداء القبوعة لا يزال مبرراً ومفهوماً. وكانت البوابة الحديدية مفتوحة، ولم تتحرك كاميرات المراقبة في أي اتجاه، وصعدت مسرعاً على الدرج الرخامي ودخلت الباب الرئيسي.

وكان المكان خالياً تماماً باستثناء امرأة شقراء وراء المكتب. نظرت إليّ مبتسمة. فتوجهت إليها على الفور.

سألت: «كيف أخدمك يا سيدي»؟ وكانت لهجتها روسية ثقيلة. وكنت أعلم أن السوفيت يفضلون توظيف مواطنين سوفييت في سفاراتهم كلما أمكنهم ذلك.

وكنت على ثقة تامة بأن الأميركيين يتابعون بأجهزة التنصت ما يجري داخل قاعة الانتظار هذه، نظراً لسهولة الوصول إليها.

قلت: «أريد الحصول على بعض النشرات السوفيتية».

ـ أي نوع من النشرات»؟

ـ «أي شيء متوفر».

وخبت ابتسامتها قليلاً، ثم قالت: «لحظة من فضلك». واستدارت واختفت وراء جدار صغير.

رأيت أوراقاً لكتابة الملاحظات وقلم رصاص على المكتب. وتناولت القلم وكتبت: «أريد التحدث مع الأمن». وعندما عادت ناولتني كتيباً للسياحة بائس الشكل وعتيق الطراز.

وبينما كنت أرفع أمامَ عينيها الورقة التي كتبت عليها الكلمات الأربع، كنت أقول لها في الوقت نفسه: «شكراً . هل هذا كل ما لديكم»؟

وبهتت ابتسامتها وقالت: «تفضل بالجلوس يا سيدي سوف أرىٰ إذا كان لدينا شيء آخر».

قلت: «شكراً جزيلاً». واستدرت وتوجهت نحو المقعد الخشبي الطويل تحت ملصق يحمل صورة ضريح لينين في الليل. واختفت المرأة خلف جدار صغير ثانية.

وعندما عادت، بعد بضع دقائق، جلست في مكانها وهي تتجاهل وجودي. ولم أعرف ماذا كانت تعمل وراء الكاونتر، ولكنها كانت تعمل بتركيز تام.

انتظرت بصبر. ويكفي إنها لم تطلب مني المغادرة.

وكنت آمل ألا يسيئوا كلماتي، وكأنها نوع من التهديد لأمنهم، وأن يستدعوا الشرطة وحتى إذا فعلوا ذلك فسأُؤلِّف قصة مناسبة.

بعد زهاء خمس عشرة دقيقة دخل رجل أنيق الثياب متين المظهر. إنحنىٰ وتكلم مع المرأةَ ثم غادر. وقفت المرأة مبتسمة وأشارت إليّ للذهاب نحوها.

ذهبت إليها بشيء من السرعة وقلت: «نعم»؟

ـ «نحتاج جواز سفرك للتحقق إذا كنت تريد معلومات أكثر». وبدون تردد سحبت جوازي الإسرائيلي وقدمته لها.

ـ «شكراً» قالتها ونهضت طالبة إليّ العودة إلى مقعدي.

جلست أنقر جانب المقعد بغير هدوءِ هذه المرة. وظهرت المرأة مجدداً، ثم عاد الرجل نفسه وأومأ لي. فتوجهت نحو الكاونتر، فرفع العارضة الخشبية ليمكنني من العبور. ثم أومأ لي لكي أتبعه. كل ذلك بدون كلمة واحدة.

دخلنا بهواً ضيقاً ثم صعدنا درجاً، وكان السجاد بالياً، والدرابزين مخلخلاً، وأصوات خطواتنا تطرقع عالياً. وهو ليس الجو الذي تتوقعه في سفارة دولة عظمىٰ.

أومأ لي بدخول غرفة صغيرة مضاءة بقوة وعلى أحد جدرانها مرآة ضخمة. وكنت أدرك أنني غير معصب. بل كنت في الواقع في غاية الهدوء والحبور. فكل شيء حتى الآن عال العال!!

وأخيراً ابتسم الرجل وأشار إلى كرسي خشبي عند طاولة خشبية قائلاً: «تفضل بالجلوس سيد اوستروفسكي».

- «شكراً».
- «ما الذيَ أتىٰ بك إلى هنا اليوم؟ هل هناك تهديد ما لأمننا؟»؟.
- وبدا لي إنه نفس الروتين المتبع في سفاراتنا.

فقلت: «لا يا سيدي. لا تهديد».

- «إذن ماذا»؟
- «أُريد العمل معكم»!

جلس الرجل بهدوء وانحنىٰ على الكرسي إلى الخلف. وكانت ابتسامته دافئة وودية.

- «ومع من بالتحديد»؟
- «مع .K.G.B. أريد العمل مع .K.G.B» .
- «وفي أي مجال»؟

«حسنا. احتاج إلى مساعدتكم هناك. كل ما يمكنني قوله هو مكان مجيئي ومكان ذهابي. يجب أن نخطط معاً».

- «أرىٰ أنك إسرائيلي سيد اوستروفسكي».
- «أنا عضو في الموساد. هل سمعت بالموساد»؟

وتحولت ابتسامته إلى تكشيرة وهو يقول: «سمعت بالتأكيد. وكيف أعرف إذا لم تكن تدبر لعبة ما؟ فالعالم مليء بغريبي الأطوار». وكانت انكليزيته ممتازة، لكن لكنته كانت ثقيلة. وكان علي التركيز لكي استوعب كل كلمة.

ذلك الجزء من الحركة كان الجزء المتفق عليه بيني وبين أفرايم. فكنت مستعداً وقلت: «ولكن لا توجد مصادر معلومات كثيرة لديها وثائق، وأستطيع إطلاعك عليها كما تتخيل تماماً. وإنما يمكنني إثبات ذلك بإيراد بعض التفاصيل

المتعلقة بأساليب عملياتنا، دون أن أكشف الكثير طبعاً مما أُريد أن تدفعوا ثمنه لاحقاً». وابتسمت.

ـ «فهمت».

فسألته: «هل أنت في مستوىً يسمح لك باتخاذ قرارات أم أتحدث مباشرة إلى المرآة»؟

وكان هناك قدر من التهكم في لهجتي. وابتسم الرجل، وأصبح بيننا تفاهم صامت وكأننا ننتمي للطائفة الدينية نفسها وتجمع بيننا طقوس واحدة. فعلىٰ الرغم من وجودنا على جانبي معسكرين، لكن أُموراً كثيرة-كانت تجمعنا. وأجاب أخيراً:

ـ «لا. لا يتوقف الأمر علي؟ لكنني سأحصل على المعلومات منك، ثم نرىٰ».

تحدثنا نحو ساعة كاملة، وسجل قليلاً من الملاحظات في دفتر صغير، ثم قال: «سأعود إليك بعد قليل». نهض وسألني: «هل أحضر لك شيئاً تأكله أو تشربه ربما»؟

ـ «قهوة. بعض القهوة فقط إذا لم يكن من إزعاج».

ـ «أبداً». قالها واتجه نحو الباب. ثم قلت:

ـ «هناك شيء آخر».

ـ «ماذا»؟

ـ «أرجو عدم ذكر إسمي أثناء اتصالكم بوطنكم».

ـ «لا أفهم».

ـ «لقد حل الموساد شيفرة سفارتكم منذ وقت طويل، ويقوم بمتابعتها كلما أجريتم تعديلاً. فإذا لم يكن لديك مانع أرجو بشدة عدم استخدام اسمي في بثكم».

ـ «ما تقوله مستحيل». قالها وهو يرفع ذقنه بهيئة التحدي. فقلت له: «قال بن غوريون أول رئيس لحكومة إسرائيل في إحدىٰ المرات: أصعب ما سوف نفعله حالاً، هو المستحيل إذا أخذ وقتاً أطول».

فقال: «سوف أرىٰ ما أستطيع عمله». ولم يكن سعيداً عندما غادر الغرفة.

وبعد دقائق دخل النادل بفنجان ساخن من القهوة على صينية فضية مع وعاءين للسكر والقشدة. لم أكن واثقاً من وجوب شرب القهوة إذ قد تكون ممزوجة بشيء آخر. ثم أدركت أنهم إذا أرادوا السيطرة علي جسدياً، فلم يكن لدي سوى القليل مما يمكنني فعله في هذا المكان. وكان مصدر قلقي الوحيد هو أن يكون الرجل الذي كنت أحادثه جاسوساً للموساد أو CIA أو FBI أو لهذه المنظمات جميعاً، وأن يكون قرر إعلان إنشقاقه عن السوفييت بعيد مغادرتي المبنى. لكن تلك هي المخاطرة التي لا بد للمرء من خوضها في مثل هذا النوع من الأعمال.

وضعت قطرات من القشدة في القهوة ورفعت الفنجان وأنا أنظر في المرآة. ومن المؤكد أن شخصاً كان وراء المرآة أثناء المحادثة، وكنت أحييه بحركة رفع الفنجان. ولا أدري إذا كان الشبح باسماً أو منزعجاً.

وعندما عاد صاحبنا عاد بأسئلة كثيرة.

ـ «هل القهوة أوكي»؟

ـ أوكي بصورة مفاجئة!».

ـ «لم المفاجأة»؟

ـ «أتوقع أن يكون الشاي جيداً. أما القهوة الطيبة فتفاجئني».

ـ «حسناً. هذا لن يستغرق وقتاً طويلاً». أشعلت سيكارة وقدمت له واحدة. فشكرني قائلاً: إن الأميركيين لا يقدمون لأحد سيكارة أبداً.

فقلت له: «ذلك لأن لديهم جميعاً الكثير إذا كانوا يريدونها».

وافق مبتسماً وقال: «حسناً. ما يريد أصدقائي معرفته هو: هل ما زلت في العمل مع الموساد أم أصبحت وحدك الآن»؟

ـ «أنا وحدي وفي خدمة الموساد، ماذا تعني أصدقاء»؟ هل يجري هذا أمام لجنة لعينة أو شيء كهذا»؟

وكنت ألعب دوراً أتقنته من الاتصالات مع عملاء الموساد. فلا أحد يرغب في كشف اسمه على الملأ ولا الكشف عن كونه متورطاً في موقف كهذا.

وإذا كانت هناك مجموعة أو لجنة فهي جماهير و «ملأ».

ـ «كلا. كلا. إنه مجرد تعبير. ولا يوجد سواي مع رئيسي».

نظر في المرآة وقال لي: «إنه يبلغك التحية أيضاً مثلما قمت بتحيته (وراء المرآة)».

قلت: «حسناً، أنا موقوف عن العمل فهؤلاء البغال يعتبرون أنفسهم آلهة. ارتكبت غلطة صغيرة فظلموني.

دعني أقول لك: «سوف أري هؤلاء الأوغاد من أين تبول السمكة»!

ـ «وطول مدة وقفك عن العمل»؟

ـ «ستة أشهر وبهذا أخسر دوري في التنقلات. وأبقىٰ في المقر منتظراً ثلاث سنوات أُخرىٰ قبل حركة التنقلات التالية في الخارج».

ـ «وماذا تفعل في أميركا»؟

ـ «أزور والدي وأحاول تجنيد نفسي في سفارة أجنبية».

وبدا الأمر مسلياً له فقال: «وماذا تتوقع مقابل ذلك»؟

ـ «ماذا تدفع جماعتك»؟

ـ «يتوقف ذلك على ما تأتي به، هذا إذا قررنا عقد صفقة طبعاً».

ـ «سأكون في غاية الصراحة معك، إن سمعتك ليست جيدة جداً كمصدر للدخل. لكن يقال إنك تعتني بنفسك. أعني أنني لن أرغب في العمل لحساب شخص ليس لديه ما يقايضه إذا ساءت الأُمور».

فقال: «هذه نقطة صحيحة تماماً». وكان أثناء ذلك يومىء لي وللمرآة. وبدا أنني كنت أعطي كل الأجوبة الصحيحة. واستمرت المحادثة ساعة عرفت خلالها لم لا يقدم الأميركيون سكائر. فقد فرغت علبتي دون أن يقدم لي هو في المقابل سيكارة واحدة. وكانت سكائره في جيب قميصه وبادية للعيان تماماً!

وقال: «أوكي أيها الصديق. هناك شيء آخر. نحن نعرف أن جماعتك تختبر كل واحد من العاملين لديها أمام جهاز كشف الكذب كل ستة أشهر تقريباً».

أومأت برأسي موافقاً. فالرجل كان يعرف ما يقول. ولم يكن أفرايم

متأكداً من احتمال بروز أمر كهذا. فقلت له: «لا تقلق بشأن ذلك، فقد فكرت فيه قبل أن أضع خطوتي الأولىٰ في هذا المبنىٰ».

ـ «أوكي. وما هو الحل الذي تقترحه»؟

ـ «ما يطلبونه هو الروتين المعهود. يجب أن تثق بأنك لا تكذب. وهكذا عندما يسألونني إذا أقمت اتصالاً مع عميل لمخابرات أجنبية، سوف أقول لجهاز الموساد: نعم».

وقطب حاجبيه قائلاً: «وثم»؟

ـ «بعد الاستجواب سوف يطلبون شرحاً. وسوف أخبرهم بشأن النشرات (التي جئت أطلبها أولاً) لأن من عمل الموساد جلب النشرات من كل مكان وبكل الكميات.

وتحول النشرات أخيراً إلى المكتبة لأنها تساعد الضباط في تأليف قصص التغطية. وكنت قد وضعت اسم دولتكم على لائحة المصادر التي نتوقع الحصول على كتيباتها، منذ عدة أسابيع».

وسعد الرجل كثيراً بالحل، وكنت سعيداً لأنه صدقني، لأنني لم أكن واثقاً من نجاح الحيلة مع الموساد.

وقال: «سوف نفكر بالأمر كله، وسوف نتصل بك في غرفتك في الفندق. كم ستبقىٰ هناك»؟

ـ «ليس كثيراً كما آمل. فما أن أحصل على جوابكم حتى أغادر الفندق. وإذا لم تتصلوا بي خلال ثلاثة أيام، فسأعرف أن الصفقة بيننا لن تتم».

وأعطاني رقماً هاتفياً طالباً أن أتصل به قبل سفري «حتى لا نخسرك بسبب مشكلة تقنية في الاتصالات».

شكرته ورافقته نزولاً على الدرج. وسلمني رزمة من النشرات قبل خروجي من المبنىٰ قائلاً:

ـ «لا تنسىٰ ما جئت من أجله»!

شكرته ثانية وخرجت إلى المطر، وقبوعتي على رأسي تغطيه كلياً فيما

وجهي مسمر نحو الأسفل. وسررت لخروجي. وكان الهواء الطازج نعمة مباركة. وبعد انعطافي حول الزاوية قررت إجراء اختبار لمعرفة ما إذا كان هناك أحد يتعقبني.

كنت جائعاً. وتأكدت أنني غير متبوع. تناولت طعاماً، وعدت إلى الفندق. وكانت محطة النفق في سيلفر سبرينغ شبه خالية. توقفت عند هاتف عمومي وطلبت أفرايم. فسألني فوراً:

ـ «ماذا لديك»؟

ـ «زرت عمي من البلد القديم» وكنت مطمئناً إلى عدم وجود تنصت، لكن التحفظ أصبح عادة. فعاد يسألني:

ـ «كيف سارت الأُمور»؟

ـ «إذا لم تكن لديهم طريقة لفحص الأُمور عندك، فلا شك عندي بأنني سأكون بالنسبة لهم فيلبي الثاني».

ـ «فلنجلس وننتظر تطور الأُمور. ولدي شعور حسن تجاه المسألة».

ـ «سوف أعود إلى الفندق إذ لا أُريدهم أن يتصلوا ولا يجدوني».

ـ «لكن لا تبق في الفندق طوال الوقت. فإذا كنت قد لعبت اللعبة كما اتفقنا، فهم يتوقعون التعامل مع شخص لعوب وليس مع شخص منصرف إلى عمله فقط. أخرج وتمتع».

ـ «بالدولارات القليلة في جيبي، لا أستطيع أن أكون بلاي بوي»!

ـ «لا يهمك الأمر ستحصل على المال قريباً، والآن انفق ما معك لكي تبني صورتك المطلوبة».

ـ «ومتىٰ سأراك»؟

ـ «سوف آتي حالما تنتهي هذه الحكاية الصغيرة».

ـ «وماذا ستفعل إذا وجدت ما نبحث عنه»؟

ـ «تلك في ذاتها مشكلة. فأنا لا أستطيع أن أتهم أحداً معتمداً على التخمين. ويتطلب الأمر أن أخدع شخصاً أعرفه في (شبك) وأن أضعهم على السكة دون البوح بالكثير. لكن لا يقلقك الأمر. إذا كان موجوداً (أي الجاسوس للسوفييت) فسوف اصطاده».

وساد الصمت بيننا وكدت أختنق. وقد تصورت أنني سأفعل ما يتوجب فعله، ثم أغوص في عالم النسيان، لأعيش مع بيللا والطفلتين في مكان ما في كندا، واشتغل بأية مهنة.

لكن المكالمة انتهت بعد إشارة من افرايم إلى احتمال أن تكون هناك طريق للعودة. العودة إلى الحياة.

ووعدني بمناقشة الأمر لاحقاً. وغادرت المحطة بمزاج رائع، وقررت قضاء ليلة ملأى بالمتعة. فهذا جزء من العمل كما أوصى افرايم.

الفصل الخامس عشر

فقدان الاتصال بإفرايم يثير الهلع
تكليف المغاوير بزرع «جهاز طروادة» في طرابلس الغرب
وقع الأميركيون في حبائل الموساد ونجا الفرنسيون والأسبان

كانت حالتي النفسية طيبة عندما عدت إلى الفندق. وأذهلني من نفسي، كيف يمكن أن أكون بهذه الروحية العالية وأنا أسير قريباً جداً من الحافة. وربما كان ذلك ناجماً عن الإحساس القديم بالقوة والسلطة الذي لم أتمتع به منذ بعض الوقت. لكن الشكوك الباقية في رأسي كانت لا تزال تثير نخزات موجعة في أمعائي. وكنت متشائماً بالفطرة، مع أنني اخترت حياة ملأى بالمجازفات. وكان يثير فضولي معرفة ما يدور الآن في السفارة السوفياتية.

بعد قضاء بعض الوقت في بار الفندق، قررت قضاء تلك السهرة كلها في المكان وعدم الذهاب إلى المدينة. فهذه كانت فترتي الأولى في الفندق بعد تلك الساعة السعيدة، وفوجئت بازدحام المكان. فكان هناك الكثير مما يمكنني عمله في ذلك المكان الصغير أكثر مما يمكن أن أفعله في المدينة. وكنت جالساً إلى طاولة مخصصة لخمسة أشخاص، وبعد قصير وقت احتاج الزبائن للمقاعد الشاغرة. وصارت لي شلة جديدة من الأصدقاء، من الناس العاديين الذين تقابلهم في أية مدينة أميركية. وهم أُناس أمناء لطفاء سريعو التأثر للغاية. وكان أحدهم مقاولاً للأصباغ، وآخر كان على شيء من الغرابة، وكان يعمل بعض الوقت في هيئة الحدائق في المدينة، وكان مطلقاً جديداً ومتوتر الأعصاب للغاية.

أما المقاول، وهو رجل ضخم «عتريس»، فقد كان ودوداً وحامياً حريصاً لصديقه المزاجي. وقضى معظم الوقت وهو يفاخر بالمبلغ الكبير الذي حصله ذلك النهار «ودون مجهود متعب». لكنه حين وصف ما فعله في العمل شعرت

بأنه تعب فعلاً وبذل مجهوداً يستحق ما حصل عليه. ثم شرع بالحديث عن خططه للغد. وبدت لي بساطة هؤلاء الناس ونزاهتهم الأساسية كنفحة منعشة من الهواء النقي. وحسدتهم على حياتهم الخالية من التعقيد، وقدرتهم على التخطيط للغد بقدر كبير من الثقة. فلم أمنع نفسي من التساؤل عما كانوا سيقولون لو عرفوا حقيقتي وحقيقة ما أنا بصدده.

ولم يحدث شيء ذو بال طوال الأيام الأربعة التالية. وبدأت أقلق واتصلت بإفرايم. ولم يكن هناك، ولم تسجل آلة الرد رسالتي. وفي اليوم الخامس كان الخط مفصولاً. ولم يكن لهذا من معنىً غير وقوع المتاعب. فهل قبضوا على افرايم في المقر؟

وكان أصعب شيء أن أحدد استجابتي. فأنت في وضع يمكن اعتباره آمناً نسبياً في مكان مريح بدرجة طيبة. وفجأة، ودون أن تعرف إذا كان هناك خطر حقيقي أو خطأ أو مشكلة ميكانيكية، عليك أن تنهض وتصحو، وأن تخلف كل شيء وراءك. وكان ترجيحي أن هناك غلطة ما لا أكثر. لكن الثمن الذي تدفعه لعدم الاستجابة الصحيحة للحدث، يكون مرتفعاً دائماً.

ذلك الصباح، دفعت فاتورة الفندق، وتبين لي إنه لم يبق معي غير خمسين دولاراً. واعتراني قلق شديد. فالإفلاس في مثل هذه الحالة هو في ذاته كارثة.

وكان علي التفكير في أن لعبة المقامرة خسرت. ومع إنه لم يطرأ جديد حين تحدثت مع بيللا، وكان ذلك مطمئناً على أي حال، فلم يخامرني شك في أن الموساد لو عرف بمشواري إلى السفارة السوفياتية لما كان راغباً في التربيت على كتفي. ورأيت في عين البصيرة افرايم محاولاً الآن حماية مؤخرته. ومنضماً إلى العصابة، ومقترحاً عدة طرق للنيل مني. فإذا كان هناك شخص في العالم ينبغي أن أقلق من أجله فهو إفرايم.

وإذا عرف الموساد باتصالي بالمخابرات السوفياتية KGB فإنه يريد قبل كل شيء التحدث معي، وتقدير حجم الخسائر التي سببتها مغامرتي. وذلك إجراء معهود يسمى «حصر الاضرار». ومن ناحية ثانية، فإذا ترك الأمر لإفرايم المكشوف، فهو يتمنىٰ إزالتي من الوجود. وكان ذلك طبيعياً ويمكن تفهمه.

وكنت أعلم أنني سأفعل الأمر نفسه. فكان عليّ الاختفاء، والبقاء على اتصال في الوقت عينه. وكنت أُريد معرفة ما يحدث في الفندق، إنما دون أن أظهر في الصورة إذا حدث شيء فعلاً.

وكانت هناك ساحة عامة صغيرة أمام بناية المكاتب عبر الشارع الذي يقع عليه الفندق. وإذا أخذت في الحسبان أن الموساد كان ذا اتصال مع طاقم الحجز لكل سلسلة فندقية في العالم تقريباً، فهذا يعني أنها مسألة ساعات قليلة قبل أن يتمكن من تحديد موقعي على وجه الدقة. فكل ما يحتاجه هو بضع مكالمات هاتفية. فقررت قضاء الوقت على الشكل التالي: نهاراً في الفندق، وليلاً على مقعد خشبي على طرف الساحة العامة المطلة على الفندق. فإذا أتوا لأخذي، فسيكون ذلك ليلاً. وإذا حدث ذلك فإني أُريد رؤيتهم بصورة جيدة، ليس من خلال غرفة فندق حيث رؤية الأشياء محدودة للغاية، بل من هذه الساحة وعلى بعد آمن.

ونظراً لتأخر الاتصالات، كان عليّ التفكير قي أن إفرايم عندما يستأنف الاتصال بي، فقد يحاول إيقاعي في شرك. وخشيت من أنني أصبحت موسوساً كثير الارتياب، لكنني كنت أملك الأسباب الوجيهة لذلك. حاولت الاتصال بتليفون إفرايم مرة أُخرى. وظل الخط مفصولاً. وإذا لم تتضح الأُمور مع الغد أمامي خياران: أن أختفي كلياً فترة لرؤية ما يحدث، أو الاتصال بصديقي روللي ضابط الارتباط مع CIA المقيم في السفارة الإسرائيلية هناك في واشنطن. فسوف اجتمع معه واكشف أمامه كل شيء. كان كل شيء جاهزاً في رأسي، بما في ذلك جلب محرر صحفي، كي لا يكون مصيري مجرد الفناء. وكانت مشكلتي ستلاقي حلاً ما خارج تل أبيب.

لكن الوقت لا يزال مبكراً لذلك. أما الآن فكان عليّ التأكيد من خروجي من الفندق قبل الظلام. وخلال النهار ذهبت إلى دكان لجماعة «جيش الخلاص» واشتريت معطفاً طويلاً رثاً. وإلى الفندق عدت بالمعطف ملفوفاً في كيس تسوّق عادي. كما وضعت عربة تسوق من عربات السوبر ماركت عند مدخل مكان وقوف السيارات بجانب المدخل الخلفي للفندق. ولم أحلق ذقني ذلك النهار، وكانت معي زجاجة من الروم (خمرة) في الكيس مع المعطف. وعندما هبط

الظلام ركبت المصعد إلى موقف السيارات تحت الأرض. وهناك أخرجت المعطف من الكيس. وعندما خرجت من الباب الخلفي للفندق، وقذفت ببعض ثياب الغسيل في عربة التسوق، كنت شخصاً آخر، ويصعب تمييزي من أي متشرد آخر من المتشردين الذين كانت تغص بهم الشوارع.

وتمركزت على المقعد الخشبي مستعداً لقضاء الليل، ومدفئاً نفسي بجرعة من الروم.

كنت بارداً ووحيداً. وما أطول الليل في الشارع وكنت حريصاً على عدم الإغفاء كي أرى أي نشاط حول الفندق، يمكن أن ينشأ عن مجيء فرقة ضاربة من الموساد.

ولم يحدث شيء. كانت المخدرات تباع وتشترى. وسرقت سيارة قريباً من موقعي. ونازعني متشرد آخر على المقعد مدعياً أنه يخصه. عند الرابعة والنصف فجراً أدركت أنهم لن يأتوا، أو أنهم أتوا دون أن أراهم. وكان هناك احتمال أن يكونوا في انتظاري في الغرفة، فلم أكن مستعداً للعودة إلى غرفة الفندق إلا برفقة أحد. وكانت هناك أربع ساعات قبل أن أتمكن من فعل ذلك. وأصبح المقعد شديد البرودة. فسرت نحو محطة قطار الانفاق حيث قضيت بقية الليل على الأرض، متكئاً على ماكينة التذاكر الضخمة. تركت عربة التسوق خارج الفندق وكنت متأكداً من فقدانها في الصباح.

استيقظت عند السابعة والنصف، إذ نمت عدة ساعات والركاب يتراكضون حولي.

الخميس، الأول من أيار ١٩٨٦:

عدت متمايلاً إلى الفندق. وكانت العربة هناك، فتركتها بجانب الباب الخلفي وذهبت إلى موقف السيارات تحت الأرض حيث استعدت مظهري وشخصيتي. دخلت البهو، واتصلت بالهاتف الداخلي طالباً مجيء شخص يصلح الحنفية في غرفتي لأنني بدون ماء. ورأيت رجلاً يخرج من غرفة الصيانة. فانضممت إليه في المصعد انتظرت عند طرف القاعة فيما توجه الرجل إلى غرفتي وقرع الباب. وعندما لم يجد جواباً، فتح الباب بالمفتاح الرئيسي ودخل.

ركضت نحو الباب ودخلت وراءه. وسألني: «هل اتصلت بسبب مشكلة ما يا سيدي»؟

قلت: «لا ماء». ففحص الحنفيات ورأىٰ أن كل شيء على ما يرام. اعتذرت له وغادر. وكنت في حاجة ماسة لغرفة الحمام من جميع النواحي. وبعد خروجي من الحمام استدعيت النادل ليجلب طعاماً. وكنت مستعداً لالتهام حصان!!

لم تكن هناك أية رسائل لي، ولا أثر لوجود أحد في الغرفة أثناء غيابي عنها. سوف اتصل بالسفارة عند الحادية عشرة. وسوف أجرب الاتصال بإفرايم مرة أُخرىٰ، ثم ينتهي كل شيء. وهذا الفطور العظيم الذي طلبته قد يكون الأخير. كان النادل على الباب ففتحت له، وقبل أن يغلق الباب سمعته يتحدث مع أحد ورائي قائلاً: لا يمكنك يا سيدي أن..».

استدرت محاولاً الابتعاد قليلاً عن الممشىٰ، مستعداً للانبطاح في الزاوية. إذ توقعت رؤية مسدس مصوب إلى رأسي. لكني بدلاً من ذلك رأيت وجه إفرايم مكشراً. وقال للنادل المذهول: «كل شيء بخير. الرجل في انتظاري، أوكي»؟ فقلت: «أوكي بالتأكيد. هل تتفضل بالإنضمام إلى الفطور»؟
ـ «لا. شكراً. يكفيني فنجان قهوة».

وضع النادل الصينية على الطاولة وناولني الفاتورة فوقعتها وخرج. والتفت إلى إفرايم: «هل لديك فكرة كم اقتربت أنت من نسف كل العملية»؟

ـ «خرجت الأُمور من يدي. ولم أستطع الاتصال بك».
ـ «وماذا عن الهاتف اللعين؟ من قطع الخط»؟
ـ «ماذا تقول؟ الهاتف سليم».
ـ ناولته السماعة قائلاً: «اثبت ذلك»!
ـ «كلاً. ليس من هذا الهاتف. سوف نخرج لاحقاً، وسأتصل من هاتف عمومي».

ـ «اتصل الآن». ولاحظ أنني كنت مصمماً، فأمسك بالسماعة وطلب رقمه الخاص في إسرائيل. وبعد الإصغاء عدة لحظات بدا عليه الاضطراب. فقال:

ـ «معك حق. ماذا يحدث»؟

ثم طلب رقماً آخر وانتظر. وقال: «ماذا يحدث للرقم ١٢»؟ وكان يخاطب أحداً على الطرف الآخر. ثم أصغى بضع لحظات وقال: «هل تعرف أن هذا قد يكلفنا حياة شخص؟! إذا حدث شيء لرجلي بسببك فالأفضل ألا تكون موجوداً عندما أعود».

وكنت قادراً على سماع صوت الشخص الآخر على الهاتف دون أن أتبين ما يقول، لكنني فهمت إنه كان مذعوراً. وقال إفرايم: «لا. لا أُريد استعادة الخط. دبّر لي خطاً جديداً فوراً. ومن الأفضل أن يكون شغالاً خلال ساعة واحدة».

أصغى ثم تناول قلماً وسجل رقماً على ورقة الفندق وسلمني الورقة قبل أن يقفل الخط. وصب القهوة في كوب وسألني: «هل اتصل الروس بك»؟.

ـ «لا. ولا تغير الموضوع». وكنت لا أزال غاضباً. فعبر عن أسفه فيما كنت أواصل التهام الطعام. ثم قال: «إنه خطأ يمكن أن يحدث». فقلت له: «لو تأخرت بضع ساعات لانتهى كل شيء».

ـ «ماذا كنت ستفعل»؟

ـ «هذا ليس من شأنك. كنت سأهتم بنفسي. ماذا تتوقع»؟

ـ «نحن في نفس المعسكر. ماذا كنت تخطط»؟

ـ «ما الذي أتىٰ بك»؟ سألته متجاهلاً سؤاله.

ـ «كلفوني بمهمة ثقيلة في نهاية إحدىٰ العمليات. إنها عملية طروادة التي شرع بها شيمون في شباط هذا العام».

وأومأت برأسي. فلا أزال أذكر أنني كنت في الموساد عندما صدر ذلك الأمر. وبسبب خلفيتي في البحرية وصداقاتي مع معظم قياداتها، شاركت في التخطيط للعملية كضابط اتصال مع البحرية.

أما طروادة هذا فعبارة عن جهاز خاص للاتصال يمكن زرَعه من جانب مغاوير البحرية عميقاً في إقليم العدو. ويعمل الجهاز كمحطة تحويل من أجل رسائل البث التضليلي التي تبعث بها وحدة تضليل المعلومات في الموساد وهي

نفسها وحدة الحرب النفسية. وكان المقصود أن تسمعها محطات التسمع الأميركية والبريطانية فتعتقد بأنها معلومات صحيحة تمَّ اعتراضها. ولهذا سمي طروادة لأنه يفعل وراء خطوط العدو ما فعله حصان طروادة من خدعة تضليلية.

وفي ما يخص العملية التي يشير إليها إفرايم فقد كلفت وحدتان من مستوىٰ النخبة في الجيش بمسؤولية تسليم «جهاز طروادة» إلى الجهة المعنية. أما الوحدتان فهما «ماتكال» (أعلىٰ وحدة استطلاع في الجيش) و «فلوتيللا ١٣» وهم مغاوير البحرية. وكان المغاوير مكلفين بزرع «جهاز طروادة» في طرابلس الغرب في ليبيا.

ففي ليلة ١٧ ـ ١٨ شباط اشترك زورقان إسرائيليان للصواريخ من طراز SAAR 4 - Class Moledet مسلحان بصواريخ من طراز هاربون وغابرييل وسواها، والزورق الصاروخي غيئولا ذو المنصة للمروحيات والمسلح بصواريخ SARR 4 - Class، في إجراء ما بدا انه دورية روتينية في البحر الأبيض المتوسط. وتوجهت الزوارق إلى القناة الصقلية ومرت بمحاذاة المياه الإقليمية الليبية إلى الشمال من طرابلس الغرب. وكانت القطع البحرية، في مدىٰ رؤية الرادارات في كل من طرابلس وجزيرة لامبدوسا الإيطالية. وتوجه فريق من اثني عشر مغواراً بحرياً في أربع غواصات صغيرة تدعىٰ «الخنازير» وزورقين سريعين من نوع يسمىٰ «العصافير» في عملية إنزال. أما الخنازير فيحمل كل منها مغوارين بكامل أسلحتهما من طراز (mg 7. 62 Caliber) وصواريخ كتف، وفي وسع كل منها نقل ستة مغاوير بينما تقوم بقطر الخنازير الفارغة. وقطرت العصافير الخنازير إلى أقرب مسافة ممكنة من الشاطىء كي تقصر المسافة التي ستضطر الخنازير لقطعها وحدها إلى أدنىٰ حد ممكن.

وعلى بعد ميلين من شاطىء طرابلس كان يمكن رؤية أضواء المدينة متلألئة في الجهة الجنوبية الشرقية. وانزلق ثمانية مغاوير إلى الخنازير وتوجهوا نحو الشاطىء. وظلت العصافير في المؤخرة عند النقطة التي سيتم فيها لقاء القطع البحرية بعد انجاز العملية. وكانت العصافير جاهزة لخوض القتال إذا ساءت الأمور. ولما وصل المغاوير إلى الشاطىء تركوا الخنازير في المياه الضحلة وتوجهوا إلى اليابسة يحملون جهاز طروادة (اسطوانة خضراء طولها ستة

أقدام وقطرها سبع بوصات). واقتضى الأمر أن يحملها رجلان. وكانت هناك سيارة تنتظر على جانب الطريق على بعد نحو مائة قدم من المياه، وذلك على الطريق الساحلي المؤدي من «صبراته» إلى طرابلس فإلى بنغازي. وكان الطريق شبه خال من مرور السيارات في ذلك الوقت من الليل. وكان قائد السيارة يتظاهر بأنه يصلح إطاراً مثقوباً. وتوقف عن ذلك عندما اقترب منه الفريق وفتح الباب الخلفي للسيارة. وكان السائق مقاتلاً في الموساد. ودون كلمة واحدة دخل أربعة رجال السيارة وتوجهوا نحو المدينة. أما الأربعة الآخرون فعادوا إلى المياه متخذين وضعاً دفاعياً إلى جانب الخنازير. وكانت مهمتهم التمسك بالموقع لتأمين طريق الفرار عند عودة الآخرين من المدينة.

وفي الوقت نفسه كان سرب من الطائرات المقاتلة الإسرائيلية يعيد التزود بالوقود في جنوب كريت مستعداً لتقديم المساعدة. وكان السرب قادراً على إشغال أية قوات أرضية عن الرجال الأربعة لضمان عودتهم وهروبهم.

وتوقفت السيارة خلف بناية شقق سكنية في شارع الجمهورية في طرابلس، على مسافة قصيرة من ثكنات باب العزيزية التي كان معروفاً أنها مقر قيادة وإقامة العقيد القذافي. وفي هذه الاثناء كان الرجال الأربعة قد غيروا ثيابهم في السيارة وأصبحوا مدنيين. وبقي اثنان عند السيارة كمراقبة. فيما توجه الاثنان الآخران لمساعدة مقاتل الموساد في نقل الاسطوانة (جهاز طروادة) إلى الطابق العلوي من البناية ذات الطوابق الخمسة. وكانت الإسطوانة ملفوفة بسجادة.

وفي داخل الشقة تم فتح الجانب العلوي من الاسطوانة وتم تركيب انتين بشكل طبق صغير وتم تثبيته أمام النافذة المواجهة للجهة الشمالية. وهكذا تم تشغيل جهاز طروادة.

وكان مقاتل الموساد قد استأجر الشقة لمدة ستة أشهر ودفع الأجرة مقدماً. ولم يكن هناك داع لأن يدخل الشقة أحد غيره. أما إذا حدث هذا لأي سبب من الأسباب فكان جهاز طروادة مبرمجاً بحيث يقوم بتدمير نفسه ذاتياً. وكان سيدمر معه معظم الجانب العلوي من البناية. وعاد الرجال الثلاثة إلى السيارة ثم إلى زملائهم المنتظرين عند الشاطىء.

بعد قيام المقاتل الموسادي بإيصال المغاوير إلى الشاطىء، عاد إلى

المدينة ليقوم بمراقبة عمل جهاز طروادة طوال الأسابيع القليلة المقبلة. ولم يضيِّع المغاوير أي وقت، ونزلوا إلى البحر سريعاً، فلم يكونوا راغبين في الوقوع في أيدي الليبيين مع طلوع النهار. وصلوا إلى العصافير ثم أبحروا بأقصىٰ سرعة إلى موقع التقوا فيه بالزوارق الصاروخية التي نقلتهم.

ومع نهاية آذار كان الاميركيون قد أصبحوا بالفعل يعترضون رسائل يبثها جهاز طروادة الذي كان يتم تشغيله أثناء فترات ازدحام الاتصالات فقط. وعن طريق جهاز طروادة عمل الموساد على أن يقنع الاميركيين وسواهم بأن هناك سلسلة طويلة من الأوامر الخاصة بعمليات إرهابية كانت تبث من طرابلس الغرب فعلاً إلى مختلف السفارات الليبية حول العالم. وتحقق أمل الموساد، لأن الأميركيين كانوا يتسمعون على الرسائل، ويفكون شيفرتها، فشكلت بالنسبة إليهم دليلاً قاطعاً على أن الليبيين حماة فعالون للإرهاب العالمي. والأدهىٰ من ذلك أن ما كان الأميركيون يسمعونه على جهاز طروادة، كانت تقارير الموساد المقدمة إليهم، تأتي لتأكيد صحته!

لكن الفرنسيين والأسبان لم يصدقوا هذا السيل الجديد المتدفق من المعلومات. وكان مثيراً لشكوكهم أن الليبيين الذين كانوا في غاية التكتم والحرص والتحفظ سابقاً، أصبحوا فجأة يعلنون على العالم عملياتهم المستقبلية! كما أثار شكوكهم أنه في عدة مناسبات كانت تقارير الموساد تحمل نفس المضمون للرسائل الليبية المبثوثة المزعومة. بل وجادلوا، علاوة على ذلك، بأنه طالما أن هناك متابعة للاتصالات الليبية، لكان يجب منع الهجوم الإرهابي على ملهىٰ لابيلا في برلين الغربية في الخامس من نيسان. وبما أنه لم يتم منع وقوع الهجوم، فهذا يعني أنه لم يكن الليبيون وراءه. واستنتجوا أن «الاتصالات الجديدة» المرصودة من طرابلس زائفة.

وكان الفرنسيون والأسبان على حق. فالمعلومات كانت زائفة مفبركة، ولم يكن لدىٰ الموساد أي دليل على من زرع القنبلة التي قتلت جندياً أميركياً وجرحت آخرين، وهي العملية الإرهابية التي كانت على رأس الذرائع التي تسلحت بها واشنطن للقيام بقصف ليبيا في ١٤ نيسان.

وكان قادة الموساد يعولون على التعهد الأميركي بالرد الانتقامي على أي

بلد يثبت ضلوعه في الإرهاب. وأعطى جهاز طروادة الأميركيين البرهان الذي كانوا يحتاجونه. وهكذا وقع الاميركيون ضحايا الخدعة الموسادية، وجروا معهم البريطانيين والالمان.

وكانت عملية جهاز طروادة من أنجح عمليات الموساد، وأدت إلى قيام الرئيس الاميركي رونالد ريغان بالأمر بقصف ليبيا جواً، الأمر الذي ترتب عليه إعاقة الإفراج عن الرهائن في لبنان فظل حزب الله محتفظاً بصورة العدو رقم واحد للغرب. وثانياً توجيه رسالة إلى العالم العربي قاطبة توضح له بدقة وجلاء أين تقف الولايات المتحدة في النزاع العربي ـ الإسرائيلي. والنتيجة الثالثة تعزيز صورة الموساد باعتباره الجهاز الخارق الكفاءة الذي دل الولايات المتحدة على العمل الصحيح.

وظل الفرنسيون رافضين الوقوع في المكيدة، ورفضوا السماح للقاذفات الأميركية بالتحليق فوق إقليمهم في طريقها لمهاجمة ليبيا.

وفي ١٤ نيسان ١٩٨٦ ألقت الطائرات الأميركية أكثر من ستين طناً من المتفجرات فوق ليبيا. وقصف الأميركيون مطار طرابلس الدولي. وثكنات باب العزيزية، وقاعدة سيدي بلال البحرية ومدينة بنغازي، وقاعدة بنين الجوية خارج بنغازي. وانطلقت القوة المهاجمة من انكلترا ومن حاملات الطائرات في الأبيض المتوسط. ووقع في ليبيا أربعون قتيلاً مدنياً بينهم ابنة القذافي بالتبني. أما الأميركيون فخسروا طياراً ومساعده بانفجار طائرتهما من طراز ـ ١١١.

وبعد قصف ليبيا، قطع حزب الله المفاوضات الخاصة بالرهائن الذين كان يحتفظ بهم في بيروت، وأعدم ثلاثة منهم، أحدهم أميركي يدعى بيتر كيلبورن. أما بالنسبة للفرنسيين فقد كوفئوا لعدم مشاركتهم في الهجوم باطلاق صحفيين فرنسيين في آخر حزيران. (وكانت قذيفة قد أصابت خطأ السفارة الفرنسية في طرابلس الغرب أثناء الغارة الأميركية).

أبلغني افرايم بكل هذه الأمور، وأكد لي بعض المعلومات التي كنت أعرفها. ثم مضى قائلاً انه بعد قصف ليبيا «فمن المؤكد أن القذافي سوف يبقى خارج الصورة لبعض الوقت. وإن العراق وصدام حسين الهدف التالي. وبدأنا

نحن فعلاً بتصويره على أنه مصدر كل الشرور. وسوف يستغرق الأمر بعض الوقت، لكن النتيجة مضمونة في نهاية المطاف».

وسألته: «لكن ألا يعتبر صدام معتدلاً تجاهنا ومتحالفاً مع الأردن عدو إيران وسوريا»؟

ـ «نعم. ولذلك أُعارض المخطط. لكن هذه هي التعليمات وعلي تنفيذها. ثم أننا دمرنا المنشأة النووية العراقية، ونجني أرباحاً ببيع العراق تكنولوجيا ومعدات من خلال جنوب أفريقيا».

فقلت له : «لكن هذا كله لا يفسر لماذا لعبت معي لعبة «الغميضة!»».

ـ «كنت في بلجيكا أشرح لشخص عراقي كيفية ضرب الأنبوب النفطي في الكويت. وكما تتخيل فلم أكن وحدي هناك، ولم يكن أحد يأتي أو يذهب حتى ذهب الرجل في سبيله».

ـ «رجل واحد»؟

ـ «نعم. وهو يبلغ أصدقاءه بعد عودته إلى وطنه».

ـ «وأنت تثق به لإداء العمل»؟ فلقد بدا لي أمراً مريباً. إذ كان من عادة الموساد أن يقوم بأعمال التخريب رجالنا فقط، وأن غير اليهود يظلون احتياطياً إذا دعت إليهم الحاجة. وكان إرسال فريق للقيام بتدريب شفوي عملاً انتحارياً. وقال افرايم: «سوف يقوم بالعمل».

ـ «أراهنك على أنه سوف يفجر نفسه أو يقع في أيديهم».

ـ «كل أملي أن تكون على حق. فمن المرجح أنه سوف يعتقل (في الكويت)، وما أن ينطق بما لديه، حتى يتأكد الكويتيون تماماً أن الرجل يعمل لحساب العراق، وإنه هناك لقلب نظام الحكم الملكي في الكويت».

ـ «وماذا نجني من ذلك»؟

ـ «نشر البلبلة والاضطراب. ماذا غير ذلك»؟ ثم نرىٰ كيف نسير بالأمور. فلا تنسىٰ أن هناك حرباً لا يزال أوارها مشتعلاً بين العراق وإيران، وأن الكويتيين مع السعوديين يدفعون معظم تكاليفها».

كنت ممتناً لافرايم لأنه حدثني بهذا التفصيل عن أُمور لم تكن لي بها صلة

مباشرة. وهذا أشعرني بأنني ما زلت في اللعبة. فداخل الموشاد كل واحد يخبر كل واحد عن كل شيء.

ثم سألني افرايم: «قلت إن الروس لم يتصلوا بك حتى الآن»؟

ـ «لا».

ـ «إذن اتصل بهم أنت الآن؟ نهضت وطلبت الرقم وانتظرت. فجاءني صوته:

ـ «مرحباً»؟ فقلت: «كنت بانتظار مكالمتك».

ـ «هل هذا فيكتور»؟

ـ «نعم. هل لديك شيء لي؟».

ـ «آسف. لن نتحدث معك أكثر. آسف».

وأقفل السماعة. فأصبحت في منتهىٰ السعادة. فسألني افرايم وهو يمد رأسه نحوي: «ماذا»؟

ـ «لا يريدونني».

ـ «نعم». قالها ونهض متوعداً بقبضته عدواً خيالياً. ثم قال مرة أُخرىٰ: «نعم! عرفنا الوغد»! (وكان يعني رجل السوفييت داخل الموساد).

ـ «من هو»؟

ـ «قلت لك إنه لا يمكن أن يكون من قسم العمليات. لقد تلقينا من مكتب رئيس الوزراء طلباً لمعلومات عن عدة أشخاص سرحوا من الموساد في العام الماضي فبعثنا أربعة ملفات، وكان ملفك أحدها. ولي شخص في القسم التقني كلفته بتلفيق قصة لمعرفة الملفات التي سوف تعالج ومن جانب من. وكانت النتيجة كما توقعت، فلم يفتح سوى ملفك. وطلب ملفك رجل مسؤول عن أمن مكتب رئيس الوزراء، واسمه ليفنسون».

ـ «وهل هو من شبك»؟

ـ «لا. إنه من المكتب، توثيق، تليفونات، ذلك النوع من الأشياء. ولم يكن للسوفيات أن يجندوا شخصاً في موقع أفضل، هذا إذا كانوا قد جندوا رئيس شبك».

ـ «وماذا الآن»؟

ـ «سوف يستغرق الأمر بعض الوقت. لكننا سوف نمسك به قبل نهاية العام. ولقد مررت تحذيراً لصديقي في شبك. وقلت له إنني حصلت على المعلومة من ضابط اتصال، وإنه لا يستطيع استخدام المعلومة (عن الجاسوس للسوفيات) بصورة رسمية، لأن ذلك يحرق المصدر».

فقلت متعجباً: «إذن نجحنا بها فعلاً. أليس كذلك»؟ فقال: «نعم يبدو أن العملية نجحت».

وكنت سعيداً. فكشف جاسوس لموسكو في إسرائيل أمر لا يحدث كل يوم. وتم الأمر بسهولة حقاً.

الفصل السادس عشر

محاولة تضليل الاستخبارات البريطانية في شأن قضية «قنبلة العال»:

أشعلت سيكارة وجلست على حافة السرير. وساد الصمت عدة دقائق. وقال افرايم:

ـ «أوكي. وبشأن مهمتك التالية».

ـ «ما هي»؟

ـ «ستقوم برحلة قصيرة عبر المدينة وتعرض خدماتك على أصدقائنا البريطانيين».

ـ «على البريطانيين؟ إنهم حلفاء! ماذا تحتاج منهم بحق الجحيم»؟

ـ «لا شيء على وجه الخصوص. كل ما في الأمر أننا نعرف أنهم يشتبهون في أنه كان لنا ضلع في محاولة وضع قنبلة على طائرة لشركة العال».

ـ «تقصد تلك التي أخفقت في مطار هيثرو»؟.

ـ «إنها هي».

ـ «لكن ألم يكن أمن العال هو الذي منع الانفجار في الدقيقة الأخيرة»؟

ـ «تماماً. هناك إشاعة منتشرة أننا نحن الذين زرعناها لنُخْرِج أمنهم ولنتباهىٰ برجال أمننا، ولكي نحمّل مسؤولية العمل الإرهابي للسوريين».

ـ «وهل فعلنا ذلك فعلاً»؟

ـ «محتمل تماماً. لا فكرة لدي. إنما يجب وقف الإشاعة».

ـ «إذن تريدني أن أذهب إليهم لأبلغهم بأننا لم نفعل ذلك العمل»؟ وكنت ابتسم لأنني وجدت المسألة مسلية.

ـ ««كلا. سوف تخبرهم ما أخبرته للسوفيات من قبل، باستثناء أنك سوف تبلغهم بأنك لم تعد تعمل معنا هنا». وناولني مغلفاً قائلاً: «هذه أوراق يمكن أن

تسلمها لهم لكي تبرهن أنك كنت مع الموساد». فقلت ضاحكاً: «ولم لا ندعهم يسألون رجلهم في الموساد لكي يفحص أمري»؟!

فقال افرايم بجدية: «إنه عمل بسيط. واحتاج أن تعمله بأسرع ما تستطيع. وسوف أكون هنا وأنت تقوم به وارحل بعد إنجازه».

ـ «هذا العمل لا يتوافق مع ما كنت تخبرني به عن سبب القيام بكل هذه الأعمال».

ـ «وما ذاك»؟

ـ «كنت اعتقد بأننا في الخارج لنشوه الموساد لإجبار جهازها على إجراء تغيير في القيادة. وفجأة نريد أن نحمي سمعة الموساد»!

ـ «نحن نصيب عصفورين بحجر واحد: فمن ناحية نحن ننظف سمعة إسرائيل من القيام بأعمال غير مقبولة كهذا، وإبقاء العلاقات الديبلوماسية البريطانية ـ السورية مقطوعة. ونحن في الوقت نفسه نعطيك مدخلاً ممتازاً مع البريطانيين. فإذا لم تكن رجل انتقام الآن فسوف تنال عندهم صدقية أكبر في المستقبل. وسوف نستخدم تلك الصدقية لإخراج الموساد وننهي فرع الموساد في لندن».

ـ «وهل عليّ الانتظار طويلاً من أجل العمل التالي؟ فأنا أفقد صبري هنا بإضاعة الكثير من الوقت سدىً وأُريد أن أرىٰ نهاية النفق أو ما يماثل ذلك».

ابتسم. وأدركت أن الأمر ليس يسيراً عليه. أقصد الابتسام. فقد كان يعمل مع عالم يتغير كل لحظة. وعليه أن يكيف نفسه مع العالم.

ـ «عملك التالي قيد التحضير كما قلنا. وبعد إنجازه ستعود للإتحاد مع بيللا والطفلتين».

ـ «وماذا سيكون»؟

ـ «ليس بعد. علينا أولاً القيام بالمهمة البريطانية». ثم أضاف: «سألتني مرة لم لا نسرب أشياء لأجهزة الاعلام فنسيء إلى الموساد بذلك»؟

اومأت برأسي.

ـ «لا نستطيع تدمير الجهاز من الخارج. ذلك أن الموساد يتمتع بصدقية رفيعة في إسرائيل. ومهما فعلنا لن نتمكن من أن نخدش حتى السطح الخارجي. يجب كشفها على حقيقتها: كوحش عاجز كسول متورم وجشع. ولن يحدث ذلك إلا خطوة خطوة. فما نفعله الآن هو الهجوم على الموساد من الخاصرتين. وسنضرب من كل ناحية. ونقطع رؤوس «الميدوسا» واحداً واحداً». ثم أضاف: «هناك فريق من «كيدون» يبحث في نيويورك عن رجل يعتقدون بأنه اتصل مع منظمة التحرير الفلسطينية».

فتجمد الدم في عروقي. فقال: «إنهم لا يبحثون عنك أنت».

ـ «من إذن؟».

ـ «يبدو ان رجل المنظمة الذي تحدثت إليه لم يكن بالبراعة التي تصورتها، أو أنه لم يهتم بالموضوع. لكنه نقل الحكاية إلى تونس وتم التقاط اتصاله من جانب الوحدة ٨٢٠٠ (وهي وحدة في الاستخبارات العسكرية مسؤولة عن التنصت على الاتصالات».

ـ «وهل أبلغهم بأمري على الهاتف؟».

ـ «نعم».

ـ «وهل ذكر اسمي»؟

ـ «ذلك ما أحاول توضيحه لك. فهو لم يذكر شيئاً عن هويتك واكتفى بأوصافك. لكني أظن أن الفريق سوف يضع يده على رجل المنظمة ليأخذوا منه معلومات أدق عن هوية الإسرائيلي الذي زاره».

ـ «وهل أبلغهم بنوع عملي»؟

ـ «نعم. قال لهم إنه ضابط مخابرات إسرائيلي، لكنهم غير متأكدين».

ابتسم. ولم أستطع الابتسام. لأن فريق كيدون لن يستسلم لليأس بسهولة. وهم لا يحبون الخسارة. لكن افرايم طمأنني إلى أنه لا يوجد سبب للقلق. وسألته عما حدث للرجلين في نيويورك التابعين لمئير كهانا اللذين كانا يراقبان مكتب منظمة التحرير الفلسطينية، واللذين تركت أحدهما عارياً تماماً. فقال افرايم إن ذلك الرجل قال لرفيقه إن مجموعة كبيرة من الفلسطينيين هي التي هاجمته، وإن الذي دخل مكتب منظمة التحرير الفلسطينية هو مسؤول قيادي

فلسطيني. وهذه الحكايات حولت ذلك الرجل (العادي) إلى بطل في أعين جماعته اليهودية ـ النازية.

وطالبني افرايم بالحذر لأن ضابطاً في الموساد راغب في وضع يده عليّ. واتصل هذا (واسمه موسىٰ) بزوجتي بيللا طالباً أن تمرر لي رسالة منه. لكن افرايم أعرب عن اعتقاده بأن بيللا لن تفعل ذلك.

فقلت: «لم اتسلم منه رسالة. وهي تفضل وجودي في الخارج».

ـ «لا تسألها عن هذا الموضوع لأنهم يتنصتون على مكالماتها، فإذا فهموا أنك تعرف شيئاً لم تكن هي قد أخبرتك به، حلت علينا الكارثة».

واتضح أن اللعبة الصغيرة مع البريطانيين لم تكن أقل خطورة من اللعبة مع السوفيات. بل كانت أصعب نسبياً. فقد كنا أمام جهاز مخابرات معقد ومتطور ويتمتع بعلاقات ممتازة مع الموساد، على الرغم من أعمال الموساد القذرة في بريطانيا.

وكان عليّ أن أدبر سبباً للمجيء إليهم، كما كان عليّ أن أكون قادراً على إثبات أنني من الموساد. وأعطاني افرايم بعض الوثائق التي يمكن استخدامها لاقناعهم بذلك. وكانت إحداها عبارة عن نسخة مصورة لجواز سفر بريطاني كنت قد استخدمته في عملية في أوروبا قبل نحو عام واحد.

كما كان لي أن استخدم الصلة التي أقمتها مع الممثل البريطاني إلى الشرق الأوسط الذي كان مسؤولاً عن المقابر البريطانية في هذه المنطقة من الامبراطورية البريطانية التي أصبحت الآن بائدة. وكان اعتقاد الموساد أن هذا الرجل يعمل مع المخابرات البريطانية ويجمع معلومات معينة في المنطقة. وكنت قدمت نفسي له كمنتج أفلام كندي، وأقمت صلة معه حاولت خلالها أن «أحلبه» لأستخرج ما لديه من معلومات. وكان رأي افرايم أنه إذا كان الرجل يعمل للمخابرات البريطانية حقاً، فلا بد أنه قد أبلغها بتلك الحادثة مما يعزز البراهين التي احتاجها الآن.

وقررنا ـ افرايم وأنا ـ أن لدي سببين للمجيء إلى البريطانيين: أحدهما المال، والآخر الانتقام. كما سأقول إنني قلق من أن تؤدي إنشطة الموساد في

المملكة المتحدة إلى موجة من معاداة السامية إذا خرجت الأُمور عن نطاق السيطرة، وتفجرت قضية مماثلة لقضية بولارد (اليهودي الأميركي الذي أدانته وسجنته الولايات المتحدة بسبب تجسسه لحساب إسرائيل) بما يكشف اليهود البريطانيين العاملين في خدمة الموساد.

لم يكن هناك أدنىٰ شك في أن مثل هذا الحادث سيؤدي إلى إحياء الجدل إن لم يكن الإيمان ببروتوكولات حكماء صهيون (التي نشرت في روسيا في القرن الماضي، والتي وصفت الخطة التي رسمتها حكومة اليهود السرية للسيطرة على العالم المسيحي). فتوعية السلطات البريطانية وجعلها متنبهة وجاهزة قد يحول دون اندلاع موجة من اللاّساميّة يثيرها انكشاف خدمة يهود بريطانيا للموساد.

ولم يكن وارداً أن تستخدم المخابرات البريطانية مثل هذه المعلومات لشن حملة معادية لليهود.

ولكن بما أن آرون شيرف هو الرئيس الجديد لدائرة تسافريريم (كلمة عبرية تعني نسيم الصباح، وهو الاسم الرمزي للدائرة المسؤولة عن دعم وتنشيط ومساعدة يهود الشتات)، وهو معروف في الموساد كمتطرف مؤمن بوجوب استخدام يهود العالم في خدمة الموساذ وإسرائيل، فقد يمضي بالنشاط في ذلك الميدان إلى حد بعيد يثير المتاعب.

وسألت افرايم: «فماذا أقول لهم إذا أرادوا معرفة المزيد عن الموضوع؟ أعني أنه ليس وارداً ولا معقولاً أن نسلمهم السايانات (يهود الخارج المتطوعين لخدمة الموساد) على طبق من فضة».

ـ «لا. لكننا سوف نريهم كيف يجدونهم إذا بحثوا. فمن الأفضل لهم تحذير الناس بدل اعتقالهم.

فلنفترض أنهم ألقوا القبض على يهودي يعمل في صناعتهم العسكرية ويوصل المعلومات إلى إسرائيل ضد مصلحة بلاده بريطانيا. فإذا حدثت قضية كهذه وحصلت محاكمة نالت تغطية إعلامية واسعة، فسيصبح كل يهودي في العالم الغربي مشبوهاً».

كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما ترجلت من سيارة الأجرة قبل مسافة قصيرة من موقع السفارة البريطانية في واشنطن. وكانت البناية ذات الزجاج السماوي اللون متراجعة عن الطريق. وجدت هاتفاً عمومياً وطلبت رقم السفارة. وفي غضون دقيقتين كنت قد تمكنت من التحدث مع مسؤول الأمن في السفارة. قلت له على الهاتف: «طردت من الموساد وأريد التحدث إلى أحد في المخابرات البريطانية. لدي معلومات اعتقد بأنها تهمكم».

وسألني الرجل: هل أنت في واشنطن»؟

- «نعم، ولست بعيداً عن السفارة الآن».

- «هل تتفضل بالمجيء إلى هنا»؟

- «بعد عشر دقائق».

وأردت معرفة إذا كان هناك أي نشاط خارج السفارة قبل دخولي. تفحصت وضعي فتأكدت أنني غير مراقب، فإذا ظهر أحد خلفي لاحقاً، فسأعرف من ومتىٰ تعقبني.

أعطيت الرجل وصفاً لثيابي واسمي الأول.

فقال إنه سينتظرني في المدخل الرئيسي وإن عليّ أن أحمل بطاقة هوية.

تناولت شطيرة سجق من دكان قرب الهاتف وتوجهت إلى السفارة لأكتشف أن الرجل يرتدي ثياباً مثل ثيابي، فابتسم عند دخولي مكان الاستقبال في الطريق إلى قسم الأمن. وهناك حيّاني مجدداً بابتسامة أخرىٰ أكثر اتساعاً ومد يده لمصافحتي، مقدّماً نفسه باسم «أدوارد». وبعد المجاملات قادني إلى المصعد فإلىٰ مكتبه. وكانت هناك بعض أواني المزروعات على النافذة، تماماً مثلما نفعل في بناية الموساد.

وكان الرجل في أواخر الثلاثينات وقال:

«لم تتح لي فرصة لأتحدث مع أحد عنك. لكنني سآخذ المعلومات الأولية، وبناء عليها نقرر الخطوة التالية».

«هل يبدو لك هذا منصفاً»؟ وكان ذا هيئة بريطانية تامة وشعر أشقر ناعم مسرّح بعناية إلى جانب واحد، ولا يكف عن التهدل على جبينه. وكان يتابع

رفعه عن جبهته بين وقت وآخر. وكانت ياقة قميصه أوسع من عنقه، ربما نتيجة لنظام حمية غذائي نجح أسرع مما كان يتوقع. وربما كان شخص آخر يشتري له ثيابه. وكان بادي السرور:

- «هل تتناول كوباً من الشاي أو غيره؟».

- «قهوة».

واشرأب برأسه منادياً على أحد، طالباً القهوة. ورفع دفتراً، وفتح جواز السفر الذي وضعته في يده، فنقل اسمي وجميع البيانات والتفاصيل. ولم تكن لدي فكرة عن الرجل، لكن المنطق قال إنه في واجهة المخابرات البريطانية هنا، وإنه من درجة ثانية أو ثالثة.

وصلت القهوة وكذلك الشاي للرجل. وقال:

- «حسناً مستر اوستروفسكي، ما الذي تود أن تقوله لي»؟

أشعلت سيكارة وقلت: «كما قلت على الهاتف كنت عضواً في الموساد حتى أسابيع خلت، عندما طردوني لأسباب متنوعة».

وكان منهمكاً بالكتابة دون أن ينظر إليّ.

- «لماذا تركت العمل»؟

- «طردوني بسبب سلسلة من الأخطاء، وبسبب ثرثرتي».

- «ما معنى ذلك»؟

- «أعلنت آرائي السياسية التي لا تتفق مع منظمة ذات ميول يمينية قوية».

وكنا أنا وافرايم قد اتفقنا على أننا الآن أمام جهاز متقدم للمخابرات، فكان لا بد أن تكون كل أقوالي مدروسة لأنها قد تخضع للتحليل النفسي. ولم تبد على الرجل أية ردة فعل مما جعل المقابلة مجهدة. فكل ما فعله أنه كان يكتب ويطرح أسئلة. وطلب مني أحياناً الإبطاء لكي يتمكن من متابعتي بالتدوين. وكنت أكره هذه الطريقة. ففي عالمنا المعاصر وتجهيزاته المتقدمة كان يمكنه استخدام جهاز للتسجيل.

واستمرت المقابلة ثلاث ساعات قدمت له خلالها وثيقة واحدة هي صورة جوازي البريطاني. وكان الجواز الأصلي زائفاً. لكن الوثيقة كانت تثبت على الأقل أنني لست من الهواة.

ثم قال الرجل في الختام: «يجب أن أشكرك سيد اوستروفسكي كثيراً، على ما أخبرتني به حتى الآن. وسوف أنقل هذه المعلومات بالتأكيد إلى الأشخاص المحتاجين لمعرفتها. وسأتصل بك حالما أعرف ما يريدون منك».

وكنت أتوقع هذا الإجراء، فلم أخبره شيئاً باستثناء الأمور الشخصية واللازمة لإثبات هويتي وعملي. فالتحقيق يأتي لاحقاً. فسألته: «وماذا الآن؟».

ـ «سوف اتصل بك. متى تفضل أن أفعل ذلك»؟ ثم قال بعد دقيقة تفكير: «ما رأيك، يوم الاثنين، في نفس الوقت تقريباً»؟

ونهضت قائلاً: «إذن إلى اللقاء يوم الاثنين».

الفصل السابع عشر

ـ اغتيال ضابط موساد في سري لانكا كان يساعد الحكومة لمحاصرة قيادة «نمور التاميل» ـ بدء خطة «فضح» الموساد في بريطانيا تمهيداً للانقلاب الكبير

الأحد، ٤ أيار ١٩٨٦:

لم يكن افرايم في غرفته في الفندق صباحاً، لكنه ترك لي رسالة لدىٰ مكتب الفندق تقول إنه اضطر للمغادرة في الصباح الباكر، لكنه سيعود من أجل إفطار متأخر. ووقع على الرسالة باسم «ديفيد» وهو الاسم الحركي الذي يستخدمه بالاتفاق معي من أجل توقيع رسائل شرعية. ولو أنه وقعها باسم «مارك» لعرفت أن هناك متاعب.

قررت البقاء في غرفتي وانتظار مكالمته التي جاءت في نحو العاشرة والنصف. وكان ينتظرني في قاعة الطعام في الأسفل. وتبين أنه لم يكن قد نام دقيقة واحدة، ذلك أن مهمة للموساد في الشرق الأقصىٰ تعرضت للإخفاق، فاستدعوه لمعالجة المسألة.

فبما أنه تعامل مع السريلانكيين من قبل، فقد أقام اتصالاً مع مخابراتهم، وكان يحاول استعادة جثة ضابط موسادي مسؤول كان في سريلانكا لمساعدة الحكومة المحلية في محاصرة قيادة «نمور التاميل». وهي جماعة مقاومة تقاتل من أجل الاستقلال في شمال الجزيرة الممزقة. (وفي أحيان كثيرة ساند الموساد طرفي النزاع معاً، فزود كلاً من الحكومة والتاميل بالأسلحة، محققاً أرباحاً مجزية). وكان الضابط الموسادي قد لقي مصرعه إذ أطلقت عليه النار في غرفته في الفندق في العاصمة كولومبو، وفي الوقت نفسه كانت قنبلة تنفجر في طائرة ركاب سريلانكية نفاثة وهي على المدرج.

ولم تكن المشكلة الرئيسية مقتل الرجل، بل كون الموساد هناك تحت حماية فرع CIA (وكالة المخابرات المركزية الاميركية) كما كان مفترضاً، لكن الضابط الموسادي كان ينفذ هذا النشاط دون علم مضيفيه الاميركيين.

وريثما جلسنا لتناول الإفطار، كان افرايم قد تمكن من تدبير الأُمور وجعل كل شيء تحت السيطرة.

وكانت الجثة (قيل يومذاك إنه ضحية لحادث سيارة) تنقل على متن طائرة مستأجرة في طريقها إلى استراليا، حيث سوف تساعد المخابرات الاسترالية الصديقة في إعادة نقلها إلى إسرائيل. وأشعل سيكارة وقال:

- «هل طلبت منهم مالاً»؟

- «طلبت ممن»؟

- «من البريطانيين».

حملقت فيه فترة طويلة ثم قلت: «لا لم يحدث».

- «حسناً، في المرة المقبلة لا تنسىٰ إثارة موضوع المال منذ البداية».

- «لماذا؟ فنحن نعلم أنه لا أحد يدفع فعلياً إلا بعد تقييم المعلومات. ويفترض بي أن أكون محترفاً وأدرك هذه الأُمور».

- «ومع ذلك، عليك طرح قضية المال كي لا يعتقدوا بأنك متطوع للعمل مجاناً بدوافع من الضمير. فإذا فهموا أن العلاقة قائمة على المال صار في وسعهم أن يطرحوا عليك ما شاؤوا من الأسئلة. وإلا أصبحوا مجرد مستمعين يجلسون مصغين إلى ما تودّ أنت أخبارهم به.

وامتد النقاش حتى بعد الظهر حتى تعبت.

لكن مخاوفي تبددت، وسلحني افرايم بوثائق جديدة من أجل اجتماع الغد (في السفارة البريطانية). وبعد العشاء توجه افرايم إلى غرفته التي كانت هذه المرة في الطابق نفسه.

وكان يريد أن يكون حاضراً في الغد عندما أطلب السفارة البريطانية. أجريت المكالمة فطلبوا ذهابي إليهم بأسرع ما يمكن حيث ينتظرني رجلان.

وكان افرايم راضياً، وقال: «سوف نصيب عدة عصافير بحجر واحد».

- «أية عصافيز»؟

- «أولاً سوف ندعهم يعرفون أننا لم نرتب حادثة المطار وأنها كانت محاولة إرهابية حقيقية تمَّ الحؤول دون وقوعها. ثم أننا سوف ندفع رئيس فرع الموساد في لندن إلى الاستقالة، آملين أن نعين مكانه رئيساً جديداً من خارج الجهاز.

- «هل أنت متأكد من ذلك»؟

- «سوف نستخدم الأسلوب نفسه الذي استخدمه الجناح اليميني للتخلص من ديفيد كيمحي في ١٩٨٢».

وكنت أُريد رؤية بيللا والفتاتين. وأصبحت نافد الصبر في هذه الناحية. وكان شوقي إليهما يتفجر فجأة على غير توقع وفي أقل الأوقات ملاءمة.

عندما وصلت إلى السفارة البريطانية، رحب بي الرجل نفسه الذي قابلني المرة الماضية. ادخلني ولحق بي إلى المصعد، ومن هناك إلى غرفة غير تلك التي جلسنا فيها سابقاً، وكان هناك رجل وراء المكتب رحب بي مبتسماً: «أنا ستيف، وشكراً لمجيئك بهذه السرعة».

فقلت: «وأنا ديف». وكنت أبادله الابتسام.

- «ديف؟ لكن انطباعي ان اسمك فيكتور».

وكان ينظر في أوراق على مكتبه.

- «مجرد مزاح، فقد كنت استخدم اسم ديف مثلما تستخدم أنت اسم ستيف الآن»! فضحك.

- «هل نستطيع أن نحضر لك شيئاً»؟

- «القهوة». وتناولت سيكارة من علبتي التي تركتها على الطاولة فإذا هي فارغة. فسألته: «هل يمكن تدبير سكائر في هذا المكان»؟ فقال: «سنرى».

وقلت: «فهمت أنه سيكون أكثر من شخص واحد معي اليوم». فقال: «نعم. لكن زميلي قد يتأخر قليلاً، وأن لديه شيئاً معيناً يريدك أن تراه وأن تعطي رأيك فيه».

- «وهل ستعالج هذه المسألة أنت»؟

ـ «سوف نفعل ذلك معاً. لم السؤال»؟

ـ «لأن هناك موضوع المال يجب بحث هذه المسألة قبل المضي قدماً».

ـ «بوسعي التأكيد لك أننا سوف نكون في غاية الامتنان لمساعدتك. أما المال فيتوقف كلياً على قيمة ما لديك من أقوال تقولها لنا».

ـ «هل يمكنك أن تكون أكثر تحديداً»؟

ـ «أخشى انني لا أستطيع. فالقرار ليس قي أيدينا ثم أننا في العادة لا نجمع معلومات عن إسرائيل لأنها دولة حليفة».

ـ «لدي ما أعرف أنكم تريدونه، أنتم تريدون أولاً التحقق من شخصيتي. وتريدون ثانياً معرفة ما لدي».

ـ «من الأفضل النظر إليها كمقايضة..».

ـ «ومن أين تريد أن أبدأ»؟

ـ «من البداية: ماذا كانت رتبتك ومركزك في الموساد»؟

ـ «أنا برتبة كولونيل، وذلك لأنني حملت رتبتي معي من الجيش حيث كنت ليوتنانت كولونيل. وعندما تركت الموساد كنت مشرفاً على الفرع في الدنمرك، مع بعض المهام الأخرى».

ـ «هل هناك فرع للموساد في بريطانيا»؟

ـ «هل البابا كاثوليكي»؟

ـ «هل عملت مع ذلك الفرع»؟

ـ «بين وقت وآخر».

ـ «هل هناك فرع سري لكم في لندن»؟

ـ «نعم. في السفارة».

ـ «كم ضابطاً»؟

ـ «خمسة. هكذا كان عددهم قبل شهرين»

ـ «ومن رئيس الفرع»؟

ـ «ذاكرتي سيئة فيما يخص الأسماء».

ـ «هل تميزه من صورة»؟

ـ «طبعاً. هل لديك صورة»؟

ـ «لدينا صور معظم الدبلوماسيين. فمن الإجراءات العادية أن يقدم لنا الدبلوماسي صورته عندما يقدم أوراق اعتماده».

ـ «فلنسهل الأمور: أرني الصورة أقل لك من هو».

ـ «ولماذا تجيء إلينا؟ ولماذا ليس إلى الأميركيين أو الفرنسيين؟ وإذا كان ما تريده هو المال فلم لا تذهب إلى دولة عربية فقد يدفعون لك بسخاء»؟

ـ «لا أحب التعامل مع أُناس على أرضهم. فسيطرتهم تكون أشد مما أحتمل. ثم إنكم دولة حليفة، لذا فإني لا أخون وطني في الحقيقة، بل أبيعكم معلومات اعتقد بأنها تستحق أن تعرفوها. مثلما يقال عن فعلة بولارد».

عاد الشاب بالقهوة وبعلبة سكائر جديدة، واعتذر لعدم توفر سكائر أميركية في مخزن السفارة.

وبعد خروجه أصبحت علاقتي مع ستيف أكثر استرخاء.

ثم جاء زميله ودخل مبتسماً. وكان بطول ستيف (ستة أقدام) متين البنية، وذا لون دابغ سفعته الشمس بقوة. فكأنه عائد تواً من الكاريبي، أو ربما كان مرضاً معيناً. أما شعره الأشقر فتحول كلياً إلى اللون الفضي وكان اسمه روبرت.

وأطلعه ستيف على ما جرىٰ من حديث وتابعنا الكلام. فتناول روبرت محفظة وسحب عدة كرتونات عليها صور مأخوذة من جوازات سفر. وطلب مني النظر فيها ومحاولة معرفة أصحابها. نظرت إليها وأعدتها إلى المكتب وأبلغته بأني أعرفهم.

ـ «فهل تتفضل بالحديث عنهم»؟

ـ «لماذا لا تخبروني عن الشخص الذي تعتقدون بأنه رئيس فرع الموساد في لندن، واكمل أنا الكلام»؟

وقال ستيف مأخوذاً ومحملقاً في روبرت: «لكن هذا أمر غير طبيعي».

ـ «هل تعني أن ضباط الموساد يطرقون أبوابكم كل يوم، وأنكم لذلك طرتم طوال الليل من انكلترا للتحدث معي؟ فسأل روبرت: «ولم علينا أن نخبرك أي شيء»؟

ـ «هذه هي الطريقة لتجاوز أزمة الثقة. فإذا ثبت لكم أنني أعرف ما

أتحدث عنه يصبح النقاش أسهل».

فأشار روبرت إلى إحدىٰ الصور وقال: «هذا».

فقلت: «تستطيع أن تكون أشطر من ذلك لأنني لم أر هذا الشخص في حياتي. لا بد أنه من الخارجية أو سواها. ويمكنك التأكد من ذلك بالنظر إلى ربطة عنقه».

ـ «ربطة عنقه؟ هل تقصد إن لجماعة الموساد ربطة خاصة للعنق»؟

ـ «لا. لكننا في الموساد لا نذهب إلى المكتب بربطة العنق. ولذلك فإنهم عندما يلتقطون صورنا من أجل جواز السفر أو خلافه، فإننا نضع ربط العنق الموجودة في الاستديو. وليس لديهم هناك سوىٰ ثلاث ربطات للعنق. وما أن يعرف المرء ألوان هذه الربطات حتى يصبح في وسعه تحديد أعضاء الموساد»!!

وابتسم البريطانيان وكأنهما اكتشفا أميركا تواً!

غمغم روبرت قائلاً بضع كلمات ثم: «أوكي» وأشار إلى صورة شخص آخر وقال: «نحن نعتقد بأنه هو».

ـ «وأنتم على حق. إنه يئير». وسحبت من جيب قميصي صورة كان افرايم أعطانيها قبل مجيئي إلى السفارة، ووضعتها إلى جانب الصورة التي كان روبرت يشير إليها. وقلت: «هل ترون؟ إنه نفس الشخص» وكان الفارق الوحيد بين الصورتين أن صورتي أكبر حجماً.

وهكذا انشئت الثقة. فسألني روبرت:

ـ «من أين حصلت على هذه الصورة»؟

ـ «ليست هذه هي المسألة الآن».

فقال بمنتهىٰ التهذيب: «نود كثيراً أن نرىٰ المزيد من هذه الصور».

ـ «هذا غير ممكن حالياً، وليس في نيتي أن أسلمكم الفرع على طبق من ذهب».

ـ «هناك عدة أمور نريد أن نسألك عنها: أولاً هناك شائعات في الميدان أن الموساد لا يحافظ على اتفاقيات الطرف الثالث». وكان روبرت قد فتح ملفاً سحبه من الجارور. (أما إتفاقيات الطرف الثالث فهي اتفاقيات تعقد بين أجهزة

مخابرات صديقة يتعهد فيها جهاز مخابرات بعدم نقل معلومات يحصل عليها من جهاز صديق آخر إلى طرف ثالث).

فقلت: «حسناً. ما نفعله هو أننا نعدل في المعلومات ثم نبيعها. لكننا لا نمررها كما هي».

- «اعتقدت بأنك لم تعد تعمل معهم».

- «وهو كذلك».

- «فلماذا تتحدث عنهم بهذه الصيغة مستخدماً ضمير المتكلم للجماعة»؟

- «إنها العادة. فأنا تركتهم منذ وقت قصير.

وربما كان عقلي لا يزال حتى الآن غير قادر على تقبل الأمر».

- «ألا يزال لديك أصدقاء هناك».

- «نعم. أظن ذلك».

- «وهل أنت على اتصال مع أحد منهم؟».

- «ليس في الوقت الحالي. لكنني قادر على الاتصال إذا أردت ذلك».

- «وماذا تعرف عن محاولة الفلسطينيين تهريب قنبلة على طائرة العال في مطار هيثرو (لندن)؟».

- «لقد ضبطها الأمن. أليس كذلك»؟

- «أمن العال وليس أمن المطار».

- «حسناً. ماذا تتوقع؟ إن أمن العال هو الأفضل. أليس كذلك»؟

- «هل يحتمل أن يكون الموساد هو الذي دبر كل شيء لكي يظهر الفلسطينيين في صورة سيئة»؟

- «وهل يمكن أن يجلب قنبلة حقيقية بهذا القرب من الطائرة؟ هذا مستحيل كلياً».

- علينا النظر إلى الأمور من كل الزوايا. فهل أنت متأكد تماماً من انهم لا يمكن أن يفعلوا ذلك»؟.

- «أنا لا أستطيع تحملهم كما لاحظتم. وصدقوني أنني سأكون أول من يبلغكم لو كانوا فعلوا شيئاً كهذا. كل ما في الأمر أن الأمن ممتاز ولا يعتمدون

كثيراً على الالكترونيات».

ـ «لكنهم يمتلكون كل التجهيزات المتقدمة».

ـ «لم أقل إنهم لا يستخدمون التكنولوجيا الرفيعة. لكنهم لا يعتمدون عليها وحدها. هناك بعد التجهيزات ودورها دورٌ للعنصر البشري».

واستمر الاستجواب عدة ساعات. وتناول بالتفصيل طريقة الموساد في تشغيل وتجنيد السايانات اليهود في الخارج الذين يتطوعون للعمل في بريطانيا الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف ونيّف. وعن احتفاظ الموساد بأكثر من مائة منزل آمن في منطقة لندن الكبرىٰ، وعن الخدمات المقدمة من جانب فروع أصغر للموساد في أنحاء أُخرىٰ من أوروبا. ثم سألني روبرت:

ـ «إذا كنا سنقوم بعملية تنظيف. فأين نبدأ في رأيك»؟

ـ «يجب أن يدرك رجال السياسة عندكم قبل كل شيء أن العمل ضد الموساد ليس عملاً ضد إسرائيل، وأن جهاز الموساد خطر على كل من يتعامل معه».

ـ «نحن نعرف ذلك. نحن نسأل عن المعلومات العملانية. ما هو الخلل في جهاز الموساد؟ فكل جهاز فيه عيب ما مهما حاول تغطيته. فما هو الخلل أو العيب في الموساد الذي يتيح لنا مراقبة ما يفعلون والتدخل لوقفهم عندما نشاء ذلك»؟

ـ «أي جانب من نشاطهم تريد وقفه»؟

ـ «ليس مقبولاً من جانبنا أن يستخدموا رعايا بريطانيين في عملياتهم. أما إذا قمنا باستهداف كل الأقلية اليهودية في بريطانيا، فهذا عمل خسيس.

ثم أننا لا نستطيع الجلوس متفرجين وهم يجندون دبلوماسيين تحت حمايتنا وتعريض علاقاتنا ببلدان أُولئك الدبلوماسيين للخطر».

ـ «ما تحتاجونه هو أن تضبطوهم متلبسين».

وظهرت على وجه روبرت نظرة متهكمة. وقال:

ـ «كان علي التفكير بأن هذا أمر واضح»!

ـ «عليكم مراقبة المنازل الآمنة».

ـ «أميل إلى الاتفاق معك. لكن كيف نعرفها؟».

ـ «تلحقون بالبَودل».

ـ «وما هو البودل؟».

أما كلمة بودل فمشتقة من كلمة عبرية تعني «يفصل» أو «يفرز». والبودل هو الخلل في الجهاز الذي تسأل عنه. إنه الشخص الذي يتسلم الطرود والأشياء من مكتب الموساد في السفارة إلى المنازل الآمنة ومنها. وهو في العادة شاب إسرائيلي صغير تخرج تواً من إحدى وحدات النخبة في الجيش، بعد أن تلقى تدريباً خاصاً على المراقبة يجعله الأفضل في هذا الميدان. وهو يقوم بمعظم المشاوير إلى المنازل الآمنة نهاراً ومعظم «التوصيلات» من تلك المنازل ليلاً. وهو لا يستخدم سيارات السفارة إلا نادراً، وليس له أي عمل مصنف أو محدد».

ـ «إذن أنت تطالبنا بملاحقة الريح. وهل هذا خلل في الجهاز»؟!

ـ «ذلك ما يفترض بالبودل أن يفعله، لكنه لا يفعل ذلك دائماً. فالمنازل الآمنة مسكونة أيضاً من جانب طلبة إسرائيليين يثقون بأن المنازل ممونة جيداً بالطعام وسائر الضروريات، فعندما يتم تجنيدهم وتشغيلهم يكونون مستعدين لذلك. أما رجال البودل فيعيشون في بعض هذه المنازل ويزورون البعض الآخر لجمع البريد، وإطفاء اللمبات أو إضاءتها، وإجراء مكالمات هاتفية. وهكذا يتم استخدام المنزل من جانب ضباط الموساد دون إثارة الشبهات. فيمكنكم مراقبة البودل وإذا ذهب إلى منزل خلال النهار فذلك يكون أحد المنازل الآمنة. لكن هذه المراقبة تتطلب براعة لا أعرف إذا كنتم أهلاً لها»!!

وقال روبرت: «هذا مجال شديد الحساسية». وكان يحك رأسه، فيما أصبح جو الغرفة عابقاً بدخان السكاير. وكان واضحاً أن الرجلين لم يكونا مرتاحين أبداً.

فقلت: «ماذا تعني»؟ وكنت راضياً للغاية عن نفسي إذ أنجزت المطلوب مني وقضيت وقتاً ممتعاً في الوقت نفسه. فقال:

ـ «وهكذا إذا تعقبنا الرجل (البودل) وكشفنا المنازل الآمنة، فماذا سنجد؟ هل تتصور الفضيحة التي ستثار إذا طلعنا بعدة قضايا من طراز بولارد؟».

وقال ستيف: «سوف نوصم بمعاداة السامية فوراً».

فقلت: «لن يحدث ذلك».

فحدّق ستيف في عيني سائلاً: «لم لا؟ فإذا كنت ذاهباً للصيد فأنت لا تعرف ماذا ستخرج من الماء».

قلت: «إن فرع الموساد لن يستخدم المنازل الآمنة من أجل السايانات التابعين له. فهم يلتقون بهم في بيوتهم وبشكل اعتيادي وعلني إلا في حالات تكليف المتطوع اليهودي بجلب معلومات مهمة من مكان عمله.

فالمنازل الآمنة لا تستخدم إلا من أجل الاستنطاق لاستخراج المعلومات ومن أجل اجتماعات التخطيط الميداني بحضور ضباط الموساد المسؤولين الذين لا يدخلون السفارة الإسرائيلية».

وبدأ هبوط الظلام في الخارج. ولم يبق ما يقال في هذا اللقاء. فالمعلومات لا بد من تحليلها ولا بد من بروز أسئلة أُخرىٰ.

ـ «وماذا الآن»؟ قالها روبرت وهو يسحب مغلفاً أبيض من جيبه ويضعه على الطاولة أمامي. وقال: «هذه هدية رمزية تقديراً للوقت الذي أمضيته معنا. ونريد التحدث معك مرة أُخرىٰ في المستقبل القريب لطرح المزيد من الأسئلة. وسندفع ثمن إجاباتك».

ـ «متىٰ بالتحديد»؟

ـ «بعد بضعة أيام».

ـ «لست متأكداً من أنني سأكون هنا كل هذا الوقت. سأتصل بكم قبل مغادرتي وأعطيكم عنواني التالي».

ـ «ما هو عنوانك الحالي؟».

ـ «هنا وهناك. سأتصل بكم غداً وأعطيكم عنواناً».

ـ «حسناً. لن نكون هنا غداً. لكن يمكنك إعطاؤه لصديقنا. وسيوصله إلينا. إنه «بودلنا» على طريقة «بودلكم»! وضحكنا.

عددت المبلغ الموضوع في المغلف بعد أن أصبحت خارج السفارة

فأدركت رخص البريطانيين. ومع أن مبلغ الثمانمائة دولار الذي كان في المغلف كان أكثر مما كنت أملك في ذلك الوقت، لكنني أعطيتهم فأساً ذهبياً ذات رأسين يستطيعون الحفر بها لاقتلاع جذور الموساد من ترابهم. وكان روبرت قد قال إنه مستعد لأن يدفع لي الملايين إذا سلمته قائمة بأسماء السايانات (اليهود الموجودون خارج إسرائيل الذين يتطوعون مجاناً لخدمة الموساد وإسرائيل). لكنه عقب ضاحكاً قائلاً: إن الموساد لن يسمح لي بالعودة لأخذ هذه القائمة.

لكن ملاحظته ذكرتني بالثمن المرتفع لرزمة الصور الفوتوغرافية التي أحتفظ بها في حقيبتي في الفندق، وهي لجميع ضباط القضايا في الموساد.

وهذا شيء لم يعرف به حتى افرايم.

وأدركت أنني وحدي أتمكن من تدمير قدرات الموساد في انكلترا لبعض الوقت. وسيواجهون إشكالات في المستقبل القريب. ولن يبوح البريطانيون بشيء يمكن الموساد من معرفة مصدر الضربات. وتذوقت طعم الانتقام وهو طعم حلو لذيذ. فقد كرهت أولئك الذين تسببوا بإبعادي عن شوارع تل أبيب، وبحرماني من زوجتي وطفلتي. بل وبهز إيماني بالحلم الصهيوني.

وكان افرايم ممداً على السرير، وجهاز التلفزيون صامتاً، والأضواء مطفأة، ويبدو أنه نام منذ عدة ساعات، لأن هواء الغرفة كان خالياً من دخان السكاير.

الفصل الثامن عشر

الموساد يتدخل في الشؤون الداخلية في مصر والأردن

ـ «ماذا تفعل»؟ هكذا سألني افرايم بصوت مترنح عندما رآني ارفع سماعة الهاتف.

فقلت له إنني أُريد طلب قهوة، لأن البريطانيين ليست لديهم أدنى فكرة عن صنع فنجان من القهوة.

فقال متضاحكاً: «إذن أنت تثق بالاميركيين في موضوع القهوة؟». فسألته:

ـ هل تريد أن تأكل شيئاً؟ سوف أطلب هامبرغر، فأنا أتضور جوعاً».

ـ «طبعاً: أطلب لي شطيرة من اللحم مع الخضار».

وكنت أشعر بنفاد الصبر على الاستمرار بهذه الحالة. ولم يكن الحال كذلك عندما كنت في الموساد، لأن العمل كان منتظماً بصورة مريحة: أولاً هناك التقرير الخطي، ثم مراجعته مع الرد على الأسئلة.

أما الآن فما يجري لا يعدو كونه إشباعاً للفضول.

وكانت مشاعري حيال افرايم تتقلب وتتراوح بين الاحترام والكراهية والتقدير. وسألني:

ـ «ماذا قالوا عندما قدمت لهم الصورة»؟

ـ اعتقد بأنني فعلت ذلك ببراعة، لأنني جعلتهم يعرضون علي أولاً صورته، ثم سحبت من جيبي الصورة التي كانت ي ظني أن هذه الخطوة ردمت الفجوات بيننا، إذا كان قد بقي منها شيء».

ـ «وهل أثاروا حادثة العال»؟

ـ «بالضبط كما قلت، فهم يعتقدون بأن الموساد يمكن أن يرتكب مثل هذا العمل».

ـ «ومعهم حق».
ـ «هل تعني أننا فعلناها حقاً»؟ وكنتُ مأخوذاً تماماً.
ـ «لم أقل ذلك. قلت إننا يمكن أن نفعل هكذا عمليات، والواقع أننا قمنا بمثلها فعلاً».

وكان افرايم يتابع طرح الأسئلة وهو يلتهم الطعام. وهو قد يكون رجلاً مثقفاً. لكنه لا يملك أدنىٰ فكرة عن آداب المائدة. وكنت أرد على أسئلته ببطء وتمهل، كي أعطي نفسي فرصتها للاستمتاع بما آكل. وما أن انتهيت حتى كان هو قد اكتفىٰ من طرح الأسئلة وعرف كل ما دار معي في مبنىٰ السفارة البريطانية.

أما القهوة فقد ابتردت، وأما سكايري فقد نفدت كالعادة. ثم قال:
ـ «اذهب لجلب علبة من السكاير ثم نتحدث عن العمل الكبير الذي تكلمنا عنه».

وسرت نحو الباب فجاءني صوته: «قمت بعمل عظيم يا فكتور. ومع أنك استمتعت بالعمل وهذا لم يكن له داع، فقد أديته بكفاءة».

إذن لاحظ افرايم أنني كنت مستمتعاً بما فعلت مع أنني تصورت أنني أخفيت هذه الناحية عنه.

جلبت علبتين من السكاير وعدت فوراً. فالمهمة هذه المرة هي «العمل الكبير» والأخير. إنه العمل الذي سوف يضع حداً لحالة الضياع التي أعيشها.

ولم تكن الخيارات المتاحة لي كثيرة. ولو كانت لدى افرايم نية لإيقاعي في حفرة ما، فهذه فرصته المناسبة لتبشيمي!!

وعندما دخلت الغرفة وجدت افرايم شخصاً آخر. كان مختلفاً وقلقاً ومتشككاً. وكانت تلك المرة الأولىٰ التي أراه فيها على هذه الحالة.
ـ «ماذا أصابك؟ وما الذي افقدك برودتك»؟

ـ «كنت أفكر في المرحلة التالية. هناك أسئلة لا حصر لها لا تزال بلا أجوبة. وربما كان من الخير إرجاء العمل بعض الوقت».
ـ «ماذا تقول؟ وما معنىٰ هذا بالنسبة لبرنامجي»؟

ـ «تأخير قصير. أسبوع وربما عشرة أيام».

وكانت في صوته نبرة ارتياب. فمن الممكن أن الرجل كان يختبرني لمعرفة ما سأفعل، آملاً أن أقع فريسة للقلق لإنهاء كل هذا بأية طريقة ومهما كلف الأمر من ركوب المخاطر، لمجرد تصفية الأُمور.

وسيقول فيما بعد إنه كان راغباً في التأجيل وإنني أنا من ضغط للمضي قدماً باندفاع. وفي آخر النهار فنحن خرّيجا نفس التدريب في نفس المدرسة. وإذا كنت لا أزال غريراً ومجنداً جديداً بالمقارنة معه، لكننا كنا نفكر بالطريقة نفسها.

وقلت له بكل إصرار: «لا» وكان في وسعي أن ألعب اللعبة معه بالطريقة نفسها. لكن هذه لم تكن لعبة: «خذ قرارك الآن ونقوم بالمطلوب، وإلا فإنني منسحب».

وكانت قسمات وجهه جدية عندما قال:

ـ «انظر يا «فيك». الأمر ليس بهذه البساطة. فما سنفعله جزء من الصورة الكبيرة. فإذا خرجت للشروع في حل مشكلة لم تصبح راهنة بعد، فسوف تصبح مشبوهاً بالدوبلة عند انكشافها».

ـ «من الأفضل أن تكون أكثر تحديداً يا افرايم، وإلا فلن تجد سوى الجدار تتحدث إليه بعد قليل».

وقال بابتسامة: «لقد فعلنا ذلك منذ آلاف السنين».

ثم قال: «فلنخرج للقيام بنزهة على الأقدام».

وفاجأني هذا لأنه لم يكن من قبل راغباً في أن يراه أحد معي. والأسباب وجيهة. وكان النهار قد انقضى وعم الظلام. فسألته: «وأين نذهب»؟

ـ «فلنتمش. اذهب أولاً وسألحق بك».

وبعد دقائق كان يسير إلى جانبي. وتجاوزنا محطة قطار النفق. فقال: «تمكن شبتاي وفريقه في ميتسادا من قتل مبادرة السلام الأردنية وإفقاد شيمون بيرس كل قدرة. وجعلوه يبدو كالأحمق. ولن يتجرأ أحد على فعل شيء قبل مضي وقت طويل».

ـ «فهمت هذه الأُمور من متابعة الأخبار».

ـ «يمكن وصف ما حدث حتى اللحظة بأنه لعبة عادلة. وهناك من يعتقد بوجوب السلام مع الفلسطينيين، بينما يرىٰ آخرون وجوب الاستمرار بضربهم. لكن ما الذي يدبره الجناح اليميني؟ وما الذي يريده؟ فاليمينيون يصورون دعاة السلام كخونة، مدّعين أنهم هم الوطنيون وحدهم لا غير».

ـ «لكم أصدقاء كثيرون في أجهزة الإعلام. فإذا كانت لديكم مشكلة صورة، فلم لا تستخدمون أصدقاءكم لتحسين صورتكم؟».

ـ «هذا ما نفعله، لكنه ليس كافياً، وليس في مستوى ما يدبّرون».

أشعلت سيكارة ونظرت إليه. فقال بصوت خفيض للغاية: «يريد الجناح اليميني أن يفرض ويطبق شعاره المعلن «الأردن هي فلسطين». ولديهم من يدعمهم سياسياً في هذا الخط. وهم متحالفون مع راديكاليين في اليمين المتطرف قادرين على حشد دعم واسع بين يهود الشتات وبالأخص في أميركا».

ـ «لكن فكرة حل القضية الفلسطينية في الأردن مطروحة منذ وقت طويل. وأعلنت من على منصة الكنيست عدة مرات. فما هي المشكلة الكبيرة الآن؟ وأين دورنا»؟

ـ «طالما كانت المسألة سياسية لا بأس. لكن الموساد غطس في القضية حتى عنقه. ويرون أن من اللازم هدم الاستقرار في الأردن وإثارة اضطرابات شاملة».

ـ «وكيف»؟

ـ «بتهريب كميات كبيرة من العملة المزوّرة وتدمير الثقة في الأسواق. وتسليح عناصر أُصولية مماثلة لحماس والأخوان المسلمين، واغتيال شخصيات قيادية هي رمز الاستقرار. وإثارة قلاقل في الجامعات، وإجبار الحكومة الأردنية على اتخاذ إجراءات قاسية لتفقد شعبيتها. أي كل ما نعرفه وكل ما تعلمناه».

ـ «فماذا تريد مني»؟

ـ «أُريدك أن تبلغ الأردنيين بالأمر لكي يوقفوا المخطط قبل أن تخرج الأوضاع عن السيطرة. وأنا أعرف أن الموساد يريد فعل الشيء نفسه في مصر

لكي يثبت أن اتفاقاً للسلام مع دولة عربية لا يساوي قيمة الورق الذي كتب عليه. لكنني على صلة بذلك ويمكنني وقف تنفيذ المخطط هناك لأنه لا يزال لدينا وقت».

ـ «سمعت بذلك. ألم يكن الموساد يهرب أسلحة إلى الأُصوليين المصريين من خلال أفغانستان وسواها»؟

ـ «هذا صحيح».

ـ «وكيف سأخبر الأردنيين بذلك؟ وكيف لهم أن يصدقوني؟ لم لا تبلغهم أنت؟ فلك أقنية مع الأردنيين».

ـ «فكرة ليست ممتازة. فهذه مسألة ينبغي أن تكون متواصلة، وفي كل مرة يتمكنون من وقف شيء، فسوف يحاول الجناح اليميني الإسرائيل فعل شيء آخر. ينبغي أن تجعل الأردنيين يجندونك. وعملك هذه المرة ليس مهمة مؤقتة بل هو عمل حقيقي وطويل المدىٰ».

وسكت. فالمسألة أخطر مما بدا لي أولاً.. وأنا أعرض نفسي لحبل المشنقة. وسواء حدث خطأ ما أو تمكنوا من كشفي فالنتيجة واحدة. فسألته:

ـ «هل هذه فكرتك؟ هل فكرت بها وحدك أم مع آخرين»؟

ـ «هناك اتفاق على أن هذه هي الطريقة الوحيدة. لكني لم أخبرهم باسمك كي لا تخضع للمساومات».

ـ «وما هي الخيارات الأُخرىٰ لديك»؟

ـ «لست أنت الوحيد الذي يفعل ما تفعل».

وكان ذلك اكتشافاً مهماً بالنسبة لي. فحتى تلك اللحظة كنت اعتقد بصورة جازمة بأنني كنت وحدي في ذلك المسار. فسألته على الفور:

ـ «وكم عددنا»؟

ـ «عدد يكفي لإنجاز العمل. وفي هذه المرة علينا أن نمضي إلى آخر الشوط، والوقت ليس معنا.

فمن ناحية أولىٰ لا يستطيع المرء في الحقيقة أن يفعل الكثير حتى يعرف على وجه الدقة ما الذي يتوجب عليه أن يوقفه. ومن ناحية ثانية ـ وفي الوقت

نفسه ـ لا يوجد أمامك غير متسع ضيّق من الوقت لكي تدخل هناك مزوّداً بفرصة طيبة للنجاة من الملاحقة».

وكنت قد عزمت على التوقف عن طرح العثرات في سبيله والانصياع لأوامره لفعل ما يريد مني فسألته:

ـ «ماذا تريدني أن أفعل»؟

وما طلبه مني افرايم لم يكن معزوفة موسيقية تشنف الآذان، بل استلزم قطع كل صلة لي بأي شيء، والشروع في عملية انحدار سريع نحو الهاوية. وهي هاوية تؤهلني لاجتذاب «سادتي» الجدد وجعلهم يصدقونني.

كان افرايم يدفع بي نحو الشارع دون أن يكون معي قرش واحد وقال: «سوف تتصل عندما تجوع. وبعد ان تنشىء الاتصال أطلب هذا الرقم وعندئذ نلتقي».

وكان علي بعد إجراء المكالمة أن انتظر يوماً واحداً، ثم آتي إلى فندق «الفصول الأربعة» في واشنطن دي. سي. وكان لدي اسم الضيف الذي سوف أسأل عنه. وسوف ينتظرني افرايم هناك.

ولن تكون لي معه بعد أية صلة. إذ كان مطلوباً مني أن اكتسب صداقات جديدة من الشارع. فإذا وقع حادث ما مهما كان نوعه، تكون مهمة افرايم ـ بصفته الوحيد الذي يعرفني ـ الاتصال بأسرتي لإبلاغها.

ولا أزال متمتعاً بهويتي الحقيقية، وكان مسموحاً لي الاحتفاظ باتصال حر مع زوجتي بيللا. وتلك كانت النقطة الصعبة التي استوقفتني. فلم يكن لي أن أخبرها أي شيء على الهاتف لأن هاتفها موضوع تحت التنصت. ولم يكن لها أن تعرف شيئاً مما يجري. بل لم يكن مباحاً أن أقول لها أنّ الفرج قريب.

وكان مطلوباً مني الشروع برحلة الألغاز هذه في اليوم التالي. فقررت قضاء ليلة واحدة أُخرىٰ في المدينة قبل الغوص في دهاليز الأزمة.

وتوجهت إلى بار «رومرز» وهو المشروب المعروف في قلب العاصمة الأميركية، وغطست في زجاجة تكيلا أمزج سائلها الملتهب مع قناني

الكوكاكولا. وكان الخوف يهد نفسيتي وينغص سهرتي. كنت مرعوباً مما سيأتي، وخجلاً من رعبي. وحدثتني نفسي بالتراجع والانسحاب. وتساءلت عما يمكن أن يحدث إذا نهضت وسرت إلى محطة الحافلات وركبت أول حافلة متحركة ونزلت منها في محطة آخر الخط، حيثما كان موقعها. فلربما كان هذا أفضل الحلول للجميع. فلم أكن أعني شيئاً لأسرتي أكثر من التسبب لها بالمتاعب منذ زمان بعيد. وشعرت بالاشفاق على نفسي والرثاء لحالي. فازدادت الأمور سوءاً.

وفجأة، وفي حومة الضباب الذي صنعته أبخرة الكحول، تنبهت لوجود امرأة. وكانت تسألني إذا كان المقعد المحاذي مشغولاً. وما حدث بعدئذ مجرد ذكرى غائمة. فكل ما أدريه أنني كنت إيجابياً. وعندما أصبحنا في سيارة الأجرة في طريقنا إلى غرفتي في الفندق، بعد وقت ما في البار، دقت أجراس التحذير مدوية في رأسي. فالأمر كان فخاً منصوباً لي بكل بساطة. هكذا خطر لي. وهي هنا لاختطافي واقتيادي إلى إسرائيل. فلماذا تقع سيدة بهذا البهاء في هوى شخص ثمل مثلي تاركة خلفها صديقتها التي غامرت للخروج معها، وقاطعة مشواراً طويلاً من قلب المدينة إلى الفندق؟ أكل ذلك من أجل «سواد» عيوني؟ هذا إذا لم أكن قد تفوّهت بشيء ـ لم أعد أذكره ـ جذبها إلى شخصي السكران! وقررت المضي في المخاطرة. فإذا كانت تعمل لحساب الموساد، فقد كانت مسألة وقت ليس إلا، قبل أن يضعوا أيديهم عليّ. فمن الخير لي إذن طرق السبيل السهل والمختصر والذهاب إليهم برفقتها.

لكن تبين أنها لم تكن عميلة للموساد. وكانت متعطشة للحب والدفء والحنان مثلي وأكثر. ونالت من تلك الليلة بقدر ما منحت. وتبدو ذكرى شاحبة نزولي معها على الدرج وطلب سيارة تعيدها من الفندق إلى المدينة. فاللقاء معها في الصباح صاغته أحلامي. فأعجز عن شرح ما حدث حقيقة وما تشكل في الخيال.

وكان هذا آخر فطور لي قبل أن أهيم في حياة الشوارع. فقد كنت وحدي أصوب على هدف لم تكن لدي فكرة عن السبيل للنيل منه. وضبت جميع ثيابي في الحقائب وكنت ارتدي بدلتي المقلّمة بخط الدبوس الدقيق. ولسوف أغوص

واتقلب بهذه البدلة في الأماكن «المبهدلة» حتى لأبدو بعد بضعة أيام فقط رجلاً مشرداً تائهاً فقد كل شيء.

وفي تلك اللحظة بالذات أدركت أنني أسير في هذه المهمة بطريق خاطىء. فقد أوكل إليّ افرايم مهمة وأبلغني بكيفية تنفيذها. أما الأسلوب الذي اقترحه عليّ فقد يناسبه هو دون أن يناسبني.

ولو كانت هذه مهمة نظامية في الموساد، لاخضعناها للبحث والمناقشة ساعات وساعات من الكدّ الذهني الجدي، حتى نخرج بأفضل سبيل يمكنني استخدامه لأداء المهمة. لكن ذلك لم يحدث في هذه الحالة، ولم أكن مستعداً لفعل الأشياء على هواه. فإذا كان مصيري أن أصبح ابن شوارع، فليكن ذلك وليد اليأس الذي يتجلىٰ في المظاهر. فلو حاولت تمثيل الدور تمثيلاً بلا قناعة، فلن يأخذني على محمل الجد أحد.

وارتأيت اللجوء إلى الأسلوب الوجاهي الذي كان في وسعي تدبره. وضعت جوازي الإسرائيلي في جيبي وتوجهت نحو محطة قطار النفق. وترجلت من القطار قرب مجمع التسوّق أبعد من السفارة بأمتار. وكنت سأشرب فنجاناً من القهوة ثم أتحرك للتنفيذ. وبعد عشرين دقيقة كنت أغادر سيارة أجرة عند بوابة السفارة الأردنية التي تبعد عن السفارة الإسرائيلية أقل من مائة متر. واستجوبني الحارس في المدخل سائلاً عن هويتي وغرضي.

فأجبت بأنني أريد التحدث مع مسؤول الأمن في السفارة.

وأصرّ الحارس على معرفة غاية الزيارة.

فكررت قائلاً: «أريد أن أتحدث مع أحد من الأمن وسحبت جوازي الإسرائيلي ووضعته أمامه لكي يراه، فمدّ يده ليأخذه، لكني أعدته إلى جيبي قائلاً انني لن أكشف هويتي إلا أمام مسؤول الأمن.

وتردد الحارس قليلاً، ثم رفع سماعة الهاتف وتحدث بلغة عربية سريعة بضع لحظات، ثم استدار نحوي قائلاً: «دقيقة واحدة من فضلك، لأن الشخص الذي تطلبه في طريقه إلينا، فهل لك بالدخول من البوابة»؟ وأشار إلى بوابة معدنية للإستكشاف كتلك المستخدمة في المطارات، قائمة في منتصف القاعة.

بمحاذاة أربع درجات تؤدي إلى سطح أعلىٰ. وبعد مروري على تلك المراحل، فتشني حارس ثان بالزي الرسمي، قام بفحصي بآلة يحملها في يده. وظهر في القاعة رجل طويل نحيل ببدلة ذات لون أزرق قاتم، توقف على بعد خطوات مني وسألني:

ـ «ما الذي يمكننا فعله من أجلك».

سحبت جوازي الإسرائيلي ثانية ووضعته في يده قائلاً: «المهم هو ما أستطيع أنا فعله من أجلكم».

فتح جواز السفر وتصفح أوراقه. ناظراً إلى الصورة ورافعاً بصره مرَّة أُخرىٰ إلى وجهي. أطلت ابتسامة على وجهه بدأت تكسو ملامحه بعد شيء من التردد. ثم قال: «هل تتبعني من فضلك»؟

ـ «بكل حب وسرور!».

وصعد الدرجات القليلة. وقادني إلى ما بدا أنه المكتب الهادىء في السفارة. دخلنا غرفة صغيرة فيها منضدة وبضعة كراسٍ حولها. وأُسدلت الستائر على النافذة الكبيرة، لكن الغرفة ظلت جيدة الإضاءة. وكانت على الجدار وراء المنضدة صورة للملك حسين بالثياب العسكرية. وعيناه تبتسمان لعدسة الكاميرا.

وكان المكان أجنبياً بالنسبة لي مثل أي مكان أجنبي آخر. بل إنني شعرت بإلفة المكان في السفارة السوفيتية أكثر من السفارة الأردنية. وجلس الرجل الطويل النحيل الأنيق تحت صورة الملك مباشرة، وأشار لي للجلوس على المقعد المواجه. وبدا الرجل مفرط الأناقة بالمقارنة مع المكتب. وسألني: «هل تتفضل وتشرب شيئاً، أم تفضل وجبة خفيفة»؟

وبدأت اتساءل ما إذا كان هناك قانون عالمي للاستجواب يشترط أن تبدأ اللعبة بعرض الطعام والشراب. وكان ردّي كالعادة: «قهوة من فضلك». فتحدث مع الحارس الذي رافقنا إلى الغرفة وأرسله ليأمر بجلب المطلوب. ثم وضع جواز سفري أمامي على المنضدة سائلاً: «ماذا أتى بك إلى هذا المكان»؟ ثم حدج الجواز بنظرة خاطفة وتساءل: «أو. . . روف ف ف سكي»؟

فصححت له اللفظ قائلاً: «اوستروفسكي. ويمكنك القول إن ما أتى بي هو الجشع، علاوة على رغبة قوية في الانتقام».

- «انتقام. لدينا الآن كلمة لطيفة. من الذي تريد أن تنتقم منه»؟
- «الجهة التي كنت موظفاً لديها».
- «ومن تكون تلك الجهة؟».
- «الموساد».

ولاحظت أن لون وجهه تغير من السمرة المعافاة إلى الرمادي الكالح في غضون ثوان قليلة.

فهل وضعني حظي أمام عميل أردني للموساد؟ ذلك احتمال قائم دائماً ولو كان مستبعداً قليلاً. فافرايم لم يقل لي إنه لم يكن هناك أحد. وكان كل ما قاله إن تجنيد عملاء في الأردن ليس من الأولويات. وسيكون عمري قصيراً جداً إذا «طلع» هذا الرجل عميلاً للموساد. نهض وسار نحو الباب قائلاً: «سوف أعود بعد دقيقة». وكان صوته يرتعش قليلاً. فإذا كان الرجل عميلاً للموساد وفهم أنني منشق عن الموساد، فسيتوقع انكشاف أمره، وسيغادر مبنى السفارة في الحال، متوجهاً إلى السفارة الإسرائيلية، التي ربما كان من الممكن مشاهدة مقرها من النافذة لو أزحت الستائر.

نهضت بدوري ونظرت إلى أرجاء الغرفة، وتأكدت من عدم وجود سوانا. ثم وصل الحارس بالقهوة.

وبعد ربع ساعة عاد الرجل وقد عادت إليه ابتسامته:

- «كيف لنا أن نعرف أنك من تقول»؟
- «معي بعض المستندات، ولدي رغبة في الرد على جميع أسئلتكم».

وأشعلنا سيكارتين وبدأ الاستجواب. وأوضحت منذ البداية أنني لا أعرف أسماء عملاء الموساد في الأردن أو أية دولة عربية.

كما لم تكن نيتي أعطاءهم أسماء ضباط القضايا في الموساد الذين عملت معهم ولا أوصافهم وكان أكثر اهتمامه محاولة اكتشاف التدخل الموسادي في الحركة الصهيونية في الأردن. وبتأثير الموساد على الأجنحة السياسية الإسرائيلية.

وأوضح لي بجلاء أنهم لا يثقون بالسياسيين الإسرائيليين الذين يكثرون من البيانات السلمية، وذلك بسبب التسريبات. وشرح لي أن الأردنيين أكدوا مراراً وتكراراً لجميع الإسرائيليين الذين قابلوهم أن تسريب أنباء هذه اللقاءات وتفاصيلها يضر بالشخصيات الأردنية و «يحرقها» ويجعلها عديمة الجدوى ومع ذلك استمرت التسريبات. وكان استنتاج الأردنيين الوحيد من ذلك أن الإسرائيليين الذين يعرضون هم حياتهم للخطر للاجتماع معهم، لم يكونوا مخلصين، بحيث قد يقرر الأردنيون في وقت غير بعيد الكف عن هذه الاجتماعات.

واقتنع الرجل بعد عدة ساعات بأنني حقيقة من أزعم عن نفسي وهويتي وعملي وقال:

ـ «سوف اتصل الآن برئيسي الذي قد يرغب في أن يطرح عليك بعض الأسئلة».

ودخل الغرفة رجل ظريف في أواخر الخمسينات ذو شعر فضي الشيبة ونظارة مذهبة، وشارب صغير، وابتسامة ودودة.. وهب الرجل الآخر واقفاً متأهباً وقال: «السيد اوستروفسكي.. والبريغادير جنرال زهير».

ومد الضابط الكبير يده إليّ: «أنا سعيد للاجتماع معك يا فكتور، وآمل أن تكون بيننا علاقة مديدة ومثمرة». وكان رجلاً طيباً بهيجاً ودياً، وقال: «آمل أن يكون صديقي هنا قد أحسن معاملتك».

ـ «نعم، بالفعل».

ـ «فهمت منه إنك ضابط موساد. أو بالأحرى ضابط موساد سابق»؟

ـ «صحيح».

ـ «هل تعرف ضابط الاتصال الموسادي في واشنطن»؟

ـ «نعم».

ـ «وأنا أعرفه كذلك. التقيته في حفلة في الخارجية الاميركية في عيد الميلاد الماضي».

ـ «إذن فهو ليس نفس الشخص الذي أعنيه».

ـ «لماذا»؟

ـ «لأنه لم يكن هنا في عيد الميلاد الماضي. فهو لم يصل إلى هنا إلا منذ ثلاثة أشهر».

وابتسم الرجل. فمن الواضح أن سؤاله كان مجرد خدعة يقع فيها معظم الناس. ثم قال:

ـ عرفنا الآن أنك عضو، فكيف نتأكد من أنك لم تعد عضواً»؟

ـ «ليس أمامكم سوى الثقة بي».

ـ «وماذا تعرض علينا»؟

ـ «في استطاعتي العمل معكم لتحديث وتطوير المخابرات الأردنية لرقى إلى مستوى القرن العشرين، وفي الوقت نفسه أن أمنع وقوع أشياء تسيء إلى اقتصادكم وملككم».

وفي اللحظة التي نطقت فيها لفظة «الملك» غداً وجهه جدياً: «ماذا تعني بما قلته عن الملك؟ هل هناك أي خطر على الملك»؟

ـ «نعم. ليس خطراً وشيكاً. . . ولكن هناك من يتمنى رؤيته ميتاً».

وساد الغرفة صمت مطبق. وكان الجنرال مشغول الفكر. أما الرجل الآخر فكان يحدّق فيه منتظراً منه أن يقول أو يفعل شيئاً. وتصاعد التوتر، حتى شمل وجه الحارس الواقف على الباب.

ـ «هل توافق على الذهاب إلى عمان لمقابلة أحد هناك»؟

ـ «عمان؟ عمان القريبة البعيدة. كيف اذهب إليها؟ وهل يمكن أن أعود منها؟ وهل هناك مخرج من هذا؟ وهل كان في استطاعتي الرفض دون قطع الصلة؟ ولاحظ الجنرال ترددي فقال:

ـ «فكر بالأمر. وسوف أكون هنا طيلة النهار غداً وتستطيع الاتصال بي وإبلاغي بقرارك».

ـ «إذا كان جوابي نعم، فمتى اذهب»؟

«أنا لم أقل إنك ذاهب إلى عمان، بل تساءلت عن احتمال ذلك، ويجب أن أتحدث مع الجهة المعنية بهذا الأمر».

ـ «وهل سوف تستخدمون الخط الهاتفي للحديث عني»؟

ـ «لا. سوف استخدم شيفرة السفارة».

ـ «كلا. لا تفعل ذلك ما لم تكن راغباً بقتلي، لأن شيفرة سفارتكم فكها الموساد منذ عهد بعيد، كما أن جميع خطوطكم الهاتفية التي تعتبرونها مأمونة، خاضعة للتنصت.

ـ «فما هي توصيتك»؟

ـ «استخدموا الحقيبة الديبلوماسية، أو ابعثوا برسول».

ـ «ذلك يتطلب وقتاً أطول».

ـ نهضت قائلاً: «سوف أرد غداً على سؤالك، ولا أرى في الحقيقة أية إشكالات. لكن قد احتاج بعض الضمانات».

ـ «أوكي. حتى الغد إذن».

ـ «وشيء آخر: هل ستفعلون شيئاً لمعالجة حبي للمال إذا سارت الأمور على ما يرام»؟

ـ «لا تقلق. لن نتركك في مهب الريح».

ثم سألني: «ماذا سيكون اسمك عندما تتصل غداً»؟

فكرت هنيهة ثم قلت: «عيسى».

ـ «إذن إلى اللقاء يا «عيسى». وابتسم الجنرال وغادر الغرفة. ورافقني الرجل الطويل النحيل حتى الباب الخارجي، وسألني: «هل أطلب لك سيارة أجرة»؟

ولم تكن فكرة حسنة الصعود إلى تاكسي أمام السفارة الأردنية وعلى مسافة قصيرة من السفارة الإسرائيلية. فطلبت منه بدلاً من ذلك نقلي بسيارته.

وتوجهنا إلى سيارته خلف المبنى، وأوصلني إلى أقرب محطة لقطار الانفاق. أعطيته عنوان الفندق ورقم غرفتي، إذا ارتأوا ضرورة للاتصال بي على عجل. لقد أديت دوري وما عليّ الآن سوى الانتظار.

الفصل التاسع عشر

الاستخبارات الأردنية توافق على دخول اوستروفسكي إلى عمّان

كان من المفترض أن يسلمني افرايم مالاً، ولكن لسبب أجهله لم يفعل. ولو كانت هذه عملية عادية للموساد، لكان استحصل على المال بقدر ما يريد من بنك «سايان» بنك يديره يهودي موثوق به يمكنه فتح المصرف في أي وقت وتأمين أي مبلغ مِن المال، ويتم إعادة المبلغ في اليوم التالي بعد أن يستلم المركز المبلغ من المقر الرئيسي. لكن بنك «سايان» كان فقط للحالات الطارئة. وبما أن هذه العملية لم تكن عادية كان علي إمّا أن إنتظر افرايم ليتدبر الأمر أو أن استعمل ما قد أحصل عليه من الجهة التي يفترض أنني أعمل لها.

لم أتمالك نفسي عن الهزء بغرابة الوضع الذي زججت به نفسي.

ها أنا أتعامل مع الهيئات العليا في استخبارات بلدان متعددة، ومع ذلك لا أملك ما يكفي لخساب وجبة طعام واحدة.

كان من الضروري ان تتبلور الأُمور سريعاً وإلا انتهيت في الشارع.

وحسب تقديري كان يمكنني تمديد إقامتي في الفندق بضعة أيام أُخرىٰ فقط.

ارغمت نفسي على اتباع نمط مرح، واتصلت ببيللا التي أردات أن تعرف ماذا يجري وماذا أفعل وماذا يمكن أن تفعل هي من أجل المال.

وكان افرايم قد وعد بإرسال شيك لها يبدو كأنه أرسل من قبلي، ثم افسر لها أنه دفعة على الحساب مقابل استشارات أمنية أقوم بها لحساب إحدىٰ الشركات. لم يكن مِن سبب هناك لكي تتحمل أي نقص في المال وأن وضعها المادي سيكون أفضل بكثير لو كنت أعمل للموساد وحتى لو لم أكن أعمل معهم

كنت أستطيع أن أجد عملاً يفي بالغرض.

ولكن في وضعي أنا، في مرحلة انتقالية بين الاثنين كان على افرايم القيام بما يجب لتأمين المال. إنما افرايم لم يكن موجوداً ليؤمن أي شيء وكنت لا أزال أظن إنه سيفعل وكنت قلقاً على أوضاع بيللا المعيشية وكيف تتدبر أمرها، كنت أعلم أن والدها يمكنه المساعدة، وأعلم أنها لن تطلب منه المساعدة مهماحصل. ولم يكن أمامي إلا ليل طويل من الأرق.

في الساعة الثالثة صباحاً، قررت أن أتحقق من مراقبة الأردنيين لي، ارتديت ملابسي وخرجت من الفندق.

كانت الشوارع مقفرة ولم يتبعني أحد، في اليوم التالي، أجريت اتصالاً هاتفياً مع السفارة البريطانية وطلبت تحديد موعد مع أحد الوسطاء. كنت أريد لقاءه خارج السفارة لإعطائه بعض المعلومات. لكنه طلب مني معاودة الاتصال بعد ساعة.

وعندما كلمته ثانية، أخبرني إنه لن يتمكن من الخروج لمقابلتي، ولكنه يستطيع انتظاري في السفارة في أي وقت أشاء.

اكتشفت ساعتئذ إنهم يعتبرونني خطيراً ويشكون أنني على صلة بجهة يمكن أن تؤذيهم، ولكنني لم أكن لاستطيع المخاطرة في دخول أية سفارة أُخرىٰ في هذه الحالة، لذا أجبته أنني سأعطيه المعلومات على الهاتف. ولم تكن تلك سوى قصاصات تركها لي افرايم قبل سفره إلى إسرائيل.

ومع تفاقم ازدياد موجة الإرهاب في أوروبا، زاد الطلب على المعلومات التي لها علاقة بالنشاط الإرهابي، وكانت الموساد خلاقة في هذا المجال أكثر من غيرها.

فمنذ اعتبارها الأهداف الإسرائيلية مقدسة، كانت الموساد مستعدة للتعامل مع أي كان للحصول على تحذير مسبق حول أي هجوم يمكن أن تتعرض له هذه الأهداف.

وكان من المسلمات عند جهاز العمل الميداني وقتها إقامة الاتصالات تحت جنسيات مزورة مع أي منظمة إرهابية يمكن الوصول إليها. وكان الشرط

الوحيد هو أن يتم عقد اللقاء في جو آمن. بمعنىٰ آخر حصول الشباب المسؤولين عن إيضاحات حول مستوىٰ الخطورة للمنظمة من المركز الأوروبي للموساد في بروكسل، ويقوم الضباط المكلفون بالأمن الميداني بالترتيبات الأمنية اللازمة للقاء.

إثر إجراء الاتصال يسمح للضباط بتبادل أي معلومات يريدونها يمكن ان تقود إلىٰ تجنب هجوم على أهداف اسرائيلية.

وكانت سياسة الموساد تدعو للاستنتاج ان الأهداف اليهودية تحظى بأهمية الأهداف الإسرائيلية ذاتها.

بيد ان الوضع لم يكن كذلك، إذ انه في مناسبات عدة عبر الضباط ان حماية اليهود لم تكن من ضمن عملهم بل تقع على عاتق المحليين. ولم يكن يسمح لأحد، مهما كانت الظروف ان يضحي بإقفال مصدر يمكنه ان يعطي يوماً تحذيراً حول هدف اسرائيلي، في سبيل انقاذ هدف يهودي.

وفي بعض الحالات كان هناك استثناءات خاصة، مثلاً عندما يكون الإرهابيون على صلة مع إرهابيين آخرين يريدون ضرب أهداف اسرائيلية، يمنع أعطاؤهم مواد تفجير.

في هذه الحالة تكون المعلومات المقدمة في إطار المجال اللوجستي أي وثائق في الغالب.

لم يكن هذا بجديد علي، كان هذا ضمن تعليماتي وكنت قد وافقت على مثل هذه الأمور عندما كنت لا أزال في العمل المكتبي. وفي هذا السياق أقمت اتفاقاً مع مجموعة فرنسية تدعى «العمل المباشر» (أكسيون ديركت) لعدة أغراض؛ في المرتبة الأولى الحصول على جوازات سفر بريطانية مقابل معلومات حول هجمات محتملة ضد الأهداف الإسرائيلية. وكانت مجموعة «العمل المباشر» تعتقد انها تتعامل مع مجموعة من امريكا الجنوبية تريد مقايضة هذه المعلومات مقابل أسلحة من اسرائيل.

واختيرت حجرة للهاتف في المانيا الغربية ليتم تسليم الجوازات عبرها.

استخدمني افرايم كقناة معلومات، وسيط معلومات، وكان افرايم قد اعلم

البريطانيين ليوعزوا بدورهم للسلطات الالمانية القبض على الإرهابيين الفرنسيين أثناء أخذهم الجوازات.

وستلجأ السلطات الالمانية لتعقب الموساد حتى مكان التسليم ثم تقوم باعتقال رجال أعضاء «العمل المباشر» حال وصولهم. إلا ان افرايم لم يكن يريد ان يعتقد «العمل المباشر» بحصول خيانة فيحاولون تصفية عميل الموساد، لذا قام افرايم بتحذيرهم مسبقاً حتى لا يعتقدون انه كمين وبالتالي رداً على عملية الانقاذ هذه سيرد أفراد المنظمة الجميل للإسرائيليين.

كان افرايم يأمل (وأنا أيضاً) ان يربك هذا الحادث الموساد. كنا ندرك ان محاولة تحرير الحكومة من قبضة الموساد لن يكون بالأمر السهل.

وحدد موعد تسليم الجوازات في غضون شهر، وعلل اختيار هذا التاريخ لأخذ الوقت الكافي لتحضير الأوراق، مما يسمح للإرهابيين الحصول على معلومات مقابل الجوازات.

عندما انهيت كلامي، كان الوسيط البريطاني خارجاً يحاول ان يلتقط أنفاسه من الذهول وسألني:

- «هل تريد من رجالنا الاتصال بك؟».

- «سأتصل لاحقاً بعد بضعة أيام، فإذا كان هناك أي سؤال، فليستوضحونه من خلالك إذا استطعت وسأخبرك مسبقاً بموعد قدومي، ولكن أشك بذلك ثم عاد الصمت مجدداً عبر الهاتف، فاكتشفت انه لا يعرف ما يفترض به ان يقول أقفلت السماعة، واتصلت بالأردنيين.

- من فضلك هل استطيع التحدث مع زهير؟ معك عيسى.

- سيد عيسى، انتظر لحظة من فضلك.

أدركت من صوت السيدة انها علمت بأهمية المكالمة وبعد ثوان، جاءني صوت امرأة أخرى.

- سيد عيسى معك «لورين» سيكلمك الجنرال خلال دقيقة.

بدت الأمور أفضل بكثير مما توقعت كنت أعرف انه إذا رآني موسى، ملقن المعلومات ميدانياً والذي أصبح اليوم مسؤولاً عن الأمن في أوروبا، لكان

فخوراً جداً بطريقةِ عملي. ولكنني ابتهلت لربي حتى لا يراني، لأنه لو فعل لأصبحت قطعاً مهشمة في إحدى المشارح وفي جمجمتي رصاصة من عيار كاليبر.

ـ أهلاً سيد عيسى، كيف حالك اليوم؟

ـ على أحسن حال وأنت كيف حالك؟

ـ عال، انني أتحضر لشهر رمضان، هل تعرف ما هو؟

ـ بالتأكيد، أرجو ان يكون صياماً سهلاً.

ـ شكراً لكن وأنت ماذا قررت؟

ـ ماذا أقول لك؟ أنا أعجز دائماً عن مقاومة إغراء رحلة جميلة.

ـ هل معنى هذا انك موافق؟

ـ نعم.

ـ عظيم، سأخبر جماعتي وأعود إليك، هل ستكون في نفس المكان السابق؟

ـ نعم، ولكن ليس معي مال، أنا مضطر للمغادرة إذا لم أحصل على مال بوقت قريب.

ـ أين ستذهب؟

لم يكن هذا السؤال ما أحبذ سماعه، فهذا يعني احتمال ان يتجاوز الأمر عدة أيام، فارتبكت وقتها ولم استطع فهم هذا الاستخفاف في التعامل معي واعتقدت ان الوكالة التي أتعامل معها هي من القوة بحيث تستطيع انتزاع فرصتي الذهبية، في مثل هذا العمل يرى المرء فرصة للتقدم الشخصي في كل خطوة.

إلا ان الجنرال لم يكن من هذا النمط وضمن هذه الآلية، كان جندياً حقيقياً بكل معنى الكلمة، يعمل ما يعتقده صواباً ولكنه لا يتخذ القرارات مكان غيره ممن ليسوا تحت امرته.

وكانت الخيبة بادية على وجهي ولم أبذل جهداً لاخفائها.

عندها اكتشفت الهدف الذي اصابه افرايم بزجي في هذا الوضع دون أي دعم، كان يريدني ان أتكل على نجاح مهمتي.

وشعرت تجاهه بالكره.

- «ليس لدي ادنى فكرة حالياً ولكني سأحاول تسوية مشاكلي المالية بأسرع ما يمكن». شعرت انه لم يفهم قصدي. «احتاج لكسب بعض المال، بما انني لا استطيع العمل في الولايات المتحدة، لذا علي المغادرة إلى كندا والعمل هناك».

- هل تعطيني عنواناً هناك استطيع ان أجدك فيه، في حال تأخر الجواب الذي ننتظره.

- إذا لم تحصل على جواب قبل مغادرتي، انس الموضوع، كنت أشعر بأحشائي وهي تغلي، كنت أغرق في لجة من التوتر وأدركت انه علي البدء بحماية ظهري أكثر من أي وقت مضى.

عندما دخلت السفارة كنت أشعر بالإثارة للمهمة التي أرسلت من أجلها لدرجة لم أفكر عميقاً في عواقبها. وتوقعت من الأردنيين ان ينتزعونني بأيديهم ويجعلونني أعمل مباشرة. ولكن الأمور لم تجر على هذا المنوال فازدادت تشعباً وتشابكاً ولم يعد في الإمكان العدول عن العملية، إذ أن المعلومات في طريقها إلى مكاتب الاستخبارات الأردنية في عمان، وهي بلا شك معلومات في غاية الأهمية ستتلقاها أعلى المناصب القيادية. وإذا كانت الموساد قوية فعلاً، فالمعلومات ستصلها عن طريق أحد الضباط الأردنيين المجندين لها أو من أحد مساعديه وإذا لم تكن الموساد قد وصلت إلى هذه المستويات، فان مسألة استخدام جاسوس اسرائيلي من قبل الوكالة الأردنية، ذات أهمية قصوى لا محالة أمام الملك، وفي البلاط الملكي لا بد أن يكون للموساد أذناً هناك. وسيصدر الأمر بتوقيفي أو تصفيتي أثناء كلامي معه.

وقلت:

- «اتصل عندما تصلك أخبار آمل أن أكون ما زلت هنا».

- هل ستتصل قبل سفرك؟

- موافق. اقفلت السماعة، وشعرت بالإحباط التام وان قواي قد استنفدت.

- لم انتظر طويلاً إذ جاءتي الرد في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي.

وكان زهير يتكلم:

ـ هل أنت جاهز للسفر؟

ـ متى؟

ـ بعد ظهر غد؟

ـ يناسبني تماماً، كنت قد اشترطت ان يذهب معي، إذ شعرت بنبله إلا انني تأكدت انه يحترم كلمته ويفي بوعده لو كلفه ذلك الموت للحفاظ على شرفه.

ـ سأمر وآخذك من الفندق في الثانية عشرة.

ـ كم ستدوم الرحلة؟

ـ أسبوع، هل يناسبك؟

ـ بالطبع أراك غداً.

أقفلت الخط وجلست بضع دقائق استجمع أفكاري لاستيعاب ما حدث. كنت على وشك الذهاب إلى بلد لطالما كان عدواً وسأحل ضيفاً على وكالة استخبارات من الجانب الآخر.

كنت أتحضر للذهاب إلى هذا الجانب الآخر، جانب العدو.

وإذا لم تفتني وسيلة لتفسير ما كنت أقوم به إلا انني كنت عاجزاً كل العجز عن تفسير ما يحدث يومئذ.

في ذلك الوقت اعتقدت ان الموساد لم تكتشف أمري بعد، فلو كانت على علم بما يجري هل تستطيع ان تفرط بتعريض مصدر معلومات للخطر؟

ولكن ما يمكن ان أتفوه به يساوي أكثر من أي مصدر، ولن يدعوني أمضي وشأني. وإذا كانوا تساهلوا معي في الماضي من المؤكد انهم لن يسمحوا لي بالهبوط في عمان.

كنت أتقدم بخطى سريعة نحو الهاوية ربما استحال علي الخروج منها. لم يكن أمامي سوى أربع وعشرين ساعة لتجهيز نفسي للسفر، وهو وقت لا يخولني القيام بأي تنكر للتغطية.

أخذت حماماً، وارتديت ملابسي. كان علي ان اتصل بافرايم. لكنه كان يوم السبت، ودعوت ان يكون هناك، رن الهاتف عدة مرات ولم يجب.

لم يكن بوسعي الاتصال من الفندق أو حتى إخبار.. بيللا. أي شيء. فقررت المحاولة مرة أخرى بعد ذلك. عدت إلى الفندق وانتظرت في الغرفة. مر الوقت بطيئاً وساورتني الشكوك ماذا لو لم استطع الاتصال بافرايم؟ ماذا لو كانوا ينتظرونني وكان هذا كميناً للإيقاع بي؟ كانت أفكاري مشوشة، كنت على درجة من الإثارة والخوف، كنت كمن يمشي مغمض العينين على حافة فوهة بركان، أشعر بالخطر ولا أستطيع رؤيته.

في السادسة من بعد الظهر اتصلت بافرايم وكان التوتر قد أخذ مني كل مأخذ.

- ماذا هناك؟ سألني بشيء من المرح، الأغلب انه كان في أحسن حالاته.

- سأذهب غداً.

- ران الصمت على الجانب الآخر لعدة ثوان ثم قال بصوت منخفض متثاقل.

- هل تقصد ما أفكر به؟

- ربحت، اتصلوا بي هذا الصباح سأغادر حوالي الظهر غداً.

- اللعنة، لا نعلم أي شيء عن الموضوع ولا حتى أي تلميح، أتعرف حتى لو لم تذهب. فالموقف الآن هو أكبر مهزلة في تاريخ المنظمة.

كنت أعرف تماماً ماذا يقصد، كان يعني الأسطورة القائلة بأن الموساد يعرف كل ما يجري في الدول العربية، هي حقاً أسطورة كان الأمر يستدعي ضرب كل أجراس الإنذارات لدى الموساد، وها هي المنظمة لا تملك أدنى فكرة عن الموضوع، أخذت نفساً عميقاً، لم أكن استطيع التعبير عن إنزعاجي:

- تريدني أن أذهب، أليس كذلك؟

- نعم، إذا كنت ترى أنك تستطيع ذلك.

- وتريدني أن أتصرف وفق خطة معينة؟

- نعم، كما خططنا، إذا سمحوا لك بذلك.

- إذاً، سأتصل بك حالما أعود.

- سأنتظرك، كم ستدوم الرحلة؟

- قال الرجل أسبوعاً واحداً.

ـ تذكر انه يوجد أشخاص آخرون هناك. فابق بعيداً عن الأنظار.

ـ «ربما ليس لدينا أي شخص في أجهزتهم ولكن بالتأكيد لدينا أشخاص في الحلقات الفلسطينية، وهم في كل مكان. لا أزال غير مصدق لعدم معرفتنا بالأمر»!

ضحك وأكمل: «هذا ضرب من الهراء، اتساءل الآن كم من العملاء المزيفين لدينا». أقفلت الخط وعدت إلى الفندق.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة، كنت انتظر في بهو الفندق وقد أخذت التدابير اللازمة لتمديد حجز الغرفة، وحضروا لي الفاتورة.

في الثانية عشرة تماماً توقفت سيارة ليموزين أمام الفندق ودخل مساعد زهير ذلك، الرجل الطويل النحيل وحياني.

ـ هل أنت جاهز؟

ـ نعم، لكن هناك أمر الفندق.

ـ ماذا هناك؟

ـ لا أملك مالاً، وحجزت الغرفة حتى عودتي، تكلمت مع الجنرال بالأمر. ذهب إلى السيارة ثم عاد مع دفتر بطاقات اعتماد الجنرال.

ـ يقول الجنرال ان تضع الحساب على أوراق اعتماده.

ـ ـ ولكنهم سيطلبون توقيعه.

ـ سأوقع عنه، اسبقني إلى السيارة .

كان زهير قابعاً في الزاوية البعيدة من السيارة وكنت بالكاد استطيع تبينه، لكن ابتسامته كانت مشرقة واضحة وبادرني:

ـ أهلاً وسهلاً يا صاحبي. ومد يده لمصافحتي.

ـ كيف حالك؟ سألته مبتسماً. لم يكن هناك بداً من الاعجاب بهذا الرجل.

ـ سنطير إلى نيويورك أولاً، ومن هناك إلى عمان. أخذت كل التدابير سيقومون باصطحابنا من المطار، كل شيء سيكون على ما يرام.

ـ هل تعرف الناس الذين سيأخذوننا إلى المطار؟

ـ كلهم اصدقائي يمكنك الوثوق بهم، خذ. . . وناولني بطاقات السفر ضمن غلاف باللون الأحمر حفر عليه التاج الأردني باللون الذهبي وكلمة «عالية» بالانكليزية والعربية. لم أكن أحب الظهور بهذه الطريقة في مطار كينيدي أو مطار واشنطن الوطني.

ـ هل تمانع الاحتفاظ بها لي؟ ومددت له الغلاف ودسست البطاقات في جيب معطفي.

ـ أنتم الجواسيس تفكرون بكل شيء قال مبتسماً.

ـ حسناً، هذا إذا لم تكن نريد ان نعلق.

ـ لا تقلق يا صاح، أنت معي، لن يمسك بك أحد.

ـ هل توصلني إلى فندق الشيراتون قرب المطار؟

ـ بالطبع. ولكن بدا وجهه متجهماً، كان حاراً، يحاول معرفة ما يدور في رأسي.

ـ أريد ان استقل سيارة أجرة من الفندق إلى المطار. فنحن لا ندري من سنصادف هناك، ولا أريد ان أشاهد مستقلاً طائرة بصحبة أكبر شخصية عسكرية أردنية في الولايات المتحدة، ألا توافقني؟

ـ كان يجدر بي ان أفكر بالأمر بنفسي، بالطبع أنت مصيب مئة في المئة، ماذا عن مطار كينيدي؟ ماذا سنفعل هناك؟ كيف سنتدبر الأمر هناك؟

ـ هل نسافر في قسم الدرجة الأولى؟ أخرجت بطاقات السفر للنظر إليها.

ـ أجل بالطبع أجاب زهير مبتسماً.

ـ سنلتقي إذن في قاعة الانتظار الخاصة بشركة عالية، أين تقع؟

ـ ليس للخطوط الجوية عالية بهواً ولكننا نستخدم قاعة الخطوط الجوية الفرنسية. ولن يكون هناك رحلة فرنسية سنكون وحدنا هناك اقصد فقط المسافرين إلى عمان.

ـ سأراك هناك إذن، وراقبت النافذة.

اعطى زهير تعليماته إلى السائق بالتوقف أولاً عند فندق الشيراتون. فرد السائق شيئاً بالعربية، فالتفت زهير وسألني:

ـ هل تعرف الوصول إلى قاعة الخطوط الجوية الفرنسية.

ـ أخشى ان لا.

ـ هل تعرف أين مكاتب الحجز التابعة لشركة العال؟

ـ نعم. أجبته بشيء من التردد.

ـ قاعة الخطوط الجوية الفرنسية هي في الطرف المقابل لها. أثناء مرورنا إلى الطائرة سنمر أمام مكاتب شركة العال، ماذا تقترح ان نفعل؟

ونظر بقلق باتجاه سائقه.

ـ لا شيء، سألقاك في القاعة، وعندما يحين موعد الرحلة سنذهب إلى الطائرة، ماذا بوسعنا غير ذلك؟

وصلت السيارة إلى فندق الشيراتون وتوقفت، فترجلت. أخرج السائق حقائبي من الصندوق.

دخلت إلى بهو الفندق دون ان التفت ورائي. وانتظرت عدة دقائق ثم خرجت مجدداً وناديت أول سيارة أجرة تنتظر عند نهاية المنحدر. هل يعقل ان تكون الموساد قد جندت هذه السيارة؟

لو ان أحداً يتعقبني، واشك ان هناك أحداً، فالتوقف أمام الفندق يكفي لتضليل من يتبعني. إذا كانت هذه الحركات تبدو صبيانية فان لعبة القط والفأر هذه تصبح ضرورية عندما يتعلق الأمر بالحياة والموت ويفقد هذا السياق الكثير من مرحه. فكل فوز على المطارد هو كسب فرصة أخرى في الحياة.

وكانت هذه الهواجس تتملكني أيام عملي المكتبي، عندها كنت إيجابياً ونظيفاً وأتمم واجباتي ومع ذلك كنت دائماً أُبقي عيني مفتوحة لاكتشف مطارداً جديداً، لم أكن أعرفه بعد. لم تستغرق الجولة في السيارة أكثر من خمس دقائق ولكنها كانت خطوة ذكية. دخلت المطار وناولت رجل الأمن المكلف جواز سفري حتى شعرت بضربة خفيفة على كتفي.

كنت متأكداً انه زهير أو مساعده يريدون إخباري بشيء. ولم أكن أنوي الالتفات نحوهم إذ هذه الحركة تلغي كل الترتيبات المتخذة سابقاً. إلا ان صوتاً مألوفاً ينادي «فيك».

عالم آخر وحياة أخرى. فالتفت راسماً ابتسامة عريضة على وجهي.

هل هذه مصادفة أو شيء آخر؟

ـ روللي! كيف الحال؟

وضعت حقيبتي جانباً وامسكت يده الممدوة فصافحني بحرارة.

كان في يوم من الأيام صديقاً جيداً حميماً. كنا قد أمضينا كثيراً من الأوقات نتحدث عن شؤون هذا العالم. لم أعمل يوماً مع «روللي» فقد كان صلة وصل وكنت ضابط قضية ولكننا التقينا عدة مرات في المقر الرئيسي كان روللي صلة وصل مع الاسكندنافيين بينما كنت أدير مكتب الدانمارك.

ـ سمعت بسوء حظك أنا آسف كذلك!

ـ هذه هي الحياة، كيف تجري الأمور معك؟

كان روللي صلة الوصل بين الموساد والاستخبارات الاميركية وكنت أعرف انه لن يطلعني على أخباره ولكنني سألت على أية حال.

وماذا استطيع غير ذلك وأنا في طريقي إلى الأردن مع بطاقه سفر تابعة للخطوط الجوية الأردنية في جيبي. ومع من التقيت؟

ـ لا شيء جديد، كالعادة.

وخطر ببالي العميد الذي كان يبيع أسلحة للإيرانيين كنت أشعر بالذنب تجاهه خاصة انني كنت أنا من اتصل بالمكتب الفدرالي بناء على «طلب افرايم».

ـ ماذا حل ببار (عآم)؟

ـ من؟ وكان روللي قد خفض صوته واقترب مني.

ـ «ابراهام بار عام» العميد الذي اعتقل وأوقف بسبب صفقة الأسلحة مع إيران أو شيء من هذا القبيل؟

ـ ماذا عنه؟ ما به؟

ـ ألن تساعدوه؟ في النهاية لقد خدمنا كثيراً.

ـ اعتقدت انك خارج هذه اللعبة؟

ـ وأنا كذلك، أنا خارجها، ولكن هذا لا يعني ان انسى بين ليلة وضحاها، كنت قد عملت معه كثيراً في المقر الرئيسي على الأقل يجدر بنا مساعدته للخروج بعد ان دفعنا به إلى الهاوية.

ـ منذ متى تجري الأمور هكذا؟ لم أر بارعام مجبراً على القيام بذلك؟

لقد سعى إليه لتحقيق الفائدة والمال له ولجماعته ولكن من حظه العاثر لم تجر الأمور كما يشتهي.

ـ كيف أمسكوا به؟

ـ لا فكرة لدي. دون أي سابق إنذار جاءت ال أف بي أي وقبضت عليه وأنتهى كل شيء. لدي حدس ان شخصاً من الداخل كان يريد إنهاء الصفقة. وجرت الأمور على طريقة الأنابيب الزرقاء.

ـ هذا غباء سيدفع الاميركان للتفكير بان هناك عدم تماسك في المنظمة وان اليد اليمنى لا تعرف ماذا يجري في اليسرى.

كنت أرجو ان يؤكد أقوالي.

ـ تراهن انهم يفكرون هكذا.

كنت استشف من خلال النظر إلى وجهه انه أحس انه تكلم أكثر مما يجب مع عميل سابق.

ـ هاي روللي أنا فيكتور؟ علام كل هذا القلق؟ هل تعتقد انني سأحمل ما أخبرتني به وأطير إلى عمان أو غيرها؟

وضحكنا معاً. كانت عملية الأنابيب الزرقاء تحوي أكثر من تزويد الإيرانيين بالذخيرة الحربية. في تلك الفترة كان الموساد يدرب الطيارين الإيرانيين في المانيا. وكانت الاستخبارات السرية الالمانية الـ BND هي التي تؤمن صلة الوصل بين الاثنين. وكان التبادل يتم عبر صفوف الموظفين الصغار في الأقسام الرئيسية وليس عبر الهيئات العليا، وكانت هذه الطريقة المفضلة للتعامل لدى الموساد، فهي تمنح الوسطاء حرية أكبر بإحضار المعلومات والتدرج في مراكزهم، مع الابقاء على الهيئات العليا مرتاحة الضمير سياسياً.

كان سلاح الجو الإيراني يتكون بالأساس من المقاتلات الاميركية مثل فانتوم والتي كانت لسنوات خلت، المقاتلات الرئيسية في الترسانة الإسرائيلية. وكان يتوجب على الإيرانيين تدريب طياريهم في منطقة آمنة إلى جانب الحصول على قطع غيار لسلاحهم الجوي المنهار.

وكانت اسرائيل سعيدة لاستخدام الالمان كوسطاء حتى لا يتوجب على

الإيرانيين الإقرار بتلقي المساعدة مباشرة من الشيطان الصهيوني نفسه.

هكذا قام الطيارون الإسرائيليون بتدريب نظرائهم في عدة أمكنة في ولاية «شلزفيغ هولشتاين»، وخصص مدرجان للتدريب على خمس طائرات تمرين أحضرت خصيصاً من اسرائيل في الوقت ذاته، كانت الطائرات التي تحمل قطع غيار للطائرات الإيرانية المحطمة، تأتي من مرافىء إيطالية عبر الأجواء الألمانية إلى الدانمارك، حيث تفرغ حمولتها على سفن دانماركية. وكان هناك قطع غيار أخرى إلى جانب أسلحة أخرى تنقل مباشرة من السفن الإسرائيلية إلى سفن دانماركية.

أما السلطات المحلية فكانت تغض النظر عن هذا النشاط خاصة إنه لم يكن نشاطاً إرهابياً في المنطقة، إضافة إلى ذلك كانت العملية تدر المال إلى جيوبهم الشخصية.

هز روللي رأسه وقال:

ـ انظر هناك.

ـ أين؟ سألت وأنا أدير رأسي ببطء حتى لا الفت الانتباه.

فروللي لم يكن يوماً جيداً في مجال النشاط الميداني، ولم يكن يحتاج لأن يكون، فهو ليس سوى صلة وصل.

ـ هناك في الزاوية واقفاً مع ذلك الرجل الطويل.

ـ نعم؟

ـ انه زهير، المحلق العسكري الأردني. اتساءل لم هو هنا؟ ماذا يفعل هنا؟

ـ هل تريدني أن أقوم باتصال مباشر وأعرف لماذا؟

ـ من عادتك ان تفعل أليس كذلك، فأنت ابن قحباء مجنون، ابق بعيداً عنه فنحن لا نريد أي إشكال دولي. يمكن ان أكتب حوله تقريراً مطولاً.

كنت أعلم انه سيكتب تقريراً حول لقائه بي، وحول وجهة سفري المحتملة سينقل حواره معي حرفياً.

كونه تعرف إلى زهير وربما سيحاول اكتشاف وجهته، لم يكن بالأمر

المشجع لي لم يكن من دواعي سروري.

لذا قررت القيام بتوضيح الأمور فبادرته.

ـ أرسل تحياتي لموسى.

ـ أنا لا أعمل معه.

ـ انه مدير الأمن في أوروبا الآن وستذكرني في تقريرك فبلغه تحياتي. صدقني ستصله، بالمناسبة أنت قادم أم ذاهب؟

ـ لا هذا ولا ذاك، أنا هنا لاستقبال زوجتي، كانت تقوم برحلة إلى اسرائيل.

وجاء دوري في مكتب الحجوزات. فسررت عندما سمعته يقول: «ها هي سوف أراك فيما بعد». فصافحته واعطيت تذكرتي للموظف وراء المكتب.

بعد حصولي على تأشيرة المرور وعبوري جهاز الأمن، وقفت قرب البوابة بانتظار الصعود إلى الطائرة. لم يبد زهير تجاهي أي حركة تدل على انه يعرفني، تماماً كما اتفقنا، ولكنني كنت أرى على وجهه علامات التعجب حول لقائي الأخير مع الشخص الذي كنت أكلمه.

كان الظلام قد حل منذ أن عبرت الرواق الطويل في مطار «كينيدي». بعد ان وصلت من مطار واشنطن ودخلت قاعة الانتظار الخاصة بالخطوط الجوية الفرنسية في الطابق الثاني كانت ردهة لشركة «العال» مكتظة بالمسافرين وصليت حتى لا يتعرف إليَّ أحد ضمن هذا الحشد الكبير. ذلك ما كنت أرجوه، هو ان تقلع رحلة العال قبل رحلة خطوط عالية الأردنية، فلا أجبر على عبور الجناح برفقة كل المسافرين إلى الأردن، أمام حواليّ ثلاثمائة اسرائيلي، إذ من المؤكد سيتعرف علي أحدهم. بدا زهير قلقاً حول لقائي الأخير في مطار واشنطن ورأى أن ما أخبرته مسل ومرح.

ـ «يا له من توقيت للقاء صديق». وبدأ بالضحك وقال «انه القدر ولا يمكننا شيء حياله، نحن بين أيدي الله، ليفعل بنا ما يشاء».

أتمنى ان يكون بحال جيدة اليوم، فأنا حتى الآن لم أنج من الخطر تماماً. فهو في النهاية يعود إلى وطنه مع دليل انتصار: عميل في الاستخبارات السرية

الإسرائيلية. كنت أتخيل لو كنت أنا مكانه في الجهة المقابلة، لو أنني كنت أنا أحضره إلى اسرائيل، بلا شك كنت أمشي فوق السحاب. بقينا في الردهة لأكثر من ساعة وأخيراً حان موعد الصعود إلى الطائرة .

ـ هل تعرف؟ التفت إليه متكلماً بصوت منخفض «هل قامت رحلة العال».

ـ لا سيغادرون بعد ساعة تقريباً من رحيلنا. حزر ما كنت أفكر به، «هل تريد ان تضع لباساً خاصاً أو شيئاً ما؟».

ـ هل لديك كوفية إضافية؟

فتح حقيبته وأخذ كوفية حمراء وبيضاء وناولني إياها. «هل تفي بالغرض؟». لففتها حول رأسي جاعلاً من الصعب رؤية وجهي جانبياً، وجعلني هذا بحال أفضل «شكراً نعم انها تفي».

عندما عبرنا قاعة الانتظار الإسرائيلية، كان غالبية الركاب الإسرائيليين ينظرون إلينا، إذ لا يتسنى لهم كل يوم مراقبة العدوّ من موقع قريب استطعت تمييز أحد أصدقائي في «هولون» بين الحشد وكنت متأكداً انه تعرف إلي.

إنما ليس بالأمر المهم طالما هو لا يعمل للموساد أو للشبك.

فليس لديه أحد ليخبره، إضافة إلى ذلك كان يعلم انني أعمل في مكان سري، وهو سيحسب انني اؤدي عملي. كنت اعلم انه سينتظر اليوم الذي سيلقاني به في أحد شوارع هولون، ويخبرني كيف رآني استقل طائرة إلى الأردن. يتذكر كيف كان ذكياً ولم يقم بأي حركة حتى لا يكشف غطائي.

صعدنا أخيراً إلى طائرة تابعة للخطوط الجوية الايطالية، مؤجرة من قبل عالية بطاقم أردني، واكتشفت عندما أقلعت الطائرة وأصبحت في الجو، انه لا مجال للرجوع، فالمحطة القادمة عمان.

الفصل العشرون

الرحلة إلى عمان مليئة بالمخاطر والمفاجئات

كان الظلام قد حل في نهاية هذه الرحلة الطويلة. كنت استطيع رؤية اليابسة عندما تنحرف الطائرة إلى اليمين. كنا نتوجه شرقاً.

وشعرت بانقباض في معدتي عندما مرت الطائرة فوق أحد الشواطىء.

أعلن الطيار عن المنطقة التي نحن فوقها وعلمت تماماً أين نحن، هذه الأرض الرمادية في الأسفل، التي تزخرفها أشعة الشمس الأخيرة، قبل المغيب هي سوريا.

كان من الصعب علي استيعاب الموقف، ها أنا اسرائيلي جالس في مقصورة الدرجة الأولى من الخطوط الملكية الأردنية، فوق سوريا، يرافقني الملحق العسكري الأردني في الولايات المتحدة. في هذا الوقت بالذات، هناك العديد ممن يودون تقطيعي إرباً عدا الذين سيشنقوني إذا عرفوا ما أنا بصدده.

بعد عدة دقائق، قامت الطائرة بدورة ثانية واتجهت بعدها نحو اليمين، مبتدئة الهبوط نحو عمان في الأردن.

في الواقع قامت الطائرة بدورة حول اسرائيل، من نافذتي، كنت استطيع رؤية اسرائيل تمر بينما شمس المغيب تضيء الجانب الآخر من جبال المؤآب.

كنت قريباً جداً من بيللا، أكاد ألمسها ومع ذلك كنت بعيداً عنها وعن أطفالي أكثر من أي وقت مضى.

واتخذت جبال الظلمات التي يضرب بها المثل معنى جديداً عندما هبطت الطائرة على أرض مطار الملكة عالية الدولي في جنوبي عمان، كان الظلام قد

غطى كل شيء، وعندما توقفت الطائرة تماماً، قامت المضيفة التي حرصت على خدمتنا باتقان خلال الرحلة من مطار كينيدي في نيويورك، وقفت وراءنا وسدت الطريق إلى الجناح بينما وقف المضيف في الجناح الآخر حاجباً بقية الركاب عنا «سيتأكدون من عدم خروج أحد من الطائرة قبل إخلائنا للممر»، قال زهير وهو يشير ناحية الباب المفتوح.

خرجنا من الطائرة لوحدنا، صافح زهير القبطان، الذي كان واقفاً في الباب يبتسم وكأنه يلتقي الملك نفسه. وفي الطرف الآخر للسلم إلتقينا بعدة ضباط بلباسهم الرسمي منتصبين كالنصب الحديدية وحيوا ما ان وقع نظرهم على مرافقي. فرد التحية وسارع بمصافحتهم.

كان جلياً ان الضباط يتجاوبون مع أكثر من مركز زهير: كان الاعجاب واضحاً عليهم. قادونا إلى ممر صغير. كان جواز سفري بحوزة زهير ولم يختم عليه. وهو اجراء متبع في مثل هذه العمليات.

ثم اقتدنا إلى غرفة واسعة للأشخاص المميزين، صالون شرف، قامت مجموعة من الضباط بثيابهم الرسمية بالترحيب بنا، أو بالأصح بالترحيب بزهير. عدد منهم كانوا عمداء وغالبية الآخرين كولونيلات. بينما كان زهير يختلط باترابه، بقيت أنا في الخلف. ما لبث ان توجه نحوي سيد طويل داكن الشعر ذو شارب رائع مرتب وابتسامة عريضة:

ـ انه لشرف الالتقاء بك يا عيسى، ناديني ألبرت.

رددت الابتسامة وصافحت يده الممدوة وأومأت له قائلاً:

ـ تشرفت بمعرفتك يا ألبرت.

ـ هل تتكلم العربية يا صديقي؟

ـ أخشى ان لا.

ـ في هذه الحالة، ارجو ان تسامح لغتي الانكليزية وتسمح لي بالاستفسار عن معاني الكلمات التي لا أفهمها.

ـ لا مشكلة، إنما كما اسمع انكليزيتك لا تحتاج لأن تعتذر عنها.

ـ أنت غاية في اللطف. رد مبتسماً.

لم أكن أنوي بداية لعبة الاسماء مع هذا الرجل في هذا المكان الغريب،

ليس قبل ان أتعرف بشكل أفضل على بعض القواعد الأساسية. إذ غالباً ما تخيب الابتسامة الأمل المرتقب وراءها تاركة شيئاً من السخرية.

لم أكن أرفع عيني عن زهير. فضمانته الشخصية بحمايتي وثقتي به كرجل شريف، اقنعاني بالقيام بالرحلة. لم أكن أريد ان أفقد غطائي الأمني. وثقت بزهير في الأساس لأنه كان رجلاً عسكرياً وليس ضمن جهاز المخابرات. كنت متأكداً انه إذا لم يعد يراني، يمكن ان تحدث أشياء تتخطى مقدرته بالتغيير وعندها سيؤمن النظام قصة تهدىء من وخز ضميره.

لم أكن لأسمح أن يحدث مثل هذا.

عندما التقت نظراتنا أنا وزهير، أشرت إلى ألبرت وكأني أسأله إذا كنت استطيع الوثوق به. فأومأ زهير مبتسماً، ثم ترك مجموعة الضباط وتقدم نحوي.

«هذا الرجل سيوصلك إلى الفندق ويهتم بك. أنا اعرفه واحمله مسؤولية شخصية للسهر على راحتك».

ثم وضع ذراعه حول كتفي وقال «أهلاً بك في الأردن» ثم استدار وعاد إلى رفاقه.

قادني ألبرت خارج المطار إلى دفء الليل كان هناك عدة سيارات مركونة، يقف بجانبها حوالي عشرة رجال في ثياب مدنية، ينتظرون، عندما اقتربنا، وتنبهوا لنا، فتح أحدهم لنا باب السيارة الثانية في الصف. ثم ولج رفاقه كلهم في السيارت الأخرى وشقت القافلة طريقها حوالي عشرين دقيق في طريق ذكرتني بطريق صحراء النقب. توقفت السيارات أمام فندق «رجنسي بالاس» في عمان. لم أتمكن من رؤية الشيء الكثير من المدينة أثناء فترة القيادة ولكني استطيع القول انه لم يكن هناك الكثير للمشاهدة.

لم تكن مدينة بالمعنى الاميركي للكلمة، مع بنايات شاهقة وأضواء نيون، ولكنها بدت لي من النظرة الأولى كقرية كبيرة جداً. ألبرت شرح لي ان الحركة كانت شبه معدومة جداً لأنه شهر رمضان وانه مكان تعجُّ فيه الحركة في أي وقت آخر.

لشد مفاجأتي وتعجبي وحتى انزعاجي، سجلت في الفندق تحت اسمي

الحقيقي بالرغم من انني كنت عيسى كل ذلك الوقت.

أعطيت مفتاحاً لغرفة في الطابق الثامن. أوصلني ألبرت إلى المصعد وقال انه سيعود بعد حوالي الساعة، مع بعض الأشخاص الذين يودون التحدث معي، اقترح ان آخذ قسطاً من الراحة وانه يمكنني أن أطلب طعاماً من خدمة الغرف.

ـ «اعتقد انه يجب ان تبقى في الغرفة حتى نتنهي من ترتيب كل شيء».

ـ كيف حصل انني سجلت باسمي الحقيقي؟

ـ لا أعرف، لم أقم بالتدابير. الشخص الذي قام بذلك سيأتي معي لاحقاً. يمكنك ان تسأله.

في الواقع كان احتمال ارتكابهم خطأ فادحاً سيكلفني حياتي لم يكن بالأمر الذي يزعج ألبرت كثيراً.

ـ ما هي رتبتك؟ بادرته قبل ان يَهم بالرحيل.

ـ استدار نحوي مشدوهاً «لماذا تريد ان تعرف؟».

ـ بما اننا نحن الاثنين نحمل رتباً سيكون من الأفضل تحديد المواقف.

كان هذا غاية في التفاهة إلا ان أفراد المنظمات العسكرية تهمهم مثل هذه الأمور. كنت كمن يسدد في الظلام.

ـ أنا كابيتان، وأنت؟ كانت هناك مسحة من السخرية في صوته.

ـ كولونيل. وبرزت عيناه فادرك انني أصبت الهدف وأصبح هناك بعض الطبقية.

ـ «هناك شيء آخر بعد».

ـ نعم؟

ـ أريد رقم هاتف أو أي شيء للحالات الطارئة.

ـ آسف، طبعاً. أخرج قطعة ورق صغيرة وقلماً ودّون عليها «ها هو، انه رقم المركز الرئيسي لقوى الأمن، أنا سأكون هناك بعد حوالي عشر دقائق. يمكنك ان تطلب ألبرت. إنما كما قلت سأعود بعد ساعة».

كانت الغرفة تشبه الغرف التي تركتها ورائي في واشنطن، إلا من حيث

أقنية التلفزيون. كنت آمل ان التقط التلفزيون الإسرائيلي، لكن دون جدوى، ولكنني استطعت التقاط صوت اسرائيل على الراديو وعدداً من الإذاعات الأخرى من بينها صوت السلام التابعة لآيبي ناتان.

كان هنا سلة فاكهة في الغرفة والتي كانت تطل على منظر جميل لليل الصحراء. كان الهواء لطيفاً، عابقاً بالشذى.

أخذت حماماً وطلبت عشاء من الحمص والكفتة التي كنت أعرفها باسم كباب، كنت أجلس أمام طاولة صغيرة أحضرها الساقي عندما سمعت طرقاً على الباب.

لم يكن قد تجاوز الموعد الذي حدده ألبرت نصف ساعة منذ ان تركني عند المصعد.

نهضت واتجهت نحو الباب. استطعت ان أرى ألبرت ورجلاً آخر من ثقب الباب.

فتحت الباب ورجعت إلى الوراء. دخل ألبرت مع ثلاثة رجال، من الواضح ان الاثنين الآخرين كانا واقفين بعيداً عن مستوى ثقب الباب. صافحوني انحنوا مبتسمين ثم تقدموا وجلسوا حول طاولة صغيرة أمام النافذة، بعد المقدمات أصروا جميعاً على أن أنهي عشائي.

أقترحت ان أطلب لهم بعض الأكل. أجابوا أنهم يفضلون انتظار صديقهم فضلال.

استأذنوا إذا كانوا يستطيعون التدخين وما هي إلا دقائق حتى امتلأت الغرفة بدخان السجائر المألوف. كانوا جميعاً يدخنون سجائر مارلبورو. فتناولت أنا أيضاً سجائري «الكامل».

كان أحد الوافدين الجدد، شاباً فتياً في الخامسة والعشرين، وكان واضحاً انه مساعد الرجل المسن، يرتدي سترة سوداء وكانت ابتسامته وكأنها وشمت على وجهه. أمّا الثالث فكان يبدو كشقيق كبير لألبرت بشعره الرمادي وإطار نظارته الذهبي. استطعت خلال ملاحظتي لوضعهم وحركاتهم معرفة انهم ضباط.

ومن باب التهذيب دفعت جانباً بما تبقى من الطعام، معللاً انني أكلت في الطائرة وانني لم أكن جائعاً كثيراً.

في الحقيقة كنت أشعر بجوع عظيم ولكنني قررت إنهاء الأمر بركلة مدروسة ثم التفت للأكل لاحقاً. عندما يأكلون.

ـ استدار الرجل المسن نحوي، مفتلاً شاربيه بيد واحدة وبادرني قائلاً: «إذن يا عيسى» ولاحظت ان جميعنا لدينا شوارب. وكلنا متشابهون إلا الرجل الذي يشبه ألبرت، كان أطول على الطريقة البريطانية وشارباه مفتولان إلى الأعلى. وتابع الرجل المسن قائلاً:

ـ قرأت التقرير الذي أرسله زهير وأرى ان هناك الكثير للتكلم حوله، لا أدري حتى كيف أبدأ فماذا تقترح أولاً؟

ـ حسناً. أخذت سيجارة من العلبة ضربتها عدة ضربات خفيفة على الطاولة.

ـ «ما أنصح به هو توضيح ما لا استطيع ان أفعله لكم. حتى لا يكون لديكم توقعات أخذلها».

ـ يبدو منطقياً، قال صاحب الشارب المفتول، متطلعاً نحو الرجل المسنّ. «على سبيل المثال، ماذا تعتقد اننا نريد ان نعرف وأنت لا تستطيع مساعدتنا»؟

كنت أعلم أين يقود هذا النمط من الحديث، كانت تقنية ذكية جداً، وكان أشد المخاطر في طرح الأسئلة هو ان تدع للشخص ان يسأل عن ماذا تعرف وعن ماذا لا تعرف. وهم يجيدون ممارسة هذه التقنية جيداً دون ان يكشفوا عن أي شيء يتعلق بهم.

ـ أولاً، افترض انكم تودون معرفة إذا كان للموساد عملاء في صفوفكم ومن يكونون وتحديد هويتهم.

ـ انه افتراض جيد. أجاب الشاب.

ـ حسناً استطيع ان أقول لكم استناداً إلى التقارير ان هناك عدة عملاء في جهازكم، أغلبهم في حقل القيادة. نظراً لكيفية تركيبة الموساد، لم أكن استطيع تحديد هويتهم إلا إذا تعاملت مباشرة معهم وأنا لم أصل أبداً لهذا الوضع. لذا فأنا لا استطيع مساعدتكم في هذا المجال. استطيع مع ذلك تنبيهكم إلى أن الموساد لا يرى بضباط الاستخبارات أهدافاً جيدة ونادراً ما يلجأون لتجنيدهم.

ـ ولماذا؟ سأل الرجل المسن.

ـ حسناً، لأنهم عادة يشكون. ومن باب الحيطة إنهم يعرفون تماماً التقنيات المستعملة وعندما يتم تجنيدهم لا يملكون ذاك القدر المهم من المعلومات للتطورات الكبرى.. وهم عادة يعرفون عنكم أكثر مما يعرفونه عن بلدهم. لذا بمعنى آخر النتائج لا تستحق العناء.

سمعت طرقات على الباب، التفتت كل العيون إليه.

أردت ان أنهض لافتح لكن ألبرت وقف بدلاً عني. سأفتح أنا، فهو على الأرجح فضلال.

ـ إذن كنت تقول، قال الشاب وكأنه يريد متابعة المحادثة فالتفت إليه وقلت:

ـ ما قلته هو انني لا استطيع مساعدتكم كثيراً فيما يتعلق بالاسماء.

كنت استطيع سماع الباب يفتح، ومحادثة قصيرة تدور هناك فيما بدا لي صوت غاضب يحاول ألبرت تهدئته. ورأيت الدهشة مرتسمة على وجوه الحاضرين أمامي. وقبل ان التفت لأرى ماذا يجري، شعرت بشيء صلب يضغط على مقدمة رأسي وتمسكت يد قوية بمؤخرة ياقتي وقال الرجل شيئاً بالعربية كأنه أمر ما. كان صوته أجشاً غليظاً. كنت أشعر ان كل الدماء قد تجمعت في نصفي العلوي وبدأ البرد يسري في كل أنحاء جسدي.

ـ ماذا يجري هنا بحق السماء؟ صرخت وأنا أتوخى عدم تحريك يدي. وبدا لي أن السلاح من النوع «كاليبير» الصغير الحجم ولكنه حتى لو كان من عيار ٢٢ ملم، فهو كاف ليسحق دماغي.

لم يكن لدي أدنى فكرة حول ما يجري وأرغمت نفسي على عدم تخيل ما يجري. بلا أدنى شك كنت سأقتل خلال وقت قصير، وفي هذه الحالة لا يهم كثيراً ان أعرف ما يجري.

وترجم ألبرت محاولاً دون جدوى تقليد الفظاظة في صوت الرجل، «يقول انك عميل من الموساد وأنك هنا لخداعنا».

ـ أنا قادم من الموساد وهذا ليس سراً. كنت أجهد ان أبعد الرعشة من

صوتي شعرت ان شفتي السفلى تنقبض من الخوف. «أعني لو لم أكن من الموساد لما كنا هنا الآن أليس كذلك»؟

ـ يقول انك هنا لتخدعنا، وانه يعتمد في معلوماته هذه على مصادر موثوقة.

عند هذا الحد ينتهي الأمر بالنسبة لما يتعلق بي. فإما ان الرجل كان يقوم بخدعة أو ان لديه حقاً معلومات أخرى، وفي هذه الحالة لم يكن بوسعي أي شيء. فأنا لو كنت أؤدي مهمة رسمية للموساد، هناك دائماً شبكة حماية سياسية تمتد لتخلصني. ولكنني لست كذلك وبالتالي لو وقعت في يد الموساد فسيفعلون تماماً كالأردنيين من دون ان ينبسوا ببنت شفة.

وضعت السيجارة التي أخذتها من العلبة قبل قليل في فمي. ولم يكن قد تسنى لي اشعالها وحركت عيني باتجاه ألبرت ورسمت أفضل ابتسامة ممكنة على وجهي وقلت:

«قل لرجلك ان يقتلني أو ان يشعل سيجارتي وليسرع مهما كان الأمر.. فأنا بحاجة للتدخين».

وانفجر جميع من في الغرفة بالضحك، حتى الغوريللا الذي يحمل المسدس، ويتهددني، وما لبث ان أعاد المسدس إلى حزامه ثم تحرك ليقف مواجهاً لي. ومد يده لمصافحتي مع ابتسامة عريضة: وقال بالانكليزية.

ـ انه عملي، لمحاولة الايقاع بك، لا تكن لي ضغينة كما أرجو؟

صافحته بحرارة «لا أبداً إنك تقوم بعملك وأنا كذلك». ثم أخرج ولاعة من جيبه وأشعل لي سيجارتي.

ـ هل يمكن الحصول على شيء للأكل هنا؟ قال فضلال بصوت عالٍ. «لم لا تطلبون مائدة طعام فنحن سنبقى هنا لوقت طويل».

عندما اتجه ألبرت نحو الهاتف التفت فضلال إلي وقال.

ـ غداً سنرى إذا كان يمكننا الوثوق بك. سنذهب نحن الاثنين برحلة طوال اليوم وعندها سنتأكد منك.

ـ أين سنذهب؟

ـ هذا ما ستعرفه غداً. أما الآن فلنأكل ونشرب وفتح البار الصغير الذي في الغرفة وسألني «ماذا تريد ان تشرب»؟

البرت يحذر فيكتور لأن فضلال «يرى جاسوساً تحت كل سرير»:

ـ سآخذ تكيلا إذا كان هناك واحدة.

كان هناك أكثر من واحدة وشربنا كلنا ما عدا الرجل المسن ومساعده اللذان رفضا لأسباب دينية.

ـ إذاً عيسى، ماذا يمكننا القيام به في ما يخص عملاء الموساد في صفوفنا؟

ـ يمكنكم الكشف عنهم. وكان افرايم قد تطرق لهذا الموضوع عدة مرات.

لم نكن سنسديهم أي معلومات لا يستطيعون الوصول إليها بأنفسهم. وكان هذا إجراء قياسياً متعارفاً عليه وليس بالشيء الكثير إنما كونه صادراً عني كان يرتدي طابعاً خاصاً.

أما إذا إتبعوا الاجراءات التي أوصي بها فان عملاء الموساد سيقعون واحداً تلو الآخر من حفنة الأشجار التي تنمو في هذه القطعة من الصحراء حيث يختبئون وهذا من شأنه أن يفرض بقوة إعادة تقييم لقيادة الموساد.

ـ حسناً، كيف تقترح ان نفعل هذا؟ سأل البرت وهو يرشف البراندي خاصته.

ـ أولاً تحديد هوية المجموعة التي ينتمون إليها. أقصد، هناك عدة نماذج من العملاء. النموذج الأساسي، يعمل ضمن مهن وضيعة، في مستشفى أو قسم الإطفاء. ويقدم معلومات استراتيجية. مثلاً إذا كان المستشفى يتحضر لاستقبال جرحى بتوسيعه بزيادته عدد الأسرة. أو إذا كان قسم الإطفاء ينادي للتعبئة الاحتياطية. نرى هنا الخطوات الأولى لبلد يتهيأ لتعبئة حربية وللكشف عن هؤلاء الناس سنضيع السنوات الخمس المقبلة بالتحقيقات ومراقبة الأرصفة، وتكون النتائج هامشية، خصوصاً وان غالبية هؤلاء لا يدركون ماذا يفعلون أو ما يقومون به.

كانوا ينظرون إلي ويهزون رؤوسهم، حتى الساعة لم أكن لأضيف على معلوماتهم شيئاً جديداً، وتابعت:

ـ ثم هناك الدرجة الثانية للتعبئة ويكون هؤلاء عادة في مجال الخدمة

المدنية، والمكاتب الأجنبية، كالديبلوماسيين وغيرهم وهم أيضاً يصعب الكشف عنهم وفي رأس الهرم نجد الضباط العسكريين الذين تمت تعبئتهم ويعملون حالياً وهم أهم أعضاء تلك المجموعة والأكثر تعرضاً للافتضاح.

ـ وكيف يتم ذلك؟ سأل الرجل المسن وهو يميل جانباً وقد اصطبغ وجهه بلون وردي.

كنت على وشك الرد عليه عندما تذكرت ما كرره افرايم مراراً: أنت هناك لتجني مالاً لا تنسى ذلك.

ـ حسناً كنت أود حقاً أن أفيدك إنما يظهر ان هناك مشكلة صغيرة.

ـ ما هي؟ سأل ألبرت بسرعة وكأنه مستعد لمعالجتها مهما كلفه الأمر ذلك.

ـ ماذا سأكسب من جراء كل هذا؟ أتيت عن طيب خاطر وأريد أن أعرف كم تريدون أن تدفعوا؟

ابتسم فضلال، ومد يده مجدداً إلى مسدسه وقال:

ـ أول شيء قبضته يا صديقي كان حياتك.

ـ هذا هراء وكنت تعرف ذلك، أتيت إلى هنا بضمانة زهير. «أنا ما أنا عليه حتى تستطيع إثبات عكس ذلك»، وتابعت كما لو كانت المحادثة تجري في واشنطن. «فأنت لست في وضع أفضل مني حتى تساومني». أنت لا تمتاز عني بشيء.

«إذاً لنعد إلى سؤالي» وتوقفت ونظرت حول الغرفة «ماذا ستدفعون لي»؟

ـ «كم تريد»؟ سأل الرجل الذي يشبه البرت.

ـ «أريد مبلغاً دفعة واحدة ثم راتباً شهرياً لمدة عام وبعد ذلك نتفاوض من جديد».

ـ «كم هو المبلغ»؟ سأل الشاب.

ـ «عشرون ألف دولار اميركي كمصروف جيب». كنت أعرف اني استطيع طلب عشرة أضعاف هذا المبلغ، ولكني اردت تسهيل الأمور عليهم «ثم خمسة آلاف شهرياً».

ـ «هل ستبقى هنا في الأردن»؟

ـ «لا، سأعود في غضون أسبوع، كما اتفقنا قبل مجيئي، وسأقوم بما سنقرر وجوب القيام به».

ـ «إذا وافقنا، ماذا ستفعل مقابل كل هذا المال»؟

كان البرت يريدني ان أوافق كنت أرى هذا في عينيه، فهو سيكون ضابط قضيتي الضابط المكلف بي، وهذه المهمة ستدفعه إلى مرتبة عليا في منظمته. كان يريدني وسيعمل جهده كي يحظى بي.

ـ هذا رهن بما تريدون. استطيع المساعدة ببناء جهاز يحذر أياً كان من تجنيد شعبكم. كذلك اساعد في إلقاء القبض على الذين تم تجنيدهم، وأكاد أضمن ان كل من لا يلقى القبض عليه سيستقيل لوجده ستكون هذه المرحلة الأولى.

ـ هناك المزيد إذاً؟ قال فضلال وهو يغمس بعض الحمص، متطلعاً إلي بعينيه السوداوين الصغيرتين وكأنه يريد ان يخترق دماغي، لم يكن الرجل ليثق بي، وكان قبل كل شيء يريد ان يكون أول من يعتقلني.

كنت أكيداً من الطريقة التي ينظر بها إلي، طريقة تحديقه بي، ان لديه أسلوبه الخاص في ذلك ربما سينفذ الأمر في اليوم التالي.

ـ نعم سيكون هناك المزيد. حالما تؤمنون حماية ظهوركم عليكم البدء بالهجوم، أعني تسعون عملياً لتجنيد اسرائيليين، أولاً تحتاجون لمستوى جيد من الخبرة العسكرية، عندها ستكون السماء حدودكم. لن يقف بوجهكم شيء.

ـ ماذا عن تجنيد فلسطينيين؟ سأل الشاب مجدداً.

ـ ماذا عنه؟

ـ ماذا لو أردنا تجنيد فلسطينيين؟ هل تساعدنا في ذلك؟

توجهت كل الأنظار إلى الشاب. وفهم في الحال انه ارتكب هفوة. شعرت بالأسى تجاهه، ورثيت لحاله، إذ كشف لي عن مشكلتهم التي تبدو أكبر مما يتوقعونه.

أردت إخراجه من المأزق الذي هو فيه وتلطيف الجو، وقلت:

ـ هذا مضحك، هل هو سؤال خدعة؟ أنا أجند فلسطينيين؟ تريدون مني

المساعدة في هذا المجال؟ من تظنني أكون؟
شعر الشاب بالهبوط الهادىء الذي قمت به.

ابتسم وقال: «لا يمكن ان تكون حذراً بما فيه الكفاية، أليس كذلك الآن».
عمدت لتغيير الحديث:

ـ حسناً «أوكي» ماذا تقولون؟ ما هو رأيكم؟ هل اتفقنا، أو تريدون الرجوع بذلك لاستشارة رؤسائكم؟

رأيت انني ضربت على الوتر الحساس مع الرجل المسن، الذي كان في الغالب ضابطاً في القيادة العليا، ان لم يكن رئيس المخابرات الأردنية. كنت قد عملت في المكتب الأردني لوقت قصير خلال قيامي بالبحث، ولكنني لم أعرف شيئاً عن المخابرات الأردنية. كنت أشعر بالأسف لذلك الآن.

ـ اثنا عشر ألف ونصف نقداً. قال الرجل المسن وكانت ملامحه خالية من أي تعبير واختفت ابتسامته الموشومة. «ثلاثة آلاف وخمسمائة شهرياً لمدة ستة أشهر وبعدها نتفاوض من جديد. يمكنك ان تقبل أو ترفض. سنتكلم ثانية ليل غد، إذا ما زلت هنا».

ثم نهض مشيراً لمعاونه كي يتبعه وأضاف «أثناء ذلك، تمتع بإقامتك في الأردن يا صديقي عيسى، وإذا قررت ان ترفض فرحلة سعيدة إلى ديارك وسفر موفق».

صافحته، وتوجه نحو الباب. وتبعه معاونه بعد ان حياني بتحية ساخرة. وغادر شبيه البرت مباشرة بعدهم. ووقف فضلال وابتسم وقال:

«ساصحبك غداً في السادسة والنصف صباحاً. ليكن لباسك عادياً». ثم أشعل سيجارة ورمى بالعلبة الملأى على الطاولة.
ـ «أرى انه تكاد تنفد منك السجائر، اسمح لي ان أقدم لك سجائري».
ـ شكراً، يمكنني استعمالها.
ثم مشى مباشرة إلى الباب حيث توقف وقال «لا تخرج من الفندق لوحدك، واقفل الباب».

ـ سأفعل.

ولكنه انطلق قبل ان يسمع جوابي. وتساءلت ما كانت الـ SOB تحضر لي في اليوم التالي؟

* * *

جلس البرت في المقعد حيث كان يجلس الرجل المسن قبل قليل.

ـ «نحتاج للكلام، نحن بحاجة ان نتكلم». قال بشيء من القلق.

تهاويت على كرسي مقابلة له وفتحت زجاجة أخرى من زجاجات التيكيلا في البار.

ـ ماذا يدور في رأسك؟

في الواقع كنت راضياً تماماً عن نفسي حتى الساعة ظناً مني انه في مجمل المواقف عالجت الأمور بشكل جيد جداً.

ـ لقد كُلِّفت بك. وهذا يعني انه من الآن وصاعداً سأكون.. وتردد مفتشاً عن الكلمة المناسبة.

ـ «ضابط القضية».

ـ نعم، تماماً.

بدا وكأن هماً إنزاح عن صدره وعرفت ان هذا كل شيء.

ـ «اعلم انك قادم من وكالة غاية في الدقة، ولكنك الآن تعمل معي. لذا سنقوم بالأشياء على طريقتي ووفق إيقاعي. نحن نعمل معاً سوية وليس أحدنا ضد الآخر. لذا تجاوب معي. اتفقنا»؟

ـ «انظر يا ألبرت، أنا أكن لك الود، وهذا صحيح. أنا آت من أكثر الوكالات دقة وتعقيداً. لكنني لم أترك الموساد حتى أصبح مرؤوساً. هناك أمور استطيع القيام بها من أجلك وهناك أمور لن أقوم بها. إذا أردت أي شيء، كل ما عليك هو السؤال».

ورفعت كأسي عالياً: «في صحة الملك».

ـ هذا ليس مجالاً للمزاح. قال متجهماً.

ـ لم أقصد هذا، يا ألبرت، ما الذي يقلقك إلى هذا الحد؟

ـ أنا قلق بشأن فضلال. فهو لا يثق بك ولا أريده أن يؤذيك. فهو مجنون قليلاً، ويرى جاسوساً تحت كل سرير.

ـ إذا ماذا تقترح ان أفعل؟

ـ كن حذراً، هذا كل شيء، لا أريد ان يحصل لك مكروه ويلاحقني زهير بعد ذلك.

كانت اللعبة النفسية التي يمارسها جيداً، لا تخلو من الفجاجة. كان ألبرت يمثل الشرطي الطيب أما فضلال فكان الشرطي الشرير. من خلال تحذيري سعى ألبرت لتصوير الشرطي الشرير أكثر شراً، ولتهويل الأمر علي.

بالرغم من مسؤولية زهير تجاهي وضمانته، أراد ألبرت أن يرجح احتمال تعرضي لمكروه. كنت أعرف أنها لعبة، ولكنها فعَّالة، خاصة بعد عدة كؤوس من التيكيلا ومع حاجة ماسة للنوم.

ـ سأكون حذراً، أعني أنا موكل بمهمة.

ـ سأكون في الغرفة المجاورة إذا احتجت إلى شيء. نهض ألبرت وأضاف «هل تريد مساعدتي في نقل هذه الأغراض خارج الغرفة». وأشار إلى الطاولة المتحركة العجلات وفضلات الطعام من فوقها.

ـ إنسَ ذلك، سأعالج الأمر في الصباح، هل ترتب لي مكالمة توقظني، عند الخامسة والنصف؟

ـ بالتأكيد، وتوجه نحو الباب.

ـ برأيك أين سنذهب باكراً؟

ـ لا أملك مفتاح اللغز، ولكن أين ما كان انتبه وكن حذراً. فالرحلة تزخر بالمفاجآت، فأنا أعرف فضلال وسيكون سعيداً إذا ما أوقع بك حتى لو كان يعرف أنك على ما يرام.

ـ ماذا تخبرني هنا؟

ـ كن حذراً.

ـ هل تعتقد ان زهير على علم بما سنقوم به غداً؟

ـ لا أظن ذلك. فضلال لا يعلم إلا رئيس الأمن، كل ما سأقوله كن حذراً.

وعند هذه الملاحظة المشؤومة غادر الغرفة.

نحن في غاية الإرهاق، وكانت جفوني تؤلمني، ولكني لم استطع النوم. كنت قريباً جداً من بيللا، استطيع ان أشمها ومع ذلك لم يكن هناك طريقة لاخبارها أين أنا. ماذا لو حصل مكروه غداً وانتهيت مثل (جون دو) على لوح في مشرحة مدينة عمان، وأي شيء لديهم كبديل؟ ما ان يتعلق الأمر ببيللا حتى أود لو أركض بها وبالأولاد بعيداً.

كنت على وشك ان أجن من شدة القلق والإنزعاج. ها أنا أنتحب وأشعر بالأسى ولم أباشر بعد ما أتيت لأجله. كنت اعلم إذا لم أقم بشيء لإزالة الضغط والتوتر لن أكون قادراً على العمل في يوم غد. انتزعت سماعة الهاتف وجاءني رد عاملة الهاتف بالحال:

ـ «بماذا أخدمك؟ هل من خدمة»؟ قالت شيئاً لم أفهمه بالعربية.

ـ أريد مكالمة للولايات المتحدة. اعطيتها رقم فندق «الهوليداي إن، في سيلفر سبرينغ» حيث لا تزال غرفتي محجوزة، ودهشت للسرعة التي تم بها الاتصال.

ـ هوليداي ان سيلفر سبرينغ. نعم؟

ـ هنا معك فيكتور اوستروفسكي من الغرفة ٨٠٥.

ـ نعم سيدي، بماذا أخدمك؟

ـ أتوقع مكالمة من زوجتي في وقت ما هذا اليوم هل تعطيها هذه الرسالة مني؟

ـ بالتأكيد سيد اوستروفسكي.

ـ أخبرها انني في مكان لا استطيع الاتصال بها منه، وسأتصل بها حالما أعود بعد حوالي أسبوع.

ـ ما اسمها؟

ـ بيللا.

ـ حسناً، سيد اوستروفسكي سأبلغها.

أقفلت سماعة الهاتف، وهويت على الفراش، وفي اللحظة التي لامست

المخدة رأسي كنت أغط في نوم عميق. وبد لي إنه لم يمض وقت طويل عندما سمعت جرس الهاتف. اعتقدت انهم لن يتركوني أنام، ولكن كانت المكالمة لإيقاظي.

في البدء، كدت استلقي مجدداً لانتزع دقائق نوم أخرى.

ولكني علمت انه إذا فعلت فلن استطيع النهوض إلا متأخراً.

ولم أكن أريد من فضلال ان ينتظرني. جررت نفسي ببلادة وببطء إلى الحمام ثم لبست وتهيأت وبقي لدي المزيد من الوقت فطلبت قهوة وخبزاً من خدمة الغرف وكنت قد انتهيت من تناولها عندما سمعت طرقاً على الباب، نظرت عبر ثقب الباب ورأيت الشخص الذي أنتظره. كان فضلال مرح المزاج على نحوٍ ملفت للنظر هذا الصباح وسُرَّ عندما رآني جاهزاً للذهاب. قدمت له القهوة، ولكنه رفض قائلاً ان لا وقت لدينا لنضيعه وسنتناول القهوة على الطريق أو في اريحا.

لم أكن متأكداً ان ما سمعته حقيقة.

وتبادر إلى ذهني انه يتكلم عن مقهى في عمان يدعى باسم المقر الشتوي للملك في اريحا.

ـ خذ، وناولني جواز سفر بريطانيا.

ـ لم هذا؟

ـ لك، لا يمكنك استعمال الجواز الكندي فهو صادر عن اسرائيل.

ـ إلى أين نحن ذاهبان حتى احتاج لجواز سفر؟

ـ أخبرتك، . سنذهب لنتناول القهوة في اريحا.

ـ تجمد الدم في عروقي، إذا كان هذا الرجل يعني ما يقوله. فنحن ذاهبان إلى الضفة الغربية. ولا يوجد مكان على الأرض أكثر خطورة على حياتي من الضفة الغربية. كان عليّ أن أدخل وأخرج من اسرائيل بجواز سفر بريطاني مزوّر يرافقني ضابط مخابرات أردني. كان هذا يفوق كل التصورات.

ـ «لا مجال يا صديقي، لا يمكنك أخذي إلى الضفة الغربية. أنا ميت لا محالة هناك، أخبرتك أن الموساد طلب مني الذهاب إلى جنوب لبنان ليتخلصوا مني، لتصفيتي هناك. الآن تريدني ان اعبر وأدخل مجدداً إلى اسرائيل حتى يتاح

لك القيام بلعبتك الصغيرة؟ أنت مجنون».

ـ أنا لا أصدق كلمة مما تقول. أنا أعتقد انك مرسل من قبل الموساد لتضللنا وتسبب الفوضى في صفوفنا وترسلنا في سباق على طريقة الأوز البحري وراء خونة ليسوا موجودين إذا كنت فعلاً من تدّعيه، فلا خوف عليك فالجواز جيد، ولن تعترضك أية مشاكل عند عبورك الحدود. أنا من يجدر به الخوف، فإذا كنت تعمل للموساد فأنا الذي ربما لن يعود.

ـ ماذا لو كنت أنت نفسك خائناً وتأخذني لتفرّ عائداً إلى اسرائيل؟

ـ قال شيئاً بالعربية ودخل جنديان إلى الغرفة.

ـ سنذهب، لديك خيار: تأتي معي أو تموت.

ـ أنا قادم، ولكن هذا ضرب من العبث. ماذا ستربح بحق الجحيم؟ أعني إذا كنت أعمل مع الموساد، فكل ما يجدر بي فعله هو القيام معك بالرحلة وإثر عودتنا سيكون لي شهادة صحية نظيفة. لم ينبس بكلمة ولكنه خرج من الغرفة.

«مهمة اختبارية»: الذهاب إلى اريحا عبر جسر اللنبي:

انتظر الجنديان حتى اتبعهما ثم اغلقا الباب ورائي.. استقلينا سيارة أجرة، خارج الفندق واقتدنا إلى محطة باصات في طرف المدينة. كانت المدينة لا تزال تغالب نعاسها باستثناء باعة الخضر الذين يحضرون تشكيلاتهم الملونة للعرض. لم يكن هناك مارة في الطرقات بعد. كان الهواء يحمل رائحة الخبز من الأفران التي من الواضح انها في هذه الساعة تعمل بأكبر طاقة لتصنع أفضل خبز يمكن إيجاده على الاطلاق.

كان الباص يغص بالركاب وكنت الأجنبي الوحيد داخله. كنت لا أستطيع تصور ما يحدث، كان هذا أسوأ كابوس ينتابني. كنت أرجو ان استيقظ لأجد نفسي في الفندق في عمان، أو أفضل في واشنطن، عندها سأتصل بافرايم وأخبره بالغاء الأمر نهائياً، فأنا لست مستعداً ان أمضي بقية حياتي في احدى الزنزانات الزاخرة بالجرذان في أحد اصقاع النقب، محفوظاً على قيد الحياة كزومبي.

كنت أعرف ان هذا هو المصير الذي ينتظرني إذا لم تسر الأمور كما يجب

وحاولت تذكر اسمي المذكور في الجواز داخل جيب قميصي. ولم استطع. كان علي ان أخرجه وأرى مجدداً: ستيفن أمنز. كيف بحق الجحيم سأتذكر اسماً كهذا؟

حاولت ترديده لنفسي مراراً وتكراراً. كان علي استعمال عنوان، تذكرته من أحد الغطاءات السابقة. كان هذا مطمئناً بعض الشيء، وساهم في رفع معنوياتي. لكن من جهة أخرى ظهر احتمال آخر معقول ربما يريد فضلال دفعي خارج الحدود قبل ان أريهم كيف يطهرون صفوفهم، لأنه أحد عملاء الموساد. لا، لم تكن الأمور تبدو مطمئنة.

أعلن السائق وصولنا إلى جسر «الملك حسين» وتوقف الباص.

كنت أعرفه باسم جسر «اللنبي»، وكنت قد خدمت فترة في الماضي على هذا الجسر من الجهة المقابلة عندما كنت ضابطاً في الشرطة العسكرية. وتسببت هذه الفكرة بإغراقي في موجة باردة. ماذا لو تعرف إلي أحد الجنود الاحتياط على الجسر؟

ماذا لو تعرَّف إليَّ الرجل في محطة «الشبك» على الجسر؟

ماذا لو أن أحد الموساد كان متواجداً هنا للقاء عميل وصادفني؟

هدىء من روعك، قلت لنفسي، واستمر في قصة الغطاء قبل فوات الأوان.

الشيء الوحيد الذي يجب عليك تجنبه أمام شرطي الحدود أو الجندي الذي يدقق في أوراقك هو الفأفأة، أو الارتباك والتلعثم.

وكانت القصة التي يجب علي روايتها كالتالي:

كنت أقوم برحلة لمدة يوم لملاقاة أحد التجار وكنت أحمل بطاقته في جيبي، الذي يبيع صناعات حرفية دينية، وكان هذا مجال عملي. وكنت مرسلاً إليه من قبل أخيه في عمان.

لم أكن المنزعج الوحيد في الباص، لأول مرة في حياتي، نظرت إلى الناس من حولي، فقد كانوا حتى دقائق قليلة يتكلمون في جو مفعم بالبهجة والفرح، لم أكن قد تنبهت إليهم إذ كنت مأخوذاً بمشاكلي الخاصة. بدا الصمت

الذي خيّم على كل الباص فجأة خانقاً. كنت أكاد أشعر بخفقات قلب الركاب. وكنا نقترب من مكان يبدو على نحو ما مظلماً ومرعباً.

حتى هذا الحين، كان دخول اسرائيل أمراً مرتبطاً عندي بالأمن والقوة، إنما لم يكن أبداً مرتبطاً بالخوف. إنما الآن فأنا محاط بهذا الشعور، بلا شك.

كان الخوف ظاهراً في العيون الشاخصة.

كنت دائماً أفر من هذه النظرة بالكره، لأنني لم أكن لأفكر ان هناك سبباً للخوف مني. عندما كنت جندياً لم أكن أريد أن أؤذي أحداً، كل ما أردته كان تأدية وظيفتي، فقط من كان لديه نوايا مريضة كان يملك الحق ان يخاف مني.

اقترب شرطي اردني من الباص وقام بمراقبة قصيرة. ثم أشار للباص ان يتجه إلى الجسر الضيق الذي يمتد على طول خمسين متراً.

قطعنا المسافة ببطء تحت أعين رجال الشرطة العسكرية الإسرائيليين في الجهة المقابلة، كنت استطيع سماع الأوامر تصرخ عالياً: «مشولام، أنت تحقق من الباص بينما نحن نفتش هذا الأخير».

ما سمعته لم يكن لصالحي، توقف الباص وأمر الجميع بالخروج كان أفراد الشرطة العسكرية من جنود الاحتياط الذين يخدمون مدة ثلاثين أو ستين يوماً. ولم يكن يتطلع أحدهم لكسب أية ميدالية، كان كل همه محصوراً بتمضية يوم آخر ليصبح أقرب للعودة إلى منزله.

وكنت قد خبرت هذا الشعور أنا أيضاً عندما كنت في هذا الموقع.

كان مهذباً ولائقاً معي ومع الركاب الآخرين، وكان أحد الجنود النظاميين يستفزه.

ـ لماذا لا تحمل لهم حقائبهم وأنت فيها؟

ـ لماذا لا تخرس؟ رد الجندي المسن. ليس هناك سبب لتعامل الناس كما تعاملك أمك.

ـ لا تتكلم هكذا عن أمي يا ابن العاهرة.

تقدم ضابط سرجنت وصاح بهما «اخرسا، أنتما الاثنين وعودا إلى العمل لقد بدأ النهار لتوه لقد بدأتما الشجار».

عندما أظهرت جواز سفري، أشار السرجنت إلى كوخ صغير عند نهاية السقيفة الممدة لتوفر الظل لطاولات الجمارك.

ـ إلى هناك من فضلك.

علمت انه كان يرسلني إلى قسم السياح الأجانب، وعندما بدأت أسير ناداني: «أنت أيها الانكليزي».

ـ ماذا هناك؟ (ما الأمر) والتفت نحوه مبتسماً للتعبير الذي استخدمه.

ـ أنت لا تحمل أمتعة.

ـ لا أنا ذاهب فقط إلى اريحا لبضع ساعات.

ـ ماذا لو أغلق الجسر قبل عودتك؟

ـ عندها سيكون عندي مشكلة أليس كذلك، لماذا؟ هل سيقفل الجسر اليوم؟

ـ لا أحد يعلم.

استدرت ومشيت نحو السقيفة، كان فضلال قد خضع للتفتيش الجسدي عندما دخلت البناء الصغير.

سألني الشرطي الشاحب بضعة أسئلة، كنت متحضراً لها تماماً. وكنت ممتناً له لاستعماله اسمي طوال الوقت مما ذكرني به. طلبت منه عدم وضع الختم الإسرائيلي على جواز سفري فختمه على ورقة منفصلة دسها بعد ذلك بين صفحات الجواز. كان من المتعارف عليه، للذين يعبرون الجسر ويودون العودة بنفس الطريقة عدم وضع الختم الإسرائيلي على جوازاتهم حتى لا يحصل إشكال فيما بعد. ولو لم أطلب ذلك لبدا غريباً. «رحلة موفقة إلى اسرائيل»: قال الشرطي.

ـ «أنا لم أعرف ان الضفة الغربية تعتبر اسرائيل». سمعت نفسي أقول.

ـ «أنا جندي اسرائيلي وأنت تقطع الجسر الذي أقوم بحمايته. فأين تظن نفسك بحق الجحيم؟ قال وهو يضحك بازدراء.

ـ «عندما كنا هنا لم تكن هذه البلاد تعتبر انكلترا».

ـ «أرأيت»؟ قال هذا وبادرني بابتسامة لا تخلو من الشفقة ثم أضاف:

- «لو اعتبرت كذلك لكنت بقيت هنا، أليس كذلك»؟

عبرت إلى الجانب الآخر حيث سيارات الأجرة تنتظر. وامتلأ التاكسي، وتوجهنا إلى اريحا، كان فضلال آخر الركاب الذين دخلوا. وكنا منذ خرجنا من الباص، قبل ثلاث ساعات تقريباً، لم نتبادل أية كلمة.

كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف الآن، وكنا على أبواب أريحا، كان الجو في السيارة حاراً ورتل السيارات يتحرك ببطء، وكنا نسير وراء قافلة عسكرية محملة بالدبابات على شاحنات وكانت مغطاة، ولكن من الصعب عدم تبيان دبابات المركافا من غيرها. ومن المحتمل انها كانت عائدة من مناورات تدريب في الشمال.

بدأ فضلال يكلمني حول أمور عادية وتوالت الأحاديث وافقنا على تناول طعام الغداء في مطعم اختاره هو. ثم قال انه سيأخذني إلى المتجر الذي أريد. كانت المحادثة لتضليل أي ناقل معلومات موجود في السيارة وإشباع فضول الأشخاص الذين تربطهم الصلات بالسلطات التي كانت عدائية تجاهي ولم استطع تفسير الأمر. كان ألم معدتي يلازمني، وعلمت أنه الخوف. قادني فضلال إلى مطعم يغص بالجنود الإسرائيليين. كانت القافلة قد توقفت للاستراحة وجلس معظم الجنود حول شرفة رخامية واسعة تظللها عريشة تمتد على سقيفة، معدنية مشبكة.

- ماذا ستطلب؟ سألني فضلال عندما اقترب منا النادل.
- سأجرب أي شيء تأخذه أنت.

لم يجادل فضلال وطلب الأكل باللغة العربية.

- ماذا سنفعل الآن يا صديقي؟ سألته إذ شعرت ان الوقت قد حان لأنتزع منه بعض المعلومات.

تصفية مخبر يعمل للموساد خلال «امتحان الثقة» في رام الله

فهو لم يكن عميلاً في الموساد، وإلا لكان سلمني دون أدنى شك.

كان هادئاً وكأنه ما زال في مدينة عمان وليس في الأراضي المحتلة، محاطاً بالجنود الإسرائيليين المدججين بالسلاح وجالساً وجهاً لوجه مع رجل لا يثق به.

ـ سنأكل ، ثم اصطحبك إلى المتجر الذي تود زيارته، ثم نتجول في القدس. ونعود بعدها إلى البيت.

ـ وماذا تكون قد انجزت من خلال ذلك؟

ـ وجبة جيدة شهية ورحلة جميلة وصديق جديد.

ـ ما الذي يجعلك واثقاً الآن كما أدعي فعلاً؟ هذا لو استطعنا أن نعود.

ـ أنا رئيس قسم في الاستخبارات السرية الأردنية ومن الصعب اصطيادي. قال هذا دون ان يخفض صوته، وقلقت إذ ربما سمعنا أحد الجنود الإسرائيليين.

كانت رائحة الطعام عندما قدم شهية ولكنني بالكاد أكلت. إذ كان تفكيري منشغلاً بتلك الزنزانة الصغيرة التي رأيتها في عدة مناسبات، حيث رائحة البول والممتزجة برائحة المطهر تسيطر على عقلي وكانت هذه الرائحة تعود إلي دائماً عندما أشعر بخطر فقداني حريتي، وهذا ما كان يحصل كثيراً في الفترة الأخيرة.

كان هناك هاتف على طاولة صندوق المحاسبة في المطعم. شعرت برغبة ملحة للكلام مع البيت، وكان هذا الدافع يتخطى انضباطي. ثم فكرت ان اتصل بافرايم، ماذا لو كان فضلال محقاً فيما يتعلق بحصوله على مكافأة.

طردت هذه الفكرة من رأسي، إذ ان الموساد بوضعهم الحالي يشكلون خطورة على دولة اسرائيل أكثر من الخطورة التي يمكن ان يشكلها الأردنيون على هذه الأخيرة.

توجهنا بعد ذلك إلى متجر المجوهرات، المفترض ان أزوره لتدعيم غطائي وبدأت أشعر بالارتياح فلم يكن هناك أي سبب يجعلني أتوجس. فهواجسي ستعود بلا شك عندما نعبر الجسر مجدداً. لم استطع التوقف عن التفكير بما سيحدث في حال افتضح أمرنا.

كان هناك مخطط جاهز في رأسي. كنت سأتوجه إلى جنوب مدينة إيلات ومن هناك أعبر إلى الجانب الأردني، كانت هذه الطريقة الوحيدة للخروج في حال وقع أي مكروه.

تكلمنا مع التاجر الذي صدّقني واعتقد انني فعلاً من ازعمه خاصة واني

مرسل من قبل أخيه. عرض علي عدة نماذج، اعتقد انها ستهمني ثم أعطاني بعض الصور لنماذج أخرى وأبديت بعض الاهتمام تجاهها، كما قدم لي شكلة صغيرة من الذهب كهدية وكعربون لصفقات جيدة مرتقبة.

ولم يدعنا نذهب قبل ان نشرب شاياً ساخناً محلى وأكلنا بعض الحلوى المنزلية الصنع. عندما غادرنا المتجر، قادني فضلال إلى كاراج صغير، لا يبعد كثيراً عن الطريق، كل شيء في اريحا لا يبعد كثيراً عن الطريق. كان هناك شاب بانتظارنا قرب سيارة بيجو ٤٠٤ بيضاء تحمل أرقاماً تابعة لرام الله وقال فضلال:

ـ «سينقلنا صديقي هذا».

ما هي إلا دقائق حتى أصبحنا خارج اريحا، على الطريق التي تتجه إلى رام الله. كنت قد مررت على هذه الطريق مرات لا تحصى ولا تعد، عندما كنت في الخدمة العسكرية في بقاع الأردن قبل عدة أعوام. كانت الطريق قد تغيرت وتحسن حالها غير ان المناظر بقيت على حالها.

مشت السيارة حوالي عشرين دقيقة، كان فضلال خلالها يشرح لي كيف يعتبر ان هذه المناطق من الأردن وانه في الحقيقة لا يشعر انه في بلد غريب.

ـ هنا العديد من الأصدقاء ما زالوا مخلصين للملك، كما كانوا قبل العام ٦٧. في الواقع هم اليوم مخلصون أكثر منذ ان باتت حياتهم في خطر من أجل جلالته وقد فعلوا هذا وما زالوا يفعلون.

قال فضلال وربت على كتف السائق مشيراً إلى منعطف على الطريق وقال له شيئاً بالعربية. ثم استدار نحوي وقال:

ـ سنتوقف هنا لنأخذ فنجاناً من القهوة ثم نعود. لقد رأيت وتأكدت ما فيه الكفاية، كنت استطعت ان تبيعني أكثر من عشر مرات ولم تفعل، أنا أثق بك. أريد ان التقي أحد أفراد عائلتي هنا وأعطيه بعض المال. فأنا أقوم بهذه الرحلة مرة كل شهر.

كان الرجل الآن فخوراً بمهارته وشجاعته، داخلاً أراضي العدو وبهذه البساطة.

شعرت بانزعاج، كان علي فقط أن أعود إلى عمان سالماً لأضمن النجاح

لمهمتي. فأنا تمكنت من الوصول إلى أعلى مراتب في المخابرات الأردنية التي لم يصلها أي اسرائيلي آخر من قبل.

توقفت السيارة أمام مبنى صغير في قرية دير جرير. كان الأطفال يلعبون في الحقول المغبرة عند نهاية صف قصيري من المنازل مواجهة لما يبدو أشبه بمسجد مهجور. جلس عدة مسنين عبر «الشارع» في ظل سقيفة خضراء عند مدخل بناء تابع على الأغلب لدكان محلي. لم يتأثر الجالسون بالزوار واستمروا يرشفون القهوة من فناجينهم الصغيرة.

بدا لي وكأني أسير في حلم. كان هناك طابع سوريالي يلف كل شيء.

طرق فضلال على الباب المعدني وفتح الباب في الحال واستقبلنا صاحبه الذي كان يرتدي جلابية بيضاء بابتسامة عريضة تصل حتى أذنيه. بعد سلسلة مطولة من التحيات اقتدنا إلى غرفة جلوس فسيحة. كان الأثاث يحمل الكثير من البهرجة والزخرفة. بحيث كان يمكن ان تكون الغرفة صالة عرض لمفروشات إيطالية.

ما هي إلا دقائق حتى احضرت زوجة صاحب البيت القهوة والحلوى، ووضعت الصواني على طاولات صغيرة من الخشب الداكن. ثم غادرت الغرفة وهي تبتسم لنا.

لم يكن فضلال من الذين يضيعون وقتهم. فما ان اختفت المرأة عن الأنظار حتى تناول رزمة كبيرة من الدولارات الاميركية من جيبه واعطاها لصاحب البيت. وقال له شيئاً باللغة العربية، وأشار إلي ودعاني للشرب قائلاً:

«سنغادر بعد دقيقة، لذا اشرب قهوتك وكل قطعة من الحلوى. سنعود إلى اريحا ونمضي بقية اليوم هناك ثم نعود إلى عمان في المساء، بعد تبديل الحرس على الجسر».

هززت رأسي وبدأت ارشف القهوة الساخنة، فجأة سمعنا دوي تحطيم كبير من جهة الباب الرئيسي الأمامي. وجحظت عينا فضلال وخرجت من محادقها وكان وجه المضيف صاحب المنزل مرتاحاً. حتما هناك خطأ ما. وما هي إلا ثوان حتى دخل الغرفة عدة جنود اسرائيليين يصوبون أسلحتهم إلينا ويصرخون بالعبرية لآخرين في الخارج.

«قبضنا عليهم صرخ الضابط» احضر الآخرين من المنزل هيا هيا هيا.

وكان الجنود في كل مكان، وسمعنا صراخ النساء وصوت تحطيم الصحون وبسرعة كان أحد الجنود يوثق أيدينا وراء ظهرنا بقيد من البلاستيك.

ـ ماذا يجري هنا بحق الجحيم «صرخت بالانكليزية» أنا اعترض، أنا مواطن بريطاني واطالب ان أعرف ماذا يجري؟

ـ اهدأ ستعرف قال الضابط مصوباً سلاحه الأوتوماتيكي إلي. احضره إلى الداخل قال لأحدهم خلفه في البهو. وكان أحد الرجال المسنين الذين كانوا يجلسون في الشارع وقد أحضر إلى الغرفة. وقف هناك لثانية، متردداً. فصاح به الضابط بالعربية. عندها أشار الرجل المسن إلى فضلال وقال شيئاً.

وقع ما كنت أخشاه لا يمكن ان يكون هناك أسوأ مما يحدث.

كان أملي الوحيد هو ان أتعلق بقصتي وأخدعهم كمواطن بريطاني وانجو. كان الجنود يتكلمون بالعبرية فيما بينهم ويقولون.

ـ إنه ضابط أردني، والآخرون هم على الأغلب رجاله. سنقبض على المزيد منهم في رام الله.

أدركت انه يتوجب علي القيام بشيء، فكرت بالقفز من النافذة وأجازف بأن يطلق علي النار وهذا أفضل مما سينتظرني في غرف التحقيق التابعة «للشبك» في رام الله.

ـ خذه إلى الأسفل. قال الضابط مشيراً إلى فضلال و «هذا أيضاً» وأشار إلى صاحب البيت.

وتركوني مع السائق على الأرض، يحرسنا جنديان، وما ان اختفوا عن الأنظار حتى بدأ السائق يصرخ بالجنود بالعربية. وقال الأول للثاني بالعبرية:

يقول انه مخبر. ويريدنا ان ننادي الرئيس.

وتقدم الجندي الذي يتكلم العربية وامسكه بياقته واضعاً فوهة البندقية في مؤخرة رأسه ودفعه نحو الباب. فجأة سقط السائق على الأرض وتزامن هذا مع تفريغ البندقية.

كان الصوت يصم الآذان وغطت الدماء الجدران المحيطة. واختفى نصف رأس السائق الذي تركته والجندي يتكوّم على الأرض مثل كيس بطاطا. وبدأ الجندي الآخر يصرخ برفيقه:

ـ «أنت مجنون انظر ماذا فعلت أنت مجنون»؟

ـ كان حادثاً رد الجندي الأول صارخاً «حادث أحمق».

وتقدم نحوي وجذبني بياقتي وصرخ بي بالعبرية:

ـ «حادث أليس كذلك؟ حادث».

لم أستطع التفوه بكلمة هززت فقط رأسي.

صرخ الآخر بالعبرية «اقتله، يجب ان تقتله فهو شاهد. فهو سيشهد ويخبر: اقتله أيها الأحمق، وإلا فسأفعل أنا».

فلقم بندقيته واقترب مني. كنت استطيع سماع خطوات راكضة على السلم وفجأة ظهر الضابط على الباب ولكنه توقف وتسمر.

رأيت أصبع الجندي يشد على الزناد، تمنيت ان يسرع وشعرت بالهدوء.

فأنا لا استطيع ان أعمل شيئاً، قلت لنفسي: «بيللا أنا أحبك. آسف على كل شيَء».

ضغط الجندي على الزناد وسمعت ضربة الصاعق في الهواء على الغرفة الفارغة وطبق صمت عميق كانت عيناي موثوقة جيداً وكنت أتوقع الطلقة الأخيرة.

ثم سمعت قهقهة فضلال. وتوضح كل شيء في ذلك الوقت في برهة قصيرة لقد كان هذا اختباراً. ولكنه كيف توصل إلى الجنود الإسرائيليين لينجزوا هذه المسرحية؟

تقدم فضلال نحوي وساعدني على النهوض. ثم نزع بلطف الأصفاد من يدي وقادني خارج المكان إلى السيارة. كان هناك سائق جديد وراء المقود، وانطلقت السيارة.

وشرح لي فضلال، موضحاً كل شيء خلال الطريق.

كان الجنود من الفلسطينيين من وحدة خاصة من المخابرات الأردنية. وكانوا يعملون في الضفة الغربية منذ حوالي العام ١٩٦٨. كانوا يملكون عدة مستودعات موزعة في عدة أمكنة مع بزّات اسرائيلية وأسلحة وكانت هذه الوحدة المساعدة في كل أنواع المهمات الاستكشافية. وهم يعملون في كل البلاد ويجيدون العبرية.

في البداية كانوا يشكلون مصدر قوة احتياطي لحالة الحرب، مثل الالمان وراء الخطوط الاميركية في الحرب العالمية الثانية، لكن عندما باشر الأردنيون العمل في الأراضي المحتلة، اتخذ القرار باستخدامهم وهم يقومون بالتدريبات ويحضرون الكثير من المعلومات التكتيكية التي تتعلق بالجبهة الأمامية.

كان السائق أحد الخونة، وكان مشكوكاً بأمره منذ وقت. وكان فضلال قد قرر استخدام عملية تصفية لاختباري. عندها زالت شكوكه فأنا لا أعمل مع الموساد.

عبرنا عائدين إلى الأردن وكان العبور باتجاه الأردن مصدر قلق وتوتر بقدر العبور باتجاه الضفة الغربية. كان الحراس قد تبدلوا ولكنهم مثل أترابهم السابقين وخلت التحقيق لن ينتهي وأخيراً عندما أصبحنا في الجهة الأخرى، استقلينا سيارة أجرة لمحلة تدعى تل نمرين حيث كانت تنتظرنا ليموزين زرقاء مكيفة عند حافة الطريق. نمت بقية الطريق إلى عمان. أيقظني فضلال عندما وصلنا إلى الفندق. وطلب مني ان أبدل ملابسي وأنزل إلى المطعم الرئيسي حيث سنتناول كلنا طعام العشاء. كانوا كلهم هناك: زهير ألبرت وفضلال والرجل المسن مع مساعده الشاب.

كان رأسي يؤلمني وصوت الطلقات في بيت الضفة الغربية التي محت نهائياً التعبير من وجه السائق لا تزال حية في مخيلتي، لم أكن تحت تأثير الصدمة، فالتدريبات التي لا تنتهي مع الموساد قد تكفلت بذلك. إنما بقي هناك شيء لم استطع تجاهله، خاصة تلك الوحدة الأردنية التي شاهدتها تشبه الجنود الإسرائيليين بكل شيء. فجأة ولد عندي احترام جديد تجاه هؤلاء الناس الجالسين حول الطاولة.

وتلاشى هذا الشعور الاستعلائي الذي تخلل مواقفي حتى هذا الصباح.

كنت أجالس مجموعة من الناس غاية في الجدارة والخطورة.

لم يأت أحد على ذكر رحلتي الصغيرة في ذلك اليوم إلا عبر تلميحات من وقت لآخر من خلال ابتسامة أو طرفة عين. بعد العشاء غادر الجميع باستثناء ألبرت، الذي توجه معي نحو البار في الطابق الرئيسي في الفندق. جلسنا في مقاعد واسعة وثيرة أمام طاولات نحاسية. طلبت بيرة وفنجان آخر لألبرت، فهو لا يشرب الكحول في المجالس العامة.

ـ سمعت أخبارك اليوم، قال بعد ان قدمت البيرة والقهوة.

ـ ليست رحلة أود تكرارها. قلت وأنا أشعل سيجارة.

عندها مال وهز رأسه باتجاه الجانب الآخر من البار. حيث جلس عدة أشخاص حول طاولة صغيرة، غارقون في محادثة حامية.

ـ هل تعرف من هو ذاك الرجل الجالس هناك؟

ـ لا أستطيع أن أقول، بينما، ذلك الكبير مع الشارب الكبير يبدو مألوفاً لدي من هو؟

ـ حبش، جورج حبش، هل تريدني ان أعرفك إليه؟

ردة فعلي الأولى كانت لاستغل الفرصة ولكني تجاهلت غرائزي، قلت:

ـ «لا شكراً، أفضل ان نغادر الآن مباشرة».

ـ لماذا؟

ـ إذا كان حبش هنا، فهناك احتمال أكيد ان يكون مراقباً من قبل الموساد، فأنا رأيت الكثير من الصور لزعماء منظمة التحرير الفلسطينية وفلسطينيين آخرين، مأخوذة في كل مكان. مأخوذة في عمان.

وقبل ان انتظر رده، نهضت وتوجهت نحو البار، تبعني عند المصعد واتفقنا ان نلتقي مجدداً في صبيحة اليوم التالي.

ـ سآمر عليك، في الثامنة؟

ـ لا سأتصل بك، فأنا أجد صعوبة في النوم هنا، واحتاج للراحة، سأتصل بك عندما استيقظ.

هز رأسه وعاد إلى البار. دخلت إلى غرفتي واتصلت بالفندق في

واشنطن، كانوا قد أوصلوا الرسالة إلى بيللا على الأقل هذا ما قالوه. خلعت ملابسي ودخلت الحمام. ووقفت تحت المياه الساخنة الدافئة لوقت طويل كنت تعباً وصورة الجندي وهو يطلق النار على الرجل في مؤخرة رأسه، لا تفارق مخيلتي.

أردت البكاء والصراخ ولكني لم استطع أختنق الصوت في حنجرتي ووقفت هناك أفكر بكل شيء وبلا شيء في آن معاً كل ما أردته هو ان تصبح هذه المهمة في عداد الذكريات خلال اليومين التاليين.

وضعنا سوية جهاز أمن مشابه للذي يستخدمه الموساد، لتجنب العملاء السريين وكان الأردنيون سيباشرون باستخدام كاشف الكذب وفق القواعد المنتظمة.

وأيضاً من خلال كشوفات عشوائية في الوحدات العسكرية معظمها في رتب القيادة المنخفضة. ثم سيباشرون تحقيقاً متماسكاً لكل المستخدمين في جهاز العمل الذين خدموا في السفارات الأردنية حول العالم، خاصة في أوروبا، إذ ان كل العملاء المجندين، من قبل الموساد هم تقريباً من الذين يعملون في السفارات والطلاب الذين يدرسون في الخارج ومعظمهم عسكريون.

لم تكن الموساد تملك الوقت الكافي لتطوير الكفاءات في سبيل وصول الناس لمراكز تخولهم تأمين المعلومات، ولكنها كانت تريد أشخاصاً جاهزين في هذه المواقع. وكانت الأهداف سهلة التحديد.

لم يكن لدي شك، انه عندما يبدأون بتنفيذ النظام، يمكنهم تقريباً بشكل مباشر تحديد كل العملاء العاملين لدى الموساد. إنما تطبيق مثل هذا النظام يمكن ان يحتاج لعدة أشهر من دون ان يبقى ذلك سراً طوال الوقت، مما يتيح للموساد فرصة واسعة، لإبعاد كل عملائها إلى الخارج من أجل سلامتهم ولن يقوم الأردنيون باعلام رسمي إنه تم الكشف على عملاء في هذه الأثناء. سيحاولون شراء ما أمكنهم من العملاء وتزويد الموساد عبرهم بمعلومات مزيفة. أما هؤلاء الذين لم تبعدهم الموساد ولم يتم شراؤهم من قبل الأردنيين فسينتهون إلى حبل المشنقة.

وهكذا لن يدخل أحد من رجال بلادي ضمن هذه المجموعة الأخيرة فالتفكير بعكس ذلك كان يسبب لي الكثير من الانزعاج. لا استطيع ان أنكر العواقب الوخيمة التي ستلحق بالشرفاء من جراء ضربي لجهاز القيادة الفاسد في الموساد، ولكن كنت آمل أن اساعد عدداً أكبر من هؤلاء الناس عن طريق عملي هذا.

العودة إلى الولايات المتحدة وقلق عميق قبل قدوم بيللا

كنت متأكداً تماماً، وكذلك افرايم، ان الأردنيين سيشاركون أغلب زملائهم في سوريا والعراق بالمعلومات الجديدة التي سيكتشفونها وبالتالي سيبدأ هؤلاء بالقيام بتطهير منازلهم وأراضيهم.

كان أمام السوريين الكثير من العمل، أما العراقيون فسيطاردون الرياح لأنه بالكاد للموساد عملاء هناك، فمنذ ان اعتبر العراق هدفاً مخابراتياً صعباً وشاقاً، لم يكن يظهر إلا في أسفل لائحة أولوليات الموساد.

أمضيت آخر يومين في عمان مستغرقاً في وضع مخطط لتجنيد اسرائيليين يمكنهم تزويد الأردنيين بأكبر قد ممكن من المعلومات التقنية والاستراتيجية.

كان الأردنيون يريدون معرفة مواقع كل القواعد العسكرية، وكل ما يجري داخلها. كانوا يريدون كشف كل ما يستطيعون حول مراحل النداء إلى التعبئة الاحتياطية في حالات الطوارىء وكيفية انتشار القوات الخاصة في عملية الاستكشاف عندما يقوم الأردنيون بعبور الحدود الإسرائيلية، خاصة في ما يتعلق بتمركز TRS، أي محطة الوصل المرحلي.

وكان من المقرر، ان أعود إلى الولايات المتحدة ثم استقر في كندا، كما جاء في خطتي الأصلية ويدير ألبرت جزءه من العملية في المكسيك وسنستخدم في عملياتنا عدة جنود من الوحدة الخاصة التابعة لفضلال. واطلقت عليها اسم عملية يشوع لأننا سنرسل جواسيس للعمل ينطلقون من الموقع ذاته ويتبعون الرحلة ذاتها التي قام بها يشوع. ولم يكن لدي شك ان النتيجة ستكون ذاتها. فالجواسيس سيعودون ليخبرونا عن البلد الذي يطعم ساكنيه، يبدو ان الأمور لم تتغير.

في ليلتي الأخيرة هناك، سمعت من الإذاعة الإسرائيلية ان رئيسة وزراء بريطانيا مرغريت تاتشر تقوم بزيارة لإسرائيل وان رونالد ريغان قد استعمل حق النقض لابطال صفقة بيع أسلحة مع السعودية، كانت مؤلفة في الغالب من مقاتلات نفاثة.

منذ ذلك الوقت، عرفت ان ما يسعى إليه افرايم وُضِعَ موضع التنفيذ. كنا ننظف الأردن ونحصنه ضد مخاطر الموساد. حتى لو لم نكن قادرين على المدى الطويل من تبديل الأمور في الموساد ذاته، إلا اننا كنا نتقدم بخطوة كبيرة باتجاه إزالة مخالبه.

الفصل الواحد والعشرون

ـ المعتقلون الفلسطينيون كانوا حقل تجارب لسلاح ذري، جرثومي وكيميائي
ـ عودة إلى ملف «جوناثان بولارد»

لم يتخلل رحلة العودة إلى الولايات المتحدة أي عثرات.

وصلنا إلى مطار كينيدي في نيويورك بعد السابعة مساء بقليل. وكان أول عمل قمت به هو الاتصال ببيللا من الهاتف الموجود في صالون الشرف في المطار.

حيث كنت انتظر مع زهير، رحلتنا التالية إلى واشنطن.

كانت المحادثة مقتضبة، أخبرتني بعزمها على القدوم إلى الولايات المتحدة في اليوم التالي وانه ما من شيء في العالم يمكن ان يثنيها عن عزمها. كانت ابنتاي شارون وليورا قد بلغتا السادسة عشرة والثانية عشرة تباعا ويمكنهما تدبر أمرهما من دون مشاكل، خصوصاً بعد ان تدخل والد بيللا وأصبح قريباً. ولم أكن لأحاول ان أوقفها فإن فكرة رؤيتها مجدداً كانت أكثر مما أتوقع وأرجو. لم أرد ان أبدو متأثراً كثيراً على الهاتف طبعاً، ليس أمام زهير الذي كان يراقبني. كان علي ان اختصر في الكلام. ذلك ما استطعت قوله انني في نيويورك في طريقي إلى واشنطن وانني سأتصل بها ما ان أعود إلى الفندق، بعد ان أقفلت، كنت أشعر بجيشان الفرح عبر جسدي كله. كنت أريد أن أقفز وأقبل كل من كان موجوداً في الصالة بمن فيهم زهير.

عندما وصلنا إلى واشنطن كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، وكان الجوع قد بلغ بي. كان زهير قد دبر لقائي في اليوم التالي ليحضر لي المال، المتفق عليه، ولكنه صادف يوم الذكرى وكانت جميع المصارف مقفلة لذا اضطررت ان انتظر يوماً آخر. لم يكن الأمر ذا أهمية، كان قد تبقى لي بعض من المال الذي أرسله لي افرايم أخيراً.

وكنت قد اختلقت قصة لزهير في هذا الشأن حتى لا يظن انني اثريت فجأة بعد ان كنت معدماً. أخبرت زهير عن نيتي بتبديل الفندق في صباح اليوم التالي وانني سأتصل به بعد يوم لأخبره أين أكون ليتمكن من إرسال المال لي ثم توادعنا على متن الطائرة، حتى لا نغادر المطار معاً.

بلغت الفندق قبل الساعة الحادية عشرة واشتريت وجبة خفيفة وبعض الكوكتيل كنت جائعاً واستطيع التهام الهامبرغر بغلافها، بعد ان أكلت وأخذت حماماً، اتصلت ببيللا ثانية، أخبرتني انها ستصل إلى واشنطن بعد يوم غد.

أخبرتها انني سأقوم بتبديل الفندق وانني سأمر لإصطحابها من المطار. كانت ستتصل بي في اليوم التالي قبل ذهابها إلى المطار ووافقت على البقاء في الفندق حتى ذلك الحين.

وبدأت أعد الدقائق. بعد ان أقفلت السماعة حاولت النوم وشعرت بالتعب كنت تعباً لدرجة انني نمت مباشرة.

عندما اتصلت بيللا في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي، كنت لا أزال أشاهد التلفاز. كانت ذاهبة إلى المطار وكان «اريك» سيوصلها إلى هناك.

وكانت هذه مفاجأة بالنسبة لي. خصوصاً وان العلاقة بين عملاء الموساد السابقين والعملاء الناشطين العاملين كان ممنوعاً. لم يكن مفترضاً ان تتجاهل من تقابله منهم في الشارع ولكنه كان محظوراً إقامة اتصال أو علاقة مع العميل السابق أو أحد أعضاء عائلته المقربين. كان هناك أمر ما في اصطحاب «آريك» لبيللا إلى المطار. ولم يكن الهاتف الأداة المناسبة للاستفسار عن ذلك.

وخامرني شعور مزعج بأن أحداً قد يحاول لعبة قذرة.

وكان هناك شخص واحد أستطيع اللجوء إليه لأعرف إذا كانت الأمور هي فعلاً كما تبدو عليه، كان«يوري» صديقي من «العال»، وإذا كان هناك أية عملية مخططة للولايات المتحدة وفي أي وقت ستنفذ فهو أول من يعرف بها وكنت متأكداً أنني استطيع انتزاع تحذير منه.

وكانت المشكلة الوحيدة هي في كيفية الاتصال به. فلم يكن لديه رقم أو

عنوان يمكنني ان أبلغه من خلالهما. كان الرجل «كاتسا» خلال العمل. كل ما أعرفه هو أنه في الولايات المتحدة. وكان ثمة شيء آخر كان له صديقة في تشفي تشايز في «ميريلاند» التي لم تكن لتبعد كثيراً عن فندقي. وكان الوصول إليه عبر هذه السيدة يحمل معنى مزدوجاً:

أولاً كانت تعمل في مركز حساس في البنتاغون وكانت يهودية مما يجعل علاقته الشخصية بها ضرباً من المحظورات.

ثانياً: كان لزوجها مكانة رفيعة في أوساط واشنطن.

وجدت العنوان في دليل الهاتف وتوجهت نحو المنزل.

لم يكن هناك مجال لإنهاء الأمر عبر الهاتف كنت أعرف انني لن أصل لأية نتيجة، فالمرأة قد تلقت تعليمات أثناء تدريبها ان لا تجيب أحداً على الهاتف إلا يوري.

تركت سيارة الأجرة تنتظرني عند منزل قريب، ومشيت نحو المسكن الكبير ذي القرميد الذي يشبه القصر.

كان معظم الجيران في منازلهم نظراً لأفراد العائلات العائدة إلى منازلها. والسيارات المركونة في الخارج. قرعت الجرس وانتظرت في المدخل الذي يشبه مدخل الكاتدرائيات.

وفتح الباب الخشبي الكبير، وكان هناك باب زجاجي يفصلني عن سيدة شقراء غاية في الأناقة، تنظر إلي بابتسامة زائفة.

ـ نعم؟ كانت مديدة القامة تبلغ حوالي الخمسة أقدام، نحيلة، عيناها البنيتان واسعتان وبراقتان لا تخلوان من المرح.

ـ كنت أود ان أطلب منك ان تتكرمي وتعطي رسالة ليوري، إذا أمكنك.

ـ اختفت الابتسامة على الفور، وأرادت ان تعرف من أكون وما صلتي بيوري.

بينما نحن نتحدث جاء رجل نحيل وطويل إلى الباب، الأغلب انه زوجها، أخبرته انني صديق ليوري، بدا انه يعرف من يكون وطلب مني الدخول.

لقد كسبت احترامه الفوري لانني صديق يوري فوافقت على الدخول،

معتذراً انه لن يطول بقائي أكثر من برهة لأنني على عجل. كان الإنزعاج بادياً بوضوح على المرأة، لم تكن متأكدة إذا كنت أعلم محور علاقتها الغرامية بيوري وكان واضحاً ان الزوج لم يكن على الموجة ذاتها التي تجري عليها الأمور وبدا من طريقة كلامه انه لا يكترث أن يكون موجوداً.

تركنا في الممر الدائري ليجيب على الهاتف. لمحت جزءاً من غرفة جلوس مفروشة ومزينة بذوق رفيع من فتحة الباب. وكان هناك على منضدة صغيرة بمحاذاة الحائط تحت مرآة مذهبة كبيرة، صورة تظهر الزوجين وقوفاً إلى جانبي الرئيس رونالد ريغان خلال مهمة دولية رسمية على ما يبدو. رفضت الشراب ودعوة فاترة للعشاء، وبدت السيدة سعيدة برفضي هذا، ثم دونت رقم هاتفي على قطعة ورق وناولتها إياها.

ـ سأكون شاكراً ومقدراً لو تتمكني من ايصال هذا ليوري.

لم يكن الزوج في الغرفة عندما أجابت أنها لا تعلم متى ستلتقيه.

ـ استخدمي هاتف الطوارىء، قلت هذا وتوجهت نحو الباب، وأحسست بالارتياح لخروجي من المنزل، فصعوبة الموقف لم تكن باعثاً على المرح والتسلية. كنت أفهم ما تعنيه هذه المرأة ليوري وبعد لقائي زوجها، أدركت كم ان الأمور كانت سهلة على يوري ليظفر بها.

كنت اعلم انها تستطيع الاتصال به لأنها حتماً تملك جهاز اتصال للطوارىء في النهاية كانت «سايان» لم أكن أبداً أنوي استخدام هذه الصلة، ولكني كنت قلقاً وخائفاً من ان يدبر المكتب أمراً يستغل زوجتي والبنات من خلاله. لذا توجب علي القيام بهذه الخطوة.

أول مرة التقيت يوري كنت لا أزال في الشرطة العسكرية في عام ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ اخدم في وادي الأردن في قاعدة يطلق عليها اسم «جفتلك». وثم عدل هذا الاسم ليصبح آريك بعد ان قتل الكولونيل «آريك ريكيف» على أيدي الفلسطينيين أثناء إحدى المطاردات. قتل الكولونيل بمعية ضابط يدعى «غادي مانيلا» كنت قد اصطدمت معه في يومي الأول في الوادي. كان غادي يشبه إلى حد بعيد ما يطلق عليه اليوم اسم HOTDOGGER فهو يقوم بأعماله من خلال قعدة سرواله، وهذه إحدى الميزات الأساسية للمقاتل الإسرائيلي.

أثناء ذلك كان يوري ضابط المخابرات المسؤول عن فريق المضللين في مربض «جفتلك». وكنت أنا قائد الشرطة العسكرية في القاعدة.

في ذلك الوقت كانت مطاردة الفلسطينيين المتسللين عبر الحدود تحصل يومياً. في غالب الأحيان كان المتسللون يقتلون خلال المطاردة أو خلال مناوشات قصيرة في الصحراء الجافة. إلا أنه كان هناك حالات يتم خلالها القبض على بعضهم أحياء. ومع ذلك في غالب الأحيان كان يعلن عن موتهم عبر الإذاعة حتى لا ينتظر أحد عودتهم.

هذا ما كنت أقوم به كضابط في الشرطة العسكرية، كانت مهمتي ان أقود السجناء إلى وحدة اعتقال في «نس زيونا» وهي مدينة صغيرة تقع جنوب تل أبيب. اعتقد دائماً انها مقر استجواب «للشبك». وكنا كلنا نعلم ان السجين الذي يحضر إلى هناك، من المرجح انه لن يخرج حياً. ولكن غسيل الدماغ الذي كنا نخضع له في حياتنا القصيرة قد اقنعنا ان المسألة هي نحن أو هم ولا منطقة وسطى أو رمادية.

كان يوري من أنار عقلي حول وحدة نس زيونا. على حد قوله كان مختبراً للـ «ABC» وهي الحروف الأولى من ذري وجرثومي وكيميائي. وهناك كان علماؤنا يطورون آلات، متنوعة ليوم الحساب.

لأننا كنا ضعفاء ولم يكن لدينا فرصة ثانية كانت حرباً شاملة يستعمل فيها كل شيء ويحتاج لمثل هذا النوع من الأسلحة، لم يكن هناك مجال للخطأ.

كان المتسللون الفلسطينيون يقدمون في هذا المجال مساعدة كبيرة، كانوا حقل تجارب بشري يستطيع تقديم الدليل على ان الأسلحة التي يطورها العلماء تعمل بشكل جيد تمكنهم من معرفة مدى سرعتها لتطوير فعاليتها. ما يروعني اليوم ـ عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء إلى هذا التصريح ـ ليس ما كان يحصل، بل الهدوء والتفهم الذي تقبلت الأمر بهما.

بعد سنوات التقيت يوري مجدداً. وهذ المرة في الموساد كان «كاتسا» قديماً في قسم العال بينما كنا أنا مبتدئاً. كان قد رجع من مهمة في جنوب افريقيا. وكنت أعمل مرحلياً موظف مكتب في قسم «دردازم» اساعده في

التحضير لابحار حمولة سفينة من الأدوية إلى جنوبي افريقيا لمرافقة عدة أطباء اسرائيليين ارسلوا لعمل إنساني في «سوويتو»، وهي مدينة للسود خارج جوهانسبورغ. كان على الأطباء المساعدة في علاج المرضى في عيادة خارجية في مستشفى «باراغوناث» في «سوويتو»، على بعد بضعة منازل من منزل «ويني مانديلا» والأسقف «دزموند توتو» كانت المستشفى والعيادة تلقيان الدعم من مستشفى في بالتيمور تؤمن غطاء للموساد.

وكان يوري في فترة جمود في الولايات المتحدة.

ـ ماذا تفعل الموساد، تقدم مساعدات إنسانية للسود في «سوويتو»؟ تذكرت انني سألته. لم يكن الأمر منطقياً أو بالأحرى لا مكاسب سياسية على المدى القصير. (وهي أهم دوافع عمليات الموساد) أو أي ربح مادي واضح.

ـ هل تذكر «نس زيونا»؟ سؤاله أثار الرعشة في نخاعي الشوكي، هززت رأسي.

ـ انها تشبهه، نختبر اصابات مرضية جديدة وأدوية جديدة لا يمكننا تجربتها على البشر في اسرائيل، وهذه الاختبارات هي لصالح عدد من صانعي الأدوية الإسرائيليين يقدم لهم الدليل ما إذا كانوا على الطريق الصحيح، موفرين صرف الملايين في الأبحاث.

ـ ماذا تفكر حول ذلك؟ سألت.

ـ ليس من مهامي التفكير بالموضوع.

حتى لو لم يقل شيئاً، إلا أنني عرفت انه غير موافق، على الأقل رجوت ان لا يكون. وكان أمر الموساد بابعاده عن الولايات المتحدة في فترة الفتور هذه بعد قضية بولارد، لا تفيد كثيراً تدرجه الوظيفي في العمل إذ كان هو من أحضر «بولارد» إلى الحظيرة في العام ١٩٨٢.

عندما التقاه في المرة الأولى، كان «جوناثان بولارد» اميركيا يهودياً يؤمن من كل قلبه ان هناك رباطاً مقدساً بين الولايات المتحدة الاميركية ودولة اسرائيل.

لم يكن يرى أي تناقض بين ولائه المطلق للولايات المتحدة وولائه

المطلق لدولة اسرائيل. بالنسبة له كان الأمر واحداً. هذه الايديولوجية لم تنم لوحدها، كانت نتيجة مسيرة طويلة من العقدنة التي طالت عدداً من الشباب اليهود بمساعدة كريمة لدولة اسرائيل على شكل «شلشم» أو كما كانوا يعرفون «رسل عالية» وهؤلاء هم أشخاص يعملون داخل المجتمع اليهودي لتركيز محبة اسرائيل في قلوب الشباب اليهودي. وفي حالة «جوناثان بولارد» نجحوا بشكل كبير.

تطوع الشاب عام ١٩٨٢ في لجنة الأعمال العامة الاميركية الإسرائيلية، وهي مجموعة تتعاطف وتشجع اللوبي الإسرائيلي، وهي حلقة وصل في سلسلة المنظمات التي تربط المجتمع اليهودي باسرائيل بشكل عام وبالجناح اليميني الإسرائيلي بشكل خاص. و«بولارد» الذي كان عضواً في لجنة الاستخبارات الاميركية، قد كرس خدماته لصالح دولة اسرائيل. وكعادة الاجراءات، اعطي اسمه لقسم الأمن في السفارة الإسرائيلية في واشنطن ومن هناك قدم للموساد كعضو «سايان» فعّال مهم. وبعد الاختبارات، ومن بينها استخدام علاقة الموساد بحلف المعادي للافتراء قررت الموساد ثبوت جدارته كعضو مناسب خصوصاً كونه صهيونياً متحمساً وذا مركز مهم في لجنة البحوث الاستخباراتية الاميركية، مما يتيح له الوصول لمعلومات حية ضرورية حول الشرق الأوسط وافريقيا، وبما انه يهودي لم يكن وارداً جعله جاسوساً يتقاضى راتباً. في الواقع كان الشخص المثالي لعملية «رايندير» التي تهدف إلى إعادة العلاقات بين مؤسسة المخابرات الاميركية، وتلك التابعة لجنوبي افريقيا، ليس انه لم تكن هناك روابط ولكن هذه العلاقة ستكون تحت مراقبة وإدارة الموساد ويمكنها ان تكون أكثر أمناً وإفادة مالية.

لم يبد بولارد من جانبه أي تردد عندما قام يوري بالاتصال به بناء على توصية من صديق لبولارد في اسرائيل وافادت AIPAC ان الموساد لم تعد تهتم لبولارد، واعطي بولارد التعليمات لعدم الاتصال بالمنظمات اليهودية ثانية. فقد أصبح منذ الآن «سايان» للموساد أو كما قيل له في منظمة الأمن التابعة لإسرائيل.

في هذا الوقت لم يكن بولارد، يتقاضى أجراً عن العمل الذي يقوم به، فقد كان للموساد سياسة واضحة بعدم الدفع للمساعدين من اليهود. وبهذه

الطريقة لن يقال أبداً ان ما يقومون به هو لسبب غير محبتهم واهتمامهم لإسرائيل كان يوري قد أمن مد جنوب افريقيا بصور (التي كانت الموساد قد استلمتها من المخابرات الدانماركية) عن سلاح SSC -3 السوفياتي الذي كان الاميركان يتوقون لمعرفته. دخل كل هذا ضمن نطاق عملية «رايندير» التي من خلالها استطاعت استخبارات جنوبي افريقيا ان تتقرب من الاميركان عبر أحد معارف بولارد منذ أيام الدراسة. (ظاهرياً مع أحد الذين ذهب معه بولارد إلى نفس المدرسة وبقي صديقاً له ثم أصبح هذا الأخير ذا منزلة رفيعة في استخبارات جنوبي افريقيا).

لبعض الوقت استغل يوري، بولارد للحصول على قطع متنوعة من المعلومات، دون ان يتمادى كثيراً في علاقته، إلى حد تعريض الرجل للشبهات في تقريره، حذر يوري على الدوام انه لم يكن واثقاً تمام الثقة من ان بولارد يخبره كل الحقيقة كل الوقت. كما كان يوري يعتقد ان بولارد يقحم نفسه في المشاكل. محاولاً الحصول على معلومات لم يطلب منه تقصيها. وإذا كان هذا صحيحاً، لا يستطيع يوري مساعدته لأنه لن يكون مدركاً للخطر.

في تاريخ ما من عام ١٩٨٤، قرر يوري، بموافقة رؤسائه ان بولارد كان خفيفاً لدرجة يصعب معها التعامل معه، فهو دائماً يحاول القيام بأكثر مما يسأل، متخذاً مجازفات غير لازمة وبشكل عام متحولاً إلى عائق أكثر من مصدر للقوة والنفع. من هنا، وضع على القائمة في حالة تجميد، اعلم بولارد انه كان ذا عون كبير لإسرائيل ومن أجل سلامته الشخصية قررت الاستخبارات الإسرائيلية انه يحتاج لفترة تجميد ويمكن فيما بعد البحث وإعادة النظر إذا كان عمله لا يشكل خطورة عليه، فيتصلون به ويعيدونه إلى العمل. لم يثر هذا الأمر بولارد الذي حسب يوري لم يبد أي احتجاج. والجدير بالذكر انه حتى هذا الوقت لم يتقاض دولاراً أو سنتاً واحداً وكان يعمل لأسباب ايديولوجية بحتة.

لم يمض وقت طويل بعد ان صدر الحكم بتنويم ملف «بولارد» حتى وقع هذا الأخير بأيدي رامي ايتان وبالرغم من انه لم يكن وقتها ضابطاً في الموساد، إلا أنه كما يقال، عن عضو الموساد أنه دائماً عضو في الموساد. وكان يستطيع الوصول إلى ملفاتها بسبب ماضيه في الموساد، لأنه كان مستشاراً عن الإرهاب

لدى رئيس الوزراء وأيضاً لأنه كان رئيس «لاكام». كان مصادفة ملف بولارد بالنسبة له كمن يحك ذهباً ومن دون التقيد بقواعد السر الخاصة بإحيائه، وتدبر لقاء يجمعه بمخططه الجديد «افيان سلاَّح» كان سلاَّح طياراً اسرائيلياً رفيع المستوى، شارك في قصف المفاعل النووي العراقي في «اوزيراك» وكان أهلاً لهذه المهمة.

كان يريد الدراسة في الولايات المتحدة والعمل لمنظمة «لاكام» في الوقت ذاته.

لم يكن عليه تجنيد بولارد بل فقط تنشيطه ودبّر ايتان اللقاء بين الاثنين ليبدو مصادفة شارك بها فريق ثالث، قريب لبورلاد كان قد استمع لخطاب ألقاه «سلاح». واختير سلاح ليكون المحرك لأنه كان خبيراً في تحديد الأهداف ويمكنه التفاهم حول تجارته وعمله مع بولارد الذي بدوره كان خبيراً بتحليلات الاستخبارات. أدى عدم كون سلاح رجلاً مدرباً من قبل الاستخبارات إلى فشل بولارد الذي كان في هذه المرحلة الجديدة يتقاضى أجراً وكان تقريباً يقود نفسه ويديرها.

وتنامى إلى سمع الموساد من مصادر في الاستخبارات المركزية الاميركية كانوا بصدد تضييق الحصار حول بولارد، ولكن الموساد فضَّلت البقاء خارج الصورة،آملة ان تحل القضية بهدوء وراء الأبواب المغلقة مقصية «لاكام» بعيداً عن اللعبة، ولكسب مزيد من الوقت عندما تبدأ الأمور بالتعقيد، ارسل السفير الإسرائيلي في الولايات المتحدة لدورة محاضرات في فرنسا، وكلف دبلوماسي ادنى منه «الياكيم روبنشتاين» أمور السفارة. وقبل كل شيء غادر أعضاء «لاكام» الولايات المتحدة، وترك بولارد ليناضل في سبيل قضيته. فلجأ إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطن.

وفي الدخل، طلب رجال الأمن التعليمات من روبنشتاين، الذي بدوره طلب رفع الأمر إلى ممثل الشبك ليعرف ماذا يقرر، وحوَّل هذا الأخير القضية لممثل الموساد، الذي لم يتحقق من الأمر مع الجهات العليا، وظناً منه ان الأمور لم تتبدل، أخبر الشبك ان بولارد ليس من الموساد وبالتالي لا علاقة له بالأمر. عندها صرّح ممثل الشبك انه ليس لديه مطالبة بشأن بولارد، وبما ان كل أعضاء اللاكام، قد غادروا البلاد ولا يمكن الوصول إليهم،آلت معالجة القضية

لروبنشتاين. وكان قد ذكر ان السفارة محاطة برجال الشرطة الفدرالية. FBI.

لم يكن بوسع روبنشتاين الاتصال بإسرائيل عبر القنوات الآمنة التي تراقبها الموساد، ادعى هؤلاء انها معطلة. فقرر روبنشتاين اتخاذ المبادرة، فأخرج بولارد وزوجته خارج السفارة ليقعوا بقبضة الشرطة الفدرالية المذهولة.

علمت بعد ذلك بكثير من مصادر في الشرطة الفدرالية لها ضلع في قضية بولارد واعتقاله انهم صعقوا عندما أخرج من السفارة، وكانوا قد جهزوا أنفسهم للتفاوض في شبه تسوية مع اسرائيل. وعلم أيضاً ان شريحة كبيرة من المعلومات التي صدرها بولارد لإسرائيل، شقت طريقها إلى الكتلة الشرقية مقابل السماح لليهود بالخروج من تلك البلاد. هذه المعلومة إلى جانب التحقق من أن المعلومات أصبحت بأيدي السوفيات ، كانت وراء مطالبة سكرتير الدفاع الأميركي «كسبار واينبرغر» بانزال أقصى العقوبات ببولارد من دون ان يتمكن من شرح لماذا علنيا.

وأرغم يوري على مغادرة الولايات المتحدة وقتها، إذ قلقت الموساد ان يعمد بولارد لإفشاء علاقته بالموساد، أملاً بتخفيف العقوبة، غير ان بولارد، كأن يعلم أن كشف هذه العلاقة من شأنه ان يفتح عليه باباً جديداً من المصائب، تزيد من سوء موقفه، لذا تكتم حول الموضوع، لذلك لم يشعر قسم العدالة بواجب الايفاء من جانبه في دعوى بولارد التي وعد فيها بتخفيف العقوبة وان يطلق سراح زوجته، التي كانت حوكمت كشريكة له، مقابل فضح كل ما يتعلق بتلك الوقائع.

والآن بعد ان هدأت القضية، عاد يوري إلى الولايات المتحدة، ليدير بنشاط عدداً كبيراً من سايانات أكثر تحملاً للمسؤولية وأكثر تكتماً.

في العاشرة من قبل الظهر، وبعد ان وضبت حقائبي وجهزت نفسي للرحيل، رن جرس الهاتف، وكان يوري غاضباً، كيف أجرؤ على الاتصال بعميلته؟

وقال انني اخفتها حتى الموت إلى حد انها تفكر بالاستقالة، حاولت تهدئته لبرهة وما لبث ان تغيرت لهجته وكأن أحداً حرك عصاً سحرية. وبدا

وكأنه اطلق جام غضبه فسكن وارتاح واجتاحته سكينة.

ـ وإذاً فيكتور، ما الجديد؟

ـ عدا خروجي عن المكتب والعمل لحسابي، باحثاً عن معنى للحياة، لا يوجد شيء كثير.

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ البحث الذي لا ينتهي أبداً. كنت امزح وعرف هذا.

ـ ماذا استطيع ان أفعل من أجلك؟ وما الخلل في ذلك؟

ـ ما من خلل، في الحقيقة، انا احتاج لمعرفة إذا كان ثمة ما يخطط لواشنطن في الأربع وعشرين ساعة القادمة؟

ـ من أية طريقة؟

ـ أنت تعرف ما أعني «أي شيء خارج عن المألوف، حذروك من البقاء بعيداً عنه».

تبع ذلك صمت قصير على الهاتف.

ـ ماذا تريد ان تعرف يا رجل؟

ـ لم ترد على سؤالي؟

ـ لا شيء على حد علمي.

كان يتكلم ببطء وكأنه يفكر:

ـ أين أنت الآن؟

ـ في فندقي، أنت من اتصل ألا تذكر؟

ـ اتصلت ولكن لا أعرف أين يقع هذا «الهوليداي ان». هل يمكن أن نلتقي في مكان ما؟

ـ ما رأيك في بهو «الفورسيزن» في المدينة.

ـ هذا يناسبني، متى؟

ـ ما رأيك في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم؟

ـ أراك هناك.

واقفل الخط. دفعت الفاتورة وغادرت الفندق، استقليت سيارة أجرة إلى «الشيراتون» المطل على المطار، وحجزت غرفة هناك ثم عدت إلى المدينة، في

تمام الثانية، دخلت «الفورسيزن». كان «يوري» ينتظرني وقادني إلى غرفة الطعام إلى أقصاها، كان يوري في أواخر الخمسين، يبلغ طول قامته حوالي الستة أقدام ممتلىء الجسم وكان شعره فضياً برّاقاً وجبهته عريضة، ويرتدي بذلة رمادية ونظارات وكان مظهره أنيقاً جداً.

اقتدنا إلى طاولة غير ان يوري فضّل واحدة تقع في زاوية بعيدة وعندما أصبحنا لوحدنا، طرق صلب الموضوع: ماذا يمكنك أن تخبرني عن افرايم؟

حدقت به لبرهة، «ماذا يمكنك أنت ان تخبرني»؟

- إذا أخبرتك انني من جماعته، هل يعني هذا شيئاً لك؟

- هل أنت من جماعته؟

- نعم، هل أنت الأملاك الضائعة التي يتحدث عنها؟

- ربما أكون، إنما اعتقد انني لست الوحيد، ماذا يمكنك ان تخبرني عن «كوتي»؟

سألت مستشهداً بالجنرال الذي قتل قبل ان يتسلم زعامة قيادة الموساد.

- أنت الملكية. لم أكن لأحزر أبداً، نعم اعتقد ان الرجل قتل رجالنا. (قال مبتسماً).

- دعنا لا نخبر افرايم بشأن هذه المحادثة. كنت أفضل ان يكون هناك أحد في المجموعة لا يعرف انني أعرف.

- لا مشكلة لدي مع هذا، ألا تثق به؟

- أثق به اليوم، ولكن كما تعلم، الأمور تتبدل.

لم نتكلم كثيراً حول الموضوع بعد ذلك ثم قررنا ان تكون المرأة صلة الوصل بيننا. وانه يشرح لها ان هذه هي الطريقة الوحيدة للتأكد من سلامتها. سيتصل في النهاية ليرى إذا تركت له رسائل، وأنا سأحذو حذوه، كان عندي فرصة ثانية للحياة، وان أحداً استطيع ان أثق به ومن المحتمل ان يبقيني على قيد الحياة.

الفصل الثاني والعشرون

دور الموساد في مصر

الثلاثاء ٢٧ أيار ١٩٨٦ مطار واشنطن الوطني:

بينما كنت انتظر وصول بيللا في الصالة وقف أمامي رجل يقلب صفحات كتاب. كان الكتاب القصة الأخيرة «لجون لوكاريه» ووجدت العنوان ساخراً بعض الشيء بالنظر لموقفي: «الجاسوس المثالي» وتذكرت كيف كنت استمتع بهذا النوع من الكتب قبل ان انخرط في الموساد وأتعلم كم يختلف عالم الجاسوسية الحقيقي عن خيال قصص الجاسوسية. كان غامضاً أكثر من أية قصة خرافية مهما بلغت خرافتها. وفكرت انه شبه مستحيل وصف عالم الجاسوسية المعقد بمكائده المتشابكة.

ظهرت مجموعة من المسافرين الواصلين من نيويورك. وما هي إلا دقائق حتى ظهرت بيللا. كانت تبهر الأنظار، تقطع الأنفاس، كانت ابتسامتها الضوء الذي اتلمسه عند نهاية النفق.

وحلقت في غمرة من السعادة العارمة لم أبلغها قبل اليوم وكنت في وقت سابق من هذا اليوم الغريب قد فقدت الأمل برؤيتها مجدداً، وها هي أمامي عانقتها شددتها إلى صدري محاولاً التعلق بها هكذا لأطول وقت ممكن.

كان كلانا يعلم انه قام بقفزة جبارة فوق هاوية عميقة ليكون مع الآخر. لم تكن تدرك مدى عمق الصدع الذي فصل بيننا، ولكنها كانت تشعر بسعة امتداده. بالكاد تكلمنا في طريقنا إلى الفندق، وهناك جلسنا متقابلين. كانت تريد ان تعرف أين كنت وماذا يجري. لم استطع إخبارها كان علي ابقاؤها خارج الموضوع فأخبرتها انني زرت زائير وأنني أعمل كمستشار أمني لبعض الأشخاص

هناك. كما أخبرتها انني بصدد استلام بعض المال في اليوم التالي، وعندها سنغادر إلى كندا. في اليوم التالي، نزلت إلى الطابق الأرضي لألتقي زهير، واستلم منه المال. ثم عدت واشتريت سيارة نقداً، كانت من طراز بونتياك ٦٠٠٠ من طراز ١٩٨٥ من اللون الرمادي المعدني.

بعد تسوية اجراءات التأمين عدت إلى الفندق. في اليوم التالي توجهنا إلى كندا. كنت في غاية القلق لمغادرة واشنطن فالذكريات التي أحملها عن المكان لم تكن كلها جيدة. عشنا شهر عسلٍ ثان، خاصة وأننا لم نحصل على شهر عسل أول بالمعنى الصحيح.

لم نكن نكتفي من بعضنا. وبعد قيادة ثلاثة أيام وصلنا إلى أوتاوا عاصمة كندا الجميلة التي شاهدتها بيللا يوماً خلال برنامج تلفزيوني وأرادت دائماً ان تعيش فيها. لم يعد مهماً أي حي نختار. إذ الأهم اننا كنا في اوتاوا.

أمضينا الأيام القليلة الأولى في فندق «هوليداي ان» في قلب المدينة في شارع «كوين» ثم وجدنا شقة مؤلفة من ثلاث غرف نوم في منطقة وسط المدينة، في مبنى حديث يدعى «كنت تاورز». فيما يتعلق ببيللا أخبرتها انه كان علي ان أقوم ببعض الرحلات من وقت لآخر ضمن نطاق عملي الاستشاري، ولكنني من ناحية أخرى، كنت قادراً على تخصيص وقتي الباقي في ما أحببت دائماً ان أقوم به كعمل أساسي في حياتي وهو الرسم والتلوين.

أخيراً، بعد ان جاءت «ليورا» ابنتي وعادت بيللا إلى اسرائيل لتوضب امتعتنا، ثم عادت مع «شارون» عشنا كلنا في شقة في شارع «كنت».

لم تكن الفتاتان متحمستين كثيراً للتغيير ولكن هكذا هي الحياة بتقلباتها وقبلتا بها.

من وقت لآخر كنت اتصل بافرايم من مقصورة هاتف الأجرة. عبر الشارع لأرى إذا ما كان كل شيء على ما يرام ولاستلام التعليمات حول خطواتي التالية. في ذلك الوقت لم تكن هناك أحداث كثيرة. كان يريد مني ان أقوم باتصال مع المصريين ولكنني كنت أؤجله باستمرار. لم أكن أشعر بالارتياح من جراء عملي مع بلدين عربيين في الوقت ذاته. لم يكن لدينا أي فكرة عن مدى

العلاقة بينهما، وكل ما كنا نعرفه انهما في تعاون تام. ومن الأشياء القليلة التي رأيناها عبر عمل الأردنيين، أدركنا مدى جهلنا. ولكن بما اننا لم نجهز كفاية بعد لإنشاء حلقة الجاسوسية الإسرائيلية للأردنيين كما وعدت لم يكن بوسعي جعل افرايم ينتظر أكثر. كان يشعر بحاجة لتلقيح وتحصين المخابرات المصرية ضد الموساد. وكان هذا الأمر يجب ان يستبق احداثاً يمكنها كشف مساعدة الموساد (اللوجستية) للأصوليين المسلمين عبر صلات في افغانستان.

كان السلم مع مصر يضغط على الجناح اليميني الإسرائيلي. فالسلم بحد ذاته، وبالرغم من كل التحفظ المصري كان يعطي الدليل على ان العرب، شعب يمكن إقامة سلام معه. وهذا يختلف تماماً مع ما صوره الموساد وأعضاء اليمين. مصر حافظت على السلام مع اسرائيل حتى عندما قامت اسرائيل باجتياح لبنان عام ١٩٨٢، وبالرغم من تحذيرات الموساد القائلة بأن المصريين هم في وسط خطة عشرية لبناء عسكري يمكنه ان ينتهي بحرب مع اسرائيل في حوالي العام ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ (حرب لم تتجسد أبداً).

أدرك الموساد ان عليهم إيجاد تهديد جديد في المنطقة، تهديداً يكون من العظمة، بحيث يراه الموساد مناسباً. كان أعضاء الجناح اليميني في الموساد (وفي كل البلاد) يعتقدون بالصيغة الفلسفية التالية:

اسرائيل هي أقوى وجود عسكري في الشرق الأوسط، وان القوة العسكرية لـ «اسرائيل الحصينة» هي أكبر من كل الجيوش العربية مجتمعة، ومسؤولة عن كل ما يتطلبه أمن اسرائيل.

بالتالي كان اليمين يرى، وما زال يرى، ان هذه القوة تنبع من الحاجة للرد على تهديد مستمر بالحرب. كنتيجة طبيعية لهذا التفكير فان أي انفتاح على السلام من شأنه ان يبدأ مسيرة التآكل التي تضعف القوة العسكرية وفي النهاية يتسبب بوفاة دولة اسرائيل، وتكمل الفلسفة تفسيرها، ان العرب المجاورين غير جديرين بالثقة، وأية إتفاقية توقع معهم تساوي فقط الورق الذي كتبت عليه.

وكان دعم العناصر المتطرفة في الأصولية الإسلامية، يتوافق تماماً مع مخطط الموساد العام للمنطقة. فإن عالماً عربياً يحكمه الأصوليون، لن يكون

طرفاً، يشترك بأية مفاوضات مع الغرب، مما يعطي مرة أخرى الفرصة لإسرائيل لتظهر بمظهر الدولة الديمقراطية العقلانية الوحيدة في المنطقة وإذا استطاع الموساد تدبير سيطرة حماس على الساحة الفلسطينية بدلاً من منظمة التحرير تكون بذلك قد اكتملت الصورة.

كان نشاط الموساد في مصر منتشراً على نطاق واسع ومع افتتاح سفارة اسرائيلية في القاهرة، تكشف هذا النشاط، واستخدمت مصر لمهمة مزدوجة أولاً كمصدر للمعلومات وثانياً: كنقطة انطلاق نحو بقية العالم العربي. كان أسهل وأقل إثارة للشبهات استعمال شعار دولة مزيفة لتجنيد أحد المصريين في القاهرة الذي لم تطأ قدمه خارج الشرق الأوسط، لينقل معلومات الاستخبارات إلى البلاد العربية الأخرى، من تجنيد عرب سافروا قبلاً إلى أوروبا ويمكن ان يثيروا الشبهات.

كان هذا جزءاً شرعياً من اللعبة، ولكن إذا بدأ الموساد محاولة تقويض نسيج المجتمع المصري، بدعم الأصوليين عن طريق جنسيات مزيفة، فهذا مختلف تماماً، وهو أشبه بقطع الغصن الذي تجلس عليه.

الأحد ٢٩ حزيران

سافرت بيللا إلى اسرائيل لمدة أسبوع لتجمع بقية أغراضنا وتحضرها إلى كندا. غادرت اسرائيل بسرعة كبيرة، وانحصر أملها برؤيتي بعد ان انقطعت أخباري عنها عندما كنت في الأردن، وكانت ستعود إلى كندا في الأسبوع القادم.

حوالي الظهر تلقيت اتصالاً في منزلي.

ـ «فيك»؟ عرفت الصوت في الحال ولكنني دهشت كيف يتصل بي افرايم في المنزل.

ـ ماذا؟

ـ ما رأيك نتناول طعام الغداء معاً؟

ـ أين أنت؟ كنت اشعر بجسدي يدخل حالة من الحذر والترقب.

ـ اعتقد انك لو نظرت من النافذة، ستراني، أنا في مقصورة الهاتف عبر الشارع في مخزن اسمه «كناديان تاير».

نظرت إلى الشارع ورأيته مرتدياً بذلة زرقاء.

ـ أين وجدت هذه البذلة؟ سألته مازحاً.

ـ هل ستنزل أو اصعد أنا وادفعك على النزول؟

ـ هل تدرك كم نحن قريبين من السفارة الإسرائيلية؟ سألته.

طبعاً. فهي على بعد مبنى في أسفل الشارع، إلاّ أن الرجل المكلف بالأمن هو في دورة رمادية في نيويورك ومعه معظم رجاله، ومن بينهم صلة الوصل التابعة لنا في واشنطن. الطريق سالك آمن، يمكننا أن نأكل حيثما تشاء.

لن استغرق سوى دقائق للنزول. كان الطقس جميلاً، وانتهينا إلى الطابق العلوي من فندق «وستن» حيث أخذنا وجبة خفيفة. بعد ان انتهينا من أحاديث المكتب. تطرق افرايم مباشرة إلى سبب زيارته.

ـ «عليك ان تقوم الآن برحلة إلى مصر لم نعد نستطيع الانتظار أكثر».

كنت في الواقع قد قمت ببعض الاتصالات مع السفارة المصرية في واشنطن وقمت بزيارتها مرتين. ولكن وقتها وحسب نصيحة افرايم، رفضت دعوة للذهاب إلى القاهرة. كنا منشغلين بأمور أكثر أهمية مثل إنشاء الجهاز الأردني واللقاءات مع البريطانيين وكما قال افرايم الوقت لم يكن مناسباً. كان عندي دعوة قائمة من الملحق العسكري لزيارته.

وحسب معلومات افرايم فإن الشخص الذي وجه لي الدعوة كان على وشك ان يستبدل بشخص آخر نجهله وكنا نعلم ان الملحق الحالي لا يعمل مع الموساد فإن هذه النافذة المناسبة لدخول آمن إلى مصر كانت على وشك الاقفال.

عليك أن تذهب إلى هناك وتلفت نظر صلة الوصل مع الأصوليين. فأنا أحصل على بعض المعلومات من حين إلى آخر واحتاج لطريقة يحصلون بها على هذه المعلومات من مصدر يثقون به.

هل تريد ان تنشىء هناك مصدر معلومات مزيفة؟

كان علي ان أعلم فإذا كان يخطط لاستخدامي كأداة ولبث معلومات خاطئة، فليحسبني خارج اللعبة. لم يكن لدي مشاعر مميزة تجاه المصريين،

إنما لم أكن أؤمن بطرق الموساد في تنفيذ أمورها. وأنا لم أظن يوماً ان ما كان يؤذي الأوزة كان يناسب ذكرها أكد لي افرايم ان الوضع مختلف فالمعلومات التي بحوزته تساعد في إلقاء القبض على عدة أصوليين وتفضح خط التزويد بالسلاح بين المجاهدين في افغانستان والاخوان المسلمين في مصر. وقلت ملاحظاً:

«إنها طريق طويلة للوصول إلى السلاح».

كان هذا طريقاً معقداً، فيما ان قسماً كبيراً من سلاح المجاهدين، كان اميركي الصنع وكان يسلم للاخوان المسلمين مباشرة من اسرائيل بواسطة حمالين من البدو الرحل الذين يطوفون المنطقة المنزوعة السلاح في سيناء.

كان بوسع الموساد ان تؤمن طبعاً، تجهيزات روسية الصنع أيضاً وهي من مخلفات الاستيلاء على مخازن منظمة التحرير الفلسطينية التي سرقت في اجتياح لبنان عام ١٩٨٢. وما ان تصل إلى الأراضي المصرية، حتى تنقل المواد إلى وسيط يقوم بآخر مرحلة من التسليم وتسديد ثمن السلاح، يعقد الموساد صفقات لضرب أهداف داخل مصر.

قلقلة وزعزعة هذا كل ما يقومون به كل الوقت ولا يهم ما يقال. كل ما يفكرون به هو كيفية إقامة مسالخ. وهم لا يفهمون ان هذه الأدغال التي يقيمونها ستطيح بهم يوماً من الأيام.

ـ بيللا ستعود في الأول من الشهر. سآخذها مع الأولاد لنقوم برحلة إلى واشنطن وهناك أحصل على تأشيرتي هذا إذا ما زالت صلة الوصل خاصتي تعمل.

ـ لا تتأخر سمعت انك تكلمت مع يوري.

جاءني تصريحه على حين غرة. لم أكن متأكداً تماماً ماذا أقول أو إذا كان علي ان أرد.

ـ هل لديك إرسال بطيء أو أي شيء. كان هذا منذ زمن طويل.

ـ كثيراً، هل عاودت الاتصال به بعد ذلك.

ـ إسأله.

لم يتفوه بكلمة أخرى حول الموضوع. في آخر النهار جعلني أوصله إلى

المطار ورحل. كان يريد ان يعطيني بعض المعلومات حول تمرير الأسلحة بعد ان أعود من واشنطن وأحدد موعداً للسفر.

قمنا برحلتنا الصغيرة إلى واشنطن في يوم الجمعة، الرابع من تموز، دخلنا إلى الولايات المتحدة بمناسبة احتفالية. خططت ان أقود خلال عطلة نهاية الأسبوع، لأصل إلى السفارة المصرية أول صباح الاثنين. لم يحدث ما يعكر صفو الرحلة.

أخبرت بيللا انني كنت بصدد لقاء بعض الديبلوماسيين من زائير وتدبير سفري إلى هناك. وجرت الأمور بهدوء في السفارة بعد ان ناولت جواز السفر لرجل الأمن على الباب، قادني صلة الوصل إلى داخل غرفة واسعة مزينة ومفروشة باللون الأزرق وطلب مني ان انتظر تحت الإطار الذهبي الذي يحمل صورة الرئيس مبارك مبتسماً. وبعد عدة دقائق حضر الملحق ورحب بي بحرارة. وكان يريد ان يعرف إذا كنت أؤمن بالخرافات، فأكدت له ان لا. فقال ان رحلتي للقاهرة قد أجلت لغاية ١٣ تموز أي بعد اسبوع. شعرت بوهن في ركبتي ولكني لم أكن لأظهر ان هناك مشكلة.

كانت بطاقاتي ستنتظرني في مكتب «ايرلنغس» في مطار كينيدي ولكن علي ان ادفع مقابل ذلك، إذ سيقومون فقط بالحجز. ناولني ظرفاً يحوي ألفي دولار. كان علي ان أعود في العشرين من تموز، حسب معلوماته، وسيتم اصطحابي من المطار إلى مكان أمين. ووعدني انه لن يحصل ما يستدعي قلقي وان تسديد بدل خدماتي ستتم مناقشته مع السلطات عندما أصل إلى هناك. وأوضح انه نظراً لمكانته الديبلوماسية والاحترام الذي يكنّه للولايات المتحدة كبلد مضيف له، لم يكن بمقدوره التورط بهذا الأمر أكثر من مرحلة صلة الوصل.

إذا كنت صافي النية عندما تتفق معنا، ليس هناك اطلاقاً ما يستدعي قلقك، قال الرجل مبتسماً.

أخافتني هذه الجملة أكثر من أي تهديد تعرضت له في يوم من الأيام كان تهديداً مبطناً لم اسمع مثله يوماً أو ربما لأنني كنت اللص صاحب القبعة المشتعلة ففسرته بهذه الطريقة.

كنت مشغول البال في طريق عودتي إلى اوتاوا. وخالجني إحساس غريب بنهاية قريبة. في النهاية كنت قد استقريت في مكان أشعر فيه بالراحة وبدأت حياة جديدة. وها أنا أخلف كل شيء ورائي وأعود إلى الجحيم الذي لم يمض وقت طويل على مغادرتي له. لكنني فطنت ان هذه الحياة الجديدة هي قناع خارجي واني ما زلت جندياً في قاعدة بلادي الأمامية التي أقيمت ضمن حدود بلاد ذلك المصري حدود بعيدة ضبابية ومتشابكة، لدرجة لم يعد يتبين المرء في أي جهة يقف، كانت من نوع الحدود الذي يحتاج للفلسفة كي تعطيه تحديداً، ولم يكن هذا ليعجبني.

وصلت إلى نيويورك بعد الظهر، واستلمت بطاقة سفري من المكتب كما خطط. كنت أسافر على متن طائرة الخطوط الجوية المصرية الرحلة رقم ٩٨٦: التي تنطلق الساعة ٢٢:٠٠ وتبقى لي بعض الوقت.

شعرت بالإنزعاج بشأن ما أنوي القيام به كان الابتعاد عن أمان الولايات المتحدة أمراً يرفضه جسدي كله. وكنت قد تعرضت لكثير من وكالات الاستخبارات في الأشهر القليلة الماضية، ولم أعد أشعر بالأمان في مثل هذه الرحلة. وبدا مستحيلاً ان يجهل المصريون وهم مشهورون كوكالة استخبارات فعالة وغامضة بعض الشيء، عن إحدى عمليات فراري.

أقلعت الطائرة في الوقت المحدد لها وكنت عالقاً في شركها، متوجهاً لا محالة إلى ما يمكن ان ينتظرني، لم استطع النوم خلال الرحلة، شاعراً بالذنب لعدم إخباري بيللا بوجهة سفري ولكنه كان حالة أنانية أكثر منها قلقاً واهتماماً. لو أخبرت بيللا لعرف أحد آخر على الأقل إلى جانب افرايم أين سأكون.

حلقنا في ضوء النهار فوق البحر الأبيض المتوسط الأزرق المتلألىء.

وأعلن الطيار عن ابتداء هبوطنا في مطار القاهرة الدولي، دخلت أراضي مصر الصفراء المذهلة محل زرقة البحر. وكلما اقتربنا كلما ازدادت ضبابية المشاهد وما ان حطت الطائرة حتى شعرنا بالحرارة المرتفعة قبل ان نخرج.

الجمعة ١٨ تموز:

كان المصباح العاري المتدلي من السقف العفن، يومض متقطعاً، ويقطع

علي ذكريات الأشهر الستة الماضية. سمعت شبه صراخ في مكان ما من المبنى الداخلي خلته بناء فارغاً. والصرخة التي بالكاد تسمع، جعلتني اتصبب بعرق بارد. استلقيت على ظهري وتابعت بنظري صرصاراً كبيراً يعبر سقف زنزانتي ثم عاد الرجل المسن مع إبريق ليموناضة منعش وصينية طعام. كنت مستلقياً هناك يسوقني إيقاع حياتي المسرع إلى الجنون، وأكثر ما كنت أخشاه هو ان يظهر الرجل المسن هكذا في الموعد المحدد لألف يوم قادم، أدركت انه علي القيام بشيء للفت انتباه أحدهم. وما ان استعد الرجل الغريب الأطوار ليهيىء الحمام حتى قذفت صينية الطعام خارج الباب واخفقت بالكاد عن إصابة الحارس. لأول وهلة كنت متأكداً انه سيقوم باستعمال سلاحه ويقطعني إرباً حيث أقف. بدلاً عن ذلك نظر مدهوشاً وصرخ شيئاً للرجل المسن، الذي أسرع خارج الزنزانة. استلقيت مجدداً في السرير. وتوقفت المروحة فجأة عن الدوران. وكان الحر شديداً لدرجة انه يتعذر القيام بأي شيء وكان الصرصار على السقف قد ذهب.

فكرت بالمأزق أربعة أيام منذ ان رميت في هذه الزنزانة. وكان احتمال ان يصبح هذا المكان «منزلي» حتى نهاية حياتي مروعاً. ولكي أهرب من هول هذه الإمكانية باشرت اتخيل كيف تجري الأمور في الخارح وكيف سأخرج قريباً من هنا.

اعتقد انه في وقت مبكر من بعد الظهر فتح الباب ودخل إلى الغرفة رجل يرتدي بذلة رمادية فاتحة قصيرة الأكمام. كنت قد خرجت للتو من الحمام ولا أزال شبه عار. كنت آخذ حماماً كل عدة ساعات وارتدي فقط ما يلزم لأكون لائقاً في حال زارني أحدهم.

ـ سيد اوستروفسكي؟ قال الرجل البدين راسماً ابتسامة ودية.

كانت رأسه الصلعاء تلمع وقد اكتسبت سمرة مثل وجهه. وجزمت من خط السمرة على عنقه إنه كان معتاداً على لبس القمصان وليس الياقة بشكل V التي يلبسها الآن.

التفت ورائي كمن يفتش عن أحد.

ـ اعتقد انك تفتش عني؟

نظر بابتسامته العريضة: وقال «لا بد ان اعتذر عن تأخيري في الترحيب بك».

حدقت بالرجل دون ان اتفوه بكلمة، بالطريقة الهادئة ذاتها التي اعتمدتها.

كان يمكن لهذا الرجل ان يغادر في أي دقيقة وربما لن يعود، ويتركني لآلامي من جديد. قررت ان أعمل أي شيء لأخرج من هذا المكان المريع.

ـ هل تتفضل وترتدي ملابسك، سأرافقك لتلتقي أشخاصاً يتوقعون رؤيتك.

هززت رأسي وما هي إلا دقائق حتى كنت اتبعه إلى الأسفل حيث قاعة محاضرات فسيحة. عند طرف الطاولة الممتدة رزمة من مجلات «بامهانش» (مجلات عسكرية اسرائيلية) بدت الغرفة وكأنها اقتلعت من بناية مكاتب حديثة، كانت رحيبة ونظيفة وبدت في غير مكانها وكأنها لا تنتمي إلى هذه البناية القديمة المستهلكة. كانت هناك في إحدى الزوايا آلة لصنع القهوة وكانت رائحة القهوة المخمرة على الطريقة الأميركية، تملأ المكان.

قدم لي الرجل البدين فنجاناً ثم أشار إلى الصينية حيث الحليب والسكر. إلى اليمين كانت هناك مرآة حائط كبيرة. فتح أحدهم بابا خلف المرآة جاعلاً المرآة تبدو شفافة لجزء من الثانية. رأيت عدة أشخاص يجلسون وراءه وآلة تصوير مركزة على ثلاث أرجل في احدى الزوايا.

لماذا تحتفظون بهذه المجلات؟ سألت.

وأجابني الرجل البدين انها كانت هنا من أجلي، وانني استطيع أخذها إلى غرفتي بعد ان ننتهي اليوم. ما قاله كان نذير شؤم. فأنا لا أريد العودة إلى «غرفتي»، كنت أريد الخروج من هذا المكان النتن ولكن كان علي ان احتفظ برباطة جأشي.

بدأت الأمور تتحرك بسرعة كبيرة ناولني المصريون رزمة من الصور الفوتوغرافية وطلبوا مني ان أحدد هويات الأشخاص الذين ينتمون الى الموساد. لم يكونوا ليضيعوا وقتهم كانت جديتهم توازي جدية غالبية الوكالات الأخرى. كانت كل صورة تحمل في أسفلها اسماً بالعربية وبالانكليزية. كان هناك أقل من خمس صور لم استطع تحديد هوياتهم. وفسرت ان هؤلاء الخمسة كانوا يخدمون في أوروبا لذا كان من الطبيعي ان لا أتعرف إليهم. كانوا يملكون أيضاً خريطة لدوائر الموساد وتصميم المبنى في جادة الملك شاول. وطلبوا مني ان

أدلهم أين كنت أجلس عندما عملت في المكتب الدانماركي.

عند هذه النقطة كان واضحاً تماماً انهم تكلموا مع أحد يعمل في المبنى وكانوا مستعدين تماماً لتأريخ كل أعمال المنظمة.

كان مضيفي قد أبدى إرتياحاً أكبر بعد ان علم انني لم أشر إلى أي مصري يعمل مع الموساد.

وكان أكثر من سعيد عندما تلقى المعلومات حول تسريب الأسلحة للإخوان المسلمين.

ثم طلب ان يسمع كل ما استطيع أخباره حول روبرت ماكسويل، قطب الصحافة البريطانية موضحاً انهم كانوا مدركين إهتمام-الموساد بشراء وسائل الاعلام لكونها تؤثر على الرأي العام وتستخدم الصحافة كغطاء لإدخال عملاء إلى البلاد.

كان مضيفي يبدو متحمساً ليعرض معلوماته بدرجة الحماس ذاتها لسماع أخبار عن أمور يجهلها، وهذا ليس ميزة جيدة بالنسبة لضباط مخابرات، وحدّد ماكسويل كعميل للموساد كما ذكّرني بفرص أخرى كانت فيها الموساد وراء شراء صحف في انكلترا واعطى مثلاً عن «ايسترن افريكان» التي اشترتها أموال الموساد عبر رجل أعمال اسرائيلي. وحصلت الصفقة، أضاف لمساعدة جنوب أفريقيا في آلتها الدعائية بجعل التمييز العنصري أكثر استساغة في الغرب.

فجأة توضح أمامي بشاعة ما صنع بماكسويل في اندفاعه وحماسه للتعاون مع اسرائيل ولم يكن هو نفسه عميلاً (على حد تأكيدات البريطانيين عندما تكلمت معهم في واشنطن) كان ماكسويل «سايان» على صعيد واسع. كانت الموساد تموّل العديد من عملياته في أوروبا من أموال مسروقة من اعتمادات المعاشات في الجريدة. ثم وضعوا أيديهم على هذه الاعتمادات مباشرة بعد ان أبرم ماكسويل الصفقة معهم. وكانت في بادىء الأمر تموّل من قبل قروض الموساد.

وكان يستلم كخبير استشاري تحليلات الموساد والغريب في الأمر، إلى جانب السرقة، ان كل من عمل في منظمة الأخبار هذه، في أي مكان في الشرق الأوسط، اعتبر مباشرة مشبوهاً يعمل لحساب اسرائيل وكان على قاب قوسين من حبل المشنقة.

شرحت لمضيفي، كما فعلت مع البريطانيين، انه في البدء ساعدت الموساد ماكسويل على شراء الصحيفة عن طريق اقراضه مالاً والتسبب بمشاجرات في العمل ومشاكل أخرى لتبخيس سعر الصفقة وتغير التكتيك فيما بعد، بأن رجال الموساد يستهدفون سلفاً صحيفة يريد ان يشتريها ماكسويل ويبدأون سباق تصادم مع الإفلاس مستخدمين كل الخطط الممكنة بدءاً من تهييج قوة العمل انتهاء بسحب الأموال من الصحيفة عبر المصارف والمعلنين المتعاطفين مع الموساد. وبعدما يتداعى صاحب الصحيفة يرسلون إليه ماكسويل ليطلق الرصاصة الأخيرة.

في ذلك المساء، اصطحبني مضيفي بنزهة في السيارة في مدينة القاهرة، علمت ان الرجل يشعر بالأمان معي عندما اركبني سيارته نحن الاثنين فقط في المدينة الكبيرة.

في الدقائق الأولى عصب عيني ثم عصبها مرة ثانية في طريق العودة. في الحقيقة لم تثرني المدينة كثيراً ولا حتى الإهرامات. كنت محبطاً ومتوتراً لدرجة لم استطع الاستمتاع بها. ولكنني استسغت المساحات المفتوحة في الهواء الطلق والشعور الجزئي بالحرية. عند منتصف الليل عدت إلى زنزانتي مع ضمانة مضيفي انه سيعود في الصباح وانني سأسافر على متن الرحلة ٩٨٥ التابعة للخطوط الجوية المصرية إلى نيويورك يوم الأحد.

استلقيت في زنزانتي، أحدق بالسقف مرتدياً ملابسي الداخلية فقط. كان ينتابني شعور بأن الرجل لن يكذب عليّ وانني سأكون فعلاً على تلك الطائرة، غير ان كون الأمور لم تجر بالشكل الذي تنبأت به، لم يكن هناك ضمانات انها ستتحسن الآن.

أخذت عهداً على نفسي انني إذا خرجت من هذا المكان، لن أغادر كندا ثانية ما حييت.

كنت إنساناً طبيعياً عندما دخلت الموساد، ربما كنت أكثر بساطة واضعاً ثقتي بأي كان ـ الموساد غيّرتني، برمجتني على الاستمرار في الحياة، وهذا يعني انني لم أعد أثق بأحد لأي سبب كان جعلتني قاسياً كما جعلتني عنيداً متشبثاً.

عندما يكون لدي هدف، لا يثنيني عن هدفي إلا الموت، وحاولت الموساد غسل دماغي من خلال حملي على الموافقة على جدول أعمالها السياسية المتلاعبة. ولكنها فشلت بذلك، ونجحت بخلق أحد أسوأ كوابيسها: رجل يتحلى بمثابرة ضابط الموساد، يتفانى بتدمير الموساد.

عرفت وقتها في تلك الزنزانة الصغيرة ان الطريقة الوحيدة لقتل الموساد هي بفضحها. والآن عرفت انها ليست تلك المنظمة الفعالة التي تريد ان يظن الجميع انها كذلك. نعم انها خطرة. نعم انها فاسدة، ولكنها ليست فعالة وليست كما تدعي: وكالة استخبارات تكرّس نفسها لتحذير الدولة من خطر محتمل. وضعت على الطائرة الذاهبة إلى نيويورك كما وعدت، واعطيت عشرة آلاف دولار لمساعدتي. وكان علي توقيع نص يقول انني قدمت إلى مصر بمحض إرادتي، وانني عوملت جيداً، وتسلمت مبلغ عشرة آلاف دولار كهدية.

عندما هبطت الطائرة في نيويورك، أردت تقبيل الأرض. كنت وعدت المصريين انني سأعود إذا هم أرادوا وانني سأقوم ببعض الأعمال معهم إذا احتاجوا ذلك. لكنني كنت اعلم عندما قلت هذا انني سأبذل جهدي حتى لا تطأ قدمي أرض مصر ثانية.

كان ذلك بعد انقضاء زمن طويل، عندما علمت سبب المعاملة التي تلقيتها في القاهرة. فالمصريون لم يعطوا تفسيراً آخر غير حصول سوء تفاهم. ولكن ما حدث فعلاً هو ان أحداً سرب إليهم انني عميل في الموساد لا يزال يعمل لها. وكنت في مهمة لتشويش معلوماتهم ولإعطائهم معلومات خاطئة واحداث البلبلة في صفوف منظمتهم، واتهام أحدهم بالعمل سرّاً للموساد.

لذا قرروا إبقائي معزولاً ليستجصلوا من الموساد بطرق ملتوية على معلومات. فأعلموا السفارة عن وجود جثة رجل تتطابق مواصفاته مع مواصفاتي، قدم إلى مصر على نفس الطائرة وهو من سكان كندا. وأضافوا انهم يعتقدون انه اسرائيلي. شقت الرسالة طريقها إلى الموساد، ولأن الموساد ليس لديه في المنطقة أحد تتطابق مواصفاته مع الذي قدم فهي لم تصرح بأي رد وبعد أربعة أيام، تأكد المصريون انني لست في الموساد، وإلا لكان الموساد طلب رؤية الجثة. وكانت السفارة الإسرائيلية اكتفت بالإجابة إنه لم يبلغ عن اختفاء

اسرائيلي يحمل تلك المواصفات وان السلطات الكندية معنية أكثر بالأمر.

في هذه الأثناء، وفي المقر الرئيسي، كان افرايم يتسلق الجدران. معتقداً انني انزلقت كاشفاً هويتي الحقيقية وأسوأ من ذلك، كما قال لاحقاً كان يظن انني خنته.

الفصل الثالث والعشرون

ـ استمرار التعاون مع الاستخبارات الأردنية
ـ وثمانية عشر عاماً بالسجن الانفرادي لموردخاي فانونو

استغرقت عدة أيام لاعتاد على الحرية من جديد. لن أعود أبداً بعد اليوم لألعب، لعبة الحبال لأي كان. وسأشارك فقط في أمور أعرف أنها تسيء للموساد.

أنا على يقين الآن ان الموساد هي آلة للموت من دون هدف أو سبب، وان افرايم لن يعمل معي بالطريقة التي أريدها. تالياً سأعمل حسب شروطي وليذهب إلى الجحيم وأوضحت انني لن أشارك في أي نشاطات إلا تلك التي تفشل مباشرة مخططات الموساد.

كان افرايم يريد ان يعرف إذا كنت سأستمر بالعمل مع المصريين، وأخبرته انني لن أعمل إلا في مجال نقل معلومات لهم من شأنها أن تسيء للموساد. وسأستمر في تعاملي مع الأردنيين، اعتقاداً مني أن هذا سيساعد على تهيئة حل سلمي للصراع بين الأردن واسرائيل. فإذا نجحت الموساد في خلع الملك حسين، فلن يكون هناك أبداً سلم في المنطقة. وسينتصر الأصوليون وتكون النهاية.

كذلك أعربت عن سعادتي في توفير معلومات للبريطانيين وإقامة صلات مع الفرنسيين. وانتهى الأمر إلى تأجيل العمل في هذا المجال لفترة.

اتصلت بالأردنيين وتدبرت لقاء مع ألبرت في «اوتاوا». في البدء كان متحفظاً للقدوم، خوفاً من كمين ولكنه وافق في النهاية وافترض انه سيصل إلى اوتاوا في منتصف أيلول.

اتصلت بصاحب صالة عرض محلية، السيد كويمان وهو يملك عدة

صالات عرض في «اوتاوا» و «تورونتو» و «مونتريال». احضرت له بعض نماذج من عملي. فوضع لها إطارات وبدأ ببيعها في صالته الرئيسية في اوتاوا في مركز «ريدوسنتر». في الوقت ذاته، دونت في كل الوثائق الرسمية انني مستشار أمني لبلاد أجنبية. وكانت هذه الحقيقة.

وباشرت العمل في تحليل مقالات الصحف التي تعالج الوضع السياسي في الشرق الأوسط، عن معنى النشاطات السياسية المتعددة في المنطقة، محللاً في الغالب، ما وراء خفايا تصريحات السياسيين الإسرائيليين. هذه الكتابات تساعد الأردنيين فيما بعد، لاتخاذ قراراتهم وفقاً لصورة واقعية عن التنافس السياسي وليس بناء على ما يقوله محللو وسائل الإعلام الاميركيين، المأجورين والمتكلفين والمنحازين.

فإذا ادرت جهاز التلفاز في أي وقت تسمعهم يهذون حول الموضوع وحول كيفية رؤيتهم للصورة. بينما لا يخفى على من يحمل دماغاً انهم يشجعون أو يلقمون بعضهم البعض.

قدم ألبرت إلى اوتاوا وأعطيته دورة مكثفة لمدة اسبوعين عن كيفية تحليل التحليلات. ففي العديد من العواصم العربية، يلقي القادة كثيراً من الخطب البلاغية للاستهلاك الداخلي وفي الوقت ذاته يبتلعون ما يقوله الخبراء المزعومون حول ما يقوله القادة العرب الآخرين. ولسبب أجهله، توقفوا عن الرجوع إلى منطقهم. والاتكال على نظرتهم.

بدأ ألبرت يلحّ في مسألة حلقة الجواسيس الإسرائيلية كما وعدته وكان هناك طلب آخر. كان قومه في غاية القلق أمام التغيير القادم في حكومة اسرائيل.

ولم تكن الانتخابات الإسرائيلية لسنتين خلت فاصلة، فالحزبان المهمان (اليسار مع حزب العمل والليكود الجانب اليميني) قد توافقا على حكومة وحدة تكون الزعامة متشاركة يتم خلالها مشاطرة السلطة دورياً. واتفق على ان يكون شيمون بيريز، زعيم حزب العمل، رئيساً للوزراء في أول سنتين وان يكون أسحق شامير زعيم حزب الليكود اليميني، للخارجية. ويبقى إسحق رابين الرجل الثاني في حزب العمل، وزيراً للدفاع خلال كامل الفترة. وكان الوقت يقترب

من استلام شامير لِرئاسة الوزارة وكانوا يريدون قدومي إلى عمان لتحليل ما يمكن ان يشكل هذا عليهم من تأشيرات.

وقد أعجبوا كثيراً لتحليلاتي المدونة، ولكنهم يريدونني عندهم لهذه المناسبة. لم يكن لدي أي سبب لأرفض القدوم إلى عمان خاصة وان الموضوع يشكل لهم أهمية قصوى. وقد عاملوني معاملة جيدة أثناء وجودي هناك، واستوفوا شروط الاتفاقية حتى آخرها بشتى الوسائل. وافقت ولكنني قلت انني احتاج لعدة أيام من أجل تحديد الموعد. في النهاية، ما معنى ذهابي إلى عمان إذا كنت لا أملك المعلومات المطلوبة للتحليل؟ كذلك كنت أريد من افرايم مساعدتي في إقامة حلقة التجسس المتفق عليها، أو على الأقل الحصول على قائمة لهؤلاء الأشخاص وتقديم عدة خيارات جاهزة للعمل للأردنيين.

بعد ان غادر ألبرت في الثلاثين من أيلول، وصل افرايم. عقدنا عدة اجتماعات في غرفته في فندق الهوليداي ان. قال ان الأمور تضطرب، في أرض الوطن، وانه يتوجب عليه المكوث هناك لبعض الوقت، لذا سيصبح «إيلي» صلتي، وهو سيصل إلى المدينة يوم الجمعة في الثالث من تشرين الأول.

عرفت «إيلي» من أيام الأكاديمية، كان استاذاً هناك في أول دورة لي. وكان بيننا علاقة مودة جيدة. لم يكن لدي أية فكرة أنه متورط في كل هذا، ولم أكن لأحزر ان يكون هو بالذات على علاقة بالأمر. اعتبرته دائماً يمينياً متطرفاً.

كان «إيلي» سعيداً جداً لوجوده في «كندا» وكان هناك بصفة سائح يقيم في فندق هوليداي ان في شارع كوين (أصبح فيما بعد أوتيل راديسون) أما فيما يتعلق بأمر بيللا فكنت أقول لها انني التقي أشخاصاً في مجال العمل.

وضعنا اعلانات في عدة صحف يهودية وواحدة في الصحف الناطقة بالعبرية في الولايات المتحدة وكندا. كنا نطلب اسرائيليين لديهم خلفية قتالية عسكرية للعمل في شركة أمنية تدعى خدمات القتال الدولية (ICS). وضعنا رقم صندوق بريد في اوتاوا كعنوان، وما هي إلا أيام حتى غص الصندوق برسائل من اسرائيليين من عرض القارة ومن اسرائيل، أعطونا اسماءهم، عناوينهم ورتبهم العسكرية وكثيرون كشفوا النقاب من دون خجل عن خلفياتهم العسكرية الدقيقة، بالاسماء ومواقع الوحدات العسكرية وتدريباتهم الخاصة. كان هذا بحد ذاته

فيضاً من المعلومات يستلزم جهازاً استخباراتياً حسن التدريب والتنسيق لجمعها.

مما لا شك فيه ان بعض هذه المعلومات كان مزيفاً وانها حوت مبالغة وادعاء في العلاقات والخبرات ولكن حسب معلوماتي عن الإدارة البحرية وبعض الوحدات العسكرية الأخرى يمكنني الجزم بان أغلبها كان صحيحاً.

أخذ «إيلي» أكثر الرسائل معه وأرسلها عبر الفاكس إلى افرايم، الذي كان سيحضر قائمة أحملها معي إلى عمان، تضم سبعة اسماء يمكنني استخدامها.

وإذا تحقق الأمر وجندناهم، سيحصل الأردنيون على مصادر جيدة للمعلومات، إنما معلومات لا تعرض دولة اسرائيل للخطر.

كنت أتحضر للرحلة، وكان افرايم قد أصر على مغادرتي في العشرين من ت١.

وعلل ذلك بأنَّ اثنين من فريق كيدون الثلاثي قد جمدا نشاطهما بعد قضية فانونو. وان الثالث كان في حالة تأهب دائم. إلى جانب كونه اليوم الذي سيتبادل شامير وبيريز مهامهما بالتالي ستتطلب الموافقة على إعادة نشاط (أي من الفريق) ثمانية وأربعين ساعة في حال حصل معي أي خطأ.

وقتها لم يتوسع افرايم كثيراً في إخباري عن قضية «فانونو»، ولم أعرف تفاصيل هذه القضية إلا بعد عدة أشهر من ظهورها في وسائل الاعلام واحتلالها المرتبة الأولى، وكان «يوري» هو من أخبرني.

كان هناك صدعاً في قضية فانونو يفصل بين شامير (وقتها وزيراً للخارجية) وبيريز (رئيس الوزراء). كان موردخاي فانونو تقنياً في وحدة العمل النووية السرية الإسرائيلية في ديمونا. وكان يعلم بأن اسرائيل تصنع أسلحة نووية وأدرك انه بالرغم من ان اسرائيل تبدو دولة ديمقراطية سليمة. إلا ان أي قائد متطرف يمكنه ان يفقد أعصابه ويغرق الشرق الأوسط والعالم بحرب نووية.

أكثر من ذلك، ضايقه كثيراً لعبة الغميضة التي كانت اسرائيل تقوم بها.

طالما ان الغرب يفتقد لأدلة تثبت امتلاك اسرائيل لأسلحة نووية، ويكتفي بنفي اسرائيل وادعائها بعدم حيازتها سلاحاً نووياً، فهو لن يتقدم بأي خطوة للحد من التكاثر النووي الإسرائيلي.

قرر «فانونو» فضح هذه الوقائع وارغام العالم على معرفته وبالتالي الرد

عليه. فالتقط حوالي خمسين صورة فوتوغرافية داخل الموقع السري وبعد ان غادر البلاد إلى أوستراليا، اتصل بصحيفة «الصنداي تايمز» في لندن حيث احضرته الصحيفة وخططت في بادىء الأمر لنشر التصريحات أولاً ثم لعقد مؤتمر صحافي «لفانونو» لتدعيم مصداقيته.

وحاول «شيمون بيريز» رئيس الوزراء الاستفادة من الوضع للسيطرة على الموقف بعد ان علم بالقضية وأدرك انه ما من مجال لإعادة المارد إلى قمقمه.

وسيثبت للعالم وخاصة للعالم العربي، حيث تسعى عدة دول عربية لتصنيع أسلحة تدمير شامل كسلاح الغاز السام والجرثومي، ان اسرائيل تمتلك بالفعل القدرة على إبادتها. كان يود نشر القصة، ولكنه يريد إعادة «فانونو» إلى اسرائيل قبل ان يجيب على أسئلة أكثر حتى تستمر الشكوك حول مصداقية قصته. وهكذا يكون قد أصاب عصفورين برمية واحدة: يصبح لدى العالم أسباب وجيهة لتهاب اسرائيل وفي الوقت ذاته، تتابع إسرائيل نفيها لامتلاك قدرات نووية لأن الرجل الذي اختلق القصة لن يكون موجوداً لإثبات ذلك.

ولكن شامير أيد خطة مغايرة تماماً كان يريد خنق فانونو وقصته معاً.

لاحظ بيريز تردد الصحيفة في نشر القصة غالباً خشية من الاستهجان والاستخفاف وللمساعدة في ضمان التأكيد على نشر القصة، اتصل بيريز برؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية وطلب إبقاء القصة في الأعمدة الجانبية، أملاً منه ان يصل طلبه هذا إلى الناشر البريطاني ويثبت على ان القصة جدية، في النهاية، لا يمكن لأقل من منصب رئيس وزراء اسرائيل ان يطالب بكتم قصة ما. أو بالتزام الهدوء.

في الوقت ذاته، كان شامير يتصل بصديقه «روبرت ماكسويل» القطب الاعلامي البريطاني ويجعله ينشر قصة في صحيفته، تبخس من مصداقية فانونو وتظهره بمظهر الدجال، كما أراد نشر صورة الرجل في الصحيفة، بالتالي يصاب «فانونو» بالذعر كونه ليس محترفاً ولا يجيد أمور التخويف والتهويل.

انهت الصنداي تايمز نشر القصة في الخامس من ت١ بعد مضي أسبوع على انتهاء نشرها في «الدايلي ميرور» صحيفة «ماكسويل».

قامت الموساد، التي كانت قد أرسلت فريق كيدون إلى لندن في العشرين

من أيلول، باغواء فانونو وأخذه إلى إيطاليا عن طريق امرأة تدعى سندي.

من هناك خطف وأرسل إلى اسرائيل، حوكم موردخاي فانونو، وعوقب بثمانية عشر عاماً من السجن وهو يمضي فترته في السجن الإنفرادي.

جاءت زيارتي الثانية هذه المرة إلى الأردن اعتيادية نوعاً ما. استقليت طائرة إلى نيويورك ثم بواسطة العالية على متن الخطوط الجوية الأردنية إلى عمان على الرحلة رقم ٢٦٤ التي غادرت نيويورك في العاشرة والأربعين دقيقة من قبل الظهر. المشكلة الوحيدة التي صادفتني خلال هذه الرحلة كانت في التذاكر التي أرسلت لي من السفارة الأردنية في واشنطن والتي أبتيعت من وكيل سفر «النسر الذهبي» في واشنطن، لم تكن تحمل تاريخاً للعودة، ترك التاريخ من دون تحديد. وكان هذا كافياً بعد تجربتي الأخيرة في مصر ليجعلني نوعاً ما منزعجاً خصوصاً من خلال معرفتي للتعاون الماضي المصري الأردني في شتى المجالات.

كانت الرحلة جيدة كما تكون أية رحلة أخرى. جاء مقعدي مقابل قبطان في الخطوط الجوية الكندية، ينزل إلى الأردن ليدبر تسليم شحنة أبقار كندية جواً كجزء من برنامج المساعدة الزراعي الكندي.

كان من المفترض ان يلقاني البرت على المطار. ولكنه تأخر مما جعلني في غاية القلق، وبالأخص لأنني كنت أسافر بجواز سفري الكندي الذي اعطي لي في تل أبيب وكان هذا مدوناً في الصفحة الأولى من الجواز. وكانت الأمور ستتفاقم في حال تقدمت من نقطة مراقبة الجوازات. ولم يكن مطار عمان ذلك المطار الذي يغص بالناس فبعد مضي دقائق قلائل كنت أقف وحيداً في منطقة الوصول، وكان شرطي المطار قد بدأ يحدق بي بطريقة غريبة، وفي اللحظة الحاسمة التي سيتقدم بها احدهم ليباشر التحقيق معي، ظهر ألبرت كان شاحباً وأخذ يعتذر بشدة حول سوء تقديره لموعد وصولي.

وعبر بي الجمارك ونقطة الجوازات ملوحاً ببطاقة هويته. بعدها بدقائق، كنا في طريقنا إلى المدينة حيث فندق رجنسي بالاس. كان الفندق مزدحماً في هذا الوقت وبدا ان أغلب الضيوف كانوا من المملكة العربية السعودية، في جلابيبهم البيضاء مع قلاداتهم الذهبية النحيلة.

أمضيت يومي الأول في معالجة تفاصيل الأمور مجتمعاً بالأشخاص الذين قابلتهم في زيارتي الأولى، إلا ان هذه المرة كنا كمعارف حقيقيين. وزال الشعور بالقلق السابق قبل فوات اليوم الأول. في اليوم الثاني، اصطحبوني لزيارة بترا، المدينة القديمة المحفورة في الجبال الحمراء، قصورها الشاهقة وأعمدتها العملاقة كانت تشكل قطعة واحدة مع الجبل، وكان منظراً يخطف الأنفاس ويذكر بقصر زيارتنا لهذا الكوكب ومرورنا العابر على هذه الأرض.

بناة هذه التحفة في الصحراء قد زالوا وذرتهم الرياح فجأة في عالم النسيان مخلفين وراءهم كل هذا.

بلغنا في نهاية المطاف مدينة العقبة التي تواجه مدينة إيلات الإسرائيلية عبر خليج العقبة، حيث أمضيت عامين من شبابي كانت المدينتان قريبتين جداً من بعضهما. أتذكر أنني كنت على الشاطىء في احدى الليالي (الشباب في إيلات يمضون معظم وقتهم على الشاطىء)، كان السياح يشيرون إلى العقبة على بعد عدة كيلومترات ويسألون عن سبب وجود الأضواء في هذا الجوار.

وتملكني من جديد شعور غريب خفي وأنا جالس على مدخل الفيلا البيضاء الجميلة في مدينة العقبة حاملاً كوباً من عصير الليمون في يدي، مع أصدقائي من المخابرات الأردنية وأنا أنظر إلى خليج إيلات وزوارق الوحدة البحرية مغادرين القسم العسكري من الميناء. تمكنت حتى أن المح حافة زورق يحمل صاروخاً طراز كلاس على الرصيف الضخم.

بعد يومين في العقبة أخبرت الاردنيين خطتي لبناء حلقة التجسس:

في هذا المناخ المريح، ناقشنا ردات الفعل المتوقعة من جراء تغيير الحكومة الذي حصل في الأمس. كان أكثر ما يقلقهم ان يدفع شارون لمفهوم أردن مثل فلسطين وكان يروج للاتجاه القائل انه بسبب وجود ٧٠٪ من الشعب الأردني كأسلاف للفلسطينيين، فعلى الفلسطينيين خلع الملك، وإقامة دولتهم هناك ونسيان الضفة الغربية.

عبرت عن رأي شامير الذي يرى هو أيضاً أن الفلسطينيين يجب أن يتركوا الضفة الغربية، ولكنه لا يكترث حقيقة إذا أصبح الأردن «فلسطين» أم لا. وحتى

لو مال إلى هذه الناحية، فاعتقد انه يفضل إبقاء الأمور على ما هي عليه.

أمضينا يومين في العقبة ثم عدنا إلى عمان. كان صديقي القديم فضلال ينتظرني في الفندق. ودخل مباشرة في صلب الموضوع.

ـ ماذا عن حلقة التجسس التي وعدت بها؟ كان وجهه يبتسم بعكس نظراته.

أخذت قطعة ورق من حقيبتي وناولته إياها.

ـ هذه قائمة تضم الضباط الإسرائيليين الموجودين حالياً في أوروبا والولايات المتحدة، الذين يريدون العمل في الحقل الأمني لمن يدفع لهم أكثر.

ما تحتاجه هو استدعاء بعض رجالك ممن يتقنون اللغة العبرية والأفضل مع اللكنة الاميركية. ترسلهم إلى مكسيكو، ومن هناك تتصل بهؤلاء الأشخاص على اللائحة. ستحضر الضباط الإسرائيليين إلى مكسيكو، على حسابك طبعاً وتستجوبهم واحداً واحداً كما لو كان مقابلة عمل. وتستضيفهم في فندق جيد وتعطيهم بعض المال لمصاريفهم.

ـ ماذا يحملك على الاعتقاد انهم سيتكلمون؟

ـ إذا اقنعتهم انهم بحضرة اسرائيليين. وحسب ما رأيت يمكنك ذلك، لن يتوقفوا عن الكلام. عليك ان تتذكر على كل حال ان لا تبالغ.

إذا رغب أحدهم بالمغادرة في أي وقت، لا يجدر بك ان توقفه. والأهم لا تدعهم يلتقون ببعضهم، تدبر أمر المقابلات بطريقة انفرادية، هز فضلال رأسه. وتابعت في وصف كيفية تصنيف المتقدمين وفق عمق معلوماتهم مثلاً تقنيات عسكرية استراتيجية. ويجند هؤلاء المتقدمون فيرسلون إلى مخيم المكسيك حيث يدربون «جنوداً» على تقنيات تكون ذا نفع كبير للاستخبارات الأردنية.

أمضينا الأيام الأخيرة في عمان ونحن نعمل على هذه الخطة. وفي وقت لاحق، أخبرني ألبرت بعد ان شاهد عدة أشرطة فيديو صورت أثناء الاستجوابات والتحقيقات التي جرت في فندق اكابولكو، ان قومه بدأوا يفهمون أخيراً أساليب الإسرائيليين، في التحليلات الأولى ظهروا كأطفال نموا بسرعة كبيرة يتمتعون

بكثير من الثقة بالنفس والقساوة ومقدار كبير من المودة.

كذلك أدركوا ان لدى الإسرائيليين حكماً مسبقاً لا يخلو من التطرف تجاه أي كان غير اسرائيلي، وهناك أيضاً تحيزات داخلية فيما بينهم.

كانت رحلتي الهادئة نوعاً ما قد شارفت على نهايتها عندما تعرضت لأكبر خوف في حياتي. في اليوم قبل الأخير لرحيلي، خرجت من الغرفة في الفندق وصادفت خادمة خارجة من الغرفة المجاورة كانت تعيد بطاقة الخدمة إلى مكانها وعلى غير عادتي ودون أي وعي من قبلي القيت عليها التحية باللغة العبرية قائلاً «بوكت توفي» التي تعني صباح الخير، بالكاد جذبت انتباهها ولكن اثنين من نزلاء الفندق كانا بانتظار المصعد التفتا ناحيتي.

عدت إلى غرفتي حتى لا أضطر ان آخذ المصعد معهما، وبما اني نزيل أو ضيف لدى الاستخبارات المحلية لم أقلق كثيراً. ونزلت بعدها لملاقاة ألبرت على مائدة الإفطار في صالة المطعم المزينة بألواح خشبية في الطابق الثاني، حيث الطاولات صممت لاستيعاب ثمانية مقاعد، لم يكن هناك أحد غيرنا نحن الاثنين، لعل فضلال سينضم إلينا فيما بعد.

كنت قد قمت بزيارة للمائدة المفتوحة المستديرة في وسط القاعة وعدت مع فطوري وبعد ثوان من جلوسي تجمدت كنت استطيع سماع رجلين يجلسان ورائي على الطاولة الأخرى، يتهامسان باللغة العبرية، ردة فعلي الأولى كانت ان التفت وأرى من يكونان، وأوقفت نفسي في اللحظة الحاسمة. فأنا لم أكن أنوي إطلاع البرت على الموضوع، لم أكن بصدد تسليم اسرائيليين هناك، لأي سبب كان. شيء واحد كنت متأكداً حياله، لم يكونا هناك بشأني وإلا لما جلسا ورائي أو تكلما العيرية.

خمنت، ان وجودهما هناك من أجل عمل رسمي، وهذا العمل لم يكن مع الاستخبارات الأردنية، يجب ان يكون مع المكتب الخارجي الأجنبي، في جولتي الثانية حول المائدة استرقت نظرة ناحيتهم وحصلت على صدمتي الثانية التي في الغالب تسببت بفقدان السيطرة على نفسي.

كنت أنظر مباشرة إلى وجه رجل عرفته من الموساد. لم يعد لدي أدنى

شك وتأكدت شكوكي، كان هذا الرجل في الموساد، كنت متأكداً لأنني تعاملت معه وكنت أراه بانتظام.

وفكرت انه ممثل أنجح بكثير مني، إذ لم يهز له جفن، والتفت نحو من يجالسه، وكانا الرجلين الذين يتكلمان العبرية، أكمل حديثه معهما بالانكليزية

- هل رأيت شبحاً؟ سألني البرت عندما عدت إلى طاولتنا.

- لا، كنت فقط أفكر انني أفرطت بالشرب ليلة أمس وهذا يعاود إزعاجي، أظن انني سأعتذر إذا لم يكن لديك مانع، وانتظرك في غرفتي.

- طبعاً، سأكون هناك بعد برهة، رد ألبرت بتهذيبه المعتاد.

تمددت على السرير، محاولاً تصور ما كنت أراه، تصور ما يحدث وفي النهاية وجدته. كنت أعرف الرجل ولكنه لم يتعرف إلي. «امون. ب» أو حسب اسم الشفرة: «هومبر» كان ضابط الاتصال في الدانمارك والبلاد الاسكندنافية، وكنت أحملق في صورته كل أيام الأسبوع أثناء عملي في المكتب الدانماركي. وكانت هذه إحدى طرق العمل في الموساد، التي تنص على تعليق صور ضباط عبر البحار على الحائط فوق المكتب الذي يستخدمهم لإعطاء ضباط المكتب وجهاً يرجعون إليه أثناء تعاملهم مع العاملين ميدانياً. كنت أعرف وجهه ولكنه هو لا يعرف وجهي وعجزت عن تكهن ماذا يفعل في عمان، أو تخيل سبب وجود الإسرائيليين الآخرين هناك. ولم يكن هناك مجال للتقصي دون إثارة الشكوك وتعريضهم للاحتراق وانكشاف أمرهم، فغالباً هم في الأردن تحت تغطية.

فلزمت غرفتي قدر المستطاع حتى غادرت في اليوم التالي.

الفصل الرابع والعشرون

ـ افتضاح الموساد وبداية الهجوم على البيوت الآمنة في لندن

ـ الانعطاف الكبير يكون بنشر كتاب يفضح الموساد

الأربعاء ٢٩ تشرين الأول، ١٩٨٦:

استقليت الطائرة العائدة إلى الولايات المتحدة. كنت قد تسلمت عشرة آلاف دولار مكافأة من الأردنيين، نقداً بالعملة الكندية. فصرحت عنها لدى دخولي الولايات المتحدة وملأت قسيمة خاصة، لأنني نويت المكوث في نيويورك تلك الليلة، ولكن بعد ان اتصلت هاتفياً ببيللا، قررت عدم البقاء في نيويورك والسفر مباشرة إلى كندا وفي اليوم نفسه.

ولم أصرح عن حمل المال معي خارج البلاد، ولكن صرحت عنه مجدداً لدى وصولي إلى كندا.

بعد مضي عدة أيام، حصل ما يثير إزعاجي، سمعت طرقاً على باب شقتي في اوتاوا، كان الطارق رجلاً من شرطة الفرسان الملكية الكندية يصطحب ضابطاً من جمارك الولايات المتحدة، من السفارة الاميركية، يريد ان يطرح علي بعض الأسئلة، وأوضح الشرطي الكندي انه يمكنني رفض التعاون مع الاميركي، ولكنني لو تعاونت لكان أفضل.. كنت استطيع رؤية التغطية التي استخدمها تنفجر وتتهاوى أمام عيني. ففي حال قدّم هذا الاميركي تقريراً من أجل الحصول على بعض الاثباتات ووقع هذا التقرير في يد الموساد، سيعلم هؤلاء انني كنت في الأردن، وتنتهي حياتي خلال أسابيع. لذا قررت ولم يكن لدي خيار آخر، للتعاون ورجوت آملاً ان لا يستلزم المحضر الرجوع إلى المكتب. في الواقع وضحت وشرحت لهم ان سفري جاء اضطرارياً ومن الضروري عدم تسريب هذه المعلومات. وأخبرتهم انني مستشار آمني، عائد من مهمة في الأردن، لتطوير

جهازهم الأمني كما قمت بتمرينهم وتدريبهم على آخر تقنيات الحماية للشخصيات المهمة وكان هذا صحيحاً.

بدا الإثنان مقتنعين بقصتي وأوضحا انه بسبب بقائي القصير الأمد في الولايات المتحدة والمبلغ الضخم الذي كنت أحمله، وانه على الأوراق الرسمية لم يخرج خارج الولايات المتحدة، من هنا قلقهم حول تورطي باحدى صفقات المخدرات أو شيء من هذا القبيل أعرف اليوم انهم صدقوا قصتي لأنني لم أرهم أو أسمع عنهم مجدداً ثانية. اضطرب افرايم وانزعج كثيراً عندما علم بالأمر وطلب مني ان أهدأ لفترة. كان اتصالنا منتظماً مع الأردنيين ولم يكن هناك حاجة للمبالغة في ضغط الوضع.

بشكل عام كان يظن ان الوقت ملائم للاسترخاء، كما قال على الهاتف (لم أكن استطع رؤية وجهه ولكني كنت أتخيل ملامحه الغاضبة) أعطى شامير لتوه تعليمات لقسم الاتصال للمباشرة بعلاقة مع الكا. جي. بي. خالياً يريد الرجل ان يتعاون معهم.

ويقول ان هذا سيساعد على اخراج اليهود السوفيات، بعد ان باءت الاتصالات مع الرومان بالفشل. لكن كلنا نعلم ان هذا ما كان يريده منذ زمن بعيد، وقلت: «ليس عليه التطلع إلى البعيد..».

فرجل الـ كا. جي. بي. في مكتبه، كل ما عليه هو التكلم مع «لفنسون»، أوليست هذه فكرة «لفنسون» في البداية؟ ولكن افرايم لم يقدر مزاحي حق تقدير وقال:

«ابق بعيداً، فالحرارة قد ارتفعت كثيراً هنا، ولا استطيع تحمل احداث في كل مكان في الوقت نفسه. سوف أحتاجك لإعادة العلاقات مع البريطانيين وحول عملية تجري في لندن، ولكن لا ملك كل المعلومات، ولا أريد أن يتعرض أحد رجالنا للقتل».

ـ من يديرها؟ سألت.

ـ «باردا» قالها بصوت منخفض وكأن الاسم بحد ذاته يمكن ان يسبب انهيار العملية. فسائق التاكسي السابق الذي تحول لجاسوس كان مسعوراً، أنانياً في وصوليته، وفي اقتناص الفرص وقد غاصت يده مراراً في طبق الحلوى، إنما

نظراً لعلاقاته واتصالاته ومعارفه، كان ينجو باستمرار مع قليل من التأنيب.
- لكن يتعذر على الموساد القيام بأي شيء دون ان تنكشف.

- قلت ذلك مستنداً، إلى انه بعد لقائنا في واشنطن، قام البريطانيون بمراقبة جميع أماكن النشاطات التابعة للموساد.

- لقد اكتشفوا ان البيوت الآمنة هي تحت المراقبة، لذا أوقفوا أعمالهم، والآن سيقوم «باردا» بهذه العملية مستخدماً ضابطين آخرين للهجوم من بروكسل.
- والحالة هذه، ماذا تريد مني؟
- كما قلت، ما ان أتلقى المزيد من المعلومات ستتصل بأصدقائك الانكليز وتنقل لهم المعلومات. أما في الوقت الحالي فأنجز عملك الذي تقوم به الآن، خدمة الأردنيين بانتظام وانتظر.

ودام انتظاري عدة أشهر تالية واستمتعت خلالها بحياتي. باشرت عملاً متواضعاً في مجال القمصان الرياضية، اصمم واطبع قمصاناً للأعمال وللتجارة السياحية في «اوتاوا» واطلقت عليه اسماً مركباً من اسمي بناتي شارون وليوراه: «تصاميم شارلي» وكان يسير بشكل جيد. لم يكن يدر أرباحاً ضخمة، ولكنه وفَّر لي عملاً أحبه، كنا نعيش جيداً من مال الأردنيين، وكان «افرايم» يغطي جميع مصاريفي. ودخل كل هذا المال في حساب شركتي، أما بالنسبة لبيللا، فكان هذا المال الذي اكسبه هو من تصميم القمصان أو من وظيفة المستشار الأمني لزائير وسري لانكا. ولكن هذا لم يدم طويلاً، وما لبث افرايم ان عاد، وكنا في طريقنا لتسديد ضربة أخرى؛ في درع الموساد المصفح.

ضلوع الموساد في اغتيال «الكاريكاتوريست» الفلسطيني علي الأحمد

الاثنين كانون الثاني - ١٩٨٧

كنت قد اتصلت منذ عدة أيام بالسفارة البريطانية في واشنطن، وأخبرتهم بوجود معلومات جديدة يحتاجونها، كان افرايم قد زودني بملف عن عملية «دومينو» التي من المفترض ان تنجز خلال فترة لاحقة من السنة في انكلترا.

كان المخطط ينص على قيام فريق من الموساد باغتيال أحد راسمي

الكاريكاتور الفلسطينيين الذي يعمل لدى صحيفة كويتية، ومن ثم وضع اللوم على منظمة التحرير الفلسطينية أو كما تقول الإشاعة «الفرقة ١٧» وكانت هذه العملية طويلة ومعقدة يتشارك فيها عدة عناصر من الموساد.

وتأكدنا أنا وافرايم خلال مراجعتنا للمخطط، انه إذا تدبر البريطانيون اعتقال الموساد في الجرم المشهود، فستتضرر العلاقات الانكليزية الإسرائيلية لبعض الوقت، وما كان يستحق المغامرة هو أن قيادة الموساد لن تتمكن بأي طريقة من الاستمرار بعد مثل هذه الفضيحة.

وكانت هذه القشة التي ستقصم ظهر البعير.

حجز افرايم غرفة في فندق «وست إن» في اوتاوا وانتزع مني وعداً بزيارته مباشرة بعد انتهاء اجتماعي بالبريطانيين حوالي الظهر، وصل البريطاني إلى المبنى حيث أقيم. ففتحت له البوابة الكترونيا ونزلت السلالم للقائه وجلسنا في موقع ما من الطابق الأخير حول المسبح. كنت أريد أن يجري حديثنا الأول في مكان أعرفه وارتاح فيه. وبعد ذلك يمكننا ان ننتقل إلى شقتي أو غرفة في فندق، الـ «وست إن» حيث حجز لي افرايم غرفة باسمي.

لم أكن أعرف الرجل، فعرّف عن نفسه وعبّر عن امتنان قومه العميق للمعلومات التي قدمتها بشأن قضية جوازات السفر في المانيا الغربية. وسألته إذا كانوا استعملوا المعلومات التي أوردتها بشأن «ماكسويل» والمبالغ الضخمة التي كان يحولها لمحطة الموساد في لندن، أكّد لي الرجل أنه اطلع على هذه المعلومات وانه سيتم الاهتمام بها بلا شك. كان غاية في القلق لسماع ما كنت أقوله، وتكفل هذا بإثارة حيطتي، كان هذا موضوعاً غاية في الأهمية لا يمكن معالجته في مكاننا الحالي، لذا اقترحت أن أقوده في السيارة إلى غرفة في فندق حجزتها، كنت مندهشاً من السرعة التي وافق فيها على الذهاب معي إلى الفندق، من دون إتخاذ أي خطوات احترازية.

قدت سيارتي المركونة في الطابق السفلي، وتوجهت إلى الاستعلامات لاحضار المفاتيح، حجزنا جناحاً في زاوية وما ان ولجناه حتى دخلنا في صلب الموضوع دون ان نضيع وقتنا.

طلبنا قهوة وبعض السندويشات وبعد ان احضرت، باشرنا العمل، ناولته

الملف الذي أعطاني إياه افرايم الذي يفصل عدة مظاهر من العملية التي تجري حالياً في انكلترا.

البريطانيون يراقبون «البيوت الآمنة»

كان معظم اللاعبين الآن قد احتلوا أمكنتهم. على الأغلب كنتيجة للمعلومات التي أعطيتها للبريطانيين في واشنطن، دبروا مطاردة المنفذين أثر مغادرتهم للسفارة الإسرائيلية وكشفوا عدة بيوت آمنة وهم الآن يحفظونهم تحت المراقبة الشديدة. وهذا يعني انهم ملمون بمعظم نشاط المركز الروتيني. مع ذلك وقبل عدة أسابيع أدرك أحد المنفذين انه مطارد ونقل الخبر لرئيس المركز الذي كان لديه فريق «ياريد» قادم من اسرائيل للتحقق من أمن العمليات. ووصل «موسى» رئيس العمليات الأوروبية من بروكسل لمغالجة المنهمة. واكتشف الإسرائيليون ان عدة بيوت آمنة كانت تحت المراقبة فاستغنوا عنها، واعتقدوا ان أحد الضباط قد أهمل خلال اختباراته الروتينية معرفة إذا كان نظيفاً وليس مطارداً. والآن بعد ان خلت الساحة كانوا واثقين من إمكانية متابعة العمل، إنما لأجل سلامتهم احضروا ثلاثة ضباط هجوم من مركز بروكسل الرئيسي من الذين عملوا خارج السفارة، أي انه يتعذر عليهم الاندماج في فريق عمل السفارة كما هم الضباط العاديون في مركز لندن. بعد عدة أيام انتصر فريق الياريد، وقد عاد البريطانيون لتعقبهم لأنهم عرفوا من يكون المنفذون. وهكذا كلما اتبع المركز تدابير أمنية سيتم كشفها من قبل البريطانيين. قرر موسى، الذي كان يعرف أن البريطانيين يراقبون تقديم العملية لزعماء الموساد كعملية مزدوجة عمياء تحت اسم دومينو، دون شك كان الاسم الرسمي للعملية كلمة ركبها الكومبيوتر تظهر على كل الوثائق الرسمية ولكنها لقبت بـ دومينو.

تجنيد ضابط في «الصاعقة»

وظهر وجه جديد على مسرح الأحداث، كان ضابطاً في منظمة التحرير الفلسطينية لا يملك سوى القليل من الخبرات جندته الموساد خلال حرب عام ١٩٨٢. كان برتبة ملازم ثان في أواخر السبعينات، وعضواً في الصاعقة، تخرج من المعهد العسكري التابع لفتح وخدم في وحدة المدرعات الفلسطينية في الجيش السوري.

في العام ١٩٧٨ نقل مع وحدته العسكرية إلى لبنان حيث جند من قبل الموساد. كان يدعى محمد مصطفى عبد الرحمن وكان رقمه التسلسلي ١٣٩٥٢.

كانت الصلة الوحيدة لهذا الشخص في بريطانيا، فلسطيني آخر يدعى صوان، يعمل لدى الموساد منذ فترة. اعتبر موسى (وكان مصيباً) ان صوان يخضع لنوع من المراقبة لأنه كان يتصل بـ«باردا» ضابط قضيته الذي بدوره استخدم المنزل الآمن المراقب. انطلاقاً من هذه النقطة، بدأ تصوير عبد الرحمن بمظهر النذل إلى جانب كونه المسؤول عن الصلة المباشرة بين منظمة التحرير والفرقة ١٧.

كان سيحضر أسلحة إلى انكلترا ويسلمها لصوان ليحفظها في شقته وهذا من شأنه ان يعطي البريطانيين شعوراً زائفاً بالأمان: فهم لن ينتقلوا لمرحلة العمل، طالما هم يعتقدون انهم ملمون بما يجري، آملين بالتقاط سمكة أكبر. والأهم من ذلك أنهم كانوا واثقين أنهم يقومون بكل هذا دون علم الموساد.

وفي الوقت المناسب، يغادر كل من «صوان» و «عبد الرحمن» البلاد، ويحضر عميل موساد كيدون، ويقوم باغتيال المصور الكاريكاتوريست الفلسطيني، ليظهر وكأن الفاعل هو عبد الرحمن، الذي سيكون الأداة ويكون هذا الأخير مرتاحاً في قبر مريح ومجهول في قطاع غزة.

وكما يجدر بالأصدقاء ان يكونوا، توفر الموساد للبريطانيين المعلومات التي يحتاجونها في التحقيق ويسلمونهم الأسلحة، المخبأة بأيديهم ويتخلصون من «صوان» كعميل سيىء كان من المفترض ان يحضر معلومات ولكنه لم يفعل.

كان البريطاني ينصت إلى كل هذا ويسجله على شريط تسجيل كل الوقت، واطلق سيلاً من الأسئلة، راغباً قبل كل شيء معرفة مصدر هذه المعلومات، وبأفضل ما استطعت أجبته على كل الأسئلة التقنية، أما بصدد المصادر، فوجب علي التوضيح انها مسألة لا تعنيه.

بدلاً من ذلك، أخبرته عن امتلاكي لنموذج ربطة عنق جيد له، وناولته صورة جواز سفر، نزع منها الوجه.

ـ لم هذا؟ سألني وهو يحدق بها.

ـ اعط هذه للذين قابلتهم في واشنطن قل لهم هذا نموذج جديد، سيعرفون عن ماذا أتكلم.

لا أريد ان انتهي مثل فانونو

كنت قد اطلعت البريطانيين خلال اجتماعنا في واشنطن، ان الصور التي يمتلكونها والتي تظهر رجال الموساد يضعون نموذج ربطات عنق من ثلاثة.

فمختبر التصوير حيث أخذت الصور، يقدم سترات وربطات عنق من أجل الصورة، إذ انه من النادر ان يذهب أحد إلى عمله في اسرائيل وهو يضع ربطة عنق. لذا يجب على الدبلوماسي الجديد الذي سيعمل في السفارة أن يظهر بمظهر لائق في الصورة التي ستعطى للسلطات الأجنبية، لذا فهو لا يملك خياراً، أكثر من وضع احدى هذه الربطات. من هنا كان من السهل تحديد هوية رجال الموساد من خلال ربطات العنق. وكنت علمت ان هذا ما ساعد البريطانيين في الكشف عن هوية العميل الجديد، واليوم أحضر لي افرايم صورة جديدة له، وهو يرتدي ربطة عنق جديدة، جاد بها احدهم على مختبر التصوير.

ـ ماذا لو تأتي إلى لندن لبضعة أيام؟ كل المصاريف مدفوعة، طبعاً سألني الرجل مبتسماً وكأنه يكافئني بجائزة ما.

ـ لماذا؟ حتى انتهي كما انتهى فانونو؟

ـ عن ماذا تتكلم؟ لم تكن لنا أي علاقة بالأمر؟ قال وبدا كأنه أهين.

ـ ما هذا العذر؟ كان مركز لندن تحت مراقبتكم كل الوقت، كذلك عدة بيوت آمنة، لا يوجد أي مجال، لعدم معرفتكم ان الفتاة التي يقابلها، سندي هذا اسمها، لم تكن تلك التي تزعم، كان عليكم معرفة ذلك، اعطيتكم ما يكفي من المعلومات لتتحققوا انها ستقابل أشخاصاً من مركز لندن بعد لقائها «بفانونو» كانت تزود بالمعلومات ثم تعود لتقدم معلومات في أحد البيوت الآمنة وكان من المفروض ان تراقبوه. لذا أرجوك لا تعطني هذا العذر: لا علاقة لنا بالأمر.

احتفظ الرجل بوجه ثابت القسمات ولكن وقفته ووضعه كانت تترجم إنزعاجه، ناولني ظرفاً وقال: «يريد أصدقاؤنا ان تحصل على هذا، اعرف انه ليس بالكثير ولكننا نرغب فقط بشكرك».

احتوى الظرف على ثمانمائة دولار أميركي، غادرنا الغرفة سوية، ثم قال انه يستطيع معرفة طريقه من هناك عرفت انه سيسرع إلى الهيئة البريطانية العليا ويرسل تقريره بأسرع وقت يمكنه تحريره. وقبل ان نودع بعضنا أعطيته اسم المستهدف في عملية الدومينو، حتى يتمكنوا من حمايته في حال فشل الخطط الأخرى. مشيت حتى مجمع «باي وارد ماركت» في اوتاوا وهو مكان صغير ولكن مبهج لأرى إذا كان هناك من يتعقبني. كنت نظيفاً، فعدت إلى الفندق وإلى غرفة افرايم. أعطيته جولة سريعة وأخبرته عن تمنياتي انه من الواجب الاتصال باسكتلانديار (واعلامهم بقيام مثل تلك العملية). وقال افرايم:

ـ هذا يا عزيزي، سيضيع هدفنا، فسيوقفون العملية قبل بدءها، وعندها سينفذ الموساد منها بسمعة وردية. يجب ألا تقلق، ستتم معالجة الأمر بشكل صحيح.

اعطيتهم أكثر مما يحتاجون لذلك. ومع ذلك أنا لست سعيداً بإثارتك قضية «فانونو».

غادر افرايم في اليوم التالي. ولم اسمع بما حصل بعدها إلا لاحقاً.

طرد أعضاء الموساد خارج لندن

كان ذلك في الثاني والعشرين من تموز عندما اغتيل، علي الأحمد رسام كاريكاتوري في جريدة كويتية تنتقد قيادة منظمة التحرير، زعماً بيد «عبد الرحمن» وفريق من القتلة الفلسطينيين وحصل اهتياج عظيم في صفوف الفلسطينيين. وصحا البريطانيون من سباتهم الطويل وطردوا جميع أعضاء مركز الموساد خارج لندن. وتعجبت دوماً بعد ذلك هل كان البريطانيون ليظهروا مثل هذا القدر من الغضب لو ان قضية «صوان» كعميل للموساد، لم تشق طريقها إلى الصحافة كنتيجة لمحاكمته المفتوحة في حزيران ١٩٨٨.

الأمر الأكيد هو ان الاستخبارات البريطانية مسؤولة تماماً مثل الموساد عن مقتل الكاريكاتوريست لأنه كان بمقدورهم الحؤول دون ذلك.

وهذا يؤكد ما عرفته بعدها ان أي منظمة تتصل بالموساد كانت ستغير طريقها بعيداً عن مصلحة البلد الذي تخدمه.

بعد مقابلتي للبريطانيين ساورني شعور داخلي انهم لن يشكلوا مصدراً متحرراً تماماً من مظلة الموساد.

ويقع العمل في آخر الأمر على من يهتم فعلاً، أفراد عليهم اتخاذ موقف كرجال صالحين وفضح ماهية الوحش، وكشفه ليس أمام فراش الموساد، بل أمام العامة. وقررت وأنا مدرك تماماً انني سأتوجه نحو الشعب.

في البداية، افترضت ان أسرع طريق لتحقيق ذلك هو بصنع فيلم. وادع الجمهور يعرف الحقيقة حول الموساد، وأي طريق أفضل للوصول للشعب أكثر من الفيلم.

قمت ببعض التحريات من دون اعلام افرايم بمخططاتي وفي النهاية حصلت على مقابلة مع رجل من مونتريال يدعى «روبن سبراي ويملك شركة صغيرة للأفلام السينمائية تدعى «تيليسينة» وبعد التقصي عن خلفياته فكرت انه بعيد عن الطائفة اليهودية ما فيه الكفاية ليكون بأمان.

التقينا في مكتبه في مبنى قديم أعيد تحديثه في مونتريال. كان لائقاً للغاية وشديد الحماس ولكنه أوضح منذ البداية انه ينوي معالجة القصة على أنها خيالية محض خيال لأنه لن يكون بمقدوره تحمل النتائج التي ستسفر عن هذا المشروع. طلبت منه ان يقدم لي عرضاً وقررت انه في حال فشلت الطرق الأخرى فسأسلك هذه الطريق.

وتوقفت بعدها عند ناشر في «تورونتو» دبرت لقاء مع اثنين من ممثلي دار النشر في أوتيل «برنس». قررت في الدقيقة الأخيرة تقديم الفكرة على انها خيالية تستند على قصة حقيقية. لم تكن بالفكرة الجيدة، وخذلني الناشر.

المراحل التي سبقت تأليف الكتاب الذي فضح مخططات الموساد:

ـ بما أنك لم تكتب أي شيء، قبل ذلك، نحتاج لمطالعة كل المخطوطة. قالوا ذلك وكانوا على حق. تخليت عن جهودي في الوقت الحالي، وقررت أن أقنع افرايمَ بفكرتي واستفيد من عمق معرفته وعلاقاته ومعارفه من ذوي الشأن.

لم يبد افرايم حماساً لفكرة كتابي وحاول في البداية بشتى الطرق أن

يثنيني. وأخبرني أن الموساد لن تدع مثل هذه الأمور تحصل. لم يحدث في السابق ان سدد أحدهم ضربة بهذا الحجم ضدهم ونجح.

كان أمامنا تاريخ طويل للغوص فيه مليء بأمثلة الرجال الذين حاولوا السباحة عكس التيار.. ومعظمهم بات مثبتاً تحت الأرض بستة أقدام، أما الآخرون فكانوا مبعثرين كأوراق الشجر الميتة في أعماق مهجورة من الصحراء.

والشخص الوحيد الذي قام بكتابة كتاب عن الموساد وعاش بعدها كان، الرئيس السابق للموساد «إيزار هاريل» الذي يعتبر عالمياً أنه خرف.

والسبب الوحيد الذي مكنه من سرد قصته هو انه عقمها ونظفها حتى باتت لا تتعدى أهزوجة مديح للموساد. أما ما كنت أنوي عمله فكان غير معروف نهائياً..

ـ سيتهمونك بالخيانة، ويصبح اسم «اوستروفسكي» مرادفاً «لبندكت ارنولد» في الولايات المتحدة. قال افرايم.

ـ وماذا لو اكتشفوا ما كنت أقوم به في آخر سنتين، بواسطتك أو أحد الآخرين؟ ماذا تعتقد أنهم سيدْعونني عندئذ؟

ـ ولكن هذا لن يحصل، فأنت غير معرض أبداً، فالأمور تسير على ما يرام في الوقت الحالي.

نظرت إليه وعلمت أنه استطاع رؤية الغضب في عيني.

ـ هل هم عظماء إلى هذا الحد؟ أمضينا حوالي سنتين نعالج الأمور نعمل طبقاً لطريقتك ولم ننجز شيئاً. اعتقد أن الوقت قد حان للمباشرة بالعرض الحقيقي.

ومهما كان قرارك أنا موافق، أريد فقط أن تعلم، إنه مهما تقول سأحاول، إذا تواجدت في الجوار، فسأستشيرك حول ما يدخل في الكتاب وما لا يدخل، لأنه في النهاية نمتلك المفكرة ذاتها.

جلس صامتاً لبرهة، تاركاً سيجارته تحترق ببطء في المنفضة، ثم نظر إلي وابتسم قائلاً: «بحق الجحيم لنسدد نحو الهدف».

لم أشعر بمثل هذا الارتياح منذ فترة طويلة، علمت أنني عدت مجدداً نحو الطريق الواسع الرئيسي. وستخرج الآن الأشياء إلى العلن أما المشاكل العالقة فلم تكن ذات أهمية.

أو هكذا ظننا في البداية، ولكن كلما فكرنا ملياً بالمسؤولية الواقعة على عاتقنا كلما كبرت وتعقدت.

الكاتب يجب ألا يكون يهودياً

من سيقوم بالكتابة الآن؟ لم أكن في وضع يسمح لي بذلك، لم أكن واثقاً كفاية بقدراتي، وكنت أرغب بشخص جديد قادر على رواية القصة بأبسط طريقة، ليعطيها الأثر الأكبر. وهذا الشخص لا يمكن أن يكون يهودياً، لأسباب أمنية، بالإضافة يجب عليه أن يمتلك قذائف.

ثم تأتي مشكلة إيجاد ناشر يقبل بمهاجمة الموساد، والاحتفاظ بكل شيء طي الكتمان حتى تتم معالجة الفصول ومناقشة ماذا سنقول في الكتاب.

كما كان هناك أيضاً مسألة كيف سنحمل الناس على تصديقنا. عند هذه النقطة لم يكن لدينا شك أن ردة فعل الموساد الرسمية ستكون: «فيكتور اوستروفسكي؟! لم نسمع قط بهذا الاسم، ولكن يمكنك التأكد من قسم الأمراض النفسية في وزارة الصحة».

ولم نكن لنعرف سوى القليل عن ما كان ينتظرنا.

الفصل الخامس والعشرون
إفرايم يقدم للكتاب موضوعات جديدة ومثيرة عن الموساد

فكرة مجنونة:

أصرّ افرايم ان تتم معالجة الكتاب الذي أنوي كتابته، من قبل فريقنا قدر المستطاع، كذلك وضع القاعدة التالية: بما أنني المعني الأساسي فأنا أملك حق النقض حول كل ما سيدخل في الكتاب، كذلك الكلمة الأخيرة في كيفية المعالجة. كنا نجلس في غرفة في فندق «الفور سيزنس»، افرايم و «يوري» الذي أوضح منذ البداية أنه لن يمكث أكثر من عدة ساعات لذا علينا سماعه أولاً ـ و ـ«إيلي» ـ الذي كان لا يزال يعتقد أنها فكرة مجنونة ويرغب في إعلان معارضته الشديدة (هذا المقطع سيسعده كثيراً) وأنا كنت قلقاً نوعاً ما، فقد أخبرت «بيللا» عن نيتي في تأليف كتاب عن الموساد، وطمأنتها أنه سيكون من محض الخيال، ولكنني طلبت منها ان تبقي الأمر سراً، وعندما قلت هذا، حملقت بي وكأنني أعلق على الأزياء الحديثة وأنا ألبس سترة من الطراز القديم. كنت أعلم انها لن تصدق، ولو لدقيقة، انني قادر على نشر الكتاب.

أما وأنا أنوي كتابة كتاب واقعي وليس خيالي، فلم أكن واثقاً تماماً كيف سأخبرها ومتى. وزاد قلقي لأنه في حال باشرت العمل مع أحد، يصعب علي إخفاء الأمر عنها. وبما انها كانت شديدة الولع بدولة إسرائيل، كنت أجهل كيف ستكون ردة فعلها.

ـ حسناً ماذا سنفعل اليوم؟ سأل «يوري».

سيدة في معاطف عدة:

ـ أريد لمحة موجزة ومخططاً تمهيدياً عن موضوع الكتاب. فأنا احتاج

لعناوين، أكثر مما أنوي استخدامه، حتى يتمكن من أعمل معه أن يقول رأيه ويؤثر على الحصيلة.

أراد إيلي أن يعرف غرض الكتاب، ووافق افرايم على ان يكون هذا من أوائل الأشياء التي يستوجب البحث فيها. عندها يمكننا اختيار القصص الأكثر ملاءمة لتحقيق الهدف وقال:

ـ هناك ملايين القصص، ولكن أغلبها مدعاة للملل، والعديد منها لا يخلو من التكرار مثل سيدة واحدة في معاطف مختلفة. وجاء جوابي.

ـ أريد أن أظهر ما هي الموساد، أعطي الناس الذين لا يملكون آية فكرة عن العمل الحقيقي الذي تقوم به وكالة للاستخبارات وأقدم لمحة عما يحصل. مما لا شك فيه ان البعض سيجده ساحرا وبغيضاً في الوقت نفسه.

أريد أيضاً إبلاغ من لم نستطع الوصول إليهم في وكالات الاستخبارات التي تتعامل مع المكتب، بأن يعيدوا النظر في العلاقة التي هم بصددها.

لا اعتقد ان الدانماركيين أو الالمان سيفخرون كثيراً حين يعلمون كيف تم استغلالهم وحتى لو ان الناس في إسرائيل تعتبرني خائناً، في النهاية عليهم النظر والتدقيق في وقائع الكتاب وهذا سيفي بالغرض. بمعنى آخر بعد هذا البحث، لن يبقى أحد في العالم إلا ويسعى لتنظيف الموساد.

عملية «أبو الهول»

وقال افرايم:

ـ عليَّ الموافقة معك، أوصي في البداية ان تتعرض لقسم من خلفيتك وجذورها من ثم تغوص في العمليات. وعليك التقاط تلك التي سمع الناس شيئاً عنها، أو يعلمون حصيلتها النهائية مثل عملية المفاعل النووي العراقي.

ـ موافق أجبته ودونت على منكرتي الصفراء «عملية أبو الهول».

أشعل يوري سيجارة وقال:

علينا جمع قصة من كل قسم وهكذا نغطي الاقسام كلها. لم لا تضع لائحة بالأقسام ونختار عملية مناسبة من كل واحد.

التفت افرايم نحو يوري وقال:

ـ «هل يمكنك اختصار جولتك في الولايات المتحدة والعودة إلى تل أبيب»؟

ـ «أنا عائد بعد شهر على أية حال لماذا»؟

ـ نحتاج لجهاز إنذار جيد أثناء كتابته لأنه سيورط الكثير ممن يعملون في الخارج. علينا أن نتحضر ونجهز أنفسنا لإعلامهم بالموعد الذي يصبح مشروع الكتاب معروفاً من قبل المكتب.

ـ كنت أعتقد أنه يمكنك السيطرة على هذا الأمر.

ـ طبعاً، لكنني لا أملك سلطة على صديقك «آرون شرف» من تسافيريم.

ـ وما علاقته بالأمر؟

ـ يمكن للمعلومات ان تعود إلينا من إحدى المنظمات اليهودية التي لنا صلة بها مثل «بناي بريت» أو «أوجا» عندها هناك كل الآخرين الذين يقودهم «شليشيم» أعني أنه في اللحظة التي يستشف أحد أعضاء الطائفة اليهودية في أي مكان في أمريكا الشمالية أي أثر للكتاب، سيهرعون لإخبار منظماتهم، وهم متأكدون أنهم يقومون بواجبهم الصهيوني. و «شرف» هو لمن يوجههم ويملي عليهم ما يفعلونه.

فهمت لن تكون تلك مشكلة، سأكون هناك على أية حال.

بعد ذلك وضعنا رسماً بيانياً للموساد على ورقة من أوراق الفندق وعلقناها على شاشة التلفزيون. ثم بدأنا بجدولة القصص التي سنرويها، وفق هيكلية الأقسام.

وقررنا ان نختار العمليات التي تكشف أكثر والتي تضم وصفاً يغطي أكبر قدر ممكن من العنصر السري بما فيه التخطيط واتخاذ القرارات حتى يتمكن القارىء القدير على استيعاب درجة الفساد المستفحل في الموساد.

عملية «هنيبعل»

وقال افرايم: أظن أن عملية «هنيبعل» ونهايتها الفجائية سوف تشكل فصلاً مهماً. والتفت إلى يوري قائلاً: الطريقة التي استعملها «ران» للقضاء على ذلك السياسي الالماني هي بحد ذاتها قصة شيقة.

كنت قد تطرقت لبعض جوانب عملية هنيبعل هذه، في مجال سابق.

وقد علمت بها أيام عملي في المكتب الدانماركي. كانت عملية مشتركة جمعت صلاته الوصل والنشاط الميداني السري لمصلحة «ملوخ» وقامت على تعاون ثلاثة بلدان مع وكالات استخباراتها، بدقة أكثر كانت الوكالات الإستخباراتية هي التي تتعاون وليس الدول.

كانت عملية هنيبعل في حد ذاتها صفقة أسلحة بين إسرائيل وإيران، عن طريق وساطة وكالة الاستخبارات الالمانية لانجاح العملية.

كانت إيران تحتاج لقطع غيار من أجل سلاح الجو المتداعي وبما ان إسرائيل تملك هذه القطع، خاصة قطع فانتوم ف ـ 4، فكانت الصفقة ضرورية وكان من الطبيعي أيضاً ومن الواضح ان تهدف الموساد لإطالة الحرب العراقية ـ الإيرانية كسباً للمال. وبما أن آية الله خميني خاصة ـ وإيران عامة ـ لم يكن متحمساً بنوع خاص للتفاوض وللاتفاق مباشرة مع إسرائيل، حيث كانت إيران تقسم صبحاً ومساء على تدمير إسرائيل فقد شكل الألمان صلة الوصل الملائمة.

وقع اختيار الموساد على وحدة BND للقيام بالمهمة وهي وكالة الاستخبارات الفدرالية الالمانية، كما وضعت الموساد الشرطة الاستخبارية المحلية في كل من هامبورغ و «كيل» في الصورة. السبب الرئيسي لتوريط الاستخبارات المحلية، لأن هذا النوع من العلاقات بين الموساد والـ BND كان الأول من نوعه، فغالباً ما كانت الموساد تبقي عملياتها في المانيا بعيداً عن علم الاستخبارات الفدرالية، وكان فريق العمل في الموساد ينظر إلى الاستخبارات الفدرالية الالمانية على أنها ليست أهلاً للثقة لسببين: أولاً كان هناك اعتقاد راسخ بأن الوكالة كانت مخترقة تماماً من قبل «الستاسي» قوى الأمن الدولي لالمانيا الشرقية، وثانياً كانت الـ BND على علاقة وثيقة «بهلموت كول» الذي لم يكن من محبذي الموساد.

اختار المركز لهذه العملية صلة وصل مع الاستخبارات الفدرالية، كان قد عمل في السابق في إدارة بعض الصفقات المشبوهة عبر ضابط الموساد السابق «مايك هاراري».

في هذه العملية، كانت قطع القاذفات (JET) من أدق العناصر الالكترونية حتى أجهزة الرادارات بما فيها أكبر محركات القاذفات وقطع تجميع الجوانح، تشحن عن طريق البر لتأمين تسليمها وإخفاء مصدر شحنها الأساسي.

وكانت الحمولة التي وضبت ضمن مستوعبات خاصة قد نقلت في البادىء على بواخر إسرائيلية عبر ميناء «اشدود» وكانت المستوعبات من النوع الذي ينقل مباشرة من البواخر إلى الشاحنات المنتظرة وتصبح جزءاً من الشحن وتفرغ السفن حمولتها في موانىء إيطالية متنوعة، حيث ترتب الاستخبارات الإيطالية (SJSMIJ) الوثائق الضرورية، للموافقة، متحققة من أن المستوعبات المحملة بمنتجات زراعية إيطالية تتجه نحو المانيا.

وتعلق على الشاحنات المعدة للنقل إشارات تابعة للمنتجات الإيطالية ويؤمن الأيدي العاملة «السائقين»، حلفاء ايطاليون للموساد، من اتباع الجناح اليميني لرجل يدعى «ليشيوجللي» ومجموعة خارجة عن القانون، تدعى «بروباغندا دوو»، ومجموعة أخرى تدعى «غلاديو» (من ذريات الحلف الأطلسي كالتي في بلجيكا) ويسلم السائقون الشاحنات في منطقة مستودعات في هامبورغ حيث يبدل طاقم السائقين بمجمله وهذه المرة من الإسرائيليين الذين اطلقت عليهم الموساد مصطلح OML وهو اختصار لـ «اوفيد مكومي» أي «عمال محليون» كان العمال المحليون عبارة عن طلاب أتوا إلى البلد المذكور على حسابهم، ويتقدم هؤلاء الطلاب إلى السفارة الإسرائيلية بطلبات عمل وإذا كانت الموساد تحتاج للمساعدة، يقوم «الشبك» بتقصي أمني عن الطالب، إذا كان كل شيء على ما يرام، يتم استخدام الطالب لمهمات بسيطة كقيادة شاحنة أو استئجار بيوت آمنة.

ومن هامبورغ تتوجه الشاحنات إلى مدرج مهجور يبعد عشرين دقيقة خارج «كيل» حيث يتمّ الكشف عن الحمولة بواسطة إيراني درس في الولايات المتحدة حاصل على درجة إجازة في الهندسة.

وما ان تتم الموافقة على الحمولة حتى يدفع نصف المبلغ نقداً أما الدفعة الثانية فتسلم عندما تصل الحمولة إلى إيران.

أدار العملية بكاملها صلات التعاون من الدرجة الوسطى للناشطين

الميدانيين في الـ BND وصلات الموساد في بون.

وتاريخياً يجدر بالذكر ان هلموت كول وافق على التعاون مع الموساد لمكافحة الإرهاب، ومنذ ذلك الوقت يوافق كبار الضباط في قيادة الـ BND على السماح للموساد باستخدام محطاتهم الميدانية ويرون في حلقات الموساد الدراسية حول الإرهاب (التي تعطى لأفراد الـ BND دون أي مقابل كضيوف للاستخبارات الإسرائيلية).

خطوة كبيرة للصداقة

ما كان كبار ضباط الـ BND يجهلونه هو ان هذه الحلقات الدراسية التي تقوم بها الموساد كانت عمليات لاستقطاب وتجنيد، ادخلت في خدمة الموساد مئات لا بل آلافا من الولايات المتحدة حيث قامت «بناي بريت» بتجنيدهم ومن وكالات الاستخبارات في الدانمارك والسويد وعدد من البلاد الأخرى.

ما يهم فعلاً في الميدان الاستخباراتي، لترقية محتملة، هو المقدرة على إثبات أنك احبطت هجوماً إرهابياً. انطلاقاً من هذا الوعد، مضت الموساد بتحريك كل العاملين في الدرجة الوسطى من الاستخبارات الالمانية BND لتتعاون معها، مقنعة إياها أن القيادة تريد المشاركة إلا انها لا تستطيع الموافقة رسمياً.

إضافة إلى ذلك، ان حصول الموساد على التعاون الكامل من قبل الاستخبارات المحلية في كل قطاع في المانيا الغربية ساعد على اقناع العاملين في الدرجة الوسطى من الاستخبارات الفدرالية على ان ما تقوله الموساد هو الصحيح. (لكل مقاطعة في المانيا الغربية استخباراتها الخاصة. وهي غالباً ما تكون مرتبطة بشرطة المقاطعة ومنفصلة تماماً عن القسم الفدرالي).

وصلت الحمولة كما كان متفقاً ولم يكن هناك أية مشاكل لمدة طويلة.

شقت الشاحنات طريقها من المانيا باتجاه الدانمارك حيث حملت على سفن دانماركية تحت مراقبة المخابرات الدانماركية ووسيطهم مع الموساد، بول هنسن موزيه ومن هناك سلمت إلى إيران.

بعد النجاح في نقل البضاعة تشجع الإيرانيون وطلبوا م[illegible] الاستخبارات

الفدرالية الالمانية، عبر وسيطهم إذا كان بالإمكان تدريب الطيارين الإيرانيين، والأفضل خارج منطقة الحرب. اتصلت المخابرات الفدرالية الالمانية بوسيط الموساد وطلبت منه ذلك. في البداية عرضت الموساد إقامة التدريب في جنوبي أميركا في شيلي أو في كولومبيا حيث يمكنها الحصول على المدارج المطلوبة والموافقة المحلية على مثل هذه العملية. إلا أن قرب هذه البلاد من النشاط الاميركي في تلك المنطقة جعل الموساد تبدل رأيها.

بعد ان حصلت الموساد والـ STT على خبراء من سلاح الجو الاسرائيلي بالإضافة إلى معلومات أضافية من الـ STT حول مستوى الطيارين رأت ان معظم التدريبات يمكن ان تتم في بدائل وبالتالي تجري في المانيا. ويمكن استعمال المدرج المهجور وهنغاراته الضخمة الفارغة (حيث تم التحقق من قطع الغيار التي باعتها إسرائيل لإيران) لاستيعاب خمسة بدائل إلى جانب كل التجهيزات الأخرى المطلوبة. وكان على الإيرانيين تمويل البدائل نقداً ودفع كل نفقات التركيب إضافة إلى مصاريف التدريب. وسيقوم فريق من عشرين إسرائيلياً لتدريب الطيارين الإيرانيين، وسيعيشون مستقلين في كل من «كيل» و «هامبورغ» بينما يبقى الطيارون الإيرانيون في منطقة المدرج خلال التدريب (لأن الالمان يخشون ان يلفتوا إليهم الأنظار).

قام وسيط الاستخبارات الفدرالية الالمانية بالعمل مباشرة مع وسيط الموساد في بون الذي أوصل بدوره المعلومات إلى مركز الموساد السري الذي استأجرته السفارة في بون.

واقترح الالمان، ضرورة اطلاع رئيس وزراء مقاطعة «شلزفغ هولسشتاين» سراً من أجل امن وسير العملية، كان هذا الرجل يدعى «أوفي بارشل» وكان صديقاً حميماً لهلموت كول.

ولضمان تعاونه. تقوم الاستخبارات الفدرالية BND باستعمال نفوذها لتأمين التزام مالي فدرالي لتعويم شركة شحن بحري مفلسة، وتكون هذه مفخرة لبارشل. ثم كان هناك قضية إقامة مطار دولي جديد في المنطقة وكان قد وعد بالمساعدة. وقام الالمان أيضاً بعدة وعود أخرى لم تكن ذات أهمية للموساد أو لران هـ. الذي كان يوجه العملية.

عندما تركت الموساد، كان تدريب الطيارين في أوجه وبالإضافة إلى البدائل استخدمت عدة طائرات «سسنا» أجريت عليها تعديلات خاصة لتدريب الإيرانيين في مدرج ثان يبعد حوالي أربع وخمسين دقيقة عن «كيل». واذكر تماماً انه خلال تحضيري لمغادرة الموساد كان «ران» يتحول إلى نجم، يتكلم الالمانية بطلاقة وقد كلف بأمن العال في المانيا والنمسا قبل ان يلتحق بالمكتب.

الموساد يزور وثائق لتشويه سمعة فالدهايم

وفي جناح «الفورسيزنس». . زودني افرايم بكل ما حدث وقتها. ونقلاً عنه (أضاف يوري بضعة تفاصيل بينما كان إيلي يعرب عن معارضته) أدرك ران في أواسط عام ١٩٨٧ ان هناك بعض الاضطرابات في الأفق. كان هناك استهجان متزايد في الموساد وعناصر الجناح اليميني في الحكومة الإسرائيلية، لسلوك المستشار «هلموت كول»، الذي كان يتحدى التحذيرات الإسرائيلية بشأن علاقته مع الزعيم النمساوي كورت فالدهايم، الذي تم إظهاره نازياً. (وكان هذا الإثبات قد قامت به وحدة ميدانية في «العال» دخلت مبنى الأمم المتحدة في بارك «افنيو» الجنوبي في نيويورك ودست عدة وثائق مدنية كانت قد نقلت من ملف آخر إلى ملف فالدهايم وملفات بعض الأفراد الآخرين، لاستعمال محتمل في المستقبل. و «اكتشف» السفير الإسرائيلي في الأمم المتحدة بنيامين «نتانياهو» هذه الوثائق المزورة، كجزء من حملة لتشويه سمعة فالدهايم، الذي كان ينتقد النشاط الإسرائيلي في جنوب لبنان، ولم يكن كول يكترث للتهديدات الإسرائيلية ويعتبرها هراء مما سبب غضباً في أوساط المخابرات الإسرائيلية التي وصفته بالأخرق الأبله. سببت الأزمة السياسية الفجائية في الدانمارك قلقاً آخر لزعامة الموساد، وقامت الاستخبارات المحلية هناك بتوقيف عملياتها فطلبت تعليق مرور الأسلحة مرحلياً عبر البلاد حتى يستشعروا اتجاه المناخ السياسي الجديد. وللحفاظ على استمرار العملية وتوريد الأسلحة، طلبت الاستخبارات الفدرالية الالمانية من «أوفي بارشل» السماح باستعمال التسهيلات لسفن الشحن البحرية في مقاطعته لتمرير السلاح إلى إيران، وكان هذا أمراً يعارضه. ولم يكن قد خطر ببال الموساد طلب موافقة «بارشل» في الموضوع. كذلك لم تكن المخابرات الفدرالية الالمانية على علم بأن الموساد قد أمنت تعاون المخابرات المحلية.

لذا فقد طلبوا الموافقة من «بارشل» واعطي معلومات عن الحمولة أكثر مما يجب وكانت الاستخبارات الفدرالية الالمانية قد اساءت تقدير قرار «بارشل»، وعندما رفض، هلع الجميع، وأدركوا انه يشكل تهديداً في حال اطلع هلموت كول على ما عرفه. وبات من الواضح حاجة الموساد لحلقة سياسية جديدة مستقلة تحل محل قبضة الاستخبارات الفدرالية BND المتداعية حول بارشل.

وكان من الممكن اصطياد عدة طيور معاً في هذه الضربة التي بدت مغرية إلى حد كبير. إذ يمكن للموساد السيطرة على مراقبة السياسي وتوريط الاستخبارات الفدرالية كشريك، منفردة بالتالي باتخاذ القرارات وتسديد الضربات. وهكذا يزيلون من الساحة «بارشل» مثير المشاكل، الذي كان يتعاون جزئياً ولكن ليس للأسباب الصحية. لم يكن قد تم شراء «بارشل» كما يودون ان يكون رجال السياسة عندهم. بدلاً من ذلك كان بارشل يستخلص من هذا الوضع ما اعتقده الأفضل وفقاً لتقويمه، وفي الوقت ذاته دعم شعبيته السياسية. لذلك فالمكسب الآخر وليس الأخير، من إزاحة بارشل كان تسديد ضربة لهلموت كول.

عند هذا الحد، اتصل ران بالحزب المعارض، وأقام علاقة وثيقة بأحد قادته لمعرفة أنه في حال تم انتخابه، هل يريد التعاون مع من ساعدوه للوصول إلى السلطة ومكافأتهم على جهودهم. وأوضح لذلك السياسي ان الاستخبارات الفدرالية الالمانية هم وراء الأفراد الذين سيساعدونه وان كل شيء سيتم لصالح وخير المانيا. وتلقى «ران» جواباً فاق كل توقعاته. فالسياسي المعارض الذي كان يستبعد فوز حزبه في الانتخابات على أية حال، كان مستعداً لتقديم كل الوعود. ومقابل ثمن غليون جديد وبعض التبغ الطازج استطاع ران أن يضع هذا السياسي في جيبه بأمان، وحان الوقت لإزاحة «بارشل» من الساحة السياسية الجديدة.

واستدعى أحد الضباط في مركز بون ويدعى «بول» للعملية، وكلف بانتحال شخصية رجل كندي من أصل الماني ثري جداً وعلى وشك العودة

مجدداً إلى المانيا. ولكنه قبل ذلك أراد، لمباشرة إقامة عمل في المانيا، الإطلاع على الوضع السياسي ليتسنى له إدارة عمله بالشكل الصحيح والاستفادة قدر الإمكان من انتقاله. واستهدف بول و «ران» أحد الزعماء في حزب «بارشل» لهذه المهمة وقد اطلقا عليه اسم «المصفر». زود «ران» أحد وسطاء الموساد بلائحة تضم كل العاملين مع «بارشل» والذين يتصلون مباشرة به، للسؤال عنهم في ملفات أقسام الشرطة في «هامبورغ» و «كيل» لمعرفة إذا كان هناك مخالفات أو جنح تعود لهذه الاسماء. وكان اسم «المصفر» قد عاد وهو يحمل علامة كبيرة فقد وجهت إليه تهمة الاعتداء على إحدى العاهرات في هامبورغ ولكن أحدهم قد تدبر إسكات العاهرة مقابل المال، وأغلق الملف دون توجيه أية تهم. قدم «بول إلى «المصفر» عن طريق أحد السايان الذي خسب ملفات الموساد كان ملماً بالمصفر».

وبعد فترة من التملق أخبر بول المصفر ان عليه العودة إلى كندا وعرف المصفر على ران، على أنه وكيل أعمال «بول» في ألمانيا. وإذا احتاج المصفر لأي شيء في غياب بول يمكنه اللجوء إلى «ران» الذي كان مكلفاً بمساعدته.

وبعد مغادرة بول المزعومة للبلاد بعدة أيام، اتصل ران بالمصفر وتدبر لقاء معه. خلال اللقاء أوضح ران انه لم يكن متعاطفاً مع خلفية المصفر السياسية وانه أي ران أحد مؤيدي المعارضة. وشرح ران انه مرغم على الاهتمام بمصالح بول لذا فهو قد قام بتحقيق صغير على حسابه. وانه اكتشف أمر الحادثة بين المصفر والعاهرة، وهو يعلم أنه في حال اذيعت هذه المعلومة فان على مستقبله السياسي العوض. وبالتالي كل ما يكون بول قد استثمره سيضيع هدراً وهباء. فعرض عند ذلك ان يقوم المصفر بالمساعدة في إزاحة «بارشل». تفاجأ ران بالحماس الذي لقيه عرضه. فقد أوضح المصفر انه ليس من المعجبين ببارشل وهو مستعد لأي شيء في سبيل الإطاحة به.

وكان ران قد وضع مسبقاً خطة لإزاحة بارشل،فقام بشرح التحركات للرجل الذي جند لتوه، ليجعله يشعر وكأنه يشارك في مسيرة عملية التخطيط بحيث يشعر بأهميته تجاه نفسه وفي الوقت ذاته لاشراكه في تحمل المسؤولية.إذا لم تجر الأمور كما يجب. وتابع «ران» إن هذه العملية ستحول المستقبل

السياسي للمصفر في المستقبل، فعليه الاهتمام بسخاء بكل المصاريف وافهم ران المصفر انه عضو في منظمة على غرار المافيا، وانه لا يمكنه التراجع أو تغيير رأيه مهما كانت الظروف. وكذلك لم يكن مسموحاً الإتيان على ذكر «ران» نهائياً.

أثناء هذا الوقت، كانت الموساد تزود الاستخبارات المحلية بمعلومات كاذبة تتعلق بعملية مزعومة يقوم بها «بارشل» مثل صفقات أسلحة سرية وبعض الأعمال غير المشروعة الأخرى، مظهرة تورط شقيق بارشل في العمليات وكأنه غطاء «لبارشل». وكانت الخطة قد حظيت بموافقة «موسى» الذي يتولى أمن العمليات في أوروبا ويشغل في ذلك الوقت رأس القيادة الأوروبية.

عند هذا الحد، استبعدت الاستخبارات الفدرالية الالمانية خارج الملعب. وجعل «ران» المصفر يقوم بنشر معلومات مزيفة ومسيئة عن زعماء المعارضة بشكل عام وعن كبار قادة وسائل الإعلام بشكل خاص، ومن دون ان يكشف عن مصدر الاشاعات أو عن نفسه.

ومع اقتراب موعد الانتخابات، أحضر فريق من الموساد من بلجيكا ليلعبوا دور التحري الخاص في خدمة المصفر.

وجاء عملهم مدوياً، إذ قادوا سيارات غالية ذات إضاءات متقطعة Flashers خلال المراقبة، وحشدوا المعلومات عن زعيم المعارضة على طريقة الهواة للفت الأنظار إليهم.

وسارت الأمور على نحو لم يكن بمقدور أي مراسل في الـ«برايل تايمز» تجاهل هدف كل ذلك: حملة تشويه. عندما جاء استنكار بارشل كان الوقت قد تأخر كفاية بحيث يعجز عن أي تغيير في صناديق الاقتراع. عندها اعترف «المصفر» أنه كان وراء هذه الألاعيب الحقيرة وإنه تصرف وفقاً لأوامر «بارشل»، مما أطاح بالسياسي الذي رفض الصفقة، وادخل شخص آخر لن يتردد في اغتنام أية فرصة لإزعاج «كول». وتم تجاهل كل اعتراضات «بارشل» واعتبرت تأكيداته على براءته، خطب سياسية منمقة..

وقلت:

ـ اعتقد أن هذا سيكون فصلاً عظيماً فهو يضم كل العناصر الحقيرة

النموذجية لنشاط الموساد في بلد صديق. وردّ إيلي:

ـ غير ممكن، هذا مستحيل، ان «ران» لا يزال في الخدمة، ويمكن للقصة في الكتاب أن تفضحه هو و «بول».

واقترح يوري:

ـ يمكننا تعديلها قليلاً بحيث تروي القصة ولكن نخفي المكان والمعلومات الصحيحة.

ورددت:

ـ إذاً انسوا الأمر، إذا لم نستطع رواية القصة كاملة، فاننا لن نرويها أبداً، يمكننا على أية حال فصل القسمين ورواية فقط تدريب الإيرانيين في المانيا.

وصرح افرايم عن المزيد من تفاصيل القصة. وشرح انه بعد فشل بارشل في «الانتخابات» (وهذا نتيجة طبيعية للحملة التي نظمها «ران») اتصل هذا الأخير بصلته بالاستخبارات الفدرالية الالمانية وهددها بفضح كل أعمالها غير المشروعة إذا لم تقم بعمل ما لتبييض اسمه، وكانت الطبقة العليا في تلك الاستخبارات تتلقى معلومات من الاستخبارات المحلية (وهي المعلومات ذاتها التي زود بها الموساد الاستخبارات المحلية) عن اعتقادها ان بارشل كان متورطاً وانه استدعى الموساد لمساعدته.

وكان على الاستخبارات الفدرالية اللجوء للموساد لمعاجلة الوضع لأن تهديد «بارشل» كان ليؤثر على العاملين في الدرجة الوسطى والذين يحتكون مباشرة بالموساد من وراء ظهور رؤسائهم.

وأخبر وسطاء الاستخبارات الفدرالية وسطاء الموساد أنه ستقام جلسة تحقيق أولية لسماع مختلف الشهادات بعد عدة أيام وأنه إذا لم يوافق بارشل قبل موعد الجلسة، فإنه سيكشف النقاب عن كل شيء. ولم يكن للموساد الوقت الكافي لوقف العملية في المدرجين وإخراج كل الطاقم الإسرائيلي قبل ان تستدعيه المحكمة للشهادة. ثم أعطت الاستخبارات الفدرالية الالمانية وسيط الموساد عنوان إقامة بارشل (كان في عطلة في جزر الكناري) ورقم الهاتف الخاص به. وكان يقيم في منزل أعاره إياه أحد الأصدقاء واتصل «ران» «ببارشل» في الجزيرة. لم تلق المخابرة الأولى أي جواب. واعتقد ران ان

بارشل قد خرج. ثم عاد واتصل بعد ساعة فأعلم ان «بارشل» لم يكن موجوداً في ذلك الوقت. وفي محاولته الثالثة، استطاع «ران» التكلم مع بارشل وأخبره إنه يملك المعلومات التي تساعد على تبرئته، وقدم نفسه باسم «روبرت أولف» وأصر على مجيء بارشل إلى جنيف. فهو «أولف» سيرسل من يستقبله في المطار. أراد «بارشل» معلومات أكثر دقة قبل ان يلزم نفسه فأجابه ران يمكن لبعض الإيرانيين المهتمين ان يكونوا متورطين بالقضية. فأدرك بارشل ان القضية جدية وان من يكلمه كان ملماً كفاية. فوافق وتم بحث تفاصيل الرحلة.

الكيدون «يصفّي» بارشل قبل مثوله أمام هيئة التحقيق في قضية الانتخابات:

كان فريق الكيدون ينتظر في جنيف، وكان قد أرسل مباشرة من بروكسل. وبعد درس الملفات الميدانية التي تتعلق بجنيف، قرروا اختيار فندق «بوريفاج» كأفضل مجال للعمل المنوي إنجازه. وكلفوا زوجان حجز غرف في الفندق، غرفة في الطابق الرابع قريبة من باب الخروج المؤدي إلى السطح. أما الزوج الثاني فيصل في اليوم الذي يصل فيه «بارشل» ويحجز غرفة في الطابق الثالث، ملاصقة للغرفة التي حجزها «ران» «لبارشل». واستكشف بقية الفريق المنطقة واستأجر أمكنة في الجوار، للعب أدوارهم المنفصلة التي استدعوا لأجلها.

والتقى «ران» «بارشل» في غرفته بعد ظهر العاشر من تشرين الأول. وبعد أن طلب زجاجة نبيذ لتناسب الجبنة التي أحضرها معه، وتقدم بعرض لطيف لبارشل محاولاً إقناعه بتقبل الفشل، ضامناً عائدات مالية مهمة مقابل ذلك، حاول ران إقناع بارشل أن ما يدعيه ليس بذي أهمية خارج حقل السياسة، والأفضل أن يدع الأمور تمر بسلام ويأخذ المال.

وبالطبع استعمل ران الجمل المعتادة التي تفضل الموساد استخدامها: ان المال ليس عقبة. انفعل «بارشل»، والح على ران تقديم الدليل الذي يمكن أن يبيض اسمه وليس شيئاً آخر. فهو لم يكن مهتماً بالاستفادة من هذه القضية ولكنه مصمم على المضي للنيل ممن لفقوا التهم ضده.

أدرك «ران» عندئذ انه ما من طريقة لثني الرجل عن عزمه، لذا يجدر بالعملية الانتقال للمرحلة التالية التي تنص على التصفية. كان بارشل يشكل

خطراً على أمن رجال الموساد الميدانيين. من هنا لم تكن هناك حاجة لأية موافقة من خارج الموساد على التصفية، كما هي الحال من قضايا الاغتيال السياسي التي تستوجب موافقة خطية من رئيس الوزراء. ومع ذلك أراد «ران» أن يحصل على موافقة رئيس الموساد الذي أطلع أولاً على العملية وقدم إلى جنيف في اليوم ذاته، وأقام في فندق «دي بيرغ أوتيل» مقابل المكان حيث يتم التفاوض مع بارشل وكان مسجلاً تحت اسم «ب. مادسون».

عندما وصل النبيذ إلى غرفة «بارشل» كان قد أضيف إليه المخدر على يد أفراد الكيدون. وكان بعض الأفراد الآخرين يحضرون إلى غرفهم أكياس الثلج تحضيراً للفصل الأخير. أخبر «ران» بارشل أنه كان يمتحن تصميمه وانه تحقق من كونه يتعامل مع رجل شريف، وانه سيساعده . وكان بارشل لا يزال منفصلاً ويرفض التفاوض مع «ران» إذا لم يقدم له حالاً إثباتاً يستطيع أن يبرئه.

واتصل ران بأحد وسطاء الموساد. الذي كان ينتظر في أحد البيوت الآمنة وطلب منه الاتصال بوسيط الاستخبارات الفدرالية حتى يتصل هذا الأخير به في غرفة «بارشل» ويقول له أن كل شيء على ما يرام. وكان الوسيط الذي يتوقع المكالمة قد اتصل بوسيط الاستخبارات الفدرالية مسبقاً وجعله في حالة تأهب موضحاً ان شيئاً غاية في الأهمية سيحدث. بعد عدة دقائق من اتصال «ران» بوسيط الموساد، اتصل رجل الاستخبارات القدرالية الالمانية بغرفة «بارشل» وأخبره أن الأمور ستوضح وتكشف. عندها شعر «بارشل» أنه حصل على فرصة جديدة في الحياة، فشرب كأساً من النبيذ واعتذر «ران» عن الشرب لمشاكل في معدته ولكنه تناول القليل من الجبنة التي أحضرها.

كان ران يعرف ان بارشل يغط في نوم عميق في غضون ساعة من الوقت، وأراد أن يحصل على موافقة مباشرة من رئيس الموساد لإنهاء المهمة. فاعتبر بارشل أنه بصدد إحضار بعض الأوراق التي ستبرئه وسيعود بعد ساعة.

اتصل «ران» برئيس الموساد واجتمع به في غرفة في الفندق واطلعه على ما حصل وقال إنه خلال أيام سيمثل «بارشل» أمام الهيئة التي تتولى التحقيق في سوء التصرف في الانتخابات.

وإنه لا مجال لمنع «بارشل» من الكلام حول ما يعرف أمام اللجنة وأضاف

«ران» إنه لا يضمن إزالة كل الأدلة التي تسير إلى إسرائيل من مدارج الطيران في هذا الوقت القصير المتبقي. وكان خطر الفضيحة في مثل هذه القضية كبيراً جداً على الموساد. فوافق رئيس الموساد على تصفية الرجل.

اتصل ران بالزوج الذي حجز الغرفة الذي نزل فيه بارشل وأخطرهم ببدء العملية. وانتظروا مرور الوقت الكافي لينام بارشل تحت تأثير المخدر وبعد الاتصال هاتفياً للتأكد من عدم يقظته، دخلوا الغرفة.

كان بارشل ملقياً على الأرض من الجانب الأيمن للسرير. من الواضح أنه سقط عنه. وضع الفريق قطعة من البلاستيك على السرير ووضعوا فوقها الرجل المغمى عليه، أقدامه من الطرف الأعلى للسرير لتسهيل عملهم فيما بعد، ثم وضعوا منشفة ملفوفة تحت رأسه، في وضع كأنه ينتظر عملية تنفس إصطناعي كان هناك خمسة أعضاء من الفريق موجودين في الغرفة. أربعة يعملون على الهدف والخامس كان يملأ حوض الحمام بالماء البارد والثلج، حتى يغطي صوت الماء كل الضجة التي يمكن أن تصدر عن الآخرين. وادخل أحدهم أنبوباً مدهوناً بالزيت في بلعوم الرجل النائم ببطء وهدوء حتى لا يصدمه. وأثناء ذلك كان الآخرون يحملون الرجل حتى لا يصاب بتشنج. وكانوا كلهم قد قاموا بذلك مراراً من قبل. عندما وصل الأنبوب إلى معدة الرجل، علقوا قمعاً صغيراً على الأنبوب وباشروا برمي عدد من حبوب الأدوية المتنوعة داخله مضيفين الماء بين الوقت والآخر للتأكد من صولها إلى معدته.

وبعد انهاء هذه المرحلة، انزلوا سروال الرجل ولباسه الداخلي وقام اثنان بفتح رجليه وادخل ثالث تحاميل من منوم مركز ومسبب للحرارة في مؤخرة الرجل.

ثم اعادوا لباسه وسرواله وانتظروا ريثما يبدأ مفعول الدواء، بعد ان الصقوا شريط ميزان الحرارة على جبهته لمراقبة حرارته. وبعد ساعة ارتفعت حرارته. فوضعوه في الحوض المملوء بالثلج.

سببت الصدمة رجة كبيرة في جسد الرجل فالتغير الفجائي بالحرارة، إضافة إلى تأثير الأدوية، أحدث ما يشبه النوبة القلبية. بعد عدة دقائق من

المراقبة قرر الفريق أنه توفي في الواقع، وباشر بتنظيف الغرفة وراءهم، مزيلين كل الأدلة التي تشير إلى ما حصل. واستدركوا أنهم ارتكبوا غلطة بعدم نزع ملابس بارشل عنه قبل وضعه في الحمام، ولكن الأوان قد فات.

واكتشفوا أيضاً أن الزجاجة البديلة عن زجاجة النبيذ كانت من نوع بوجوليه وليست من النوع الذي كان موجوداً لذا لم يكن عندهم زجاجة ليخلفوها وراءهم. وباتت الأمور أكثر توتراً.

فقد أمضوا عدة ساعات في الغرفة وبعضهم كان قد غادر ثم عاد إلى الغرفة عدة مرات.

وبعد أن غادروا الغرفة وأغلقوا الباب وراءهم وبدلوا إشارة «عدم الإزعاج» على مقبض الباب، تفرقوا كل في طريقه، أحد الزوجين سيغادر في الليلة ذاتها أما الزوج الآخر فيغادر في صباح اليوم التالي. وغادر بقية أعضاء الفريق غير المقيمين في الفندق المدينة بسيارة في الليلة ذاتها عائدين إلى بلجيكا وإلى أمان المركز الرئيسي الأوروبي للموساد. واعلم «ران» ان العملية قد تمت كذلك اعلم رئيس الموساد، الذي تسلم أيضاً من أحد أعضاء الفريق صورة فورية عن الهدف الميت.

وقلت: لا أزال اعتقد ان هذه القضية ستشكل فصلاً شيقاً من الكتاب.

ـ سوف نرى، ولكن في الوقت الحاضر دع هذه جانباً، ويمكنك استعمال قصة القاعدة البحرية في السودان التي استخدمت في سبيل إخراج اليهود الأثيوبيين في عملية «موزس» أجاب افرايم.

وأدركت أنه لا مجال للمناقشة خاصة مع وجود «إيلي». وتابعنا عملنا في تحضير اللائحة وكانت جاهزة عند نهاية اليوم.

كان هناك أكثر مما احتاجه للكتابة، لأنني كنت أعرف معظم التفاصيل شخصياً، ولو كان هناك أية حاجة لمزيد من المعلومات فإن افرايم سيزودني بها، وكان قد أصرّ على الإطلاع على كل صفحة.

وعندها واجهني قلق كبير ماذا لو ان الموساد لم ترد نهائياً على الكتاب وتجاهلته تاركينني معلقاً حتى الجفاف؟

اقترح افرايم ان ادخل في الكتاب بعض الوثائق كتقرير الوكالة الدانماركي واستجواب حضّر لعميل سوري كبير حول الجيش السوري.

ـ لا يوجد أي خبراء في هذا العالم، قال افرايم (وهز يوري رأسه أثناء كلامه) وأضاف من يشكك بك بعد أن يرى الاستجواب، من الثابت أنك عضو في الموساد، لتعرف كل تلك الأمور وتسأل عنها.

وافقت، وتحدثنا عن مواضيع أخرى. كان من الضروري عدم تضمين الكتاب عن أمور يمكنها تغذية معاداة السامية، في النهاية كنا نتطلع من هذه الزاوية. وافقنا جميعاً على ان يكون موضوع اختبار الأدوية على السود في جنوبي أفريقيا، كافياً ويمكنه تسديد صفعة كبيرة ضد إسرائيل خاصة وان الطاقم الطبي الذي أرسل إلى جنوبي أفريقيا مرتبط مع دولة إسرائيل ولن يفهم على انهم تحت إشراف الموساد. وهكذا تمت معاجلة العلاقات المباشرة بين الموساد وجماعة كاهان، وجمعية البناي بريث والـ آيباك واليوجا. وارتأينا أن الموضوع الوحيد الذي يحتاج إلى بعض التعديل كان «الفرايمز» (وهي وحدات يهودية تدافع عن نفسها بنفسها أسستها الموساد في مختلف أنحاء العالم ومخيمات الشباب «هتس وكشت» (أي القوس والنشاب) التي تنظمها الموساد لإحضار أبناء اليهود الشباب إلى إسرائيل في الصيف. وبعد تزويدهم بجرعة كبيرة من الصهيونية النضالية تعيدهم الموساد كجواسيس المستقبل.

كما وافق الجميع على ذكر كل اسماء الضباط الذين اكتشف أمرهم، هذا يعني مثلاً الأشخاص الذين تعرفت على صورهم في مصر والأردن والسفارة البريطانية. وسيحرص افرايم على مغادرتهم ميدان العمل قبل صدور الكتاب. خاصة وان ورود اسمائهم الكاملة في الكتاب سيمنعهم من العمل خارج البلاد مجدداً مما يكون أفضل لحمايتهم الشخصية.

ـ وسأل «إيلي»:

ـ ما هي برأيك النقطة الأهم في الكتاب؟

ـ إذا كان علي ان اختار نقطة يركز عليها الناس فهي ستكون التعاون الذي تلقاه الموساد في أنحاء العالم من الطائفة اليهودية والطريقة التي تستغل بها هذه الثقة.

ووافقني الجميع على هذا الرأي. ولكننا كنّا كلنا مخطئين. بعد الاجتماع عدت أدراجي إلى البيت وخبأت اللائحة التي حضرتها في مكان أمين بعيداً عن متناول بيللا. وكانت لا تزال في مخزن القمصان الذي افتتحناه في شارع «بانك» في وسط المدينة في أوتاوا.

في اليوم التالي، فتشت في المكتبات على اسماء المؤلفين المحليين. ساعياً وراء رجل يمتلك المقدرة على الكتابة بالإضافة إلى الشجاعة للإنضمام إلي في هذا المجهود لتصويب الأخطاء. كنت أعرف أن مسألة إيجاده لن تكون بالمهمة السهلة. إذ يتوجب عليه أن يتمتع بسمعة جيدة ولديه إلمام بالسياسة ولا يكون ذلك الخبير في عالم الاستخبارات حتى لا يحاول جعل الكتاب مطابقاً لنظرته للجاسوسية. وعليه أن يكون من سكان المنطقة، غير يهودي وعنده متسع من الوقت والاهتمام للقيام بهذا العمل.

وفي إحدى المكتبات التي لا تبعد سوى عدة مبانٍ عن مخزننا في شارع «بانك» وجدت كتاباً بعنوان «أصدقاء في المناصب العليا» يتناول موضوعه رئيس الوزراء الكندي. وكان المؤلف «كلار هوي» مراسلاً محلياً يعمل في القسم الصحافي في البرلمان. وقررت أن اتصل به. كان رده إيجابياً وقررنا ان نلتقي في مقهى صغير في شارع «بانك» وبعد ان شرحت له عن عرضي أبدى تعاطفاً تاماً. ها قد أصبح لدي شريك وكنت على الطريق لإغرس أول رمح في درع الموساد. كنا سنباشر بالهجوم من الخارج ونحشر الموساد في المكان الوحيد حيث يمكن النيل منها تحت الأضواء.

وأمضينا كلار وأنا، حوالي الشهر في تحضير الفصل الأول من الكتاب وتهيئة المخطط التمهيدي له ثم قمنا بأول محاولة في التقدم إلى ناشر. ضربنا موعداً في مكاتب الشركة التي نشرت كتاب «أصدقاء في مناصب عليا» في تورونتو. ولكن الناشر الذي قابلناه خذلنا.

وكنت وقتها في غاية التوتر خاصة انني أدركت أن السر قد بدأ ينكشف. ولم يكن هناك من ضمانات تؤكد ان الناشر الذي رفضنا لن يتكلم حول موضوع الكتاب أو عن ما أخبرناه إياه خلال اللقاء. ولكن كل ما أعرفه اليوم، إنه لو كان الناشر قد تكلم، لكان أحد في المركز الرئيسي للموساد يغط في سبات عميق،

لأنهم لم يقوموا بأي شيء.

وتابع «كلار» الكتابة بينما كان يحاول الاتفاق مع ناشر جديد.

وكانت محاولاته صعبة وعسيرة لانه لا يستطيع ان يستفيض بالشرح للناشر من جهة، ومن جهة ثانية كان عليه إيجاد ناشر يقبل بالعمل في سرية تامة. وكان خروجنا سالمين من اجتماعنا بالناشر الأول مسألة حظ، تماماً كما كانت مسألة عدم رصد للموساد في الجوار. ولم تكن أخبار فشل اجتماعنا الأول قد تناهت لمسامع افرايم أو يوري اللذين عادا إلى المقر الرئيسي للموساد.

ـ وبادرني هوي في أحد الأيام لدينا موعد مع شخص يدعى «ستودارت» وهو رجل جيد.

وخلال هذا الوقت كنت قد تعمقت أكثر في معرفة «كلار» وازدادت ثقتي به وهذا أمر لم أندم عليه قط.

اجتمعنا مع «نلسن» في مطعم «هايز» في أوتاوا وجلسنا حول قطعة كبيرة من الستيك (التي كان يصعب علي التهامها لأنني كنت أتكلم باستمرار) وزجاجة من النبيذ الفرنسي الفاخر، توصلنا لعقد اتفاق. وكنا أنا وكلار شركاء بنسبة ٥٠٪ من حيث التأليف، وكانت دار «ستودارت» ستعطينا مبلغ ثمانية آلاف دولار سلفاً. وكان نلسن يؤمن بأن الكتاب سيسبب خضة كبرى. وكان لدى «ستودارت» تجربة سابقة مع كتاب عن التجسس بعنوان «ممسك الجواسيس» وكانوا قد أبقوه سراً لغاية موعد نشره، وعندها قام البريطانيون بمقاطعته، وكان متأكداً أنهم يستطيعون معالجة كتابنا بالطريقة ذاتها. وسألني قبل أن نغادر:

ـ هل تفترض ان تحمل الاسرائيليين على مقاطعة كتابك أليس «كذلك؟

ورددت ضاحكاً:

ـ لا أعتقد ذلك، في النهاية، لديهم تجربة البريطانيين ليتعلموا منها: فالمقاطعة تجعل الكتاب يحقق أفضل المبيعات.

ـ اعتقد إنك على صواب. أجاب نلسن.

وعندما أصبحت في السيارة أردت ان أقفز وأصرخ بأعلى صوتي معبراً عن فرحي. فالأمور تجري على أحسن ما يرام، وكنت مصمماً على التحرك بسرعة

واتصلت من أحد الهواتف العامة بافرايم وأخبرته بكامل القصة، واستغرقت المكالمة حوالي الساعة تاركاً ورائي فاتورة هاتف ضخمة. ووافق «افرايم» مع تكهني بأن الموساد لن تحاول إيقاف الكتاب، ولكنه وعد بالتفكير بطريقة لإقامة ضجة كبرى تلفت النظر إلى الكتاب.

وإذا نجحت الأمور نكون كلنا قد حققنا ما نريد.

الفصل السادس والعشرون

بعد «تطهير» لندن افرايم يأمر بضرب «البيوت الآمنة» في باريس

السبت في ٢ تموز ١٩٨٨:

في وقت ما من بعد الظهر رن جرس الهاتف، وكان المتكلم «إيلي». يتصل من نيويورك ويريدني ان اتصل به هناك بعد ساعة. كانت هذه رسالة مدبرة ومخططاً لها، وعلمت أنه عليَّ الذهاب إلى هاتف عمومي كي أخابره. وكان قد أعطاني الرقم ووافق على تحمل النفقات، كان متأففاً كالعادة، ولم استطع تمالك نفسي من تخيل وجهه المريع وجلده المتغضن عند زوايا عينيه الخارجيتين وعينيه المغمضتين نصف إغماضة، كما لو كان يحدق في الشمس الساطعة.

قبل أن يحدث كل هذا، كنت أعرفه رجلاً لطيفاً ولكن هذا العمل المعادي للموساد سبب له اضطراباً وتوتراً حتى لو كان يرى أنه صواب كان يفضل ككل واحد منا، أن ندعه وشأنه وان يتجاهل أي شيء عن الموضوع.

ـ هل سمعتَ ما حصلَ في لندن؟ـ سألني وكان يقصد البريطانيين الذين رحلوا تقريباً كل الموساد في مركز لندن وأشاروا إلى اثنين من الضباط الثلاثة الذين قدموا من المقر الأوروبي في بروكسل. وكان البريطانيون قد ركزوا بطريقة غاية في التطفل ضباطاً من الشرطة خارج سبعة بيوت آمنة يملكها الموساد في لندن، وهكذا يكونون قد أشاروا بشكل غير رسمي إلى سبعة بيوت من عدة مئات ولكن الرسالة كانت واضحة تماماً.

ولم يكن للموساد ان تعلم انطلاقاً من هذه النقطة كم يبلغ عدد الأهداف التي افتضح أمرها أو إذا كان أي اجتماع يمكنه ان يعرضهم للخطر.

ـ نعم سمعت، كم لديهم من الوقت ليحصلوا على مركز آخر.

ـ هذا ليس من شأنك.

ـ أنا لا أحبذ موقفك، انها مسألة حظ كوني هنا وكونك هناك، لن يتطلب كثيراً لتقلب أدوارنا أليس كذلك؟

ساد صمت قصير على الخط:

ـ أنا آسف، إذا بدوت كذلك. إنها فقط...

ـ هيا قل ما لديك ولننهِ المكالمة.

وأخبرني انه بما ان مركز لندن قد طهر، يرى افرايم ان الوقت قد حان لضرب مركز باريس. وقال أيضاً إن مركز لندن سيعمل لعدة أشهر مقبلة من منزل آمن جديد وليس من السفارة لأنه لا يسعهم إرسال مجموعة جديدة من الضباط دفعة واحدة، بل تدريجياً. وهم يعتقدون ان المركز سيعود لعملياته في كانون الثاني عام ١٩٨٩.

ثم تكلمنا في ما يجب قوله للفرنسيين وكيف سيتم الاتصال بهم.

وبادرت «إيلي»:

ـ اعتقد انه يجدر بك أنت القيام بهذه المهمة.

ـ ماذا تقول؟

ـ أنت تتكلم الفرنسية أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ أما أنا فلا. سأتصل فيما بعد بإفرايم وأقول له رأيي. اعني ما الفرق إذا كلمتهم أنت.

ـ أنت مجنون. قال هذا واستشعرت نبرة من القلق في صوته.

لاحقاً في ذلك اليوم، تكلمت مع إفرايم الذي شرح لي انه في حال اعتقل «إيلي»، فهذا يعني ان مصيره الإعدام لأنه في الخدمة الفعلية، وسيكون أمراً أسوأ بكثير مما لو اعتقل أنا. وفي النهاية أنا الآن خارج المنظمة.

لم يكن شرحه مقنعاً، ولكن بما انني أثرت الموضوع فقط لأغيظ «إيلي»، تغاضيت عنه، وسألت أن لا أضطر للكلام مع إيلي ثانية.

يوم الأربعاء، السادس من تموز، اتصلت بالسفارة الفرنسية في واشنطن وتدبرت مكالمة مع الشخص المسؤول عن الأمن، وكنت قد قمت بهذا العمل

عدة مرات من قبل فكان لدي التدريب الكافي، ومع انقضاء الأسبوع، تلقيت زيارة من واشنطن. بعد عدة ساعات من المحادثة، قال انه سيعود ولكنه يريد ان يعرف إذا كنت أنوي القيام برحلة قصيرة إلى فرنسا.

وصلت إلى باريس في الثامن والعشرين من تموز، والتقيت في المطار بفرنسي ودود، ذكرني كثيراً بالفكاهي الفرنسي «بورفيل». وبعد ان استلمت حقائبي، ختم الرجل جواز سفري في مكتب صغير بعيداً عن الحشود. ثم اصطحبني بسيارته «الرينو» الصغيرة إلى باريس.

أقمت في فندق يدعى «حديقة أيفل» مقابل مخفر للشرطة، ولم يكن الفندق الصغير والساحر يبعد كثيراً عن برج إيفل.

خلال الأسبوع التالي، كنت اذهب كل صباح من الفندق إلى ما يشبه مبنى للمكاتب يبعد ثلاثين دقيقة عن المدينة، وكان المبنى متصلاً بقاعدة تنصت صغيرة في مكان ما شمالي «سارسيل» غير بعيد عن الأملاك الريفية للسيدة «بومبيدو». وكانت القيادة إلى هناك تشبه إلى حد بعيد التزحلق على الشواطىء وكانت ضرباً من الجنون فقد نشأت في اسرائيل حيث القيادة فن عسكري.

في «المزرعة» تلك أمضيت نهاري برفقة شبيه «بورفيل» وثلاثة آخرين، علمت أنهم من الاستخبارات السرية الفرنسية الملقبة «لوبيسون» وكانوا جميعاً غاية في اللياقة والتهذيب وقد حضروا لائحة طويلة من الأسئلة قبيل وصولي.

كانت استراحة الغداء في الموعد ذاته كل يوم، نسير حتى قاعدة التنصت لتناول وجبة دسمة في غرفة طعام صغيرة وأنيقة. وكان غالباً ما ينضم إلينا آمر القاعدة مما يجعل شرب النبيذ الذي كان كل يوم يحضره شخص مختلف، احتفالاً. وعند انقضاء الأسبوع كنت قد وطدت صداقة متينة بشكل خاص مع أحد المستضيفين وأصبح صلة الوصل معي بعد مغادرتي فرنسا، وبما أننا كنا نفرط في التدخين أكثر من البقية أطلق على نفسه اسم الشيفرة «منفضة».

وضعنا خريطة تفصيلية لمختلف أقسام الموساد. كان هناك العديد من الدوائر التي يعلمون بها وأخرى يتطلعون للتعرف عليها. وانصب اهتمامهم بقسم «كومنيوت» وهو اسم الشيفرة لمسعدة (قسم العمليات السرية) وقسم «تسافريريم».

كانوا مطلعين منذ زمن بعيد على ابنية المنظمة ويجدون فيض الخرائط أمراً منطقياً، ومتشابهاً في كل المنظمات ولكن ما ادهشهم فعلاً هو الإفراط في التقسيم إلى فئات والتجزيء داخل الموساد. ولكن بعد فترة، ادركوا ان كمية ونوعية المعلومات التي أقدمها كانت حصيلة لهذا الإفراط في التقسيم.

وأمضينا اليوم التالي بمعظمه نشاهد صوراً فوتوغرافية لأعضاء من الموساد. وعندها علمت ان «موسى» أصبح مركز عمله في بروكسل. وكان هناك العديد من ضباط الموساد في ملفاتهم لدرجة انني شعرت نفسي عارياً مكشوفاً. كان هناك صورة «لأورين رف» في أحد شوارع باريس مع اثنين آخرين من أعضاء الموساد. وكان الثلاثة غير مدركين نهائياً انهم تحت المراقبة. وتساءلت عن هوية من يذهبون لملاقاتهم وكم من العملاء والمساعدين اليهود قد افتضح أمرهم خلال زيارتهم هذه إلى باريس.

ثم كان هناك أكداس من الصور المأخوذة خارج مبنى الموساد في تل أبيب. وكان هناك ترتيب متسلسل. في الصور الأولى تظهر الشخص وهو يدخل إلى مقر الموساد الرئيسي في بولفار الملك شاوول في تل أبيب ثم صورة تظهر وجهه والثالثة صورة جواز سفر للشخص مرفقة مع أوراقه الديبلوماسية.

كانوا يعرفون أعضاء من الموساد أكثر مما اعرف. واذكر عندما مازحني «منفضة» مشيراً إلى لائحة الديبلوماسيين في السفارة الاسرائيلية مقارنا إياها مع الصور في الوثائق الشخصية. وهو يقول:

«انظر إلى كل هذا، اسرائيل هي إحدى الدول القليلة حيث تجد هذا الكم الهائل من الملحقين. إلى أي مدى يستغفلوننا؟ هل يظنون اننا لا نراقب»؟

ـ انهم لا يبالون فعلاً، قلت، وكانت تلك هي الحقيقية، أحياناً يبدو وكأن الموساد تستمد تسليتها من المراقبة القائمة. ولم أتمالك نفسي عن السؤال:

ـ إذا كنتم تعرفون كل هذا فلماذا لم تقوموا بأي شيء حتى الآن؟

ـ لأنه، على حد علمنا، الأشخاص الذين نملك عنهم معلومات لا يقومون بالشيء الكثير. «فيدال» وهو رئيس مركز الموساد، نادراً ما يتواجد في البلاد، والشخص الجديد «آرون ب» لا يتعامل ألا مع أعضاء الطائفة اليهودية. ونحن لا نريد أن نثير المشاكل معهم.

في المجموع، كان لديهم معلومات كافية عن أكثر من خمسين ناشطاً ميدانياً في الموساد. وما كانوا يجهلونه هو التعاون القائم بين الموساد وجمعية «الاكسيون ديركت» «العمل المباشر» من جهة وبين الموساد والعناصر الفاشية في فرنسا. وكانوا منزعجين تماماً لهذا الأمر.

ومع انتهاء الأسبوع، كنت مستعداً للرحيل وبدا انهم حصلوا مني على كل ما يريدون. وادركت أنني أعطيتهم معلومات أقل بكثير مما أعطيت البريطانيين لأنهم كانوا حذرين ومشككين أكثر في تعاطيهم مع الموساد. وعلمت أنهم لن يلجأوا للمهرجان الكبير الذي أقامه البريطانيون مع الموساد، ولكنهم قطعوا أجنحة الموساد بطريقة أكثر سلاسة.

في يومي الأخير، تذكرت انه عليّ الاتفاق معهم على المبلغ مقابل مساعدتي. ووعدوني خيراً وفي اليوم التالي، اعطوني في المطار ظرفاً يضم ثلاثة آلاف دولار أميركي. وأضافوا ان أحدهم سيعاود الاتصال بي خلال فترة قصيرة لمعرفة إذا كنت أستطيع القيام بمهمات إضافية وانه سيحضر لي المبلغ المتبقي الذي يعتقدون انهم يدينون لي به. ووفق تعليمات افرايم، بعد تسلمي المال مباشرة، أخبرتهم عن تورط الموساد في مقتل زعيم جزيرة «فانواتو» في المحيط الهادىء لأن المكتب شك انه يحاول الاتصال بالقذافي.

كان هذا السبب الذي أعلن رسمياً لتدخلهم، بينما في الواقع كان هذا الزعيم يعارض بشكل خاص تاجر أسلحة اسرائيلي أراد أن يستخدم الجزيرة كقاعدة تخزين لسلاحه الذي يبيعه في المنطقة. وكان هذا التاجر ضابطاً أسبق في الموساد وله داخل المنظمة علاقات تمكنه من تجاوز المصاعب. إثر عودتي إلى كندا، وبعد عدة أسابيع تلقيت زيارة من طرف فرنسي دعاني للقاء في مونتريال. وقبلها ناولني ظرفاً احتوى على سبعة آلاف دولار، وأخبرني انهم قرروا ان يدفعوا لي عشرة آلاف لقاء رحلتي القصيرة، وإذا كان المبلغ غير كاف، يمكنني إرسال رسالة معه إلى باريس والاتصال بصديقي «منفضة» على الرقم الذي أعطوني إياه. واجبته: لا حاجة لذلك، هذا يكفي الآن.

ما المهمة التي تريدونني القيام بها؟

كنت اعلم ان الرجل لم يقطع كل هذه المسافة فقط ليسلمني الطرد،

فأخرج قطعة من الورق وسألني إذا كنت استطيع العمل كتحر خاص، وهذا لأنني تلقيت أفضل تدريبات في العالم من حيث جمع المعلومات.

ـ هذا مرتبط بالأمر الذي سأتحرى عنه، إذا كنتم تريدون مني جمع معلومات متوفرة من دون الخروج عن القانون، في هذه الحال سأكون سعيداً لأريحكم قدر الإمكان من المصاريف. أما إذا كنتم تريدون معلومات سرية سياسية أو عسكرية في أميركا الشمالية فانسوا الأمر.

فأجاب انه لا يعلم وانه سيعود بعد عدة أيام. وهكذا كان، إنما هذه المرة التقينا في اوتاوا. وكان قد أحضر معه بعض الصور وملفاً صغيراً. طلب مني تحديد هوية الرجل في الصور، وكنت قد حددت هويته في باريس تحت اسم «ران بس» وكان كل من المصريين والأردنيين يملكون صوراً له.

شوهد «ران» وهو يجتمع مع زعيم مشهور من الطائفة اليهودية في باريس. وقبل أن يباشروا الاتصال بالشخص وإخباره انهم يعرفون الذي يقابله ويطلبون منه إيقاف نشاطه معه، أراد الفرنسيون أولاً أن يتأكدوا من الرجل وهويته. وكانوا يقومون بالاتصال ببعض الزعماء اليهود ممن يلتقون مع ضباط من الموساد استطعت ان أكشفهم وكانوا يستخدمون عملاء عرب وفلسطينيين ممن التقوا مع ضباط الموساد. وعلمت ان الفرنسيين سيعالجون الموضوع على أحسن حال، وبالتالي نجحت مهمتي في باريس في تحقيق هدفها. وتضمن الملف الذي أحضره الفرنسي ما اسماه بمهمتي التالية. كانوا يريدون مني أن أجمع معلومات عن بعض أشخاص يثيرون قلقهم من حيث محاولتهم زعزعة استقرار المستعمرات الفرنسية في المحيط الهادىء. وكانت خطة هؤلاء «المزعزعين» هي في تخصيص بلد صغير كنموذج للعالم (نظام سياسي من دون حكومة ومعرفة إذا كان مثل هذا النظام يمكن تطبيقه على نطاق أوسع) والهدف الثاني كان جني الأرباح من وراء ذلك بطرق مختلفة. كان الفرنسيون يتحسسون كثيراً من الموضوع ويفضلون ان يحاول شخص غير مرتبط ظاهرياً بالاستخبارات الفرنسية للاطلاع على هذا الأمر.

وكان الاسم الأول في اللائحة التي ناولني إياها، لشخصية أميركية مشهورة ذات مكانة مهمة «روبرت بول»، كان بول المناصر الأول لسياسة التخصيص في

الولايات المتحدة وكان وراء تخصيص صناعة الطيران الأميركية. وكان رئيس مؤسسة «ريزن» في «سانتا مونيكا» في كاليفورنيا. وكان الاسم الثاني «الفرد لنشر» رئيس «لنشر ماينت» شركة كانت في الأصل في ألاسكا ثم نقلت مركزها إلى «لانكستر» في كاليفورنيا. ثم رجلاً يدعى «هاري دونالد شولتز» يعيش في الولايات المتحدة ومن وقت إلى آخر في «موناكو»، وكان هناك شريك «شولتز»، «راينر دينهارتس» وقال الفرنسي ان كل تلك الاسماء مرتبطة بشكل أو بآخر بمؤسسة كندية في فانكوفر، كولومبيا البريطانية، تدعى مؤسسة «الفينيكس». لم يكشف الفرنسي أو يتوسع حول ما يريدون معرفته أو حول شكوكهم، وطلبوا ان أرى ما استطيع الاهتداء إليه. وقال انه لو أخبرني ما يعلمون به (أو ما يظنون انهم يعلمون) عندها ربما سأتبع خطواتهم وأحاول اكتشاف الأشياء التي يريدونها، وكان هذا ضمن التخطيط الاستخباراتي، بالنسبة لجامع المعلومات ان يحاول نيل إعجاب الزبون.

وكان على حق، ولم أكن أبالي إذا كان على حق أو لم يكن. كل ما أردته هو الاحتفاظ بالعلاقة مع الفرنسيين مفتوحة، حتى إذا أردنا، إفرايم أو أنا، تسديد ضربة للموساد، أمكننا ذلك.

طلب مني إفرايم ان أنفذ مطالبهم وأرى ما يمكنني اكتشافه من أجلهم، فقررت القيام برحلة قصيرة إلى الولايات المتحدة وأتحقق من بنك المعلومات الشخصية العامة، لجلاء الأمور. ومن خلال قراءتي للتقارير الصحافية، اكتشفت بسرعة ان المهمة معقدة أكثر من أن أريد الاشتراك بها.

كان «بول» عضواً وربما زعيماً، في حزب «ليبرتاريان» الذي يشكل لوحده سبباً يمنعني من العمل في هذه القضية، ومما قرأته تأكدت انه من غير الممكن ان تكون الاستخبارات غير ضالعة في الأمر. وتفيد المعلومات عن حياة بول انه تخرج من MIT في العام ١٩٦٧ وعمل بعدها في «سيكورسكي». في العام ١٩٧٠ انتقل إلى «نقابة الابحاث العامة» في «سانتا بربرا» وخلال وجوده هناك أصبح رئيساً «لريزن فاوندايشن».

واكتشفت ان المؤسسة قد دعمت وساعدت زعيماً في «نيو هبرايدس» ضد زعيم شعبي آخر شيوعي يدعى الأب «والتر ليني»، كما أرادت «ريزن فاوندايشن»

تأسيس حزب ليبرتاريان في الجزيرة. وعندما باءت محاولاتها بالفشل حاولت إنشاء بلدٍ صغير مستقل في حيد «مينرفا» البحري على بعد ثمانمائة ميل من «فيجي» واطلقوا عليها اسم جمهورية «مينرفا»، وجاء في السجلات التي وجدتها انه تم اختيار «لتشر ماينت» من لانكستر كاليفورنيا التي تملك أيضاً منجماً للنحاس في «هبرايدس» لتصك عملة الجمهورية الجديدة.

وبعد ان طرد مواطنو «مينرفا» الجديدة بواسطة زورق عسكري قدم من التوغو، تحولت العملة المعدنية نزوة في عالم جامعي العملات.

وبعد هذا الحدث. أصبح «بول» مستشار الرئيس ريغان في مجال التخصيص. كما اكتشفت أيضاً ان مالك «لنشر ماينت» «ألفرد لنشر» قد خدم في البحرية الأميركية في جنوبي المحيط الهادي في العام ١٩٤٤. كان هذا أبعد ما أريد التوصل إليه. فعدت إلى كندا وأعطيت الفرنسيين كل ما استطعت التنقيب عنه. وخلال لقاء في اوتاوا، اعتذرت للرجل عن متابعة العمل أكثر في هذه القضية، وانني مستعد للمساعدة بأية طريقة ممكنة لوضع حد لنشاط الموساد في فرنسا، ولكنني لن أعمل لديهم كجندي مرتزقة لمهمات متفرقة.

أخبرت إفرايم بالحديث الذي أجريته مع الفرنسي، وطلبت منه تزويدي ببعض البرامج التي تابعتها أثناء تدريباتي في الأكاديمية، حتى أتمكن من استخدامها كمراجع للكتاب، فوافق وعدت إلى العمل مع كلار.

الفصل السابع والعشرون

نقل معلومات إلى صدام تحذره من محاولة اغتيال تستهدفه خلال حربه مع إيران

غرقنا أنا وكلار في ما يشبه الروتين، بعد ترتيب التسلسل الزمني الصحيح للكتاب، كنا نلتقي عدة مرات في الأسبوع، في بيت استأجرته في «نبين» وهي مدينة صغيرة تقع خارج «أوتاوا». كنت أروي لكلار تفاصيل الأحداث التي نختارها للفصول المميزة، وبعد عدة فناجين من القهوة، يطرح علي شلالاً لا ينتهي من الأسئلة. ثم يعود بعد عدة أيام ومعه فصل مطبوع على الآلة الكاتبة لأطلع عليه، ونتحدث عن فصل جديد. في اللقاء التالي، أرد له الفصل مع الملاحظات والتصحيحات التي أدونها ومن ثم نناقشها. كان إفرايم يزودني بتعليقه على الفصول وكنت حراً في قبولها أو رفضها تبعاً لمصداقيتها. كان كل اهتمامي مركزاً على قول الحقيقة وليس سوى الحقيقة.

كانت رواية قصة الموساد كما هي في الواقع مهمة عسيرة وشاقة، خاصة عند إبراز مدى تصدع المنظمة ومدى الخطورة التي تحف بكل من يتصل بها. ولم تكن عينا «كلار» لتخفي انبهاره بالموساد. كنت أدرك أنني في نضال مميت ولكنني في الوقت ذاته كنت أرى أن المعركة تستحق أن تخاض.

زارني «يوري» مرات عديدة، وأخبرني أن الموساد على إعتقادها بأنني أقوم بتصنيع القمصان القطنية في كندا. وكانت الموساد من جهتها منهمكة في التحضير لما سمي عملية «براش فاير». وهي عبارة عن هجوم مركز من قسم الدراسات النفسية (LAP) الإسرائيلية، بهدف حمل الولايات المتحدة على التورط عسكرياً في الشرق الأوسط عموماً وفي منطقة الخليج خصوصاً.

كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية قد انتهت، وكان جلياً أن الإيرانيين قد نالوا كفايتهم ووافقوا على إنهاء الحرب وفق الشروط العراقية. وكانت الموساد

توعز للأميركيين أنها تبغي الإطاحة بصدام حسين، ومن جهة أخرى كانت تنقل معلومات للمخابرات التابعة لصدام، من السفارة الإسرائيلية في واشنطن، تحذره من محاولات إغتيال مختلفة تستهدفه، أو مؤامرات تستهدف نظامه. وكانت الموساد ترى بصدام ورقتها الرابحة في المنطقة من حيث لا عقلانيته وتهوره، إلى جانب استعداده أكثر من غيره على ارتكاب التصرفات والأفعال الحمقاء التي تحبذ الموساد الإستفادة منها.

وأكثر ما كانت الموساد تخشاه هو الجيش العراقي العظيم، الذي استطاع الصمود وتخطي الحرب مع إيران بإمدادات غربية وتمويل سعودي، أو أن يقع هذا الجيش بيد قائد متعاطف أكثر مع الغرب فيشكل بالتالي تهديداً لإسرائيل.

وأولى الخطوات التي اتخذت كانت في تشرين الثاني عام ١٩٨٨، عندما أمرت الموساد المكتب الخارجي الإسرائيلي وقف المحادثات حول جبهة السلام مع العراقيين. في هذا الوقت كان هناك مفاوضات سرية تقوم بين الإسرائيليين من جهة والإردنيين والعراقيين من جهة أخرى. تحت رعاية مصرية وفي ظل بركة الفرنسيين والأميركيين. وكانت الموساد تعالج الأمور بحيث يبدو العراقيون الشعب الوحيد الرافض للحوار، فيقتنع الأميركيون أن لدى العراق جدول أعمال وميول أخرى.

مع حلول شهر كانون الثاني عام ١٩٨٩ كان قسم الدراسات النفسية يجهد في تصوير صدام كطاغية وخطراً على العالم، وكانت الموساد تبذل جهودها على شتى الأصعدة، بدءاً من العملاء المتطوعين من مؤسسة العفو الدوليّ وصولاً إلى أعضاء الكونغرس الأميركي الذين تم شراؤهم كلياً. وعلت الصرخة: صدام يقتل أبناء شعبه فماذا يتوقع أعداؤه؟ وكانت الصور الشنيعة التي تظهر الأمهات الكرديات المقتولات وهن متمسكات بأطفالهن الموتى إثر هجوم بالغاز شنه جيش صدام، حقيقية وكانت عمليات القتل واقعية ومرعبة. بيد أن الأكراد كانوا متورطين في حرب عصابات شاملة مع النظام في بغداد وكانت الموساد تدعمهم منذ سنين، وتمدهم بالسلاح والمستشارين والخبراء العسكريين لمخيمهم الجبلي التابع لعائلة «برزاني» وكان هذا الهجوم هو تقريباً هجوماً على الشعب العراقي. ولكن على حد قول «يوري» عندما تبدأ الفرقة الموسيقية بالعزف لا يسعك سوى

أن تدندن وحيداً. وكانت المعلومات الداخلية والرشوات من المصادر الموثوقة تغذي وسائل الإعلام، عن كيفية قيام القائد المجنون بقتل شعبه بيديه العاريتين وعن استخدام الصواريخ لمهاجمة المدن الإيرانية، وفات وسائل الإعلام، سهواً أو عمداً، أن معظم الأهداف التي ضربتها الصواريخ العراقية كانت من تخطيط الموساد ورصدها قد تم بمساعدة الأقمار الصناعية الأميركية. وكانت الموساد تُهيّىءُ لإسقاط صدام، إنما ليس على حسابها، كانت تريد من الأميركيين أن يدمروا الجيش العراقي الضخم في الصحراء العراقية، حتى لا تضطر اسرائيل لمواجهته يوماً من الأيام على حدودها. وكانت هذه هي في حد ذاتها قضية نبيلة من وجهة نظر الإسرائيليين إنما ليس لدرجة تعريض العالم لاحتمال قيام حرب شاملة وموت آلاف الأمريكيين، فقد كان هذا ضرباً من الجنون.

مع نهاية شهر كانون الثاني طلبني البريطانيون، وأكدوا أن الأمر طارىء وطلبوا الحضور في اليوم التالي. فوافقت، وقررت الإستفادة من اللقاء لإطلاعهم على آخر المعلومات حول صدام التي تلقيتها من «يوري» أطلب إيصالها للأميركيين.

التقينا في مطعم «شاتو لورييه» في قلب مدينة «أوتاوا» وسألت الرجل الذي كنت قد التقيته قبلاً:

ـ بماذا يمكنني أن أخدمك؟

ـ عندي سؤال واحد، يمكنك أن تظن أنه مبالغ به إنما طلب مني أن أسألك..

ـ هيا إذن.

ـ هل تعتقد أو تظن أو تعرف إذا كان للموساد أية علاقة بما حصل للطائرة ١٠٣ فوق «لوكربي».

كان هذا ضرباً من الحماقة، استغرق مني الأمر عدة ثوان لإدراك ماذا يطلب مني، وأجبت مباشرة بطريقة شبه آلية:

ـ لا مجال لذلك.

ـ لماذا؟

ـ من دون سبب فقط لا مجال. هذا كل شيء. عندما تتورط اسرائيل أو

الموساد في إسقاط طائرة، يكون الأمر في أغلب الأحيان حادثاً، ويعزى سببه لأمن الدولة، مثل إسقاط الطائرة الليبية فوق سيناء، وإسقاط الطائرة الإيطالية في العام ١٩٨٠، وأعتقد وقتها أنها تنقل حمولة من الأورانيوم، وأدت إلى مصرع واحد وثمانين شخصاً، من غير الممكن أن يكونوا مسؤولين عن هذا؟

ـ هل تتكلم عن يقين أم تتكهن؟

ـ انتظر هنا، سأجري إتصالاً ونتكلم بعد ذلك.

تركت الطاولة وتوجهت إلى بهو الفندق وطلبت مكالمة مطولة، وبعد عدة دقائق كان إفرايم معي على الطرف الآخر من الخط. وسألته:

ـ هل نحن متورطون بحادث الطائرة البان ـ آم ١٠٣؟

ـ لماذا تسأل؟

ـ أجبني فقط، علي أن أعرف لأنه إذا كنا متورطين فهذه ستكون نهاية الموساد.

ـ لا.

أجابني بدون تردد، كنت أعلم أنه يصدقني القول فهو لن يفوت مثل هذه الفرصة للنيل من قادة الموساد.

ـ شكراً سأكلمك فيما بعد.

عدت إلى الطاولة حيث يجلس محدثي ونقلت له ما أخبرني «إفرايم»، فابتسم البريطاني وقال لي:

ـ إذاً لا تزال مرتبطاً معهم؟

ورددت له الإبتسامة قائلاً:

ـ أنا لا أزال حياً بسبب هذا الإرتباط على الأغلب.

هناك أمر أعتقد أنه من الضروري أن تلموا به، هناك عملية تعرف باسم «عملية براش فاير».

ومضت الثلاثون دقيقة التالية وأنا أروي رؤوس أقلام عما أعلم وطلبت منه إيصال هذه المعلومات للأميركيين.

لم يعدني بشيء ولكنه قال إنه سيبذل جهده، وكان هذا كافياً.

في الأشهر التالية انشغلت بالكتاب، كنا نقترب أكثر فأكثر من النهاية. وكان توتري يزدّاد كلما اقترب اليوم الذي سأظهر فيه أمام الجميع وتحت الأضواء والله يعلم ماذا يمكن أن يحصل.

الأحد، ١ نيسان ١٩٩٠

التقيت بيوري في قلب مدينة أوتاوا. جلسنا في سيارتي أمام مكتبه في أوتاوا، لبضع ساعات. كان لديه قصة جديدة للكتاب ويريد أن يعطيني كل المعلومات الضرورية لذلك.

كان يوري رجلاً هادئاً ورزيناً، لم يظهر يوماً وجلاً أو خوفاً، منذ أول يوم عرفته وخلال معرفتي الطويلة به. ومن القصص التي سمعتها عن عمله العسكري لم يكن من الذين ينتحبون أو يئنون ومع ذلك كان يجلس في مقعد سيارتي وهو في غاية التوتر، يلتفت إلى الوراء كل الوقت وكأنه هاو صغير. كان يتلو علي ملاحظات مدونة ما يلبث أن يحشرها ضمن علب معدنية صغيرة يدفعها إلى حقيبته. وأدركت بعد قليل سبب توتره. إذ كانت تلك مواد متفجرة.

في شهر آب من العام ١٩٨٩ توجهت فرقة من «الماتكال»، يرافقها عدة أفراد من الكوماندوس التابع للبحرية، صعوداً في نهر الفرات ضمن قارب صغير اشتراه أحد مجندي الموساد من تاجر محلي. وكانوا يستهدفون مصنعاً للمتفجرات يقع في مدينة «الإسكندرية».

كان المصنع أحد المواقع الخمسة التي دلت عليها الموساد كمفاعل نووي أو كيميائي محتمل. كانت المواقع الأخرى تقع أبعد شمالاً مما يتعذر الوصول إليها، في «سلمان باك» و«فالوجة» و«سامراء» وكانت معلومات الجامبو (وهي معلومات يقوم بجمعها ضباط الإتصال في الموساد بصفة شخصية غير رسمية عن طريق إقامة الصداقات) التي تلقتها الموساد من الإستخبارات الأميركية تكشف عن رحلة تقوم بها كل يوم خميس قافلة صغيرة من الشاحنات إلى المجمع لتحمّل بالمواد المتفجرة وتنقلها بعد ذلك إلى «كربلاء» بهدف تصنيع قذائف مدفعية.

كان الهدف الأول هو التمركز قرب القاعدة في يوم الأربعاء، الواقع في

الثالث والعشرين من شهر آب، والإنتظار حتى اليوم التالي موعد تحميل الشاحنات. عندها يقوم عدة رماة مهرة مزودين ببنادق رشاشة كاتمة للصوت يطلقون رشقاً واحداً من الرصاص المتفجر نحو شاحنة معينة بغية تفجيرها. وكانت الخطة تقوم على إطلاق النار على الشاحنات أثناء تحميلها لكي تتمكن عند إنفجارها من تفجير مستودعات المصنع، لأن الأبواب تكون مفتوحة عندها وتحصل سلسلة من الإنفجارات داخل المفاعل تصل إلى المستودع وتبلغ بهذه الطريقة الإنفجارات منطقة التخزين الرئيسية. كانت هذه العملية أقرب لمهمة إنتحارية يتعذر خروج العسكريين الإسرائيليين أحياء منها، وكانت طريق العودة عبر النهر آمنة في حالة واحدة فقط إذا اعتقد جهاز الأمن العراقي أن الإنفجار كان نتيجة حادث، ولن يتبينوا حقيقة الأمر إلا فيما بعد، بعد أن تكون الوحدة الإسرائيلية قد لاذت بالفرار. وأوعز للجنود الإسرائيليين، الذين كانوا جميعاً من المتطوعين، عن عدم وجود تدابير إحترازية، وبالتالي لا إمكانية لمحاولة إنقاذهم.

إعدام المراسل البريطاني «بازوفت» في العراق بعد إتهامه بالتجسس

نجحت المهمة نجاحاً تاماً، وخلفت وراءها الدعاية التي كانت الموساد تطمح لإثارتها وهي لفت نظر العالم إلى جهود صدام المتواصلة لبناء ترسانة عسكرية ضخمة وقوية.

أشركت الموساد نظيراتها من الوكالات الغربية في «إكتشافها» هذا وسربت قصة الإنفجار إلى الصحافة مقدرة عدد الضحايا بالمئات.

وبما أن المصنع المفاعل JACILITY كان تحت الحراسة المشددة لم يتمكن المراسلون الغربيون من الوصول إليه، بيد أن في مستهل أيلول، دعا العراقيون وسائل الإعلام الغربية لزيارة العراق ومشاهدة إعادة الإعمار القائمة هناك بعد الحرب، ورأت الموساد بهذه المناسبة فرصة لا تعوض لتقدير الخسائر.

تقدم رجل مدعياً أنه «ميشال روبيي» يعمل في صحيفة «لوفيغارو» الفرنسية، من «فرزاد بازوفت» شاب في الواحدة والثلاثين من العمر وهو مراسل مستقل لصحيفة «الأوزبرفر» البريطانية.

في الواقع لم يكن «روبيي» سوى «ميشال .م.» إسرائيلي كنت قد تمرنت معه، كان يعيش في فرنسا ثم انتقل إلى إسرائيل والتحق بالـ IDF وعين في سيجنت SIGINT الوحدة ٨٢٠٠ (فرع المخابرات الخارجية). ومن خلال معارفه في الحلقة الإستخباراتية، جندته الموساد ووجد أخيراً عملاً له في مركز الوكالة في باريس.

أخبر ميشال المراسل «فرزاد بازوفت» أنه سيدفع له بوفرة وينشر له قصته إذا انضم هذا الأخير لمجموعة الصحافيين المتوجهة إلى بغداد، وعلل عدم تمكنه شخصياً من الذهاب لأن اسمه يظهر على اللائحة السوداء العراقية.

وألح في طلب قصة مهمة، كما أوعز ميشال لبازوفت عن إمكانية استخدام المال. وليفضي بمكنون صدره مستعيناً بخلفيته الإجرامية، كان ميشال يعلم بتوقيف «بازوفت» في العام ١٩٨١ بتهمة السطو المسلح في «نورثهامبتون» في إنكلترا. ومع هذا التهديد المبطن، وعد ميشال هذا الأخير أن ينشر قصته في «الأوبزرفر». كان ميشال يريد من «بازوفت» أن يجمع له معلومات تتعلق بإنفجار «الإسكندرية» وأن يتقصى عنه ويستحصل على مخططات وصور للمنطقة ويقوم بأخذ عينات من أرضها. وطمأن ميشال المراسل القلق أن صدام لن يتجرأ على أذية مراسل حتى لو كان هذا الأخير لا يعجبه، وفي أسوأ الحالات، يطرده «صدام» خارج البلاد، وهو حدث بحد ذاته سيجعل «بازوفت» من المشاهير.

وسألت: لم اختير هذا المراسل بالذات؟

ـ كان «بازوفت» من أصل إيراني مما يجعل معاقبته أسهل من قبل العراقيين، ولم يكن غريباً. بالتالي لن يكتفوا باعتقاله وطرده خارج البلاد.

في الواقع، كانت الموساد قد تعرفت على «بازوفت» في إحدى عمليات التفتيش التي أثيرت بسبب تطفله حول قضية أخرى للموساد بحثاً عن قصة يتبعها.

كان «بازوفت» يجمع معلومات عن شخصية كانت سابقاً في الموساد، تحت اسم دكتور «سايرس هاشمي» الذي قتلته الموساد في تموز عام ١٩٨٦. وكان «بازوفت» قد عثر على أكثر مما يجب من المعلومات لحسابه، أو لحساب

الموساد، لهذا السبب كان المرشح الأنسب لمهمة التطفل في المناطق المحظورة.

وأكمل يوري كيف ذهب بازوفت إلى المكان كما طلب منه وكما كان متوقعاً أوقف، وأوقفت معه صديقته البريطانية وهي ممرضة تعمل في أحد مستشفيات بغداد.

وبعد عدة أيام من الإعتقال، قام أحد صلات الوصل في الموساد في الولايات المتحدة، باستدعاء ممثل العراق في هولندا وأخبره أن القدس تريد عقد صفقة لإطلاق سراح رجلهم الذي إعتقل، وأضاف أن الصفقة تتعلق حصراً بالرجل، لأن اسرائيل لا تبالي بالممرضة. واستمهله الممثل العراقي بعض الوقت حتى يتمكن من الإتصال ببغداد، وقام صلة الوصل بالإتصال ثانية في اليوم التالي وأخبر العراقي أن هناك سوء تفاهم.

هكذا تأكد للعراقيين أن بين أيديهم جاسوساً حقيقياً تالياً سيؤول للإعدام. واكتفى الموساد بالجلوس ومشاهدة صدام يثبت للعالم مدى وحشيته.

في الخامس عشر من آذار عام ١٩٩٠، أعدم «فرزاد بازوفت» في سجن «أبو غريب» الواقع على بعد عشرين كيلو متراً غرب بغداد، بعد مقابلة قصيرة له مع السفير البريطاني في العراق. أما صديقته البريطانية فقد حكمت بالسجن خمسة عشر عاماً.

وسلم جسد «بازوفت» إلى السفارة البريطانية في بغداد وذكر الناطق الرسمي أن رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر «أرادته حياً ونحن نسلمها جثته».
وصدم العالم، ولكن الموساد لم تكن قد انتهت بعد.

ولإزكاء الشعلة التي خلفتها عملية الإعدام، قام أحد العملاء «السايان» في نيويورك بتسليم مجموعة وثائق لشبكة التلفزة الأمريكية ABC مع قصة عن مصدر شرق أوسطي موثوق تكشف عن امتلاك صدام لمفاعل يصنع فيه الأورانيوم. كانت المعلومات مقنعة، خاصة مع الصور والتصاميم التي ترفقها.

كان الوقت قد حان لشد الإنتباه نحو أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها صدام.

وكان العراقيون، قد أطلقوا قبل ثلاثة أشهر في الخامس من كانون الأول ١٩٨٩، صاروخاً بالستيا ثلاثي المراحل أطلق عليه اسم «العابد» وأدعى العراقيون أنه قمر صناعي، وساعدهم العالم الكندي «جيرالد بل» على تطويره.

وعرفت المخابرات الإسرائيلية أن عملية الإطلاق التي أعلنت رسمياً، أنها تمت بنجاح كبير، أسفرت عن فشل ذريع، وأن البرنامج لن يحقق هدفه قط، بيد أن هذا السر لم تشترك وسائل الإعلام بمعرفته، بل على العكس بالغت في تصوير نجاح عملية الإطلاق بشكل فاق كل الحدود.

واستخلصت إسرائيل الرسالة التالية: الآن مع اكتمال كل أجزاء اللغز، فإن هذا المهووس يقوم بتطوير طاقات نووية (إشارة إلى الغارة الإسرائيلية على المفاعل العراقي عام ١٩٨١) ويتابع برنامجه الكيميائي.

كما ظهر في هجومه على أفراد شعبه من الأكراد إضافة إلى ذلك هو يمقت وسائل الإعلام الغربية ويرى فيهم جواسيس لإسرائيل، وعما قريب ستكون لديه القدرة على إطلاق صواريخ من أي موقع في العراق ليصيب كل الأهداف التي يريدها في الشرق الأوسط وخارجه.

بعد إعتقال «بازوفت» قام بعض الإسرائيليين بزيارة صديقهم القديم «جيرالد بل» الذي كان يعمل أيضاً في مشروع المدفع العراقي الكبير المدعو «بابل».

كان هؤلاء الأصدقاء أنفسهم الذين دبروا إتصاله مع إفريقيا الجنوبية من أجل تبادل المدفع المتحرك البعيد المدى G-6 من عيار ١٥٥ ملم والقاذف الذاتي، من عيار ١٥٥ ملم وكلاهما تم تصنيعهما في إسرائيل من قبل صانع السلاح «سلتام» وكان بين الزوار، «دايفيد بيران» رئيس الإتصالات في الموساد والآخر «رون فنتروب» رئيس المكتب العراقي في مقر الموساد الرئيسي وقد جاءوا لإعطاء تحذير.

كان «بل» يعرف أن الإثنين هما أعضاء في الإستخبارات الإسرائيلية، إلا أنهما لم يكونا في العمل الميداني، فجاء تحذيرهما في غاية الأهمية، دون أن يتعرضا لخطر الإفتضاح، إذ لم يكونا عميلين متورطين مع العدو مباشرة.

وكان قسم الدراسات النفسية في الموساد قد درس وضع «بل» وحلل ما عرف عن طبعه، وتوصل للنتيجة التالية، بالرغم من التهديد، فهو لن يتخلى عن البرنامج، بل سيتابع عمله غير مبال لسلامته الشخصية، وهذا لا يعني أن الرجل لن يقلق، على العكس توقع القسم أن تروعه التهديدات وأن يصل لأعلى مستويات التوتر.

في النهاية، كان مضي «بل» في برنامجه، ورقة لعب رابحة في أيدي الموساد: جسد «جيرالد بل» المنخور بالرصاص سيرغم العالم على الإطلاع على نوعية عمله: مشروع المدفع العراقي العملاق «بابل» ووجب أن يكون التوقيت مناسباً، فكان على وفاة «بل» المرافقة بحملة إعلامية مركزة أن تلي مباشرة عملاً إرهابياً يقوم به نظام بغداد، عملاً لا يمكن تفسيره كحادث أو كإستفزاز. وجاء إعدام مراسل «الأوبزرفر» في ١٥ آذار الحدث المنتظر.

بعد إعدام المراسل في بغداد، وصل فريق «كيدون» إلى بروكسل وقام برصد المبنى حيث يقيم «بل» كان من الضروري إنجاز المهمة في مكان يلغي كل تأويلات السرقة أو الحادث. وتزامن هذا مع تحضير طريق فرار للفريق، وإعادة إحياء بعض الإتصالات بعناصر من الجناح اليميني في الشرطة البلجيكية للتأكد من وجودهم ضمن دوام العمل وقت تصفية «بل» في حال دعت الحاجة لإستدعاء قوة متعاطفة من الشرطة. ولم يقدم لهؤلاء السبب الحقيقي للإنذار المزعوم، إنما يعلمون لاحقاً ويلتزمون الصمت.

استأجر بعض أعضاء فريق الكيدون شقة خالية مقابل شقة «بل» في المبنى ذاته. وحصل الزوج الذي استأجر الشقة على مفاتيح المدخل الرئيسي للمجمع دون أن تطأ أقدامهما أرض الشقة. بعد مضي ثمانية أيام على إعدام المراسل في بغداد. (كانت الإستخبارات البريطانية على وشك إطلاق عملية حادة واسعة يمكن أن يميل بها العراقيون المتورطون بمحاولة تهريب لبعض المحولات النووية من الولايات المتحدة، وهذه المحولات تشبه إلى حد بعيد المحولات التي ضبطت في عملية تهريب قامت بها إسرائيل قبل سبعة أعوام. كان أحد أعضاء فريق الهجوم التابع للموساد ينتظر، في الشقة المجاورة لشقة «جيرالد»، رسالة من زميل له خارج المبنى يراقب المدخل.

وكان هناك عضو ثالث يؤمن حماية الدرج واثنان آخران ينتظران في سيارتين مهيأتين للفرار إلى جانب الطريق.

عندما بلغ «بل» المبنى في الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين من بعد الظهر، أعطى الرجل الذي يراقب المدخل إشارة تأهب لزميله في الشقة الخالية في الطابق السادس: دخل الهدف إلى المبنى، عندئذ غادر الرامي الشقة تاركاً وراءه علبة سجائر فارغة وعلبة كبريت تحمل شعاراً لفندق في بروكسل، واختبأ وراء أحد أعمدة الجدار. مباشرة بعد أن أغلق باب المصعد خلف ظهر «بل» أطلق الرامي النار على نقطة الهدف: ظهر الرجل ورأسه، ثم تقدم نحو «بل» الذي أنزلق على الأرض. وانتزع من حقيبته رزمة من الوثائق والأوراق الأخرى ووضعها في كيس من الورق كان يحمله، ثم جمع كل الطلقات الفارغة عن الأرض ووضع البندقية في الكيس، وتوجه بعدها نحو الدرج حيث ينتظره شريكه، وغادر الإثنان المبنى، ما إن لمح المراقب في الشارع، رفيقيه يخرجان حتى أسرع نحو إحدى السيارتين، ودخل الرجلان السيارة الأخرى وغادرت السيارتان بسرعة ساحة الجريمة. وفي مرآب تحت الأرض، ترك الجميع السيارتين ليستلمهما في اليوم التالي عميل سايان كان قد استأجرهما دون ذكر اسم المستأجر. ثم غادروا إلى أمستردام حيث استقلوا طائرة شحن تابعة لشركة العال كجزء من الطاقم وعادوا إلى اسرائيل مغادرين أوروبا بالطريقة ذاتها التي دخلوا بها.

في الأسابيع التالية، ظهر المزيد من الإكتشافات المتعلقة بالمدفع العملاق وعناصر أخرى من آلية «صدام» الحربية. وكانت الموساد قد أشبعت الإستخبارات الميدانية بمعلومات حول النوايا الجهنمية لصدام الرهيب، معتمدة على أنه بات يمتلك ما فيه الكفاية من الأدلة ليدين نفسه.

الموساد تسعى لمنع نشر الكتاب لأنها لن تكون سعيدة

كان هدف الموساد الأساسي من وراء كل هذا واضحاً تماماً.

كانت تدعو الغرب للمزايدة تماماً كما فعل الأميركيون في ليبيا عندما قاموا بالهجوم على القذافي. في الواقع، لم تكن اسرائيل تملك الحاملات والقوة الجوية الضخمة، بالرغم من أنها تستطيع قصف مخيم للاجئين في تونس إلا أن

الوضع هنا يختلف. وأيقن قادة الموساد أنهم إذا استطاعوا إظهار صدام طائشاً وشريراً، ويهدد مخزونِ نفط الخليج بعد أن كان يدعي أنه الحامي له، عندها لن تدعه الولايات المتحدة وحلفاؤها ينجو من كل أعماله، بل ستتخذ إجراءات لإزالة جيشه وأسلحته المدمرة، خاصة إذا تم إقناعهم إنها فرصتهم الأخيرة قبل أن يصبح لدية قوة نووية.

كانت كل التفاصيل مدونة أمامي على الورق، وقررت أن أتصل بالشرطة البلجيكية في اليوم التالي وإخبارهم بكل ما أعرف. فهذا سيظهر في كتابي في المستقبل القريب.

لم يكن «يوري» يوماً سعيداً لمغادرة مكان كما كان عندما غادر أوتاوا في ذلك اليوم، وكنت في غاية القلق وأنا أعمل مع «كلار» على هذا الفصل من الكتاب.

في اليوم التالي اتصلت بالشرطة البلجيكية في بروكسل وأمضيت قرابة الساعة وأنا أردد قصتي على الهاتف مراراً وتكراراً ولم أصرح عن اسمي أو عن مصدر معلوماتي ولكنني لم أخف أي أمر آخر. كنت متأكداً بعد إقفال الخط أنهم استوعبوا قصتي وسيشيرون بأصبعهم في الإتجاه الصحيح.

في اليوم التالي، كان من المفترض أن يأتي «كلار» ويعمل معي على الفصل الجديد، لكنني تلقيت إتصالاً من إفرايم: «إنس القصة التي أخبرك إياها «يوري»». اعترضت، لكنه لم يتزحزح. وطلب مني أن أثق به في هذا المجال وأنه سيشرح لي الأمر فيما بعد. لم أستخدمها ولكنه لم يشرح لي قط. ولم تحل الشرطة البلجيكية لغز الجريمة.

ولكن ما وجدته مزعجاً أكثر من أي شيء آخر هو اللامبالاة التي أبدتها الحكومة الكندية والصحافة لمقتل رفيق كندي.

الفصل الثامن والعشرون

عملية نشر الكتاب ماضية دون تردد متحدية الموساد

عند منتصف شهر آذار، شارفنا أنا وكلار على الإنتهاء من الكتاب.

كان إفرايم قد وافق على معظم ما جاء فيه وقبل ما تبقى على مضض.

وأخبرنا «نلسن دوسيه» ممولنا في دار نشر ستودارت أنه أمن خدمات محرر من خارج الشركة ولكنه متكتم كفاية للإعتماد عليه.

كان المحرر سيدة تدعى «فرانسيس هانا» وهي زوجة «بل هانا» نائب رئيس الحقوق الأجنبية في دار «ستودارت».

وأخبرتنا «فرانسيس» أنها عملت محررة على كتاب تناول الموضوع ذاته تحت عنوان «إنتقام» وأرادت أن تعرف رأيي به. أجبتها أنني قرأت البداية ووجدته دون مستوى الجودة فتركته. اغتاظت بادىء الأمر ومع مرور الوقت تعرفت أكثر على واقع الأحداث في عالم الإستخبارات وأعتقد أنها أدركت وجهة نظري.

عندما انتهى تحرير الكتاب، قام «بل هانا» برحلة إلى نيويورك حاملاً معه «بروفة» الكتاب ليسلمها إلى «توم ماكورمك» رئيس مطابع «سانت مارتن».

كان «توم» سيقرأ الكتاب خلال الليل ويقابلني في مكتبه في لقاء قصير ومن بعده سيقرر إذا كان سينضم إلينا في هذه المجازفة.

سافرنا أنا وبيللا إلى نيويورك، كنت قلقاً جداً من الناحية الأمنية. أصبح هناك عدد غير قليل من الأشخاص متورطين في الكتاب، ومن الممكن أن تكون قد وصلت أخبارهم إلى الموساد، من دون علم إفرايم والفريق.

ويمكن لهذه المعلومة أن تحفظ ضمن فريق آخر بسرية كما كان الأمر في

فريقنا. حجزنا غرفة لنا أنا وبيللا في فندق «ريتز».

وأول عمل قمت به في الصباح كان ذهابي للإجتماع بـ«بل» الذي سيدبر لقائي «بتوم». في هذا الوقت قررت بيللا أن تقوم بجولة على المحلات التجارية. كنت في غاية التوتر ولقيت صعوبة كبيرة في التركيز، كان عندي إحساس أنني ملاحق ولم يكن بإمكاني تجاهله، كبته وقلت لنفسي، إن الأمر لم يكن ذا أهمية، تورط العديد من الناس في الكتاب سيدرأ الخطر عني.

كان اللقاء مع «توم» لطيفاً، سألني بعض الأسئلة الحرجة، وبما أنه لم يكن هناك شيء أخفيه، كان من السهل الإجابة عليها. كان توم مرتاحاً وخلق جواً مريحاً بروحه المرحة وصوته الهادىء والعميق.

كان «بل» قد أحضر له «البروفة» ملفوفة بغلاف كتاب آخر، كتاب «لبيار اليوت ترودو»، كان تدبيراً وجده «بل» ضرورياً، ووجدت التورية ونوع الغلاف مسليين جداً. غادرت الإجتماع بعد مرور ساعتين، وبقي «بل» لمناقشة بعض الأعمال، لم أحظ بجواب نهائي ولكنني كنت أشعر بإرتياح في طريق عودتي إلى الفندق، دفعنا الحساب وغادرنا المدينة. واتصلت «ببل» من أحد المطاعم على جانب الطريق، وزفّني البشرى السارة: فازت «سانت مارتن». نقلت الخبر لإفرايم إثر عودتي إلى «أوتاوا» فغمره ابتهاج عامر.

وبادرني:

ـ هذا سيفي بالغرض، أنا لا أشك أن هذا سيهزمهم.

لم أكن متأكداً فأجبته:

ـ يمكنهم أن ينكروا معرفتي، كذلك يمكنهم القول إن كل هذه أكاذيب كما فعلوا في الماضي.

ـ ليس إذا تدخلت، لن يفعلوا، فأنت لست «فانوفو» وهم يعلمون ذلك، يجب أن تلعبها جيداً يوماً ما.

ـ هل تعرف إذا بلغتهم أية ملعومات عن الكتاب؟

ـ على حد معلوماتي، كلا، ولكن عليك أن تحذر وتحمي ظهرك حتى موعد ظهور الكتاب عندها ستحميك وسائل الإعلام.

ـ هل تخبرني أنه ليس لديك فكرة إذا كانوا يعرفون أم لا؟
ـ لا تقلق، إذا كانوا سيقومون بشيء عنيف سأسمع به بالتأكيد.

كنت أعرف تماماً أين أزج نفسي منذ الوقت الذي قررت فيه أن أكتب الكتاب. إنما جملته الأخيرة منحتني بعض راحة البال.

الأحد ٢ أيلول ١٩٩٠

«لقد خرج من الحقيبة، لديهم إسطوانة عن الكتاب وهم يطبعون نسخة عنه، سمعت أن الأمور ليست على ما يرام، أصبحت القضية في يد رئيس الوزراء» قال إفرايم عبر الهاتف، فأجبته دون أن أضحك:
ـ السفاح الصغير سيأمرهم بقتلي.
ـ عندي شخص سيعطيه فكرة أفضل، وأظنه سيبتلع الطعم.
ـ هل يمكنك أن تكون أكثر تحديداً؟
ـ لا أفضل في الوقت الراهن، ولكنني أريدك أن تعلم أنك ستتلقى زائراً في الأيام القليلة القادمة.
لم يكن هناك المزيد من الأقوال.

قمنا أنا وكلار برحلة أخرى إلى «تورونتو». وذلك للإجتماع بممثلين عن مطبعة «سانت مارتن» وقررنا تأخير نشر الكتاب لمدة شهر، فقد قالوا إنهم يحتاجون للوقت لنشر الكتاب. في الوقت ذاته كانت النسخ تصدر سريعاً عن مطابع «ستودارت» وكانت تخزن في مستودع فارغ محاذ لمبنى دار النشر وعين حارس خاص لحراستها.

كان التوتر يزداد وكنا نتأهب لخوض المعركة. وشعرت أنني على وشك القفز من تلة مرتفعة ورجوت أن يكون هناك مظلة في ما أحمله على ظهري.

قبل مغادرتنا لدار «ستودارت» جاء «جاك ستودارت» مالك ورئيس الدار ليخبرنا بحصول أمر غريب فقد تلقى لِتوه إتصالاً من مجهول يقول إن اسرائيل قد كلفت الشركة القانونية «جودمان اندكار» في «تورونتو» لوقف نشر كتابنا.

ولم يكن «جاك» متأكداً إذا كان الأمر جدياً أو أن أحدهم من قسم دار النشر يقوم بمزحة. ولكنني كنت متأكداً أنها ليست مزحة، ولم أكن أملك الرد

على المكالمة أو القيام بالشيء الكبير.

عدنا في السيارة إلى «أوتاوا» وتأكدت من أننا لم نكن ملاحقين.

كانت بيللا قد علمت بمحتوى الكتاب بالرغم من أنها لم تقرأه.

وكنا قد اصطحبنا البنات لمطعم إيطالي في أوتاوا قبل عدة أيام، وهناك قمت بشرح مكثف عما يحصل، وفسرت لهن لماذا أقوم بهذه الخطوة، وثبت عزيمتهن لمواجهة موجة الغضب التي قد تنتج.

في المساء التالي لعودتي من «تورونتو»، ذهبنا أنا وبيللا إلى سوبر ماركت «بايشور»، كنت بحاجة لإستراحة لعلمي أن الجني كان على وشك الخروج من القمقم، أردت الإستفادة من الساعات الأخيرة المتبقية لي وأنا مجهول وبغير شهرة.

اكتشفتهم عندما أجريت مكالمة من هاتف المتجر: كانوا فريقاً من خمسة أشخاص على الأقل، يتتبعنا كل الوقت. علمت أن اللعبة قد بدأت وأن الليلة ستكون هي الليلة الكبرى، تركنا المتجر وعدنا إلى المنزل، كنت قبل عدة أيام قد توقفت في قسم الشرطة في «نيتيين» ومع غلاف الكتاب، وتكلمت مع الآمر الأعلى وشرحت له إنني أكتب كتاباً عن المخابرات السرية الإسرائيلية، الموساد وأن الموساد لن تكون أبداً سعيدة بموضوعه. فوعدني أن يبقى يقظاً ومحترساً، وستستجيب الشرطة على ندائي بأسرع ما يمكن وتهرع إلي في حال طرأت مشكلة. لم أكن أتوقع وقوفهم في وجه الموساد، إلا أن بمعرفتهم من أكون والإستحاطة لمشاكل قد تطرأ، جعلني أشعر بالتحسن، ثم توقفت في مركز RCMP في شارع «٤٠٠ كوبر» في أوتاوا وتكلمت مع المسؤول هناك، وأخبرني هذا الأخير أن الأمور تدخل ضمن صلاحيات CSIS، المخابرات السرية الكندية. وكان مركزهم في المبنى ذاته، لذا توجهت إلى مكاتبهم وأعلمتهم بالأمر.

في التاسعة من بعد الظهر، سمعت طرقاً على الباب، كنت واقفاً في المطبخ الصغير، أتهيأ لصنع فنجان من القهوة. أجابت «بيللا» على الباب.

«أورين رف وآرون شيرف» كانا على عتبة الباب.

كان «أورين» المساعد الشخصي لرئيس الموساد كما كان قائدي السابق «آرون شيرف» كان رئيس قسم «تسافريريم» الموكل بتوجيه وتنشيط دياسبورا اليهودية المنتشرة في العالم، كما كان قائدي الاكاديمي السابق.

كان «أورين» يحمل حقيبة كتف وحاول «آرون» جهده لرسم أفضل ابتسامة على شفتيه.

قال «آرون»:

ـ نريد أن نتكلم معك.

تناولت الهاتف وطلبت رقم ٩١١، وقبل أن يجيب أقفلت. كان هناك شيء منعني من القيام بهذه الخطوة المدمرة وقتها.

آمال «أورين» رأسه جانباً وقال:

ـ «أتينا لنتكلم».

رن جرس الهاتف، كانت الشرطة تتصل استجابة لإتصالي وتطمئن عن وضعي، فأخبرتهم أن كل شيء على ما يرام، وأنه في حال وجود أي مشكلة سأتصل فوراً، ووافقوا.

اتجهت نحو الباب، كنت أرى «بيللا» وقد شحبت، وأنه سيغمى عليها في أية لحظة. وبينما أنا أتوجه إلى الباب كانت بيللا ما زالت واعية وتعبر عن رأيها للزائرين.

كانت موجة الهيستيريا التي سببها ظهورهما المفاجىء بلا شك وراء موجة الغضب العارمة التي أنتابتها.

كانت تعلم من يكونا، وظهورهما على عتبة بابنا جعلت مخاوفها تجاه الكتاب تصبح حقيقة.

سأل أورين:

ـ «هل نستطيع الدخول؟»

ـ لا، ليس لدي شيء لأقوله لك.

ـ أرجوك، لنكن حضاريين.

لم أتمالك نفسي من الضحك عندها، ثم استدركت موقفي وارتعبت،

لماذا لم أخبر الشرطة أن هناك مشكلة؟

كنت أخشى أن يقوم العنصر المكلف باعتقالي وإعادتي إلى ثقب حفرة نتنة في اسرائيل يتخذ مكانه خارجاً في الظلال بينما يقف هذان الإثنان أمامي. كان من الصعب جداً تصديق أن كل ما أرادوه هو الكلام.

فقلت:

ـ «إذا كان هناك أية أقوال فلتقال هنا والآن، لن تدخلا، واقترح لمصلحتكما أن تختصرا وتذهبا إلى الجحيم بعيداً عن هذه المنطقة».

ـ نحن في حالة حرب، أجاب آرون مشيراً إلى حرب الخليج.

وكانت هذه الجملة الصادرة عن أحد الضالعين في الآلية التي سببت حالة الحرب هذه، كمن قتل والديه وجاء يطلب الرحمة لأنه يتيم.

ـ ماذا تريدان؟

كنت سأستمر في اللعبة حتى تسنح لي فرصة أمل، أردت تحويل المشكلة بعيداً عن عائلتي قدر المستطاع.

وكانت ابنتي «ليورا» قد نزلت السلالم حضرت عندما سمعت الحديث باللغة العبرية ظناً منها أننا نستقبل ضيوفاً من اسرائيل. لكنها عادت لتوها عندما سمعت لهجتي الغاضبة. وقال «آرون»:

ـ نريدك أن توقف الكتاب.

وأضاف «أورين» بلهجة حازمة:

ـ أنا لا أصدق أن هذا يصدر عنك.

فنظر إليه «آرون» مذعوراً وكأنه يقول لا تغضب...

ـ أجبته محاولاً أن أبدو عقلانياً:

ـ لست وحدي صاحبِ القرار، إضافة إلى ذلك لقد قاموا بطبع الكتاب الآن ويتهيأون لنشره.

وسأل «آرون»

ـ ما هو عدد النسخ الموجودة في كندا؟ عليك إيقاف هذا الكتاب.

ـ ليس بهذه السهولة. أجبت.

وقال «أورين»:

ـ كما تعلم المال ليس عقبة، سنغطي كل المصاريف بالإضافة إلى كل الأرباح المتوقع كسبها. أنت تعرف هذا.

ـ علي أن أسأل بعضهم، أحتاج للوقت.

نظرا إلى بعضهما ثم قال «أورين»:

ـ اتصل بي في القنصلية في تورونتو، سأنتظر مكالمتك هناك حتى ظهر غد.

ـ حسناً، أجبت وأغلقت الباب.

استدارا وتوجها نحو سيارتهما الحمراء من طراز شفروليه كافاليه، كانت تحمل رقماً صادراً عن «كيبيك».

جلسا في السيارة للحظات ثم ذهبا.

استدركت أنني لا أملك الوقت الكافي لأتحرك، كنت أتوقع رؤية العنصر الثالث في الفريق على الباب في أية دقيقة كنت أرى الوجل في نظرات بيللا. لم تكن تخشى على نفسها بل على زوجها الغبي، الذي أقحم نفسه مرة أخرى في المتاهة.

وضعت بعض الأغراض التي قد أحتاجها في حقيبة يدي وجلست لبرهة، أفكر في خطواتي التالية.

بعد فشل الموساد بإقناعي عدم نشر الكتاب
اتجهت لخطفي وإعادتي إلى إسرائيل

وبعد دقائق من التحليل، وصلت للنتيجة التالية، إنهم لن يتراجعوا في الحال، بل سينتظروا ليروا إذا كنت أتمتع بأية حماية تترجم فعلياً بعد هذه الزيارة التي تلقيتها، فهم لا يريدون أن يمسك عليهم أي شيء. قررت الرحيل عند منتصف الليل.

كنت بحاجة لمكان تتواجد فيه الشرطة على مدار الساعة، واستبعدت مركز الشرطة، وخطر لي المطار، فهو يعمل على مدار الأربع وعشرين ساعة في اليوم، والشرطة متواجدة فيه كل الوقت. كما أستطيع أن أستعمل الهاتف هناك،

وأحاول مغادرة المدينة بأسرع ما يمكن. تصورت أنني سأكون بأمان أكثر إلى جانب ناشري، في النهاية كان شريكي في كل هذا.

في الثانية عشرة، توجهت بسيارتي إلى الطريق الغام، وسرعان ما لحقت بي سيارة صغيرة رمادية تتبعها سيارة رمادية كبيرة من دون نوافذ. قمت بعدة مناورات واسعة للتضليل واستطعت النفاذ لأنني أعرف المنطقة أفضل من أي قادم جديد. توجهت مباشرة إلى المطار وإلى محطة RCMP هناك، تكلمت مع المسؤول في المطار بإختصار وأخبرته أن عملاء الموساد يتبعونني في أنحاء المدينة. فوعدني بإعلام شرطة المطار للتحقق من سلامتي باستمرار.

لم تكن هناك رحلات قبل صباح اليوم التالي، وكنت على ما يبدو سأمضي ليلتي في المطار.

اتصلت ببيللا لأقول لها أن كل شيء على ما يرام، ثم اتصلت بـ«كلار هوي» لأضعه في الصورة، لم يكن «نلسن دوسيه» في المنزل فاتصلت بـ«جاك ستودارت» وتوقعت أن يقوم بعمل شيء وربما إظهار بعض الإهتمام. ولكنه لم يكن ليدرك خطورة الوضع. وبالكاد تمنى أن تكون الأمور على ما يرام وأنه ينتظر رؤيتي في مكتبه في صباح اليوم التالي.

أقلعت الطائرة في تمام الساعة السابعة من قبل الظهر. وصادفت الطائرة بعض المشاكل في الهبوط على أرض تورونتو بسبب الضباب. ولكننا وصلنا أخيراً، وبعد فترة قيادة قصيرة وصلت إلى مكاتب «ستودارت». وهناك كان علي أن أنتظر لفترة. وأخيراً تقدم أحدهم لرؤيتي وشرحت له ما يحدث.

كان الموساد يطاردنا ويهيّئ نفسه ليقوم بخطوات لإيقافنا، وشعرت أنني أدين «لستودارت» بطريقة لتخطي الحالة، وفي جلسة مغلقة مع جاك «ستودارت» سألته إذا كان يريد الإنسحاب من هذه المغامرة ستقوم الموساد بدفع كافة الأتعاب، عن طريق ممثل الموساد «أورين رف» الذي لا يزال ينتظر مكالمتي في القنصلية في «تورونتو» وأجاب «جاك» إن نشر الكتب ليست عملية جمع مال وحسب بل، بالنسبة إليه مسألة مبدأ، ولم يكن ينوي أن يستسلم فالكتاب سيخرج مهما كانت الظروف.

وكان «أنجل غويرا» رئيس قسم الإعلانات في «ستودارت» قد دعا مجموعة صغيرة من مراسلي الصحف الكبرى ومحطات التلفزيون، وقدم لهم موجزاً عن الكتاب وكانوا ينتظرونني في إحدى القاعات. في هذه الأثناء، أخطرت مطابع «سانت مارتن» بالتطورات الجديدة وطلبت أن تنتقل إلى الخطوة التالية بأسرع ما يمكن. كان لديهم سبعة عشر ألف نسخة من الكتاب في مستودعاتهم، وقرروا تسويقها فوراً هنا وهناك. وكان التسويق يتم عبر نظام يدعى التسويق الأعمى، يسوق عبره الناشر كتباً للمحلات في غياب أوامر محددة. لم تكن المحلات مجبرة على أخذ الكتب ولكنهم في الغالب يأخذونها ويضمن بالتالي توزيعاً واسع النطاق.

كان المسؤول عن حقوق النشر «بل هانا» قد أخذ الحقوق البريطانية لـ«بلومسبوري» بيد أن مطابع «سانت مارتن» التي من المفترض أن تزودهم بالنسخ، لم تكن تملك أعداداً زيادة لترسلها إليهم، متبعة سياسة «انتظر لترى» فيما يخص مبيع الكتاب.

أتصلت ببيللا التي أخبرتني أن «دينا» وهي إحدى أعز صديقاتها قد اتصلت من اسرائيل، وأخبرتها أنها وزوجها «هيزي» وبعض أصدقائنا الآخرين سيتم إحضارهم إلى «أوتاوا» في اليوم التالي ليحاولوا حملي على إيقاف نشر الكتاب. كما أخبرتني بيللا أنها حاولت إفهام «دينا» أن مثل هذه الخطوة غير مجدية وأنه من غير المنطقي أن تنجح «دينا» حيث فشلت بيللا نفسها. لاحقاً عندما اتصل «أورين» وسأل عني، طلبت بيللا منه أن يوعز للمعنيين في اسرائيل عدم إرسال أصدقائنا في هذه الرحلة السخيفة، فتغابى «أورين» وأنكر أن يكون لديه أية فكرة عن الموضوع الذي تطرحه بيللا. وعندما أصرت، وَضَعَ حداً للعملية.

في هذه الأثناء، كنت أجلس في دار ستودارت للنشر، لا حول لي ولا قوة، أكاد أشعر بوجود فريق الموساد ولا يمكنني الإتصال بإفرايم أو بأحد الآخرين. كان هناك الكثير من العيون والآذان من حولي. وقبل أن أتوجه إلى المؤتمر الصحفي وصل فاكس من مكاتب غودمان أندكار للمحاماة، مرسل من قبل «جويل غولدنبرغ» للدفاع عن دولة اسرائيل، يعلم «ستودارت» أنهم حصلوا على أمر من القاضي يقضي بمنع توزيع الكتاب ويمنعني من مناقشة المعلومات

الواردة في الكتاب إلى أن تتم تسوية الأمور في المحكمة. لقد تمكنوا من وضع كمامة تكبت حريتي في التعبير، ولأول مرة في التاريخ الكندي، يتدخل بلد أجنبي ليمنع نشر كتاب، كل هذا قبل أن تخرج نسخة واحدة من المستودعات الكندية وقبل أن يحصل القاضي والمحامون المعنيون بالقضية على نسخة من الكتاب، إلا إذا كانت هناك نسخة مسروقة.

بات وجود اسمي على غلاف الكتاب من جهة وكونه كتاباً غير خيالي عن الموساد من جهة أخرى، كافيان ليشكلا خطراً على دولة اسرائيل.

أما في الولايات المتحدة وقبل أن تأخذ الخطوات القانونية مجراها، كانت «سانت مارتن» للنشر قد سوقت أكثر من اثني عشر ألف نسخة في المحلات هناك، ولم تتأخر اسرائيل في التحرك لمحاولة وقف الكتاب في الولايات المتحدة تماماً كما فعلت في كندا.

منذ البداية كان واضحاً للحكومة الإسرائيلية، أن إبقاء الكتاب بعيداً عن رفوف المكتبات في كندا والولايات المتحدة أمر غير ذي جدوى لا يمكنها الإستمرار فيه، بالتالي كان لديها مخططات أخرى، مخططات لا تورط المحاكم، وجاء لاحقاً في الصحافة الإسرائيلية أن رئيس الموساد قد طالب بوجوب القيام بتحركات تسنح له بوقت إضافي ليتمكن من توقيفي. واعترف أمام لجنة خاصة من البرلمان الإسرائيلي الكنيست، شكلت للتحقيق في قضيتي، أنه أرسل أشخاصاً إلى كندا في محاولة لإقناعي بعدم نشر الكتاب، كذلك أقر أنه عرض عليَّ مالاً ولكنني رفضته، فقرر عندها إتخاذ إجراءات أخرى. لاحقاً بعد أن سكن كل شيء، أخبرني إفرايم بخطة الرئيس. كان يريد من الدعوى القانونية أن تمنعني من التكلم والإجابة على أسئلة شائكة في الأيام القليلة الأولى، مما يتيح لهم الوقت لخطفي وإعادتي إلى إسرائيل. وافترضت الموساد أنه مهما كان الضرر الذي سيصيب العلاقات العامة نتيجة لاختطافي، فهو تافه أمام الأذى الذي سأسببه في حال سمح لي بالإجابة على أسئلة الصحافيين ووسائل الإعلام. وكان احتمال فضح السلوك الخاص والشخصي للموساد، يزعج رئيسها أكثر من افتضاح أي أسرار دولية مزعومة في كتابي.

أما تجاهلي أنا وكتابي تماماً فلم يكن بالخيار البعيد عن رئيس الموساد،

إلا أن أقوال إفرايم في أحد اجتماعات رؤساء الأقسام «راشي» عن الوثائق التي ضمنتها في الكتاب، لا يمكن تجاهلها، كما أن خطفي وإعادتي إلى اسرائيل لن تكون بالمهمة المستحيلة. تدعيماً لحججه في أخذ تصريحاتي على محمل الجد (حتى ولو اختارت الموساد عدم التعليق على الموضوع)، أشار إفرايم إلى الإستجواب الذي ترجمته من العبرية والذي يتضمن معلومات عن القوات المسلحة السورية لا يمكن الحصول عليها من خارج الجيش السوري أو من خارج الموساد.

بعد أن راجعنا الفاكس الذي أرسله «غودمان أند كار» في مكاتب «ستودارت»، أرسلت سكرتيرة «آنجل» «سالي تندل» إلى حيث ينتظر المراسلون وطلبت منهم إعادة المواد التي وزعت عليهم ومن بينها ملخص الكتاب، لأنه علم أن اسرائيل اتخذت خطوات قانونية لوقف نشر الكتاب.

ولدهشتي، أعاد المراسلون الأوراق دون أن ينبسوا ببنت شفة، عقدنا مؤتمراً صحافياً قصيراً، لم أستطع خلاله قول الكثير باستثناء أن الكتاب هو كتاب آمنت بوجوب نشره. وتحركت الموساد في الولايات المتحدة وتدبرت مؤقتاً وقف توزيع الكتاب هناك. كانت تلك خطوة لا سابق لها، وكانت ردة الفعل في الولايات المتحدة مدوية وغاضبة أكثر بكثر من ردة الفعل الكندية. يبدو أن الأميركيين يثورون بعنف أكثر عندما يشعرون أن حريتهم في التعبير ستنتقص. وما هي إلا أربعا وعشرين ساعة حتى أزيل الحظر في الولايات المتحدة، وكانت تقريباً قد بيعت معظم السبعة عشر ألف نسخة التي تم توزيعها هناك، وقامت المحلات والمكتبات تطالب بالمزيد. وضربت المبيعات كل الأرقام القياسية، ومع ذلك وفي الوقت ذاته لم يكن مسموحاً لي بالتكلم حول ماذا يوجد «داخل» الكتاب. كنت أتنقل من مكان إلى مكان آخر في «تورونتو»، أخطط لتحركي القادم، مجبراً على شد أوراقي قريباً من صدري. في اليوم الأول أخذني قسم RCMP في الشرطة تحت جناحه. كانوا يولون لوظيفة حمايتي الحماس والقوة اللتين يوليهما رجال الأعمال لأعمالهم، ومع إنتهاء اليوم، قرروا إعادتي إلى أوتاوا، حيث تكون حمايتي أسهل مع عائلتي «دفعة واحدة».

عدنا إلى أوتاوا في السيارة وتوقفنا في مركز الشرطة في «نيبين» حيث أخبر

المسؤولون في قسم RCMP بشيء من الحرج الضابط المسؤول هناك أن قيادتهم قررت أن حمايتي تقع على عاتق الشرطة في «نيبين» وأنهم سيتركونني بين أيديهم. وأخبروني أن القرار اتخذ أثناء الليل خلال عودتنا إلى أوتاوا، ولم يشعروا أن الموساد ستتجرأ على التحرك في كندا، وبالتالي وجودهم المستمر لم يعد ضرورياً.

صوّرتني الصحافة الإسرائيلية على أنّي الشيطان مجسداً ويتوجب وضع رصاصة في رأسي

لم يكن بوسعي أي شيء. وأعطاني المسؤول بطاقة عمله وقال إنه في حال طرأت أي مشكلة، أنا حر أن أتصل به في أي وقت.

وهكذا بت أنا وعائلتي في أيدي الشرطة في «نيبين» التي كانت تعتبر أن سرقة السلع المعروضة في الواجهات جريمة كبرى. لم يكن هذا الأمر ليريحني.

صدمت بيللا عندما عدت، فهي تعرف تماماً خطورة الأمر كما تعرف مدى ضعفي في هكذا وضع. وقمنا في اليوم التالي بخطوة مراوغة. ذهبت إلى محطة القطار في الوقت الذي يغادر فيه القطار وعدت إلى تورونتو بعد الظهر. وهناك توجهت مباشرة إلى مكاتب «ستودارت».

كانت الحملة المركزة التي تقوم بها وسائل الإعلام في ذروتها.

وقمت بمقابلات للتلفزيون أو مقابلات عبر الهاتف لمحطات إذاعية في بلدان عديدة منها «سيدني» في أوستراليا، أو أماكن قريبة مثل وكالة الأنباء اليهودية في تورونتو.

على الرغم من ذلك، لم أكن أستطيع التكلم حول مضمون الكتاب أو عن تجربتي الشخصية في الموساد.

ثم ظهر عدة اسرائيليين ممن يعملون في ميدان الأخبار كمراسلين لصحفهم الخاصة أو معلقين في وسائل الإعلام الأخرى.

وقام أحدهم وهو «ران داغوني» مراسل لصحيفة يومية في اسرائيل تدعى «معاريف» بنشر مقابلة طنانة ورنانة معي أدعى أنه أجراها في تورونتو. وغطت

المقابلة حوالي صفحتين من صفحات الصحيفة، ولكن الرجل أهمل ذكر أنه لم يقابلني البتة وأنني لم أتكلم معه على الإطلاق.

كان القاضي الكندي قد منع أية مناقشات حول الكتاب لفترة عشرة أيام. وهي الفترة التي لدى الموساد لتحاول إيقافي.

كنت من وقت لآخر اكتشفهم يطاردونني وأقوم بتحركات للفرار، وكل ما فعلت، أنني ممتن بالشكر «لمؤس» و«دوف» على التدريب العظيم الذي منحاني إياه.

وقبل إنتهاء فترة العشرة أيام، أدركت أن الوقت قد حان لمغادرة تورونتو والعودة لمنزلي. فلم يعد لدي طرق لمغادرة مكاتب «ستودارت» من دون وضع مخطط. إلى جانب ذلك كنت في حالة إحباط شديد. وكنت قد ظهرت في أخبار الـ ABC المسائية مع «بيتر جيننكز» وعلى شبكة NBC مع «توم بروكاو» وعلى معظم الشبكات الكبرى، إنما بسبب قرار منع الكلام، بالكاد تفوهت بكلمة، وها أنا كالمغفل أمام العالم بأكمله.

لدى عودتي إلى «أوتاوا» قابلتني موجة أخرى من وسائل الإعلام، وذلك في اللحظة التي هبطت الطائرة. كان هناك مراسلون اسرائيليون وآخرون من وسائل الإعلام المحلية.

إنما ما استغربته أكثر من أي شيء آخر، هو كوني ممنوع من الكلام عن محتويات كتابي أو حتى حيازتي على نسخة منه بينما، «أودد بن آمي» ممثل الإذاعة الإسرائيلية كان يتلو مقاطع منه عبر الهاتف لمستمعيه في اسرائيل. عندما وصلت أخيراً إلى المنزل، تفاجأت من استلام رسالة قصيرة من والدي، الذي سمع عن الكتاب لأول مرة من وسائل الإعلام. وكانت الرسالة تقول: «اتصل بي، مهما حدث أنا دائماً والدك».

كنت بحاجة حقاً لذلك. وكانت علاقتنا قد عادت منذ أن قدمت إلى كندا. إنما كان هذا أمراً رجوته من كل قلبي. فهو هنا عندما أحتاجه. اتصلت به، وتابعنا وكأن شيئاً لم يحدث. افترض أنه لا يجب علي أن أتفاجأ، فهو بعد كل شيء، حتى بعد موجة الإنتصار العارمة التي اجتاحت العالم اليهودي بعد

الإنتصار الإسرائيلي في حرب الستة أيام عام ١٩٦٧، استمر مؤمناً بأنه يجدر معاملة العرب بكرامة واحترام، وبأنه ليس كل العرب سيئين وليس كل الإسرائيليين ملائكة. ابتداء من هذه المكالمة أصبحنا صديقين.

بعد عدة أيام، تدبرت اتصالاً مع إفرايم، وعلمت أن الموساد ستدعني وشأني من الآن وصاعداً، أما إذا كانت هناك إجراءات ستتخذ ضدي، فستكون على صعيد قسم زرع المعلومات الكاذبة وليس ضد شخصي. كنت لا أزال أعرف أنها ضمانات غير ثابتة تماماً، وإنني إذا غادرت كندا وغامرت في رحلة إلى الولايات المتحدة، ستتغير الأمور بسرعة.

وفقاً لذلك، قررت نشر «عن طريق الخداع» من خلال برامج إذاعية عبر الولايات المتحدة وكندا عبر الهاتف. ورتبت أكثر من مائتي برنامج في أقل من ثلاثة أشهر، كذلك قمت بسلسلة من البرامج التلفزيونية عبر الأقمار الصناعية.

من تورونتو، ظهرت في برنامج «صباح الخير أميركا» مع «شارلز جيبسون» ووجدته ساحراً في مجال المقابلة بقدر ما هو ساحر في مجال الضيافة. كان أمراً رائعاً، خاصة أنني أنظر إليه كل صباح منذ أن باشر في هذا البرنامج. ثم جاء برنامج «لاري كنغ شو» وكانت فترة حظر الكلام قد انتهت، إنما هناك حصلت على معاملة أقسى.

من أجل إضفاء بعض المشاكسة خلال البرنامج، قام منتجه بدعوة «آموس برلموتر» وهو أستاذ من الجامعة الأميركية في واشنطن، دي، سي، لينضم إلي أنا وكنغ. وظهر من البداية أن «برلموتر» هو أحد الداعمين المتحمسين لدولة إسرائيل، وإن ما سمعه حول كتابي (اعترف أنه لم يقرأه) لم يعجبه. لم يتسع وقت البرنامج لفضح «برلموتر» «وغيره من أبطال اسرائيل المعيَّنين». كيف عرفوا أن كل ما كنت أقوله أكاذيب؟ كنت أنا من خدم في الموساد وليس هم. وكيف لهؤلاء الأميركيين المخلصين أن يقبلوا بأي تشهير يتعلق بالـ «CIA» من دون أن يفكروا، إنما يصرون على الدفاع حتى النهاية عن وكالة استخبارات تابعة لبلد أجنبي، عرف عنها تجسسها على الولايات المتحدة (كما في قضية بولارد) ولم تتوان عن ضرب المصالح الأميركية (كما في قضية عملية «لافون») في مصر من بين غيرها.

قامت عملية «لافون» في الخمسينات وكانت من ضمن نطاق عمل «بنهاس لافون» وزير الدفاع الإسرائيلي حينذاك. نُظِّم عددٌ من المصريين اليهود ضمن خلية إرهابية وأرسلت هذه الخلية لضرب وتخريب الأهداف الأميركية في مصر، وكان الهدف منها محاولة ضرب العلاقة بين مصر وأميركا، وفشلت الخطة واعتقل الرجال. وتبع ذلك محاكمات بالتعذيب مؤلمة سياسياً في اسرائيل ولم يتوضح أبداً من أعطى الأمر لهذه العملية الشنيعة ولكن المسؤولية «للافون» كونه كان وزيراً للدفاع.

كانت موجة الغضب الأولى التي أثارها الكتاب، تعود لكشف معرفة الموساد المسبقة بالعملية الإنتحارية الشهيرة في بيروت (مع نوع ولون السيارة) ولكنها لم تمرر هذه المعلومة للمخابرات الأميركية. في تشرين الأول من العام ١٩٨٣، قتل مائتان وواحد وأربعون جندياً أميركياً من المارينز عندما اخترقت سيارة مفخخة بالمتفجرات معقلهم في بيروت.

بيد أن هذه القصة قد أخذت من الكتاب من دون أن تدرج ضمن السياق الذي أتت فيه، وأخبرت بطريقة وكأنني أقول أن الموساد كانت تعلم أن الأميركيين كانوا الهدف، لم يكن الوضع هكذا.

هذا وغيره العديد من الإفشاءات ساعد الكتاب على احتلال المرتبة الأولى في لائحة «نيويورك تايمز» للكتب الأكثر مبيعاً، حيث بقي لتسعة أسابيع. وأصبح «عن طريق الخداع» الرقم الأول في لائحة الكتب الأكثر مبيعاً تقريباً في واحد وعشرين بلداً حيث نشر. وقد نشر في خمس عشرة لغة مختلفة (ومع ذلك لم يتوفر باللغة العبرية بعد) ومع نهاية العام بيع منه أكثر من مليون نسخة في أنحاء العالم.

ولو لم تتدخل بيللا في اللحظة الأخيرة لكان أسماء العملاء المستخدمين ميدانياً ظاهرة في الكتاب، لم تكن لدي أية مشكلة في استعمال الأسماء وكذلك إفرايم. كنا نعلم أنه تم إحراقهم وأن ذكر أسمائهم في الكتاب ربما ينقذ حياتهم. ولكنني كنت سعيداً أيضاً لعدم ذكر تلك الأسماء.

ولم يمنع هذا من تصويري في الصحافة الإسرائيلية على أني الشيطان

مجسداً وقال أحد المراسلين الإسرائيليين في إحدى الإفتتاحيات أنه يتوجب وضع رصاصة في رأسي.

وطالب آخر بتوثيقي على عمود ويأتي كل الشعب الإسرائيلي ليبصق علي. قلة نادرة، إذا كان هناك من الإسرائيليين، توقف وتساءل: «ربما يوجد ذرة من الحقيقة فيما قاله». وبما أن الكتاب ترجم إلى العديد من اللغات. فقد التقيت وأجبت على أسئلة أشخاص من كل العالم.

ومع مرور الوقت، سرّني فعلاً فيما يخص مصداقيتي، باتت تتثبت أكثر فأكثر صحة أمور ذكرتها في الكتاب. انتقلت إلى منزل أكبر وباشرت مهنة ومستقبلاً جديدين. كنت على وشك كتابة قصة. كنت أعرف أن كتابة القصص الخيالية يقدم شبكة جديدة من التحديات، ولكنني شعرت أن تجاربي تؤمن مواد أولية لتحاك عليها أية قصة.

وقرّرت دار نشر «ستودارت» أن تغامر معي وكنت لها ممتناً.

باتت مكالمتي مع إفرايم متباعدة. وأخبرني أن اللجنة البرلمانية الإسرائيلية للتحقيق بـ«قضية أوستروفسكي» قد توصلت للنتيجة التالية: إن المشكلة الوحيدة هي أنني جندت في المرتبة الأولى. كما لو أن الأمور قد تغيرت داخل الموساد، وهي في الواقع لم تتغير إلا لماماً. أما الموجة الطفيفة التي تسبب بها كتابي فهي أن عدداً من الذين يدعون أنهم معتدلون قد وجه لهم اللوم لأنهم جنّدوني، وطردوا خارجاً.

كما وإن الخوف من احتمال تأسيس لجنة إشراف تسبب بإتخاذ جملة من التدابير الإحترازية. فتوثقت العلاقات مع حركة الإستيطان في الأراضي المحتلة وجنّد «جواسيس» في وزارة الدفاع والقوات المسلحة.

وبادرني إفرايم:

ـ أعتقد أنه لا تزال لديك وظيفة تقوم بها، هناك بعض العناصر حول الرئيس الجديد وهم يشكلون خطراً أكبر من أي شخص عرفته في زمانك.

ـ ليس بوسعي فعل الكثير الآن، بعد افتضاح أمري.

ـ سترى هذا، إنما في الوقت الحالي إركب التيار وتأكد أن لا تكون تحته. أخذت هذا التحذير على محمل الجد، فأنا أعرف من أين يصدر.

الفصل التاسع والعشرون
الموساد أوصلت رجلها اسحق شامير إلى رئاسة الحكومة

لم تكن سنة ١٩٩١ سنة خير على الموساد، بالرغم من أن بدايتها دلّت على ذلك. كان هناك رئيس جديد على العرش، ولسعادة الكثير من الوصوليين، كان من الداخل، مطلعاً على بواطن الأمور وتدبر المكتب بنجاح، إعاقة الحكومة من إحضار جنرال من الخارج. وماذا تريد الموساد أكثر من ذلك؟ فقد حظيت برجلها، اسحق شامير في كرسي السلطة أي منصب رئيس وزراء. كان رئيس الوزراء الإسرائيلي شخصاً يحب أن يذكر دائماً بماضيه الموسادي. (حتى لو لم تكن الموساد تعتبره أكثر من عادي من دون إنجازات كبرى) هذه المرة، جاء الرئيس من داخل الموساد ليحتل المركز الأعلى ضمن تسلسل طبيعي، موضحاً أنه من اليوم وصاعداً لن يكون هناك هبوط في المظلة لرئيس من الخارج. وهكذا أضيف تصفيح جديد من التفلون إلى المنظمة، التي كانت دائماً في القاذورات إنما لا تتسخ أبداً.

باشر الرئيس الجديد عمله في المكتب ولم يقم بأية تغييرات في المنظمة، إرضاء لرفاق السلاح. ما كان يحصل برغم ذلك، هو تآكل الرابطة التي كانت قائمة بين الموساد والقوات المسلحة، من خلال تعيين جنرال على رأس وكالة الإستخبارات. مرة أخرى كان هناك قائد للموساد لا يفقه شيئاً في أمور الجيش أو يكن احتراماً له.

كان الرئيس الجديد ينظر إلى المؤسسة العسكرية كراقصة باليه من الدرجة الأولى بحاجة دائمة للحضانة وغير قادرة على إتخاذ القرارات الصعبة من دون ارتداء ثياب داخلية حديدية.

وقال إفرايم: «الطريقة الوحيدة لعمل أي شيء مهم الآن، هو استهداف الموساد في كل بلد على حدة ونحاول خلق خلافات.

- لقد قمنا لتونا بذلك وماذا حصل؟

- أنظر، أنا أعرف بعض التحركات التي تباشر في الخروج. لم لا نستخدم هذا البلد كهدف ونرى ماذا يحدث؟ ماذا سنخسر؟

- هل فكرت يوماً ببدء محاولة من الداخل، الآن، بعد أن فشلت كل محاولات الضرب من الخارج؟

- فكرت دائماً بهذا. إذا سنحت لي الفرصة باستلام السلطة، ثق بي فسأفعل. ولكنهم أمنوا ذلك والله يعلم إلى متى. طالما أن «شامير» في المنصب، لا نملك فرصة لنقوم بأي شيء. فهو يكره العالم برمته، وأية طريقة أفضل للإنتقام من العالم غير استخدام الموساد؟

فهو يكره «بوش» لإذلاله له في واشنطن ولضغطه عليه بشدة فيما يخص ضمانات القروض.

وهو يكره البريطانيين، كان دائماً يكره البريطانيين، لا يثق بالفرنسيين ونعلم طبعاً ماذا يفكر نحو العرب والآخرين.

- فإذاً ماذا نفعل الآن؟

- لدي صديق في النروج، يعرف مراسلاً في صحيفة تدعى «أوفتن بوستن» يمكنني إقناع رفيقي أن يتصل بك المراسل وترى إذا كان هناك قصة له حول الموساد.

- هل هناك قصة في النروج؟

- بالطبع.

استغرقنا في قراءة تفاصيل هذه القصة ووجدنا عدة مراجع لها في الوثائق الدانماركية التي احتفظ بها. كل ما سأفعله الآن هو انتظار مكالمة ثم أبدأ من هناك. لم نعلق آمالاً كبيرة على هذه المغامرة ولكنها أفضل من لا شيء.

وعلى الرغم من أنني كنت منهمكاً في كتابة روايتي. فقد كانت هناك أمور أهم لأنجزها.

شعرت أنه لو طرأ تغيير في الحكومة في اسرائيل، ستكون هناك فرصة لبعض مفاوضات السلام. لذا قمت بتحويل أهدافي نوعاً ما. عند هذا الحد لم أكن وراء الموساد فقط، كنت أفتش أيضاً عن طرق لإحراج الحكومة.

بالنسبة لي، بدا عام ١٩٩١ أنه سيكون عاماً جيداً.

ما هي إلا أيام قليلة حتى تلقيت إتصالاً من مراسل في النروج أطلق على نفسه اسم سيد «ستانغر» قال إنه يعمل في صحيفة نروجية، الـ «أوفتن بوستن» وأراد أن يسألني بعض الأسئلة.

ثم تبعت ذلك المجاملات المحببة واللطيفة، فمدحني ليضمن تعاوني، وقال إنه استمتع بقراءة كتابي وإنه يأمل أن أكتب كتاباً آخر. إلخ. إلخ...

وأخيراً طرق صلب الموضوع، أراد أن يعرف إذا كنت على علم بأية نشاطات للموساد في النروج.

شرحت له إنه ليس لدي ارتباطات مع المكتب النروجي ولكنه بإمكاني تقديم نوع من التصور عن نشاطات الموساد في الدانمارك التي فصلتها تماماً في الكتاب.

وأضفت إنني لا أشك أبداً في أن الموساد كان ناشطاً في النروج بمقدار نشاطه في الدانمارك. وأنه إذا أراد أخذ الوقت الكافي في التحري، سأكون أكثر من سعيد أن أساعد، في توجيهه ومساعدته في تخمين وتقييم المعلومات التي سيكتشفها.

كما عرضت عليه أن أضع مخططاً عن ما أعتقده حاصلاً في النروج. وكل ما عليه هو تلوينه ببعض الحقائق والوقائع التي سيحصل عليها من التحريات.

كان الرجل راضياً تماماً، وعلمت عندها أنني على وشك تسديد ضربة موجعة أخرى إلى أنف الموساد، هذا إذا لم تفقني في الذكاء وتسحب كل شيء من النروج في الوقت المناسب. إنما وفقاً لعادتها، استمرت الموساد بما تتقن عمله أكثر من أي شيء آخر ألا وهو استغلال صداقة حليف جيد وعندما يحين الوقت تهجره وهي تحمل الطفل المثالي.

أخبرت صديقي الجديد أنه من المتوقع أن تكون الموساد على علاقة وثيقة

بالمخابرات المحلية، وتتركز اتفاقياتها وتعاملها مع الدرجة الوسطى من الموظفين فيها. ويمكنه التوصل لمعرفة الروابط من خلال الحصول على أسماء أعضاء الشرطة فالمخابرات الذين ذهبوا لحضور حلقات دراسية في اسرائيل.

أما التوجه الثاني الذي اقترحته، فهو مراقبة اللاجئين الفلسطينيين الذين يطلبون اللجوء في النروج.

تماماً كما في الدانمارك وكما ذكرت في كتابي، تسدي الموساد للمخابرات المحلية هناك خدمة، حسب كلماتها تضمن الأمن وتكشف عن الإرهابيين في صفوف اللاجئين الوافدين إلى البلاد.

وتعرض الموساد إرسال خبراء إلى النروج، لدى وصولهم يحصلون على الهويات النروجية من المخابرات النروجية.

هؤلاء الخبراء يستجوبون طالبي اللجوء في لغة يفهمونها (أي اللغة العربية والقسوة) ثم يقوم الإسرائيليون بترجمة المحادثات وتسليم الفلسطينيين إلى النروجيين هذه العملية تجنب البلاد من تسلل المشاغبين وبطريقة عامة تبعد النروج عن لعبة الشرق الأوسط الدموية.

-- وأخبرته أيضاً أنه مما لا شك فيه أن الشرطة ووكالة الإستخبارات مؤمنون أنهم يفعلون الصواب. ومن أجل حماية سلامة أصدقائهم من الموساد، يكتمون الأمر عن السياسيين، الذين، من حيث الأمور الأمنية، ليسوا أهلاً للثقة.

كان «ستانغلر» في طريقه لكشف أكبر فضيحة مخابراتية في تاريخ النروج وكان يعلم ذلك. كان الإتصال بيننا إعتباطياً، وكان يطلبني في أوقات غريبة طلباً للنصح.

باشرنا بالعمل معاً على القصة في كانون الثاني عام ١٩٩١، كان جاهزاً لينشر الكتاب في آب ويطبعه ويعلن عنه في أيلول. كان غضب الشعب النروجي متوقعاً كما كان متوقعاً تفسيرات المخابرات الواهية. كنت صادقاً في كل الأقاصيص وحصلت على مكسب صغير، فقد رشق وجه الموساد بالبيض وهذا كان مصدر رضى حقيقي لي. عرضت القصة، ما يمكن وصفه فقط بالعلاقة الحميمة بين الموساد والإستخبارات السرية والشرطة النروجية.

كانت الإستخبارات النروجية قد أمنت لأفراد الموساد أوراقاً نروجية وأحضرتهم إلى غرف التحقيق لإستجواب الفلسطينيين الذي يطالبون باللجوء إلى النروج.

كان ضباط الموساد يستجوبون الفلسطينيين باللغة العربية على الرغم من أن معظم الفلسطينيين يتكلمون الإنكليزية بطلاقة وكذلك الشرطة النروجية. ولم يكن أحد من الشرطة النروجية يجيد العربية وبالتالي لم يكن لديهم أدنى فكرة عما يقال. كان ضباط الموساد يهددون الفلسطينيين بالترحيل إذا لم يتعاونوا مع اسرائيل، كل هذا بحضور الشرطة النروجية ومن دونها في بعض الحالات، وفي هذه الحالات كانت الإستجوابات ترتدي طابع العنف.

كنتيجة عن القصة، طلب وزير العدل النروجي «كاري جستبي» إجراء تحري وتحقيق كامل عن الأمر. وكان هذا بالطبع إجراء لتهدئة المواطنين وقد رأى بعضهم في العملية تعدياً ثانياً من اسرائيل على حرمة النروج («التعدي» الأول حصل في «ليهامر» عام ١٩٧٤ إثر قيام الموساد بقتل نادل مغربي اعتقدوا أنه علي حسن سلامة وقد قتلته الموساد لاحقاً في بيروت) في المساء الذي سبق نشر المقال في «أوفتن بوستن» اتصل بي «ستانغلر» من النروج في ساعة متأخرة وبدا صوته غريباً، كان يبكي ويضحك تباعاً ويسألني أن أغفر له وأنه لم يكن يقصد ثم أقفل السماعة. وتركني بقلق عظيم. وتصورت أنه ربما طارده أحد قبل عملية النشر وأنه في خطر. وبما أنني لا أعرف أحداً في «أوسلو» ولا أستطيع الوصول لإفرايم لأرى ماذا يمكن فعله، اتصلت «بفرانك ازمان» وهو مراسل من الإذاعة الدانماركية a التي تبث من نيويورك. لخصت له الوضع وقام بدوره بالإتصال بأناس يعرفهم في النروج، واتصل بي بعدها كما اتصل بالشرطة القريبة من مكان إقامة «ستانغلر». وبعد عدة ساعات من التوتر الشديد علمت أن الشرطة قد زارت منزل ستانغلر ووجدته ثملاً. والظاهر أن «ستانغلر» قد اتصل بي وهو في أحد الإحتفالات التي تسبق افتضاح التحقيق وإنني أسأت فهم موجة المرح هذه. كان يحق «لستانغلر» أن يشعر بالرضى. فقد قام مجلس المنظمات النروجية لطالبي اللجوء، المعروف بـ NOAS برفع دعوى قضائية ضد الإستخبارات السرية لإنتهاكها طوعاً فقرات القانون الجزائي ٣٢٥ و١٢١. بعد

عدة أيام من هذه الفضيحة، قدم رئيس الإستخبارات السرية «زفاين أوردل» استقالته.

كذلك حاولت المؤسسة العسكرية النروجية تصوير العملية بمجملها كسوء تفاهم بسيط، كما أخبرني إفرايم، وأوضحُ النروجيون عبر عدة أقنية مستترة أنهم لن يتساهلوا أو يسمحوا بأية نشاطات للموساد في النروج، وليثبتوا ذلك، استعادوا صلة الوصل التابع لهم من تل أبيب وطلبوا من صلة الوصل التابع للموساد عدم زيارة أوسلو حتى إعلان آخر. كانت هذه ضربة قاسية للموساد. ما حدث في النروج جاء عقب عدة صفعات أخرى على الوجه وأنا فخور بالمشاركة بها. ما كان يتعذر على كتابي (إقناع الإسرائيليين بأن الموساد غير معصومة عن الخطأ) قد أنجز عن طريق السقوط من جراء تراكم هذه الأعمال الخرقاء. على الرغم من اعتبار الموساد كإله، إلا أنها أصبحت أقل ألوهية من قبل.

أثناء قيام ستانغلر بتحرياته، جاء «ايلي» (الذي لا أريد أن أعمل أي شيء معه) لزيارتي في كندا وأخبرني أنه يخطط لترك الموساد، بعد أن أصبحت مهمة الانسجام مع باقي أفراد المنظمة لا تطاق. وأصبح أكثر من نصف المجندين الجدد، من الطائفة المسيانية.

إذا كنتُ أتذكر الموقف السيِّء السائد في الموساد عندما كنت عاملاً فيها، فأنا لا أتمكن من تخيل ما هي عليه الآن. نضف أعضاء الموساد يعيشون الآن في مستوطنات في الضفة الغربية المحتلة. هذا كان كافياً بحد ذاته لجعلي أدرك إلى أي مدى باتت المنظمة يمينية.

كان ايلي يريد أن يعرف إذا كان لدي قناة اتصال مع المخابرات الأميركية. ولم يكن لدي أي قناة باستثناء المكالمات الهاتفية العرضية التي كلفني بها افرايم لتمرير بعض المعلومات. ونظراً لما آلت إليه الأوضاع، اعتقد أنه فات الأوان، فأي شخص سأتصل به سيظن بالتأكيد أنني أفتش عن مواد لكتاب جديد. إلى جانب ذلك، فإنَّ أية وكالة استخبارات لا تستلطف نافخ الصفارات (أو فاضح الأمور) لأن أحداً لا يعلم من سيجري فضحه في المرة التالية.

كنت أتمتع بحلقة من الأصدقاء كانت تقوم بعمل طوعي لمساعدة الشعب الفلسطيني. وفي الغالب كان لدى بعضهم معارف، ولكن يجب أن يكون لدي

سبب جوهري لأسحب هذا الحبل، كما يجب على الأشخاص المتورطين أن يعرفوا تماماً حقيقة ما يجري.

وأخبرني إيلي أنه أعلم «إفرايم» بهذه المعلومة، فأرسله على هذه الرحلة حتى يتمكن من الاستفادة بالرحلة المجانية لتأسيس عمل له في الولايات المتحدة حيث لديه هناك أفراد من عائلته ويستطيع بالتالي أن يتدبر أمر البطاقة الخضراء من دون مشاكل.

ـ «أظن أن آخر طائرة ستضطر لتسليط أضوائها على أرض مطار «"بن غوريون"».

قلت هذا وأنا أسترجع نكتة قديمة كانت منتشرة في إسرائيل إبان الأزمة التي سبقت حرب الستة أيام التي بالطبع غيّرت كل شيء، وضحكنا معاً مطولاً لهذه النكتة.

وأدركت أثناء حديثي مع «إيلي» أنني قطعت شوطاً أبعد بكثير منه. فإيلي و «يوري» أيضاً، لهذا السبب، لا يزالان يؤمنان بالحلم الصهيوني. كانا مثل كثير غيرهم من الناس الذين أعرفهم في إسرائيل، أصدقائي القدامى وعائلتي. وقد شاركا بما يعتبر تطرفاً من قبل كثير من الإسرائيليين وكانا يقومان به إيماناً منهما بالفكرة الصهيونية. وكنت قد أدركت منذ بعض الوقت أنني لم أعد أشاطرهم هذه الإيديولوجيا، ولم تعد بالنسبة لي دولة إسرائيل تجسد الحلم القديم بل تمثل كابوساً من الإجحاف والتحيز يحفل بالعنصرية ويلوح بعلم أبيض وأزرق كراية للإستبداد. لم أعد أريد أن أكون جزءاً من كل هذا. وعملي الآن هو أن أبيّن، لحاملي تلك، مقدار ذلهم لكي يتوقفوا ويفتشوا عن هدفهم الخاص. ربما ساعتئذ يمكنهم الانضمام إلى عائلة الأمم على قدم المساواة. وقال «إيلي»:

ـ إنهم يخططون لشيء في قبرص.

وناولني قطعة صغيرة من الورق تبدو كصفحة انتزعت من مفكرة صغيرة.

ـ ما هذا؟

ـ إنه رقم هاتف في قبرص. رقم هاتف الشرطة. عليك القيام بالاتصال وتخبرهم أن أحدهم سيتسلل إلى مبنى المكاتب هذا.

ـ ما هذا؟

ـ ليس لدي أية فكرة. ولا أكترث، قال إفرايم إنه يجدر بك إجراء المكالمة بعد يوم غد، تأكد أن تكون الساعة الخامسة والنصف بتوقيت قبرص المحلي.

ـ هل هذا كل ما تعرف؟

ـ أعرف أن فريق «ياريد» سيكون هناك، وأنه سيقوم بشيء لا يجدر القيام به.

ـ هذا كاف.

لم يبق إيلي طويلاً، كان خجولاً نوعاً ما لأنه يترك الموساد والبلاد.

شعرت بالانزعاج الذي خلفه وراءه، ولم أستطع تفسير الأمر، لكنني كنت أشعر به أيضاً؟ لذلك لم أحاول أن أستبقيه على الرغم من أنني كنت أود طرح مليون سؤال عليه.

الثلاثاء، ٢٣ نيسان، ١٩٩١

أجريت المكالمة في الساعة المحددة، وبعد مضي عشرين دقيقة على الهاتف، نجحت في توضيح الأمر للضابط المكلف في مركز الشرطة، وهو أن بعض الأشخاص قد دخلوا إلى المبنى ولا يجدر بهم أن يكونوا بداخله.

لم يكن الرجل متأثراً، إنما بعدما تحقق من هوية المبنى وعلم أن السفارة الإيرانية تحتل الطوابق الثلاثة العليا، قرر إرسال أحدهم للتحقق مما يجري. وكان فريق الياريد المكون من ستة أعضاء، أربعة رجال وامرأتين، لا يتوقع أية عراقيل. كانوا قد حجزوا في فندقين مختلفين على الجزيرة لتجنب لفت الانتباه إليهم، زوج في كل فندق، بصفة سياح، وأستأجر الرجلان شقة في مبنى ملاصق لشقة ستقام بها محطة تنصت وكانوا قد ركزوا كل الأجهزة، متحضرين لالتقاط المعلومات من اللاقط الذي سيثبت حيث يفترض. كان على أحدهما أن يدخل المبنى ويضع المجسّات على خطوط الهاتف بينما يفترض من الثنائي الآخر أن ينتظر في الخارج ويراقب في حال حدوث أية مشاكل يمكنهم إعلام المثبتين في الداخل. ولكنهم كانوا غاية في التساهل. في النهاية هم أعضاء في الموساد العظيمة، فهل يمكن أن يحصل خطأ؟ إنما كل شيء ممكن.

لم يكن الثنائي في الخارج مرتاحاً في الشارع حيث لا مكان يتدارى فيه. لذا قرر دخول المبنى وإسداء العون لأصدقائه. هكذا يتمكنون من انهاء العمل بشكل أسرع والمضي في الجزء المرح من العملية والتمتع بوقت جيد على حساب الموساد. في الواقع لم يكن هناك الكثير ليقوموا به، خاصة وأن واحداً فقط من المثبتين كان يعتبر خبيراً، فكان يقوم بالعمل لوحده، واصطف الآخرون حوله وقوفاً يزيدون من عصبيته. كان يفصل بين الخطوط بواسطة ملاقط زرقاء أحضروها معهم، ويحاول تحديد خطوط السفارة الإيرانية عندما حضر الشرطي. كان الأربعة يربضون حول صندوق أسلاك الهاتف مع أدوات اللقط في أيديهم يناولونها للخبير عندما يجد الأسلاك المطلوبة. كانت دهشة رجل الشرطة لا تقل عن دهشة الفريق. وسألهم باليونانية أولاً: ـ ماذا تفعلون هنا؟

وعندما لم يلق جواباً عاود السؤال باللغة الانكليزية. رمى الأربعة ما كانوا يحملون بأيديهم والتفتوا نحو الشرطي، تبادلوا النظرات في ما بينهم جاهلين تماماً كيف يتصرفون.

«ران سوف» قائد الفريق كان أول من تكلم، وهو في الثالثة والثلاثين من العمر، من قدامى الياريد، وكان من المفترض أن يبقى في الخارج مع «أميت ليتفن» التي كانت تلبس ثياباً مثيرة للفت الأنظار إليها في حال احتاج الأمر لإعاقة أحدهم. (وهي حيلة ربما كانت قد نجحت لو قاموا بعملهم على الوجه الصحيح).

بينما يقوم «دايڤيد دابي» و«آنا دلجن» بتثبيت التوصيلات.

وقال ران:

ـ نحن نفتش عن الحمامات، أنت تعرف المراحيض، لا تستطيع الفتيات تمالك نفسها كما تعلم، وهز الآخرون رؤوسهم مثل مجموعة من الأطفال أمسك بهم وأيديهم داخل غلبة الكعك، يحاولون بيع قصة واهية لا يصدقونها أنفسهم، ولم يكن رجل الشرطة ليشتري. وساقهم جميعاً إلى مركز الشرطة في قلب نيقوسيا.

الأربعاء ٢٤ نيسان

مثل الأربعة أمام القاضي الذي غرمهم بالسجن لمدة ثمانية أيام بتهمة

التجسس واستراق السمع على الأسلاك الهاتفية.

لم يمض وقت طويل حتى ضربت الفضيحة وسائل الأخبار وانطلقت كل الخبايا الجهنمية. وسحبت الموساد كل خيط لها على الجزيرة الصغيرة لانهاء القصة سريعاً.

الثلاثاء ٩ أيار

تبع ذلك عدة أيام حافلة بالمساومات وإبعاد المراسلين الفضوليين. في النهاية أطلقت السلطات القبرصية سراح الأربعة، بعد أن وجدوا مذنبين في دعوى قضائية بتهمة الدخول غير الشرعي الى ممتلكات خاصة لارتكاب جناية. فدفعوا مقابل ذلك كفالة بلغت حوالي ثمانمائة دولار أميركي وسلّموا لأيدي الممثلين الإسرائيليين. ومع انقضاء اليوم عاد الأربعة إلى إسرائيل، وهم يخفون وجوههم ويرفضون التكلم مع المراسلين. بعد هذا الحدث بأسبوع تقريباً اتصل بي مراسل من صحيفة يومية إسرائيلية تدعى يديعوت أحرونوت وسألني إذا كنت أريد التعليق على ما حصل في قبرص. وقد اتصل بي لأنني عضو الموساد السابق الوحيد المعروف، الذي يقبل بالتحدث مع وسائل الاعلام. وهذا لا شك فيه، فأنا في الواقع ضابط سابق في الموساد، على خلاف العديد ممن ادَّعوا في الماضي أنهم من الموساد للفت الانتباه وليس لديهم أية فكرة عن ماهية الموساد. أعطيت المراسل القصة التي يرغب بها وأخبرته ما جرى خطوة خطوة زمنياً، وأوضحت له أنه مجرد تخمين مدروس من قبلي، فكتب مقالة من ثمانماية كلمة أوقفتها الرقابة العسكرية. أرادت الصحيفة رفع القضية إلى المحكمة ولكن بعض الأصدقاء في الجهاز الأمني نصحوها ألا تفعل ذلك. ووافقت الصحيفة فهي لا تريد المخاطرة بفقدان حصتها من المعلومات الداخلية التي تحافظ على قدرة الصحيفة في اطلاع قرائها على هذه المعلومات. بهذا التدخل التافه أصبنا درع الموساد منسببين موجة صغيرة من الانتقاد للمنظمة على الصعيد العملياتي. وكان هذا العمل أشبه بساقية بدأت بترطيب الأرض حول الموساد، ولكنها كانت لا تزال بعيدة عن ذاك النهر الهائج الضروري لجرف الموساد من أقدامها. لكن يبقى أن كل ضربة هي عامل مساعد مهما كانت صغيرة.

الفصل الثلاثون

عندما قررت الموساد قتل جورج بوش بعد تجميد المساعدات لإسرائيل

الأربعاء، ٣٠ تشرين الأول، ١٩٩١ ـ مدريد

كانت طائرة القوات الجوية (Air force one) على وشك ملامسة أرض المطار، تتبعها طائرتها التوأم، وكانت طائرتا الجامبو القاذفة (المتشابهتان بكل شيء إلا برقم الإتصال المدون على جسم الطائرة، واحدة تحمل الرئيس والثانية تقل الحاشية المرافقة له وهي تستعمل كبديل في حالات الطوارىء) في طريقها لإيصال رئيس جمهورية الولايات المتحدة ورهط كبير من رجال الإعلام إلى محادثات السلام في مدريد التي تبدأ بين اسرائيل وكل جيرانها العرب من ضمنهم سوريا والفلسطينيين الذين كانوا جزءاً من الوفد الأردني.

في الأشهر التي سبقت هذه المناسبة المسرحية، أمن الرئيس الأميركي حقيقة أن بمقدوره إجراء تغيير في مواقف الرؤوس المتصلبة التي سادت المنطقة على امتداد عقود، في محاولة لجلب حكومة الجناح اليميني واسحق شامير إلى طاولة المفاوضات إلى ما كان يرى كمؤتمر سلام دولي، طبق الرئيس نوع الضغط الذي نادراً ما لجأ إليه رئيس أميركي يتحلى بالشجاعة الكافية التطبيقية، ضد تمنيات طائفة يهودية غاضبة، «جورج هربرت بوش» جمّد كل ضمانات القروض إلى إسرائيل، والتي بلغ مجموعها عشرة بلايين دولار لخمس سنوات مقبلة.

هذا التجميد لم يكن يهدف لمعاقبة اسرائيل لبنائها مستوطنات في أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلة (وكانت الولايات المتحدة تعتبرها غير شرعية) إنما لإرغام حكومة ليكود المجذوبة للمال والجشعة إلى طاولة المفاوضات.

عند أخذه هذا القرار، وضع الرئيس في الحال على اللائحة السوداء لكل

منظمة يهودية في الولايات المتحدة واعتبر أكبر عدو لدولة إسرائيل. أما في إسرائيل فإن الصورة الكبيرة التي تظهر الرئيس معتمراً خوذة فرعون وتضمنت الكتابة التالية: «قهرنا الفراعنة وسنقهر بوش» وزعت عبر البلاد. ووصف «شامير» عمل الرئيس «آمبوش» أي كمين. وقام الرسل الإسرائيليون في كل الولايات المتحدة فوراً بتحرك سريع على أعلى المستويات مطلقين هجوماً ضد الرئيس. كما غذوا وسائل الإعلام بموجة لا تنتهي من الإنتقادات، وفي الوقت ذاته تزامن هذا التحرك الهجومي مع توضيح لنائب الرئيس «دان كوايل» أنه ما زال حبيبهم الغالي وأن ما يقوم به الرئيس لا يؤثر بشيء على رأيهم به. لم تكن قصة الغرام مع نائب الرئيس بالأمر الجديد، فهذا أسلوب ثابت منذ تأسيس دولة إسرائيل في أي وقت يكون فيه الرئيس على علاقة جيدة مع إسرائيل، تعطى التعليمات لكل المنظمات اليهودية لإقامة علاقة حميمة مع نائب الرئيس. كان الوضع هكذا مع «دوايت إيزنهاور» الذي اعتبرته اسرائيل أسوأ رئيس في التاريخ. وبوضع لا يخلو من السخرية عندما اعتبروا نائب الرئيس أعز صديق وكان آنذاك «ريتشارد نيكسون» الذي أصبح عدواً عندما تبوأ سدة الرئاسة).

كان هذا يفسر الدعم الكبير الذي قدمته إسرائيل والطائفة اليهودية لـ«ليندون جونسون» الذي ضاعف المساعدات لإسرائيل في سنته الرئاسية الأولى، بعد أن خفض جون كينيدي كثيراً من برنامج إسرائيل النووي، معتقداً بأنها كانت خطوة أولى خطيرة في تكاثر السلاح النووي في المنطقة. وكانت هذه الإستراتيجية وراء كرههم لنيكسون وإعجابهم بجيرالد فورد. ثم جاء جيمي كارتر الذي اعتبرت إدارته بكاملها كغلطة كبيرة فيما يخص إسرائيل، غلطة كلفت إسرائيل كامل سيناء مقابل سلام فاتر مع مصر.

والآن جاءت عملية السلام هذه التي سعى بها أحد النوادي الخاصة السخيفة. وكانت صرخة الجناح اليميني الصامتة لتحاول وقف سير العملية، التي كانوا يعتقدون أنها ستقود لإتفاق يرغم اسرائيل على إعادة قسم أكبر من الأراضي. رفضاً منهم لقيام مثل هذا الإتفاق، استهل المستوطنون في الأراضي المحتلة موجة جديدة من البناء، مع مساعدة مستترة من قبل «اريل شارون» وزير الإسكان. كان القسم اليميني في الموساد يرى في هذا الوضع أزمة حياة أو موت

وقرر أخذ الأمور على عاتقه وبيديه، لحل المشكلة مرة واحدة ونهائياً. وكانوا يعتقدون أن شامير «كان أعطى أوامره بإنجاز ما يريدون تنفيذه لو لم يحشره السياسيون». ومثل غيرهم من قبل في إدارات عديدة كانوا سينفذون ما تريده القيادة حقاً ولكنها لا تستطيع المطالبة به، في الوقت ذاته تكون القيادة بعيداً عن الساحة. سيصبحون النسخة الإسرائيلية من الكولونيل «أوليفر نورث» إنما على مستوى أكثر إهلاكاً.

كان من الجلي بالنسبة لهذه العصبة أنه يجب عليهم تنفيذ ذلك. مما لا شك فيه، أن «بوش» سيكون بعيداً عن عناصره في الثلاثين من تشرين الأول عندما يصل إلى مدريد لإفتتاح محادثات السلام. وهذا سيكون حدث العام الأكثر حماية، مع العديد من الأعداء المهمين مجتمعين كلهم في مكان واحد. وفي أعلى اللائحة كان هناك جميع الذين يعارضون المحادثات:

الفلسطينيون المتطرفون والإيرانيون والليبيون، هذا من دون ذكر العراقيين المتهالكين ونداءاتهم التي لا تنتهي بالإنتقام لحرب الخليج.

كانت الحكومة الإسبانية قد عبأت أكثر من عشرة آلاف شرطي وحارس مدني، وإلى جانب الإستخبارات الأميركية كان هناك الـ «ك. جي. بي» السوفياتية وكل أجهزة المخابرات التابعة للدول المشتركة. في ذلك الوقت سيكون «مدريد رويال بالاس» المكان الأكثر أمناً على سطح الكوكب، إلا في حال العثور على الخطط الأمنية وإيجاد خلل فيها، هذا ما كانت الموساد تخطط له بالضبط. وبدا منذ البداية أن عملية الإغتيال ستلحق بالفلسطينيين، وربما هكذا تنتهي نهائياً كل مقاومتهم المزعجة ويصبحوا الشعب الذي يكرهه كل الأميركيين أكثر من أي شيء.

قامت وحدة من الكيدون بإحضار ثلاثة فلسطينيين متطرفين من مخبأهم في بيروت وتم ترحيلهم إفرادياً إلى مركز إعتقال خاص في صحراء النجف. وكان الثلاثة هم «بيضون سلامة» ومحمد حسين وحسين شاهين. في الوقت ذاته، كان هناك تهديدات مختلفة، بعضها حقيقي والآخر وهمي، قد أطلقت ضد الرئيس، أضافت إليها قصة الموساد حصتها، بهدف جعل التهديد يبدو عن مجموعة تابعة لأبو نضال لا غير. وعلموا أن هذا الإسم يحمل معه ضمانة لفت الإنتباه

والإحتفاظ به، فإذا حصل شيء ما، سترد وسائل الإعلام بسرعة وتقولَ «كنا نعلم بشأنه، ولا تنسوا أين شاهدتموه في المرة الأولى».

قبل عدة أيام من الحدث، سُرِّبَ للشرطة الإسبانية أن الإرهابيِيْن الثلاثة هم في طريقهم إلي مدريد، وإحتمال أنهم يخططون لعمل غير عادي، وبما أن الموساد تحتفظ بكل التدابير الأمنية بيدها، فما من مشكلة لهذه العصبة الخاصة أن تحضر «القتلة» أقرب ما يريدون من الرئيس وتحضر عملية القتل.

وفي المعمعة التي تلي سيقتل جماعة الموساد «مرتكبي الجريمة» محرزين إنتصاراً آخر للموساد.

سيعبرون عن أسفهم الشديد لعدم تمكنهم من إنقاذ الرئيس، بيد أن حمايته ليست من واجبهم ليقوموا بها. ومع كل قوى الأمن المشاركة وموت القتلة، سيكون من الصعب إكتشاف أين كانت ثغرة الأمن، باستثناء أن عدداً من البلاد المشاركة في المؤتمر مثل سوريا، تعتبر بلاداً ساعدت الإرهابيين. إنطلاقاً من هذه الفكرة، سيكون سبب الخلل معروفاً سلفاً. أما فيما يخص عصبة الموساد، فكان الوضع ربحاً أكيداً في شتى الأحوال، والتقلبات.

اتصل بي إفرايم يوم الثلاثاء في الأول من تشرين الأول، وتبينت من نبرة صوته أنه في غاية القلق وبادرني:

ـ إنهم قرروا قتل بوش.

في البداية لم أفهم عن ماذا يتكلم. ظننت أنه يقصد أنهم سيشهرون بالرئيس، فقد سمعت لتوي عن عدة كتب تتكلم عن الرجل وعن حملة تشهير تتعلق بتورطه المزعوم في عملية إيران ـ كونترا (التي أعلم شخصياً أنها دجل).

ـ ما الجديد حول الموضوع؟ فهم يريدون النيل منه منذ زمن طويل.

ـ أقصد قتله حقاً، قتل.

ـ عن ماذا تتكلم؟ لا يمكن أن تكون جاداً، فلن يتجرأوا أبداً على أمر كهذا.

ـ لا تتحامق علي الآن، سينفذون العملية خلال محادثات السلام في مدريد.

ـ لماذا لا تتصل بالـ CIA وتخبرهم؟ أقصد هذه ليست فقط عملية صغيرة لا تريد أن تتورط فيها.

ـ سأتصل بكل من أعرفه في أجهزة المخابرات الأوروبية. فأنا ليس لدي أصدقاء في الجهاز الأميركي، ليس هناك أشخاص أستطيع الوثوق بهم، على أية حال.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ سنقوم بكل ما نستطيع القيام به، إنما لا شيء مما سنفعله سيعلن عنه. أريدك أن تعلن عن الأمر. إذا علموا أن الأمريكيين يعرفون عن الموضوع فهناك فرصة جيدة ليتخلوا عنه.

كنت أعرف أن ما يقوله صحيحاً، إذا تمكنت من لفت الإنتباه إليه وجعله علنياً، سيجدي أكثر من كل وكالات الإستخبارات مجتمعة لإيقافهم. إنما الحيلة في أن نجعله علنياً من دون أن نظهر كمجانين مع نظرية تآمر أخرى.

كان يتوجب علي التلميح في عرض صغير نسبياً وأرجو أن ينجح. أما إذا لم ينجح، فسأتصل ببعض المراسلين ممن أعرفهم وأعطيهم الحقائق مجردة والذي حصل، إنني دعيت للتكلم على غذاء عمل أقيم في مبنى البرلمان في أوتاوا، قامت به مجموعة تدعى «مجموعة نقاش الشرق الأوسط» وهي عبارة عن أصحاب فكرة مهلهلة يدعمهم المجلس الوطني للعلاقات الكندية العربية ويرأسه MP ليبرالي سابق يدعى «إيان واتسون» وتهدف هذه المجموعة إلى إطلاع أعضاء البرلمان والمجموعة الديبلوماسية على قضايا لا تصل بحرية إلى وسائل الإعلام وتشجع على تقدم الحوار في الشرق الأوسط.

وحضر الغذاء حوالى العشرين عضواً من أصحاب هذا الفكر وبعض الـ MP.

قمت بمداخلة صغيرة شرحت فيها أهداف الموساد والخطر الذي تمثله تجاه أية مبادرة سلام في المنطقة. وقلت أيضاً، إنه بحسب رأيي في الأمور الراهنة، إن الفرصة الوحيدة أمام الشرق الأوسط للوصول إلى سلم هي قطع المساعدات المالية التي تقدمها الولايات المتحدة لإسرائيل. وبالغت بالقول إن جزءاً كبيراً من المعونات يشق طريقه إلى الضفة الغربية والمستوطنين الذين

يشكلون العائق الأكبر أمام مبادرة السلام. ثم فتحت المجال للأسئلة.

وسئلت عن ما يمكن أن تقوم به الموساد لوقف عملية السلام القائمة. وأجبت أنه حسب المصادر التي أملكها ووفق معرفتي للموساد، لن أتفاجأ البتة إذا كان هناك مؤامرة في هذا الوقت بالذات لقتل رئيس جمهورية الولايات المتحدة ودفع اللوم على بعض المجموعات الفلسطينية المتطرفة.

وعلمت فيما بعد أن أحد الحضور قد اتصل بعضو أسبق في الكونغرس الأميركي، من كاليفورنيا، «بيت ماكلوسكي» ونقل إليه فحوى حديثي ولما كان «ماكلوسكي» صديقاً قديماً ومقرباً من الرئيس، شعر المتصل أن عليه القيام بشيء.

في الخامس عشر من تشرين الأول، اتصل بي ماكلوسكي وقدّم لي نفسه. وقال إنه سمع من أحد أصدقائه ما قلته عن الرئيس، وأراد أن يعلم إذا كان برأيي هناك تهديد حقيقي أو أنها تشبيه أو بيان لإتخاذ موقف؟

فأوضحت له أنه ما من بيان وأنني جاد تماماً فيما يتعلق بتهديد الرئيس. وأضفت أنه وفق اعتقادي أن فضح هذا التهديد سيكفي للإطاحة به لأن عملية تنفيذه حينذاك تصبح خطرة للغاية.

وقال إنه سيأتي إلى «أوتاوا» بعد عدة أيام وطلب مني مقابلته. ولم أجد سبباً للرفض واتفقنا على موعد في ١٩ تشرين الأول وكان نهاية الأسبوع.
التقيت «بيت» في فندق «وستن» ثم توجهنا نحو مقهى صغير حيث جلسنا لعدة ساعات.

طرح علي أسئلة من جميع الزوايا المحتملة، محاولاً فهم ما كنت أقوله، كنت أرى كيف يتطلع لمعلومات يمكن أن يقدمها لما يمكن أن تجعل التهديد واقعياً وحقيقياً. لم يكن هناك مجال لأخبره أنني حصلت على المعلومات مباشرة من فم الحصان، ولكنني لمحت له أنني لست على انقطاع تام مع الموساد. وكان هذا بحد ذاته مخاطرة، كانت هذه المرة الأولى التي أسمح بالكشف عن هذا. ولكنني شعرت بنفسي مكرهاً، بسبب خطورة الوضع. في اليوم التالي، أي في يوم الأحد الواقع في العشرين من تشرين الأول، كان

«ماكلوسكي» في واشنطن للمشاركة في اجتماعات لجنة الخدمات الوطنية المشتركة ونزل في فندق «فنيكس بارك» ومن هناك اتصل بالإستخبارات السرية في البيت الأبيض، طالباً العميل الخاص «ألان دلون» في مكتب الجهاز السري ١٠٥٠ جادة كرونكتكات، N.W واشنطن D.C. وأرسل «بيت» «لدلون» نسخة عن التقرير الذي كتبه بعد اجتماعنا في «أوتاوا». والتقى في اليوم نفسه مساعداً أسبق في البيت الأبيض من منطقة فورد يدعى «دون بيني» نبهه مني، ولم أدهش عندما أخبرني «ماكلوسكي» لاحقاً ما قاله «بيني»:

إنه سمع عني من السيناتور «سام نان» ومصادر أخرى في الـ CIA تقول إنني خائن لإسرائيل وإنني غير موثوق بي كلياً. وإنه في حال ارتبط ماكلوسكي معي فهو سيجعل من نفسه هدفاً. فيما بعد تكلم «بيت» مع «نان». ولكن السناتور لم يتذكر كونه تكلم عني إطلاقاً. في تلك الأثناء، قام صاحب زاوية صحفية معروف في واشنطن، «رولاند إيفانز» بإطلاع «بيت» أنه سأل مصادره في الـ CIA عني قبل عدة أشهر وأخبروه ما أنا عليه «حقيقة». وبعد أن أجرى «ماكلوسكي» مقابلة، في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول، مع العميل «تيري كالاغر» من «قسم الدولة للحماية الديبلوماسية» عقد بعدها إجتماعاً مع «ديلون» من المخابرات السرية. في الرابع والعشرين من تشرين الأول طلبت الإستخبارات السرية التحدث معي.

وتقدموا بطلب رسمي عن طريق السفارة الأميركية في «أوتاوا» عبر CSIS وهو (المخابرات السرية الكندية) وقابلت عضو المخابرات السرية في حضور عضو من CSIS عن ما خمنته آيلا للحدوث. وحذفت فقط أنني تلقيت المعلومات من عضو فاعل من الموساد. كما أوضحت له أنه لدي صلات استخدمها في الغالب لأعرف إذا كان هناك خطر شخصي.

سرّبت المعلومات إلى وسائل الإعلام، وفي زاوية قدم «جاك أندرسون» القصة كاملة. وحذت حذوه «جاين هانتر» في رسالتها الإخبارية التي تعتبر ضرورية لأي متخصص من واشنطن في مجال الشرق الأوسط.

ووثقت حينذاك أنه من الآن لم يعد الرئيس في خطر أكيد، ومع ذلك كلما قصرت إقامته في مدريد، كان أفضل. إلا أن قرار تصفيته لم يلغ، بل ربما

أجل فقط. وقد أشرت لعميل المخابرات السرية أن الرئيس يكون غير محمي تماماً على متن «آير فورس وان» التي تكون عرضة لهجوم صاروخ أرض جو أو حقيبة متفجرة يحملها مراسل غير مشتبه به، ولا يدرك أن جزءاً من جهازه للتسجيل أو للتصوير قد بدل بآخر مميت.

ومن إفرايم، سمعت لاحقاً أنه بعد أن هبط الرئيس في «مدريد» تلقت السفارة الأميركية هناك تهديداً عن قنبلة عبر الهاتف، وأن قسماً من السفارة قد أخلي بينما كان الرئيس في المبنى. غير أن بقية المخطط قد ألغي وأعلمت الشرطة الإسبانية بأسماء وأوصاف القتلة الثلاثة المفترضين، الذين لم يسمح لهم أبداً بمغادرة المعتقل في صحراء النقب، لاحقاً تم نقلهم إلى مركز بحوث «نس زيونا» حيث تمت تصفيتهم. في الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول، عاد الرئيس إلى واشنطن وكان على وشك زيارة مسكنه في «كينبونك بورت ماين» الذي كان قد تضرر إثر عاصفة ضربت الشاطىء بكامله. ووضعت المخابرات السرية مذكرة في الأول من تشرين الثاني وزّعت إلى ركاب «آير فورس وان» تقول: «هناك جهاز فعال جداً مهيىء لضرب الإرهاب ومنعه من تخريب القاذفة. أما إذا كان هناك أي وهن في هذا الجهاز، فيكون من جانب الأشخاص المعنيين الذين صعدوا إلى متن الطائرة من موكب السيارات مباشرة قبل الإقلاع. . .»

الفصل الواحد والثلاثون

الإجتياح الأميركي لـ«بنما» خفف مدخول الموساد من تجارة المخدرات

الأربعاء في ٣٠ تشرين الأول، ١٩٩١

لم يكن صلة وصل «روبرت ماكسويل» في أحسن حالاته عندما تلقى إتصالاً على خط أمني خاص في السفارة الإسرائيلية في مدريد.

كان «ماكسويل» يتصل من لندن، ويطلب ترتيب لقاء ضروري. . كما عبر عن إرادته بالقدوم إلى مدريد.

تعود الصلات بين «ماكسويل» والموساد إلى زمن بعيد.

إذ قدم عناصر من داخل الموساد تمويلاً لماكسويل في أول عمل كبير له، وكان ماكسويل في السنوات الأخيرة يتلقى معلومات داخلية عن أمور عامة من المكتب.

وقد أطلق عليه اسم الشفرة «التشيكي الصغير» واستمر اللقب، فقط عدد قليل من أعضاء المخابرات الإسرائيلية كان يعرف من يكون «التشيكي الصغير» وأمن «ماكسويل» دعماً مالياً متواصلاً للمنظمة كلما كان هناك حاجة لذلك.

ولسنوات عديدة قدّم ماكسويل المال كلما كانت الموساد تخوض عمليات باهظة التكاليف، لا يمكن أن تمول شرعياً أو عندما تغيب مصادر أخرى أقل شرعية كما كان الحال بعد الإجتياح الأميركي في عام ١٩٩٠، الذي خفف مدخول الموساد من تجارة المخدرات وأجبر «ماكسويل» أن يحفر عميقاً في جيوب اتحاده.

إنما الموساد كانت قد استغلت الآص أكثر مما يجب وجاء توريط ماكسويل في أمور ذات أهمية ثانوية (مثل قضية «فانونو») خطأ كبيراً، دفع ثمنه

قطب الإعلام هذا إذ أن توريطه ولَّدَ شكاً في البرلمان البريطاني إذ أن لا دخان من دون نار، خاصة بعد أن نشر أحد المراسلين الأميركيين كتاباً يدعي فيه أن ماكسويل هو عميل في الموساد. ورد ماكسويل بدعوى قضائية، إلا أن الأرض قد بدأت تحترق تحت قدميه، وكانت الموساد تتأخر في إعادة ماله إليه، وبدت عمليات الإنقاذ التي تأتي في الدقيقة الأخيرة لتدعم امبراطوريته المالية أقل فأقل ملاءمة.

بالنسبة لماكسويل كان ما يراه سيئاً الآن، على وشك أن يصبح أسوأ. ولم يكن اتصاله ذا توقيت مناسب. فإسرائيل تشارك في عملية مفاوضات سلام، تعتبرها الهيئة العليا في الموساد، كارثة على صعيد أمن البلاد، في الوقت ذاته، كانت المعلومات تصل إلى المكتب عن فضيحة تتسع سببها تورط الموساد في ألمانيا.

كانت هذه الفضيحة نتيجة إتصال أجراه «يوري» مع شرطة «هامبورغ ريفر» وأخبرها أن حمولة أسلحة على وشك أن تشحن على باخرة إسرائيلية. كانت الأسلحة عبارة عن دبابات سوفياتية وأجهزة مضادة للطائرات، مخفية ضمن مستوعبات تحمل إشارة الأجهزة الزراعية. وقد تم تدبير الشحنة بمساعدة الـ BND (المخابرات الإلمانية) من دون علم الحكومة الألمانية أو وزارة الدفاع، وكانت هذه التجهيزات هي ذاتها التي رفضت وزارة الدفاع إرسالها إلى إسرائيل في آذار من العام نفسه، لأنهم يرون أن الشحنة تتحدى القانون الالماني الذي يحظر شحن معدات حربية لمنطقة صراع.

ولم يكن اليمينيون في الموساد متأكدين تماماً من مدى الإتساع الذي ستبلغه هذه الفضيحة، وهم يتذكرون جيداً الفضيحة التي حصلت عام ١٩٧٨ عندما سمحت الشرطة الألمانية لضباط من الموساد انتحلوا صفة ضباط المخابرات الالمانية ليستجوبوا الفلسطينيين في السجون الالمانية.

إذا استطاعت الحكومة الالمانية من احتواء الوضع فالأمور ستكون على ما يرام. إنما إذا وصلت القصة إلى أيدي وسائل الإعلام، فلا أحد يعلم إلى أين ممكن أن تصل.

وهنا جاءت مكالمة «ماكسويل» تلح على ضرورة لقائه بصلة الوصل خاصة لأمر طارىء.

في البدء، تم صد القطب الكبير، عندها قام بتهديد مبطن، الآن بعد أن أصبح البرلمان والإعلام البريطانيين يتحرون عنه، إذا لم يتمكن من تدعيم أعماله المالية فهو غير متأكد أن بإمكانه كتمان سر لقاء «كريوشكوف».

ما كان يشير إليه (وبإشارته هذه ضمن نهايته)، هو لقاء ساعد في تدبيره بين صلة الموساد والرئيس الأسبق للـ كاجي بي: «فلاديمير كريوشكوف» المعتقل الآن في مركز «رماند رقم ٤» في موسكو، لمشاركته في إنقلاب آب الذي جرى في الإتحاد السوفياتي لقلب «ميخائيل غورباتشيف» في هذا الإجتماع الذي جرى على يخت «ماكسويل» في المياه اليوغوسلافية نوقش دعم الموساد لعملية قلب غورباتشيف، وقد وعدت الموساد بإعلان إعتراف مبكر للنظام الجديد عن طريق علاقاتها ومعارفها السياسية، بالإضافة إلى تقديم مساعدات لوجستية من أجل الإنقلاب.

في المقابل طلب تحرير كل السوفياتّ اليهود أو بالأحرى طردهم خارج البلاد، مما يخلق حركة هجرة سكانية ضخمة جداً يتعذر استيعابها من قبل البلاد الأخرى وبالتالي يعود المطرودون إلى إسرائيل.

وكان بعض اليمينيين في الحكومة قد رأوا باللقاء مع منظمي الإنقلاب ضرورة، ففي حال لم يعد الإتحاد السوفياتي عدواً، يتوقف كل تهديد من الشرق، والقيمة الإستراتيجية التي توليها إسرائيل لحليفها الأعظم، الولايات المتحدة، تضمحل، وتصبح التحالفات بين الولايات المتحدة والدول العربية في المنطقة إحتمالاً واقعياً.

كان ماكسويل هو الذي ساعد على إقامة العلاقات مع عميل الكاجي بي الموقوف حالياً، وأدرك اليمينيون أنها ستكون ضربة مدمرة لنظرة الغرب لإسرائيل إذا علم العالم أن الموساد قد شاركت، مهما كانت المشاركة سطحية، في محاولة الإنقلاب لوضع حد للديمقراطية في الإتحاد السوفياتي.

كانت هذه خيانة عظمى للغرب. واستعمل ماكسويل مشاركة الموساد كتهديد مبطن لفرض إطلاق سريع لمساعدة أمبراطوريته المتداعية. وطلب منه صلة الوصل معاودة الإتصال بعد عدة ساعات.

وأسفر الإجتماع الذي عقده اليمينيون في مركز الموساد الرئيسي عن إجماع بتصفية ماكسويل.

في البدء، اعتقد المشتركون أن وضع الخطة سيستغرق عدة أسابيع، لكن بعضهم أشار إلى تسريع العملية من خلال مطالبة «التشيكي الصغير» بالقيام برحلة نحو مكان الموعد حيث تكون الموساد بانتظاره.

وطلب من ماكسويل الحضور إلى إسبانيا في اليوم التالي، ووعده صلة الوصل أنه سيتم تسوية الأمور وأن لا داعي للذعر. كما طلب منه أن يبحر على متن يخته إلى «ماديرا» وينتظر هناك رسالة...

في الواحد والثلاثين من تشرين الأول عام ١٩٩١، وصل يخت «اللايدي جيزلاين» إلى الشاطىء، وتهيأ للإبحار إلى ماديرا كما اتفق وهناك ينتظر التعليمات، في هذه الأثناء تجهز الموساد نفسها لتسدد ضربتها. في يوم الجمعة الواقع في الأول من شهر تشرين الثاني، كان فريق الرماية الخاص من الموساد الموجود في إسبانيا لتغطية محادثات السلام، قد رحل، وطار إلى المغرب حيث استقبلهم زميل لهم اهتم لتوه بكل التجهيزات الضرورية والترتيبات الأخرى.

أعلم ماكسويل أولاً، أن الإجتماع سيتم في «ماديرا» وأنه سيتلقى مالاً قدر حاجته لتهدئة الوضع، وسيسلف مالاً إضافياً فيما بعد، إنما يجب أن يتم كتمان كل هذا حتى لا يحصل أعداؤه على مواضيع سائغة، خاصة وأنه ليس هناك ما يفرحهم أكثر من كشف علاقته المباشرة بالموساد.

في الثاني من تشرين الثاني، علمت الموساد أن ماكسويل اتصل بإبنه في إنكلترا وحدد موعداً معه على الجزيرة. فطلب من ماكسويل إلغاء الموعد مع ابنه، وأخبر أن الإجتماع والأشخاص الذين سيسلمونه المال سيكونون على جزيرة «تاناريف».

عندما وصل إلى «سانتاكروز» على جزيرة «تاناريف» توجه إلى لقاء في فندق «منسي» وبينما يتناول عشاءه وحيداً، تقدم أحدهم وأعطاه رسالة تقول إن عليه أن يكون في «لوس كريستوس» على الجانب الآخر من الجزيرة في صباح اليوم التالي. كان عليه أن يذهب إلى هناك على متن يخته، مبحراً حول جزيرة

كناري الكبرى، علمت كل هذا من خلال محادثة تلفونية مع إفرايم، الذي كان يجهل كيف تدبر فريق الكيدون النيل من ماكسويل في البحر بينما ينطلق يخته بسرعة خمس عشرة عقدة. إنما جعل الأمر يبدو مستحيلاً، هو جزء من سحر ومهارة الكيدون. في وقت ما من ليلة ٤ ـ ٥ تشرين الثاني، هبطت عقبة الموساد لترتاح في مياه الأطلسي المالحة.

طرحت عملية التشريح أسئلة أكثر من أن تجيب عنها، وأجريت عملية تشريح ثانية في اسرائيل تحت رقابة الجهاز الأمني.

ومهما كان الشيء الذي لم يستدل عليه، فقد دفن إلى الأبد على جبل الزيتون في القدس، مرقد الابطال الأكثر تقديراً من الوطن.

«صنع لإسرائيل أكثر مما يمكنه قوله وتعداده اليوم،» هكذا جاء تأبين رئيس الوزراء «شامير» في دفن ماكسويل.

الفصل الثاني والثلاثون

ملايين الدولارات لرشوة عائلة لبنانية لتهييء طريق الفرار لـ «رون آراد»

قدم «يوري» لزيارتي بعد وقت قصير من انتهائي لكتابة روايتي الأولى: «أسد يهوذا» وكان قد مضى بعض الوقت منذ أن التقينا آخر مرة وكان اتصالي بالمجموعة نادراً منذ عام ١٩٩١، كان الكتاب الآن في أسواق الولايات المتحدة والمانيا وكندا، ويتهيأ لغزو السوق الهولندية والبلجيكية. وكنت على وشك الإنتهاء من روايتي الثانية عندما طلب مني القيام برحلة لترويج «أسد يهوذا» في هولندا. لم أكن قد عبرت الأطلسي منذ أن نشر كتاب «عن طريق الخداع» في عام ١٩٩٠، وكنت أتحفظ لعبوره. كانت الأمور على ما يرام في هذا الجانب ولم أكن أريد المجازفة بالإنتهاء في زنزانة في سجن إسرائيل، فاتصلت بإفرايم لأسأله نصيحته ورأيه فأرسل «يوري» ليبحث الأمر معي. وبادرني يوري مباشرة.

ـ لم يعد هناك خطر عليك، فحكومة العمل تختلف عن حكومة الليكود اليمينية، وقد تغيرت الأمور منذ ذلك الوقت.

ليس هناك ما يستدعي قلقك، في الواقع نحن ننصحك بالذهاب لتثبت ذلك.

كنت متردداً بهذا الخصوص، إنما فرصة القيام برحلة من جهة وتنشيط حركة الادرينالين في جسدي كان مغرية للغاية.

جمعت جهازاً أمنياً صغيراً مؤلفاً من ثلاثة طلاب جامعيين من أوتاوا، وعلمتهم كيف يلعبون دور رجال الأمن.

كانوا للعرض أكثر منه لشيء آخر، كنت أعلم أنه لا يمكنني الإتكال على أية واحدة من شركات الأمن المحترفة لأنها تستخدم عدداً كبيراً من الإسرائيليين

وفي الواقع العديد منهم يقدمون بانتظام تقارير للسلطات الإسرائيلية.

كذلك إذا ظهر أنه لدي جهاز أمني جيد، فيستخلى العديد من العناصر عن محاولة أي شيء.

في الوقت ذاته، إذا أرادت الموساد القيام بشيء ما، فهي ستنجح حتى لو كنت محاطاً على دوام الساعة بمحترفين حقيقيين.

جرى كل شيء على ما يرام في هولندا، ثم ذهبنا إلى بلجيكا في اليومين الأخيرين من الرحلة، ونظراً لمعرفتي بتاريخ الموساد في بلجيكا والفساد المتفشي في صفوف قوات الشرطة البلجيكية، أدركت أنني أمشي في وكر الحية.

إنما وعد إفرايم كان كل الذي أحتاجه. في اليوم الأخير في بلجيكا، دعيت لأظهر كضيف في برنامج تلفزيوني، في بروكسل، وجرى كل شيء على ما يرام حتى انتهاء البرنامج، وتوجهنا أنا وفريقي الأمني إلى السيارة التي من المفترض أن تنتظرنا لتقلنا إلى فندق «آنتورب» غير أن السيارة لم تكن هناك، ولم يكن السائق موجوداً أيضاً.

وبدا الغموض يكتنف ما حصل له. ثم اقترح علينا أحدهم من المحطة سيارة بديلة، لم يكن الأمر يدعو للاطمئنان ولما لم تكن محطة التلفزيون تبعد كثيراً عن مطار بروكسل الدولي، قررنا التحرك بسرعة. فطلبنا عدة سيارات أجرة، وتوزعنا ضمن مجموعات.

قاد ناشرنا البلجيكي أحد عناصر الفريق وأنا إلى الفندق، واستقل الآخرون سيارتي أجرة. وغادرنا المكان متجهين في ثلاثة إتجاهات مختلفة وأرسلنا سيارة رابعة لم تقل أحداً في إتجاه رابع.

كل ما أردته هو الخروج من تلك المدينة والوصول إلى إفرايم عبر الهاتف. فإذا كان هناك أي شيء، كنت متأكداً أنه يعلم عنه ويعطيني التعليمات.

كان حوالي منتصف الليل عندما أجريت المكالمة، وسمعت صوت إفرايم الذي يغالب النعاس:

ـ هللو

ـ إفرايم؟

ـ نعم من معي؟

ـ هذا أنا

ـ أنا من؟

ـ أنا فكتور، استيقظ يا رجل

ـ أنا مستيقظ، فكتور من؟ وشعرت بتوتر فجائي بصوته

ـ ما هذا؟ أنا لست بمزاج للعب، إفرايم.

ـ هل أنت «فكتور أوستروفكسي» وبدا مدهوشاً تماماً. ماذا تخطط عندك؟ كيف حالك؟ أين أنت؟

ـ أنت تعرف أين أنا

ـ ماذا تقول؟

ـ إفرايم أنا أحذرك، لا تلعب هذه الألغاب معي فأنا لست بمزاج جيد.

ـ لا تتجرأ يوماً على تهديدي، لا تغلط غلطة سبيرو، هل تفهمني بوضوح يا ولد؟ قال وهذا التهديد يملأ صوته.

ـ يا ابن القحباء.

وأغلقت السماعة، كان هذا فوق قدرتي ومع ذلك تناهت إلى ذهني قصة سبيرو «ايان سبيرو» كان «سايان» عمل مع الموساد لسنوات عدة. كان مفيداً جداً، فقد تعامل وعقد صفقات في مناسبات عدة مع أفرقة لبنانية متعددة. وهو مواطن بريطاني يعيش في الوِلايات المتحدة. وقد أكسبه إتصاله بالإيرانيين والشيعة في لبنان الكثير من المال على مر السنين.

وكانت الموساد قد أعطته عدة ملايين من الدولارات ليدفع لعائلة لبنانية تهيىء طريق الفرار للطيار الإسرائيلي المحتجز: «رون آراد». نظراً لتورط سبيرو في عملية الكونترا وِإيران، رفض اللبنانيون التفاوض معه بعدِها. ولكنه احتفظ بالمال. وعندما وصل فريق الكيدون إلى منزله في السابع من تشرين الثاني عام ١٩٩٢ لإستعادة المال، حصل خطأ وقتلت زوجته وأطفاله الثلاثة. اقتيد إلى الصحراء حيث أجبره الفريق على كشف مخبأ المال بعد أن أدعى أنه أعطاه

للبنانيين. ثم أرغم على ابتلاع سماً صادف أن كان بحوزته، وكان السم إحدى المواد التي تفحص نقاوة الذهب الذي كان مولعاً بجمعه.

عند هذا الحد، لم أشك أبداً أن وقتي بدأ يتناقص. وفي الصباح الباكر أخذنا سيارة أجرة إلى هولندا، وعند عبور الحدود الهولندية شعرت بإرتياح كبير، ولكنني لم أكن بعد بعيداً عن الخطر حتى أبلغ الأراضي الكندية. وأجريت إتصالاً واحداً أخيراً من الفندق ليوري، ولكن لسبب ما قطعت المكالمة.

خلال رحلة العودة، أدركت أخيراً ماذا حدث، وكنت سأتخذ الخطوات اللازمة للتحقق منه، ومع ذلك كنت أعلم أنني محق.

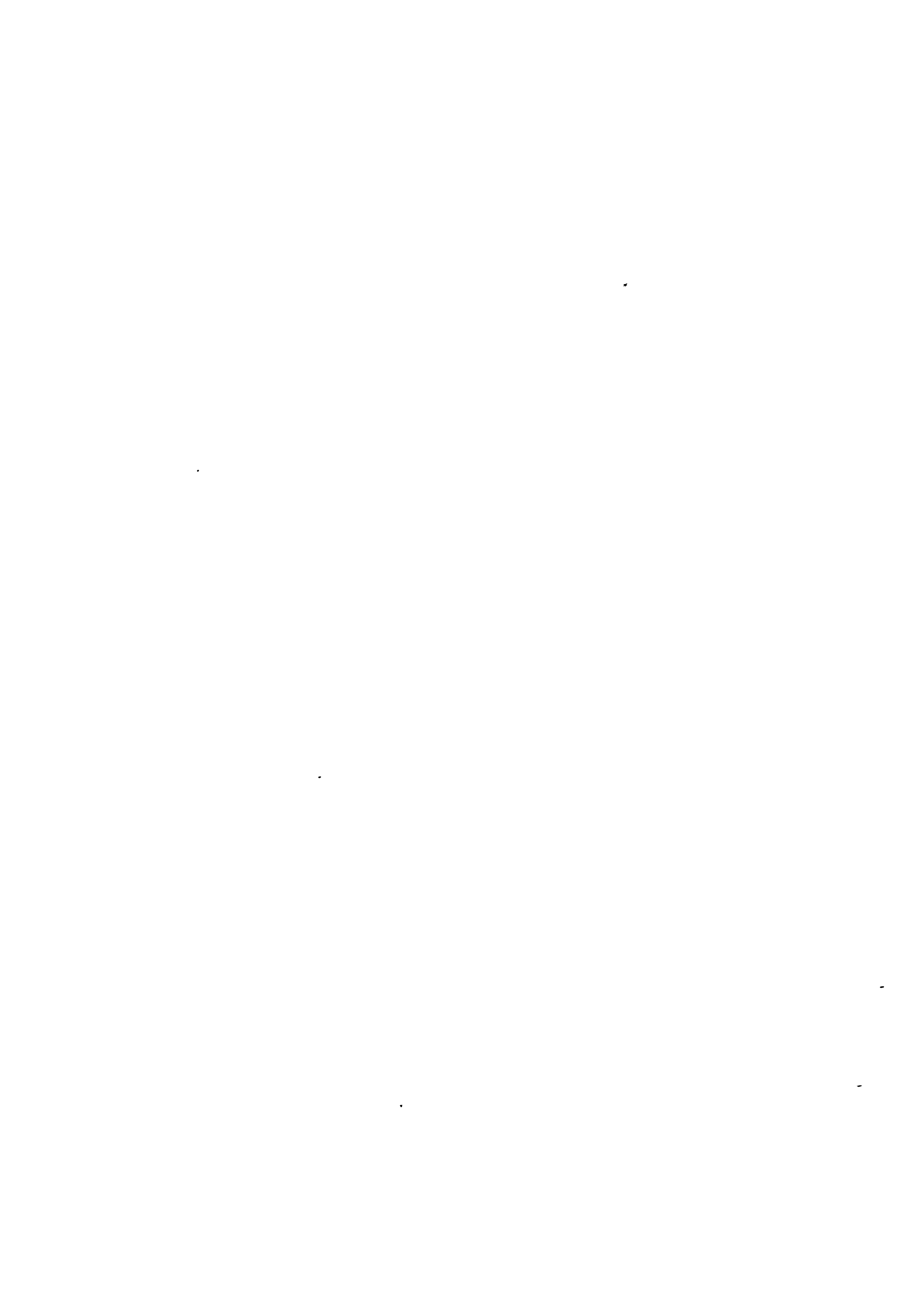
كان هناك صراع حول السلطة في الموساد للوصول إلى الوظيفة العليا، وأصبح الآن آمناً ويمكنني أن أقول أن إفرايم ومجموعته كانوا الضباط ذوي المقام الرفيع الوحيدين في الموساد الذين لم يطردوا، ووفقاً للحالة إفرايم هو أفضل من يتم إختياره لإدارة الأمور، إلا في حال قدوم شخص جديد من الخارج. وفي كل الظروف لم يكن هناك سوى عامل الوقت قبل أن يصل إلي هو وأفراد عصابته لينالوا مني.

كانت الحلقة الضعيفة والقابلة أكثر للضرب، فبدا أن ما يتوجب عليَّ القيام به واضحاً: عليَّ أن أضع جانباً كل الأمور الأخرى واستهل كتابة هذه القصة لأبرهن للجميع.

والآن وقد انتهيت، ولم تعد في يدي.

احكموا أنتم.

المحتويات





The Other Side of Deception

A Rogue Agent Exposes the Mossad's Secret Agenda